

جمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ



علماء المغرب الإسلامي في بلاد الشام

" خلال القرون، 5 ~ 8 هـ "

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

تحت إشراف:
أ.د/ مبخوت بودواية

إعداد الطالب:
عبد الكريم شباب

لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر (أ)	د/ بن داود نصر الدين
مشرفا ومقررا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ مبخوت بودواية
مناقشا	جامعة المسيلة	أستاذ محاضر (أ)	د/ مفتاح خلفات
مناقشا	جامعة الجزائر (2)	أستاذ (ة) محاضر (أ)	د/ نبيلة عبد الشكور
مناقشا	جامعة وهران	أستاذ محاضر (أ)	د/ حمدي أحمد
مناقشا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر (أ)	د/ بوشقيف محمد

السنة الجامعية

1436-1435 هـ / 2014-2015 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى أبي و أمي دوما.....

إلى زوجتي و أولادي.....

إلى إخوتي و أخواتي.....

شكر و عرفان

أتوجه بالشكر الجزيل و الإمتنان العظيم إلى الأستاذ الدكتور،

مبخوت بودواية 'الذي تفضل بقبول الإشراف على هذه الأطروحة

،ورعايته لها بتوجيهاته وإرشاداته منذ مرحلة اختيار هذا البحث إلى

أن أصبح واقعا ملموسا ..

و كل التحية و الشكر و التقدير لكل من ساهم في مساعدتي لإتمام

هذا البحث .

مقدمة

مقدمة

أهمية الموضوع و إشكالياته:

يتعلق موضوع هذا البحث بدراسة قضايا التّواصل العلمي و الحضاري بين المغرب الإسلامي

و المشرق، و تحديدا دور علماء المغرب الإسلامي و إسهاماتهم الفكرية و العلمية في بلاد الشّام من القرن الخامس إلى الثامن الهجري/ الحادي عشر و الرابع عشر الميلادي.

أنّ موضوع التّواصل بين المغرب و المشرق الإسلاميين شكل اهتمام الباحثين و الدّارسين، و ذلك من

منطلق ما يمثله التّواصل من الكشف عن اللّحمة الحضارية الواحدة التي جمعت و لا تزال - العالم

الإسلامي- و تحديد وسائل و عوامل و مظاهر هذا التّواصل بين جهتي هذا العالم.

و من هذا المنظور، من المفيد الإشارة إلى المحاولات التي تناولت هذا الموضوع و هي:

- علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشّام، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، صدر الكتاب

سنة 2008

- أحمد عبد اللّطيف حنفي: المغاربة و الأندلسيون في مصر الإسلامية، من عصر الولاية حتى نهاية

العصر الفاطمي (21. 567هـ / 642 - 1171م) في جزأين، الهيئة العامة للكتاب، مصر،

2005

- محمد بن عزوز: المحدثون المغاربة في دمشق، دار ابن حزم، بيروت، 2010م

و موضوع العلماء المغاربة في بلاد الشّام يدخل ضمن هذا الإطار، وذلك لقلّة الاهتمام ببحثه،

و جمع مادته من ثنايا صفحات كتب التاريخ و الطبقات و الجغرافيا و الرحلات، مع العلم أنّ علماء

العدوة الأندلسية نالوا حظا هاما من اهتمام الباحثين المشاركة و المغاربة، و لربما نفسر هذا بغزارة التراث

مقدمة

العلمي و الأدبي و الفكري عموماً. الذي أنتجه الأندلسيون مما سهّل على الباحثين المهمة، حيث وفرة المادة العلمية و تنوعها، خاصة منها تلك التي رصدت و سجلت الرحلات العلمية الكثيرة للعلماء و طلبة العلم الأندلسيين إلى بلاد المشرق عموماً، و بلاد الشام بشكل خاص. بينما لم يحظ العلماء المغاربة (= العدو المغربية) بذلك الاهتمام الذي ناله نظراؤهم الأندلسيين.

و بباعث من هذه الأهمية التي يكتسيها البحث في هذه الدراسات المغفول عنها ، اخترت هذا الموضوع، مع يقيني أنّ الصعوبات التي تواجه هذا البحث ستكون عديدة. غير أنّ الشيء الذي شجعني على خوض هذه المغامرة العلمية - أنّ جازت العبارة- هو تشجيع أستاذي الدكتور مبخوت بوداوية ، و شحنة المثابرة و العزم التي انتابتنا أثناء اختيارنا للموضوع.

و قد بدا لنا من الضروري أنّ ننطلق من تساؤل أساسي و مركزي، تكون الإجابة الأولى و المحتملة عنه بمثابة مدخل نظري و إشكالي للخوض في مسائل التّواصل العلمي بين المشرق و المغرب بشكل عام و إسهامات العلماء المغاربة العلمية في بلاد الشام بشكل خاص.

و يمكن أنّ نصوغ هذا التّساؤل على التّحو التالي:

- ما مدى مساهمة الحواضر العلمية في المغرب و المشرق في مد جسور التّواصل العلمي و الفكري

بين جناحي العالم الإسلامي؟

- ما تأثيرات الثقافة المشرقية على بلاد المغرب؟ و إذا كان المغرب بالنسبة للمشرق بمثابة التلميذ

للأستاذ أوّل الأمر، فهل ظل الأمر كذلك؟ و ما مظاهر النديّة العلمية المغربية تجاه المشرق؟

- ما أسباب استقطاب بلاد الشام للأطر العلمية المغربية؟ و ما مدى مساهمة العلماء المغاربة في

الحياة العلمية في بلاد الشام طيلة الأربعة قرون (5- 8 هـ).

مقدمة

هذه الأسئلة و أخرى سنجيب عنها من خلال موضوع هذا البحث الذي عنوانته " علماء المغرب الإسلامي في بلاد الشام خلال القرون 5- 8 الهجري/ 11-14 الميلادي"، و هو دراسة في التّواصل العلمي بين المشرق و المغرب.

المنهجية:

قد انتهجت في صياغة هذه الأطروحة المنهج التحليلي الذي يفسر الأحداث و يناقشها وفق رؤية علمية زبئية، دون استبعاد الوصف و التحليل و الاستقراء و توثيق النصوص.

و قد انتظمت هذه الدراسة في مقدّمة و ثلاثة أبواب، تضمّن كل باب فصلين اثنين.

الباب الأوّل بعنوان " الحواضر العلمية في المغرب و المشرق"، أوردت في فصله الأوّل الحواضر العلمية

المغربية، خاصة تلك ذات الإشعاع العلمي و الحضاري البارز كتيهت، بجاية، تلمسان، القيروان، فاس، مراكش، مستعرضا نشأتها و دور العلم و الثقافة المنجزة بها، و تكوينها للتلاميذ و طلبة العلم ،

و استقطابها للعلماء، و هو نفس العمل تقريبا أجزته في الفصل الثاني المتعلق بالحواضر العلمية في المشرق.

أما الباب الثاني، فقد خصصته " للتواصل العلمي بين المشرق و المغرب"، تطرقت في فصله الأوّل

للتأثيرات المشرقية على الحياة الثقافية للمغرب، من حيث تسرب الأفكار المذهبية وانتقال العلوم الدينية

و الأدبية، و تحديدا دور المشرق في تحديد الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب أو هجرة الثقافة في ركاب

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ثم انتقال الثقافة عن طريق دعاة الأحزاب السياسية- المذهبية، و الرحلة

بين المشرق و المغرب، وأثرها الثقافي، خاصة رحلة العلماء المشاركة إلى المغرب والأندلس و دورهم العلمي.

أما الفصل الثاني فعنوانته " المؤثرات العلمية المغربية في بلاد المشرق"، و ضمّنته رحلة المغاربة العلمية

إلى المشرق، الذي نبعت منه قبل غيره عيون المعرفة الانسانية، و فيه إشارة إلى مشاهير المغاربة الأوائل

مقدمة

الذين رحلوا إلى المشرق ، كموسى بن معاوية الصّمّادحي، المتوفى سنة 226هـ / 841م، و غيره ممن شكل حلقة في نقل الثقافة بين المشرق و المغرب، و لذلك تتوالى الشخصيات العلمية المغربية للقرون اللاحقة والتي أشاعت بعلمها في مصر و الحجاز و الشّام، كالجغرافي ابن سعيد المغربي المتوفى سنة 685هـ / 1286م، و ابن جبير البلنسي، المتوفى سنة 616هـ / 1220م، و محمد بن آجروم الصنهاجي المتوفى سنة 723هـ / 1323م ، صاحب الآجرومية في علم النّحو، و التي شكلت بحق علامة فاصلة في التأثير العلمي للمغاربة في المشرق، من خلال إسهامه في إثراء علوم العربية. كما يبرز التأثير المغربي في المشرق في ميدان التصوف، من خلال عالين بارزين هما: أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة 656هـ / 1258م، و ابن عربي الحاتمي المتوفى سنة 638هـ / 1240م.

أما الباب الثالث الذي عنوانته " اسهامات علماء المغرب في بلاد الشام " قسّمته إلى فصلين، خصصت الأوّل لعلماء اللغة العربية و الشعر، مستعرضا فيه الإشعاع العلمي اللغوي لعلماء المغرب في بلاد الشّام، و أفضنا في هذا الفصل الإشارة إلى العلامة اللغوي ابن معطي الزواوي المتوفى سنة 628هـ / 1230م، و ذلك أنّ هذا الأخير يعتبر عالما فذا فرض نفسه علميا في مضمار تخصصه -علم النّحو- في بلاد الشّام كلها من خلال استقطاب حلقات درسه للكثير من الطلبة و المهتمين و قدّم إجازات علمية في هذا الشأن، و اعترف بمقدرته علماء الشّام الذين عاصروه أو ترجموا له. أما الفصل الثاني فقد تحدّثنا عن علماء المغرب الذين برزوا في حقل العلوم الدينية خاصة كالفقه و علوم الحديث و هو الميدان الذي سطعت فيه الكثير من الأسماء المغربية. و في نفس المنحى تمت الإشارة إلى علماء المغرب في الحقل العلمية و المعرفية الأخرى و التي لم تشهد نفس النبوغ كالاختصاصات الأولى.

و أنهت البحث بخاتمة تضمنتها أهم الاستنتاجات المتوصل إليها.

مقدمة

تقييم و تحليل مصادر و مراجع البحث

تحدّد طبيعة موضوع كل بحث من الأبحاث التاريخية نوعية مصادره، فإذا كان الموضوع عاما جاءت مصادره عامة، و إذا كان خاصا جاءت مصادره من نوع خاص تلبي الغرض، و بالنسبة لموضوع بحثنا، اقتضى الحال التعامل مع كتب الطبقات و التراجم و كتب الرحلة و الجغرافيا و دواوين الشعر و الملل والنحل، و كتب التاريخ العامة و الخاصة و المراجع الحديثة عربية و أجنبية، و الدوريات.

كتب الطبقات (= التراجم):

و يأتي على رأس هذه القائمة، تلك التي اختصّت بذكر علماء و فقهاء أهل المغرب، و أبرزت مختلف الأنشطة التي قاموا بها أثناء خروجهم إلى المشرق بشكل عام و بلاد الشام بشكل خاص. و أولها كتاب " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لأبي العباس الغبريني المتوفى سنة 704هـ/ 1304م، تحقيق الأستاذ رابح بونار (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1981)، و قد أفاد الباحث منه في الفصل الأوّل من الباب الأوّل، لأنّ مضمونه يقدّم قيمة علمية عظيمة حول حاضرة بجاية و حياتها العلمية و الثقافية، من خلال أعلام العلم الذين حلوا بها و أفادوا، كما أفاد في الباب الثالث بفصليه الأوّل و الثاني بتسليطه الضوء على رحلة العلماء المغاربة إلى المشرق.

ثم كتاب " الصلّة" لابن بشكوال، المتوفى سنة 578هـ/ 1182م في جزأين، و كتاب " التكملة لكتاب الصلّة" لابن الأبتار القضاعي المتوفى سنة 658هـ/ 1260م، في ثلاثة أجزاء، و كتاب " صلة الصلّة" لابن الزبير الغرناطي المتوفى سنة 708هـ/ 1308م، صادر في جزء واحد، هذه الكتب صادرة ضمن سلسلة واحدة عن دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2008، و كتاب " تاريخ علماء الأندلس"

مقدمة

لأبي الوليد الفرضي المتوفى سنة 403هـ/1013م، صادر في جزأين، عن دار المكتبة العصرية، بيروت، 2006. و رغم أنّ هذه المصادر مخصصة لترجمة العلماء الأندلسيين، إلا أنّها تضمّنت إشارات عابرة

لعلماء مغاربة، كان لهم تأثيرهم العلمي في الأندلس أو في بلاد المشرق.

و كتاب " ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك " المتوفى سنة 544هـ/

1150م و هو مرتب على مقدمة و عشر طبقات ، صدر في جزأين عن دار الكتب العلمية، بيروت،

1998، و قد أفاد الفصل الأوّل من الباب الأوّل ، فقد كشف عن الواقع العلمي في الحواضر المغربية من

خلال النشاطات العلمية و الأدبية للأعلام التي تضمنها مضانّ الكتاب.

كتاب " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي الشهير بابن

حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852هـ/1448م، الصادر في أربعة أسفار، عن دار الجيل، بيروت،

1993، قدم هذا الكتاب فائدة عظيمة لبحثي، فأقّدت منه في التعرف على العلماء بمختلف فنونهم من

المغاربة الذين قطنوا دمشق، و الآثار العلمية التي خلّفوها، و كذلك بالنسبة للعلماء الواردين أو المارين

بدمشق، فكان كتابه من المصادر التي أغنت بحثنا و دراستنا.

و لما كان موضوع البحث يتناول الثقافة المكتوبة، فقد استفدت من كتاب " بغية الوعاة في طبقات

اللغويين و النحاة " للحافظ السيوطي، المتوفى سنة 911هـ/1505م، صدر في جزأين، حققه محمد أبو

أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ نشر، استفدت منه في أخبار النحاة

و اللغويين المغاربة في بلاد الشّام.

كما أفاد البحث من كتاب " غاية النهاية في طبقات القراء " لابن الجزري، المتوفى سنة 833هـ/

مقدمة

1429م، نشره ج. برجستراسر، G.BERGSTRAESSER، صدر الكتاب في جزأين عن

دار الكتب العلمية، بيروت، 1982، الذي يذكر تراجم القراء المسلمين، و من بينهم قراء بلاد المغرب.

و في نفس المنحى استفاد البحث من كتاب " أخبار العلماء بأخبار الحكماء " للقفطي، و كتابه "

أبناء الرّواة على أبناء النّحاة"، و هذان الكتابان يحتويان عدداً لا بأس به من تراجم العلماء المغاربة في

حقول اللغة و النّحو و الطب.

كما أفاد البحث من كتب تراجم أخرى منها:

- كتاب " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " لابن عماد الحنبلي، المتوفى سنة 1089هـ/

1978م، مطبوع في ثلاثة مجلدات، و رغم أنّ التراجم التي خصّها للأعلام جاءت مقتضبة، إلاّ

أنّها كانت مفيدة بالنسبة للعلماء المغاربة الذين أشاعوا و أثروا في بلاد المشرق التي حلّوا بها.

- كتاب " طبقات القراء الكبار " للحافظ الذهبي، المتوفى سنة 748هـ/ 1347م.

و آخر النماذج التي شكلت أهمية خاصة في هذا البحث من كتب الطبقات، مؤلفات الصفدي

المتوفى سنة 764هـ/ 1364م، و بخاصة كتاب " الوافي بالوفيات " و " أعيان العصر و أعوان

النصر " ، اللذان احتويا في قسم كبير منهما على تراجم عديدة للناخبين المغاربة في بلاد الشّام في

كافة التّخصصات.

كتب الرحلة و الجغرافيا:

لقد استفاد هذا البحث كثيرا من كتب الرحلة و الجغرافيا، حيث تمّ توظيف كل النصوص

و الملاحظات الواردة في تقارير الرحالة و الجغرافيين العرب، و توظيف كل المعطيات و الملاحظات التي

تضمنتها مضان هذه الكتب ذات الصلة بالبحث أهمها:

مقدمة

- كتاب " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"⁽¹⁾ للرحالة الأندلسي ابن جبير، محمد بن أحمد،

المسمى برحلة ابن جبير، سجّل فيه ملاحظاته و مشاهداته، و اهتم بالشؤون الثقافية و الاقتصادية

و الاجتماعية للبلاد التي زارها، و قد اقتبست منها المتعلق بالجوانب الثقافية و العلمية لبلاد الشّام، خاصة

تشجيع رجال الحكم للعلم و رجاله من خلال الأوقاف العلمية الهامة في مختلف حواضر الشّام، خاصة

مدينة دمشق التي كانت عاصمة سياسية و ثقافية للدول المتعاقبة على المنطقة، من مدارس و زوايا و ربط

و دور العلم المختلفة، و قد استفاد منه البحث في معظم مراحلها.

- أما ياقوت الحموي، المتوفى سنة 626هـ / 1229م، فإن كتابه معجم البلدان⁽²⁾ لا يخلو من فائدة

أثناء ذكره مدن بلاد المغرب المختلفة، حيث يشير إلى أعلامها المؤثرين علمياً، خاصة أولئك الذين رحلوا

إلى المشرق و استفادوا و أفادوا.

- كما استفاد البحث مما حواه الجزء الثاني من رحلة خالد بن عيسى البلوي، المتوفى سنة 768هـ /

1368م، المسماة " تاج المشرق في تحلية علماء المشرق"⁽³⁾، التي تضمنت معطيات هامة حول العلماء

و المدارس و حلقات النقاش في مختلف حواضر المغرب و بلاد الشّام و الحجاز.

هذا و قد استعنا في بحثنا بمصادر جغرافية عديدة أفادتني في الباب الأوّل بفصليه الأوّل و الثاني منها

كتاب " الاستبصار في عجائب الأمصار " لمؤلف مجهول الاسم في القرن السادس الهجري،

و كتاب " المسالك و الممالك " القسم الخاص ببلاد المغرب لأبي عبيد الله البكري خلال القرن الخامس،

(1) طبع الشركة العالمية للكتاب، بيروت، بدون تاريخ

(2) دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1955

(3) تحقيق حسن السايح، طبع مشترك بين حكومتي المملكة المغربية و حكومة الإمارات المتحدة، بدون تاريخ.

مقدمة

خاصة إشارته لروح التسامح الفكري التي سادت مدينة تيهرت بالمغرب الأوسط من خلال حلقات النقاش التي كانت تدور بين المتكلمين و مختلف أصحاب المذاهب.

كتب التاريخ:

احتوت كتب التاريخ على معطيات علمية و معرفية متنوعة مكنتنا من الاستفادة منها و توظيفها في كل ما يفيد موضوع الأطروحة، منها كتاب " المقدمة" ⁽¹⁾ لعبد الرحمن بن خلدون، المتوفى سنة 808هـ/ 1405م، لقد استطاع هذا المفكر العبقري أن يشكل رافدا أساسيا في تدعيم البحث، خاصة إشارته لمختلف العلوم الإسلامية، من حيث نشأتها و تعريفها و تطورها و اسهامات العلماء المغاربة فيها. أما كتاب " الدّارس في تاريخ المدارس" ⁽²⁾ لعبد القادر بن محمد النعيمي، المتوفى سنة 927هـ/ 1520م، و رغم كونه متأخرا ، إلا أنّ أهمية الكتاب تأتي من كونه يشير إلى دور القرآن و الحديث و المدارس، و الخوانق، و الرّبط و الرّوايا، و الجوامع المعروفة في دمشق، فهو خير كتاب يوضح لنا النهضة العلمية في دمشق خلال خمسة قرون، و من محاسنه أنّه جمع ما هو مشتت في كتب التراجم، فهو فريد من نوعه، و كانت الفائدة منه عظيمة من حيث التفصيل في تاريخ المدارس، و طرائق التدريس و أعلام العلماء الذين درّسوا فيها.

المصادر الأدبية:

و نقصد بها الموسوعات الشعريّة التي أغنت موضوع البحث بإشارتها إلى الشعراء المغاربة الذين فرضوا أنفسهم على الساحة الشعرية و الثقافية في بلاد الشّام، و من هذه المصادر:

(1) دار القلم، بيروت، الطبعة السابعة، 1989

(2) تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1990

مقدمة

- كتاب " قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان" ⁽¹⁾ لابن الشعّار الموصلّي، المتوفى سنة 654هـ/

1256م، في تسعة مجلدات، فيه إشارات للشعراء المغاربة الذين برزوا في بلاد المشرق مع نبذة عن

حياتهم و انتاجهم الشعري.

- كتاب " معجم الأدباء"، المعروف ب : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" ⁽²⁾ لياقوت الحموي

الرومي، يقع الكتاب في سبعة مجلدات احتوت الإشارة إلى بعض الشعراء المغاربة الذين أبدعوا في

حقل الشعر و علوم العربية.

المراجع:

و قد أنار لنا جهد مجموعة من العلماء المعاصرين من مؤرخي بلاد المغرب و المشرق الطريق، حيث

استفدنا مما كتبه علي أحمد في كتابه " الأندلسيون في بلاد الشّام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن

التاسع". و فيه آراء قيّمة حول الهجرة المغربية -الأندلسية إلى بلاد الشّام من حيث أسبابها و إبداعات

علمائها.

كما أفدت من كتاب " تراجم مغربية من مصادر مشرقية" لمحمد بن شريفة، الذي اجتهد في لَمِّ

شئات بعض التراجم لأعلام المغرب الإسلامي في ميادين الشعر و علوم العربية، من مصادر أدبية مختلفة ،

أما كتاب إبراهيم حركات " مدخل إلى تاريخ المغرب المسلم حتى القرن 9هـ"، الذي استعرض فيه أهم

القضايا الأدبية و الفكرية و الثقافية التي شهدتها بلاد المغرب، فقد استفاد البحث من الجزئيات ذات

الصلة به.

(1) تحقيق كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2005

(2) تحقيق عمر فاروق الطّباع، مؤسسة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى، 1999

مقدمة

هذا و سنذكر في ثبت المصادر و المراجع أسماء الكتب التي عدنا إليها و أغنت البحث علماً و مادة و توضيحاً. و أنا على يقين أنني في عملي لم أبلغ المراد، فتلك من طبيعة البشر. و الحمد لله الذي تفرد بنفسه بالكمال، و جعل النقص سمة تستدلّ على جملة البشر.

شباب عبدالكريم

سعيدة في : 02 ديسمبر 2014

الباب الأول:

الحواضر العلمية في المغرب و المشرق

- الفصل الأول: الحواضر العلمية في بلاد المغرب
- الفصل الثاني: الحواضر العلمية في بلاد المشرق

الفصل الأول:

الحواضر العلمية في بلاد المغرب

بجاية:

تنتسب مدينة بجاية - حسب ما يذكر ابن خلدون - إلى قبيلة "بقاية" وهي فرع من صنهاجة، إلا أن الكاف فيهم ليست كافا بل بين الجيم والكاف⁽¹⁾.

وبجاية تقع على مسافة 81 فرسخا رومانيا (= 34 فرسخا) من مدينة دلس، أو روسكريوم Rusucurum الرومانية. وبجاية لا بد وأن تكون مدينة صلدي Saladae التي يضعها بطليموس في موضع يتوغل إلى الجنوب، حيث يحدّد موقعها عند 32 درجة و30 دقيقة، عرض-أي حوالي أربع درجات أبعد ممّا ينبغي إلى الجنوب⁽²⁾. أما الجغرافي ابن سعيد، فيحدّد موقع المدينة عند 22 درجة طولاً، و34 درجة و15 دقيقة عرضاً⁽³⁾، وأبو الفدا أقرب إلى الصواب حين يضعها عند درجة 34، إذ لا يبعدها عن موقعها الحقيقي إلا بدرجتين و 48 دقيقة ذلك أن موقعها الحقيقي هو: 36 درجة و42 دقيقة -عرض شمالي، و 2 درجة و50 دقيقة طول شرقي⁽⁴⁾.

وتتفق معظم النصوص الواردة في كتب الجغرافيا والرحلات، أن الفنيقيين أسّسوا المدينة، وأطلقوا عليها إسم صلدة Salada، ثم إلى صلداي Saladae، عندما دخلت في حوزة النفود

⁽¹⁾ عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 6، دار الكتاب اللبناني، 1978، ص 206.

⁽²⁾ إسماعيل العربي: بجاية من خلال النصوص الغربية، مجلة الأصالة (=عدد خاص ببجاية). العدد 19 السنة الرابعة. مطبعة البعث، قسنطينة صفر - ربيع الأول، مارس أبريل، 1974، ص 81.

⁽³⁾ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثانية 1982، ص 142.

⁽⁴⁾ إسماعيل العربي: المرجع السابق، نفس الصفحة.

الروماني في حدود سنة 104 ق.م⁽¹⁾. وقد لعبت المدينة عبر مينائها الصغير دورا إقتصاديا هاما، إلى أن حُرِّبها الوندال سنة 430م، وعرفت في عهدهم باسم غور gour، أي الموقع الصّخري أو الجبل الصّخري، ثم استولى عليها البيزنطيون سنة 533 م عندما احتلّوا شمال إفريقيا⁽²⁾.

ولا نعرف إلا القليل عن تاريخ بجاية خلال القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي، بل إننا لا نعرف أيضا العهد الذي إختفت فيه المدينة الرومانية صالدي saldee، التي كانت تشغل المكان الذي قامت عليه مدينة بجاية الحالية⁽³⁾، إذ لم يرد حولها إلا بعض الإشارات القليلة في المصادر التاريخية⁽⁴⁾. فصاحب كتاب الإستبصار يورد عنها أنها مدينة عظمى على ضفة البحر، وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة أصحاب قلعة أبي طويل، وتعرف بقلعة حماد⁽⁵⁾. كما أورد البكري، حولها إشارة مقتضبة، بأنّها مدينة أزلية عامرة بأهل الأندلس، ولها مرسى مأمون⁽⁶⁾.

هذا، و تفيد العديد من الأحداث التاريخية، التي أوردتها الكثير من المصادر أنّ بناء مدينة بجاية على العهد الإسلامي، كان لأسباب أمنية وسياسية أكثر من أي أسباب أخرى. فبضغظ من الهجمات الحربية

(1) حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ص50.

(2) مفتاح خلفات: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6هـ -9هـ / 12م-15م)، دراسة في دورها السياسي والحضاري، دار الأمل، الجزائر، [ب.ت]، ص 131.

(3) رابح بونار: بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين- نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية-مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص68.

(4) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص131.

(5) كاتب مجهول: كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 128.

(6) البكري أبو عبد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد [ب.ت]، ص82.

لعرب بني هلال على إفريقية، والتي أحدثت تغيرات سياسية هامة في المنطقة. اضطرّ الناصر ابن علناس (454 - 481هـ/1062-1088م) - خاصة بعد هزيمته أمامهم في معركة سيبية، سنة 457هـ/1068م، وما رافقها من إفساد وخراب وفوضى من قبل عرب بني هلال للمنطقة، اضطرّ الناصر إلى التفكير جدّياً في الانتقال إلى مكان آمن يحمي فيه ملكه وشعبه من الضياع المؤكّد⁽¹⁾. لذلك إستشار أهل الرأي في المكان الذي تبنى فيه المدينة الجديدة، والتي تستجيب في موقعها ومعايير بنائها وخصائص موقعها للتحديات المطروحة وقتذاك. فكان محمد بن البعبع خير ناصح. يورد النويري مضمون هذه النصيحة التي قدمها ابن بعبع للناصر بن علناس " وأنا أشير عليك بما تملك به المهديّة وغيرها، وقد عبرت الآن ببجاية، فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة، فأجعلها لك مدينة يكون فيها دار ملكك، وتقرب من جميع بلاد إفريقية"⁽²⁾. يظهر إذن من هذا النص الأخير أن اختطاط بجاية كان لتحقيق هدفين: الأول هو تجنب الغزو الهلالي وما يرافقه من دمار وفوضى والمحافظة من ورائه على ملك بني حماد، والثاني، قرب المدينة من إفريقية، التي كان الناصر يرغب على الدوام في ملكها أو إستدراجها ضمن نفود ملكه الجديد.

لكن البعض من الباحثين المتأخرين، يرى أسباباً أخرى دفعت بالناصر إلى بناء المدينة منها:

⁽¹⁾ يشير ابن خلدون والإدرسي وغيرهما إلى الخراب والفوضى الذي أحدثه الهلاليون في إفريقية، خاصة تخريب مدينة القيروان سنة 446هـ/1054م، وانتصارهم على المعز بن باديس (406-454هـ/1016.1062م) في معركة سيدران، سنة 433هـ/1052م، والتي فتحت لهم الباب واسعاً للزحف على مدينة القلعة عاصمة ملك دولة بني حماد (398-547هـ/1008-1152م). ينظر: ابن خلدون مج 6، ص 193 وما بعدها، والنويري أحمد بن عبد الوهاب: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وهو مقتطف من كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب ". تحقيق، مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، المغرب [ب.ت]. ص 347 وما بعدها.

⁽²⁾ النويري: المصدر السابق ص 353.352.

- خصوصية الموقع، أي المجال الذي يستجيب لما اعتاد عليه الحماديون لما كانوا بالقلعة، فكما كانت القلعة في سفوح جبل عجيسة- للإحتماء- فإن الأمر كذلك بالنسبة لبجاية التي شيّدت عند سفوح جبل أمسيون.

- تبدو بجاية أقرب المواقع الساحلية لقلعة بني حماد، لاسيما وأن الناصر لازال في حاجة إلى عاصمته الأولى، بدليل أنه ترك بها ابنه المنصور (481-498هـ/1089-1104م) الذي لم يغادرها إلا سنة 483هـ/1085م.

- إن اختطاط المدينة في وسط قبائل صنهاجة المستقرة، مثل قبيلة بجاية وبني سدويكش وكتامة وزاوة، يمكن الإطمئنان إليها من الناحية السياسية بتطويعها مستقبلا لسلطة الدولة⁽¹⁾.

- والميزة الأخرى لموقع المدينة، هي التوسط النسبي بين مدن وأمصار إفريقية والمغرب الأدنى، وهذه الميزة لم تخف على بعض الجغرافيين المسلمين، الذين لاحظوا بأن المدينة قطب لكثير من البلاد "والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا و بحرا، والسلع إليها مجلوبة، والبضائع بها نافقة... ومنها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة"⁽²⁾.

أما أهمية تمصير المدينة في حد ذاته، وبالنسبة للدولة الحمادية، فتبدو في ميزة الإتصال المباشر بمراكز الثقافة والإقتصاد والحضارة في الحوض الغربي من البحر المتوسط. وهي الميزة التي لم تتوفر للدولة

(1) مفتاح خلفات: المرجع السابق ص 135.

(2) الإدريسي، الشريف أبو عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق-مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة [ب.ت] ، ص 260.

من قبل، عندما كانت القلعة عاصمة وحيدة لها، ولهذا السبب وصفت بجاية مند العصر الوسيط، بأنها ساحل قلعة أبي طويل (=وهي التي عرفت بقلعة بني حماد)، أي منفذ لها على البحر المتوسط⁽¹⁾.

وهنا لا بد أن نشير إلى ظاهرة تعرض للبشر كما تعرض للمدن والدول، وهي أن ميلاد بجاية كحاضرة وكقاعدة سياسية، كان يعني تدريجيا بداية تضاؤل أهمية القلعة في المجال السياسي، ومعنى ذلك أن بجاية إستفادت من التطورات الجديدة التي صيَّرت منها مركزا رئيسيا للسياسة والسلطات وللنشاط المتعدد الجوانب، فتصدّرت الأحداث، بينما إنحسر نفوذ القلعة، فتخلت إلى الأبد، عن دورها السياسي وقنعت بدور العاصمة الروحية والثقافية والتاريخية للمغرب الأوسط في عصر الحماديين⁽²⁾.

أهمية بجاية الثقافية والعلمية:

عندما، إختط الناصر بن علّاس مدينة بجاية سنة 460هـ/1067م ، إنتقل إليها وسّمّاها الناصرية، وأقام بها من أسباب الحضارة ما لم ير مثله شرقا وغربا، فأسس المدارس والمعاهد العلمية، وأمر أن توزع المنح على العباقرة والمبرزين في كل فن، فإزدحم على تلك المعاهد العلماء والحكماء

(¹) موسى لقبال: ميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى، مجلة الأصالة، العدد المذكور سابقا، ص 5.

(²) المرجع نفسه: ص 6.5.

والأطباء والشعراء وأهل الفنون الرياضية والهندسية. وأمّ بجاية الكثير من علماء الأندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم⁽¹⁾.

وتشير كتب التراجم والرحالة في العصر الوسيط إلى المرافق والهياكل العلمية والثقافية التي كانت تعج بها بجاية، من كتاتيب وزوايا ومساجد ومدارس ومكتبات⁽²⁾. ولعل من أبرز تلك القلاع العلمية بالمدينة، كان المسجد الأعظم، ويقدم لنا الرحالة العبدري وصفا لهذا المسجد " ولها جامع عجيب، منفرد في حسنه غريب، من الجوامع المشهورة، الموصوفة المذكورة، وهو مشرف على برها وبحرها، وموضوع بين سحرها ونحرها، فهو غاية في الفرحة والأنس، ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية"⁽³⁾. هذا بالإضافة إلى المساجد الأخرى الموجودة بها والتي ذكرها الغبريني، وهي مسجد القصبنة⁽⁴⁾، ومسجد الجريري⁽⁵⁾ والنطّاعين، ومسجد أبي زكريا يحي الزواوي⁽⁶⁾، والمرجاني⁽⁷⁾.

(1) محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر، والخراج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 142.
 (2) ينظر في هذا الباب: الغبريني أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق، رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر الطبعة الثانية 1981 ص 24 وما بعدها، والبلوي خالد بن عيسى: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السايح، ج2، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية، الإمارات العربية المتحدة، [ب.ت] ص، 153، و كاتب مجهول : الإستبصار، مصدر سابق، ص 128 إلى 133.
 (3) العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد: الرحلة المغربية، تحقيق، أحمد بن جدو، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر [ب.ت] ، ص23.

(4) الغبريني: المصدر السابق، ص140.

(5) المصدر نفسه: ص 91.

(6) المصدر نفسه: ص136.

(7) أخذ المسجد هذا الإسم نسبة للفقير الزاهد أبي زكريا المرجاني الموصلي، الذي كان يجتمع فيه الأفاضل والصلحاء والمتعبدون، رحل إلى بلده الموصل حتى وفاته هناك. ينظر الغبريني، المصدر السابق، ص 165

لقد كانت هذه المساجد -بالإضافة إلى دورها التّعبدي -دورا لحلقات العلم والنقاش، تستقطب طلبة وجمهورا متنوعا، يتحلّقون حول شيوخ وعلماء يقدمون دروس عدة في الفقه والحديث والرقائق واللغة والنحو وغيرها.

وكان الطلبة على وجه الخصوص يتحصلون على تكوين علمي متقدم في نوعين من العلوم:

-علوم الدّراية : والمقصود بها علم الفقه وعلم الأصولين : أصول الدين وأصول الفقه وعلم العربية وعلم التصوف وعلم المنطق.

-علوم الرّواية : والمراد بها علوم التفسير وعلوم الحديث وعلوم الفقه وعلوم العربية .وعلم الدراية يراد بها العلوم التي يحتاج فيها إلى إعمال الفكر والنظر، وعلوم الرواية يراد بها العلوم التي بالرواية والسمع⁽¹⁾.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الطالب في هذه المرحلة يتلقى دروسه وعلومه بشكل أوسع، بحيث يصبح بمقدوره تلقي شروح القرآن والفقه، خاصة الفقه المالكي والنحو واللغة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى العلوم العقلية كالقضايا والحساب، والفلك، والمنطق والبيان والتوحيد وغيرها من العلوم⁽²⁾.

يجري النظام في هذه المؤسسات العلمية والتربوية على قبول طلبة قاطنين، وهم من الغرباء عن المدينة، تجري لهم منحة يتقاضونها مع مواد غذائية، ويلتزمون الدروس إما متخصصين في علم واحد أو مشاركين في علوم عدة. ويكوّنون مع الطلبة المدوامين من أهل المدينة طائفة الطلبة الرسميين،

(1) ينظر، برنامج الغريبي في عنوان الدراية، ص 26.25،

(2) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 167.

وحلقات الدروس مفتوحة مع هذا لكل من يريد أن يكتسب معارف دون قصد الإجازة للتدريس أو التوظيف⁽¹⁾.

وللأستاذ أن يشاهد تقدم طلبته ويقرر إجازة من يستحق منهم لقب الأستاذية أو العالمية، فيرخص له بالتدريس مع ذكر ما أخذ منه من العلوم لتثبيت إجازته. وكان هذا النظام التعليمي مبنيًا على التدرج، في مرونة تراعي الأحوال الشخصية والقدرات الخاصة لطلبة العلم، فبعضهم يجاز في سنتين وبعضهم ينتظر عدة سنوات، وللأستاذ أن يعمل بأخلاقيات مهنته في تقييم مستوى طلبته⁽²⁾.

وقد انتظمت بالمسجد الأعظم ببجاية، العديد من حلقات الدرس ومجالس الوعظ. فهاهو الشيخ أبو زكريا يحيى الزواوي⁽³⁾، يقدم به العديد من الدروس، ولاسيما علوم الحديث وعلوم الفقه، والتذكير⁽⁴⁾. أما الشيخ أبا عبد الله بن محمد المعافري فانتقل إلى بجاية ودرّس بها علم النحو و الفقه بجامع القصبه⁽⁵⁾، كما كان علي بن أبي فتح بن عبد الله، المتوفى سنة 652هـ/1254م،

(1) عبد المجيد مزيان: الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الإستعمار، مجلة الثقافة، العدد:90، السنة الخامسة عشر. 1406هـ/1985م، الجزائر، ص 41.

(2) المرجع نفسه، ص42.

(3) زاهد معروف من أهل بجاية، متوفى سنة 611هـ/1244م، رحل إلى المشرق فأخذ عن العلماء، ثم عاد إلى المغرب، ويّ قضاء بجاية، كان له الإمام بعلوم شتى، ينظر، الغبريني، ص 129. 130، والتادلي أبو يعقوب يوسف: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. 1404هـ/1984م. ص428.

(4) الغبريني: المصدر السابق، ص 130.

(5) المصدر نفسه: ص140.

والذي استقر بها، يروي ويسمع ويتفقه عليه، وكان له علوسند في الحديث⁽¹⁾، وقد سار هذا التقليد في جميع مساجد بجاية، فمسجد الريحانة مثلا كان يعج بمجالس الفقهاء حسب رواية البيدق⁽²⁾.

استقطاب بجاية للعلماء:

اعتبرت بجاية من أهم الحواضر العلمية⁽³⁾ والمراكز الثقافية في المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة، نظرا لرواج سوق العلم بها، وتشجيع رجال الحكم والسلطة له، بإزداء الأعطيات والأموال لأهله والإنفاق على متعلميه ورعايتهم. يضاف إلى كل هذا استقرار الأوضاع السياسية بالمدينة لفترات طويلة من عمرها على العهد الإسلامي.

وكان من نتيجة ذلك، أن أصبحت المدينة محطّ رجال طلاب العلم، ورجالات علم الكلام والفلسفة والتصوف، وعلماء اللغة والأدب، والطب والصناعات المختلفة، فكان يأوي إليها المشتغلون بعلوم الأوائل، وأصحاب المذاهب الصوفية والعقول المستقلة، يجدون فيها متعة الإقامة، وراحة العقل، وطمانينة القلب، مما يتيح لهم أن يتأملوا وأن يؤلفوا، وأن ينجوا من سطوة بعض الجائرين من

(1) الغبريني: المصدر السابق، ص142.

(2) نقلا عن مفتاح خلفات، المرجع السابق، ص 170.

(3) نعني بالحاضرة المدينة أو العاصمة المركزية الجاذبة للمثقفين، تلك التي فيها حكم مركزي وتتوفر على مؤسسات ثابتة ومتطورة للعلم والبحث ووسائل التلاقي والتفاعل بين الفئات المنتجة للثقافة، التي يسود بينها التسامح الفكري والمذهبي والسياسي. ويمكن أن نضرب مثلا بالحواضر الإسلامية القديمة كدمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة. وكذلك الحواضر الأوربية منذ عصر النهضة كفلورنسا وروما وباريس ولندن. ينظر: أبو القاسم سعد الله: حيرة مؤرخ، في خارج السرب، مقالات وتأملات، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الثانية، 2009، ص 47.

السلطين.وزادها أهمية أنها مرسى وثغر يمر به الحجاج وطلاب العلم، الذين يقصدون إلى المشرق وقيمون بها، يأخذون عن علمائها، فتتلاقح في مواطنها العقول المختلفة⁽¹⁾.

وقد استقطبت بجاية العالم الصوفي الكبير أبا مدين الغوث⁽²⁾، الذي استوطن بجاية وفضلها على الكثير من المدن، ويرى أنها تعين على طلب الحلال، فإشتهر أمره بجاية، وإرتفع شأنه في آفاقها، بما كان يعقده من مجالس مؤثرة، فأخذ الناس يقصدونه إليه وفودا من مختلف الآفاق، فوشي به بعض الفقهاء لدى الخليفة يعقوب المنصور الموحدى (ت 595هـ/1198م). وذكروا له أنه يشتهر بالإمام المهدي بن تومرت⁽³⁾، وأنه كثر أتباعه وأنصاره في مواطن كثيرة، وأنه أضحى خطرا على

(1) عمار طالبي: الحياة العقلية في بجاية، مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 153.

(2) الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي، متصوف قطب، ملأت كراماته الآفاق، وذاع صيته العلمي، وصفه صاحب كتاب نيل الإبتهاج " شيخ المشايخ سيدي أبو مدين سيد العارفين وقودتهم ".أخذ و استفاد من أعلام المشرق، وتعرف أثناء حجه بالشيخ عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه في الحرم كثيرا من الحديث وألبسه الخزقة.توفي بتلمسان عام 594 هـ/1198 أثناء توجهه إلى مراكش بطلب من خلفاء بني عبد المؤمن، وظل ضريحه مزارا هاما على مر العصور .ينظر التادلي، المصدر السابق، ص 156 وما بعدها، الغبريني، المصدر السابق. ص 55 وما بعدها. ومريم هاشمي : العلاقة الثقافية بين مدينتي تلمسان وبجاية خلال القرن 7-9هـ/13-15م.مذكرة ماجيستر في تاريخ المغرب الإسلامي .إشراف الدكتور لخضر عبدلي، جامعة تلمسان 2010.2011، ص 73.

(3) المهدي بن تومرت، المنعوت بالهرغي، ولد بجمال السوس بالمغرب الأقصى، ونشأ هنالك ثم رحل إلى المشرق في شببته طالبا للعلم، واجتمع بأبي حامد الغزالي . كان ورعا ناسكا متقشفا، إنطلقت دعوته من بجاية، والتقى فيها بعبد المؤمن بن علي المؤسس الفعلي للدولة الموحدية(515-668هـ/1121-1269م) .ولد عام 485هـ/1092م، وتوفي سنة 524/1130 م.مارس ابن تومرت الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بطرابلس و القيروان و بجاية و غيرها من المدن .متحديا سلطة المرابطين الذين طرده عمالها من المدن التي كان ينشر فيهل أفكاره . شكلت أفكاره الأساس المتين لصراع الموحدين ضد المرابطين، ينظر ابن خلكان شمس الدين أبو العباس :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت [ب.ت.]، ص 45وما بعدها، ومحمد المغراوي :العلماء و الصلحاءو السلطة بالمغرب و الأندلس في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، إشراف أ.د أحمد التوفيق و أ.د عز الدين عمر موسى (1422-1423هـ/2001-2002م)، ص 46، و عبد القادر عثمان جاد العرب :الموحدون بإفريقية إلى سنة 627هـ، بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الوسيط، مرقونة، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، إشراف د=

الدولة الموحدية(524. 668 هـ/1130.1269م) سياسيا. فاستدعاه الخليفة لاختباره، وأوصى به أن يحمل إلى العاصمة مراکش خير محمل، فأرسل به والي بجاية، فشق على أهلها فراقه⁽¹⁾، ولما غادر أبومدين المدينة ترك فيها تلاميذ كثر وأصحاب يعسر حصرهم منهم : أبو يوسف الدهماني (ت621هـ/1213م)، وعبد العزيز المهداوي (ت 621هـ /1213م)، وأبو سعيد الباجي، (ت628هـ/1231م)، وأبو علي النفطي (ت 610هـ/1213م)، والظاهر المزوغي، (ت646هـ/1248م). وكان على رأس هؤلاء الزائرين أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر، صاحب الخلوة الصوفية في قصر المنستير، وكان شاعرا جرت بينه وبين أبي مدين مراسلات⁽²⁾. وغير هؤلاء كثير من الأصحاب والتلامذة الذين كوّنهم أبومدين أو أثر فيهم⁽³⁾.

وهناك علماء آخرون استقطبتهم بجاية، وبنوا العلم بها، منهم: عبد الحق الإشبيلي المعروف بابن الخراط البجائي، ولد سنة 510هـ/1116م، وتوفي بها سنة 582هـ/1186م. استوطن بجاية عند الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة المرابطية، فنشر بها علمه وصنّف ووَلَّى الخطابة والصلوة بجامعها، وكان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلمه، عارفا بالرجال، موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع، أورد ابن فرحون عنه، أنّه كان مشاركا في الأدب وقول الشعر. وصنّف في الأحكام

= إبراهيم حركات (1412-1413هـ/1991-1992م)، ص 44، و Goldziher: le livre de mohamed mahdi des almohadie.alger 1903, ibn tumert

⁽¹⁾ (عمار طالي : مجلة الأصلة، المرجع السابق، ص163.

⁽²⁾ (عمار طالي : المرجع السابق، ص 164.

⁽³⁾ (إلى جانب الشيخ أبي مدين شعيب، إستقطبت بجاية متصوفة ملأت شهرتهم الآفاق، منهم الشيخ الأكبر محي الدين ابن

عربي، المتوفى سنة638هـ/1241م. وابن سبعين، المتوفى سنة 669هـ/1270م، والششتري، المتوفى سنة 668هـ/1269-

1270م.

نسختين : كبرى وصغرى، وله : الجمع بين الصحيحين، وكتاب في الجمع بين المصنفات الستة، وكتاب في المعتل من الحديث وكتاب في الرقائق وغيرها من المصنفات التي مسّت مختلف الفنون والعلوم⁽¹⁾.

وخلال القرن 6هـ/12م بذلت جهودات كبيرة في مجال الطب العلمي والطب التطبيقي، واستقبلت بجاية عشرات الأطباء الأندلسيين الذين ساهموا في تطوير الطب العلمي ونشره، فقد كانت جبال بجاية محالاً لاستنبات النباتات الطبيعية التي كانت تستغل في التجارب المعالجة .

وكان بين شيوخ الطب والباحثين فيه ببجاية، ابن أندراس أحمد بن محمد الأموي، المتوفى سنة 674هـ/1275م⁽²⁾. كما أشعّ أبو علي حسن بن محمد المسيلي بعلمه في بجاية، ولقب بأبي حامد الغزالي الصغير. له كتاب في علم التذكير سماه "التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات"، دلّ كلامه فيه على إحاطته بعلم المعقول والمنقول، وعلم الظاهر والباطن. يقول عنه الغبريني أنه كثير الوجود بين الناس، وكثرة وجود الكتاب دليل على إعتناء الناس به و إيثارهم له⁽³⁾.

لقد كانت بجاية بحق، خلال العصر الإسلامي حاضرة علمية وثقافية كبيرة أسهمت بقسط كبير في الإشعاع العلمي للغرب الإسلامي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط واستقطبت من العلماء

(¹) ابن فرحون إبراهيم بن نور الدين : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجتّان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1417 هـ/1996م، ص 276-277.

(²) إبراهيم حركات:مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م ج 1. دارالرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1421هـ/2000م، ص 408.

(³) الغبريني: المصدر السابق، ص 67.66، وكمال بوشامة: الجزائر أرض عقيدة وثقافة، ترجمة محمد المعراجي. دار هومة، الجزائر 2007، ص70.

والمفكرين المسلمين وغير المسلمين الأعداد الكبيرة، الذين لا يتسع مجال البحث في التفصيل في دورهم.

تلمسان

كانت تلمسان حاضرة هامة من حواضر العالم الإسلامي، خاصة في الغرب الإسلامي، واكتسبت هذا الدور الطلائعي نظرا للأدوار الكبيرة التي أدتها سياسيا وإقتصاديا وأيضا -وهذا هو الأهم- دورها العلمي والثقافي الذي سجّله لنا كتب التراجم والرحالة، ومصادر التاريخ السياسي التي أرّخت للدول والملوك.

وقد مرت على تلمسان حضارات لشعوب عدة قبل فترة الإسلام، حيث يورد صاحب كتاب الإستبصار أنها "مدينة أزليّة كانت مملكة لأمم سالفة"⁽¹⁾. الشيء الذي يؤكد الماضي التاريخي العريق لها، وما من شك أن موقعها الجغرافي الممتاز⁽²⁾ أهلها لأن تضطلع بهذا الدور الفاعل عبر التاريخ. ونواة هذه المدينة القديمة قرية "أغادير"، التي إختطها بنو يفرن الزناتيون⁽³⁾ في عصور قديمة، ولعب الجانب الإقتصادي دوره في تدعيم مكانة المدينة، فالجغرافي الزهري اعتبر الثروة المائية الموجودة بالمكان سببا

(1) كاتب مجهول: الإستبصار، مصدر سابق، ص 176.

(2) إن الموقع الجغرافي الهام لتلمسان، نستشفه من اسمها، الذي يتألف من كلمتين بربريتين هما "تلم" ومعناها تجمع، و"سان" ومعناها إثنان، ومعناها: "تجمع إثنين" وهما البر والبحر، بمعنى أنها تجمع بين طبيعة البر والبحر لوقوعها في مكان ملائم، لذلك فهي تقع في سفح جبل طرارة، وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها، وغير بعيد عنها حيث ميناء الغزوات الشهير. ينظر يحيى بوعزيز: المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزنانية (1236-1554م)، مجلة الأصاله، العدد 26، 1395هـ/1975. مطبعة البعث، قسنطينة، ص 04.

(3) قبيلة زناتة، تنحدر أصولها من ولد جانا، أو زانا (=حسب رواية ابن حزم) بن يحيى بن صولات بن وزماك بن ضري بن وفيك ابن مادغيس بن بربر، من البربر البتر موطنهم بإفريقية والمغرب، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، ينظر: ابن حزم =

في الرخاء الإقتصادي " وفيها عيون كثيرة ومياه غزيرة وهي كثيرة الزرع والضرع"⁽¹⁾. أما صاحب كتاب الإستبصار، فيقدم صورة أكثر تفصيلا عن هذا الجانب " وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز، وكان لها ماء مجلوب من عمل الأوائل....وفي الجنب من مدينة تلمسان قلعة منيعة، كثيرة الثمار غريزة المياه والأنهار، ويتصل بها جبل تاورناية، وهو جبل كبير معمور فيه القرى الكثيرة والعمائر المتصلة. وفي الجنوب... قرية كبيرة تسمى باب القصر، فوقها جبل يسمى البغل، كثير الخصب والعمارة ينبعث تحته نهر سطفسييف....يسقي هناك مزارع وأولجا كثيرة تسمى أولاج الجنان"⁽²⁾.

و لا شك أن تكوين تلمسان الجيولوجي صالح جدا لحفظ مياه الأمطار والثلوج في أحواض شاسعة في باطن الأرض. لذلك تعد جبال تلمسان بمثابة خزان طبيعي كبير تتوزع منه المياه بواسطة ينابيع جمّة، التي تجعل إقليم تلمسان الممتد على بضعة أميال حول المدينة ثريا بمحاثقه الغناء وبساتينه الكثيرة. وهي عماد ثروة الإقليم"⁽³⁾.

يظهر إذن مما تقدم، أن الموقع الطبيعي لمدينة تلمسان، ووفرة الثروة المائية والسهول الخصبة وقر للمنطقة رخاء زراعي هام، وثروة غايبه كثيفه عبر جبالها، إنعكس إيجابا على الوضع الإقتصادي العام، حيث نشطت الحرف والصنائع، ومارس قطاع من السكان، التجارة، وأصبحت المدينة مقصدا

=أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة 1428هـ/2007م، بيروت، ص 496، وابن خلدون، العبر مج 7، ص 03. 04.

(1) الزهري أبو عبد الله محمد: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد. مصر [ب.ت]، ص 113.

(2) كاتب مجهول: الإستبصار، مصدر سابق، ص 136 137.

(3) محمد بلقراد: تلمسان، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 298.

للتجّار من البلاد الأخرى⁽¹⁾، ويشير الجغرافي ابن سعيد إلى الدور المحوري الذي أصبحت تلعبه، بسبب إزدهار حركة التجارة " ومنها تحمل ثياب الصوف المفصلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب، وتحمل منها أجم الخيل والسروج"⁽²⁾. ولم ينقطع عنها التجار حتى في الأوقات العصيبة، إذ كانوا يتزودون فيها بمنتجات بلاد السودان، أي العاج والذهب والعييد الذي تأتي بهم القوافل مرورا بمسالك حفرت على طولها آبار. وكانت تلمسان مقابل ذلك تصدر الصوف والأسلحة والكتب، وهي إلى ذلك ممر للبضائع الإفريقية والأروبية⁽³⁾. كما أهل موقع المدينة ومكانتها الإقتصادية والتجارية أن تلعب أدوارا سياسية رئيسية في منطقة المغرب الإسلامي.

و عندما استقر الأمر لإدريس الأكبر(172.177هـ/788-793م) بالمغرب الأقصى، خرج برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن. فوصل مدينة تلمسان ونزل بخارجها، فأتاه أميرها محمّد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري، فطلب منه الأمان، فأمنه إدريس وبايعه محمّد بن خزر وجميع من معه بتلمسان من قبائل زناته، فدخل إدريس المدينة صلحا، وأمن أهلها، وبني مسجدها ووضع منبرا وكتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس ابن

(1) البكري:المصدرالسابق، ص 77.

(2) ابن سعيد : المصدر السابق، ص 140.

(3) شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج2، تعريب، محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، 1969، ص 202.

عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وذلك في شهر صفر سنة 174هـ/790م⁽¹⁾.

وعندما انقرضت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، ظهر موسى بن أبي العافية الشيعي، وغزا أغادير عام 219هـ/834م، وتغلب على أميرها الحسين الإدريسي الذي اضطُر إلى الفرار إلى ملبية وتحصن بها مدة. وقام ابن أبي العافية وأمراء الشيعة، أعقاب الأدارسة في أغادير ومنطقتها، فمالوا إلى الأمويين وشايعوهم، وتغلب يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، على بلاد زناته والمغرب الأوسط. وعقد له الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (30-350هـ/912-961م)، فاغتنم هذه الفرصة ووسّع نفوده حتى شمل وهران وتاهرت⁽²⁾.

وبعد فترة معينة، مدت الدولة المرابطية سلطتها إلى منطقة تلمسان، وعين الأمير يوسف ابن تاشفين (463-500هـ/1071-1107م) على أغادير محمد بن تينعمّر المسوفي، ثم أخاه تاشفين من بعده، وواجهت أغادير خلال عهدهما حروباً واضطرابات بين أمرائها وأمراء قلعة بني حماد، خاصة المنصور بن الناصر الحمادي (481-498هـ/1089-1105م)، مما أدى إلى انقراض إمارة مغراوة من أغادير⁽³⁾.

(1) محمد بلقراد: المرجع السابق، ص 301.

(2) يحي بوعزيز: مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 05.

(3) المرجع نفسه: ص 06.

بقيت تلمسان تحت حكم المرابطين، حتى قامت دولة الموحدين (515-668هـ/1121-1269م)، وحينها قام عبد المؤمن بن علي (540-558هـ/1145-1162م)، بغزو تلمسان عام 540هـ/1145م، بعد أن سيطر على وهران، وقضى على الأمير المرابطي بها تاشفين بن علي. وشهدت تلمسان خلال حكم الموحدين تطورا هائلا في الحضارة وال عمران، فقد شيد بها الأمير أبو عمران موسى بن يوسف بن تاشفين، حينما تولى إمارتها عام 556هـ/1261م عددا من الابنية، ووسع عمرانها وأحاط أسوارها بسيج متين. وعلى غرار فعل أبو الحسن بن أبي حفص ابن عبد المؤمن، خاصة بعد أن ظهر الثائر الميورقي يحيى بن غانية عام 581هـ/1185م، واكتسح المغرب الأوسط ابتداءً من بجاية، وهدد عدّة مرات تلمسان وأحدث بها تخريبات كثيرة⁽¹⁾. لكن الوهن السياسي دب في أواخر الدولة الموحدية⁽²⁾، وانتهى بها إلى التفكك، وورث ميراثها السياسي دويلات صغيرة، الحفصيون (625-982هـ/1228-1574م)، والمرينيون (610-

(1) يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 7.6.

(2) تجمع المصادر التاريخية أن من أهم أسباب ضعف الدولة الموحدية:

أ- ضعف شخصية السلاطين بعد السلطان يعقوب المنصور.

ب- عدم الإستقرار السياسي، خاصة مع بداية القرن 7هـ/13م، حيث تجسد ذلك في خلع البيعة من قبل الأشياخ لأكثر من سلطان.

ج. معركة العقاب التي إنهمز فيها الموحدون سنة 609هـ/1212م أمام النصارى في الأندلس.

د- حرب بني غانية، الذين كونوا إمارة في الجزر الشرقية، وشنوا حروبا متصلة على مناطق النفوذ الموحدية، إستهلكت قوى وجهد الموحدين. ينظر، ابن غداري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدية - تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1406هـ/1985م ص 237 -، 239 وابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972، ص 238، ابن خلدون العبر، مج 7، ص 160-161.

869هـ/1213-1465م)، والزيانيون (633-962هـ/1236-1554م)⁽¹⁾، هذه الدولة

الأخيرة إتخذت من تلمسان عاصمة مملكتها الجديد، وقد لعب السلطان يغمراسن بن زيان (633-

681هـ/1236-1282م) دورا بارزا في توطيد أركان حكم الدولة الجديدة، قال عنه ابن خلدون "

أحسن السيرة في الرعية، وإستمال عشيره، وقبيله وأحلافهم، وإتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالح"⁽²⁾.

والملاحظ على هذه الدولة أنها كانت تزول لفترات، ثم تعود، ولربما يفسر هذا إلى موقعها

الذي يتوسط المرينيين والحفصيين، لعب دورا ضاغطا عليها. ففي عام 737هـ/1336م زالت الدولة

إثر سقوط تلمسان بيد السلطان المريني أبي الحسن (731-752هـ/1331-1351م)، ثم عادت

للإنبعاث عام 749هـ/1348م.

غير أنه يمكن ملاحظة أن الدولة الزيانية، كان يظهر فيها من مرحلة لأخرى سلاطين أكفاء

سياسيا وعسكريا، يعيدون لها مجدها وأبهرتها. وبرز في هذا المجال إسم السلطان أبي حمو الثاني (760-

791هـ/1359-1391م).

(¹) وبذلك أصبحت كل دولة من الدول الثلاث، تعتبر نفسها الوارث الحقيقي والشرعي لتراث الموحدين. فكانت كل واحدة تسعى للقضاء على الآخرين، طمعا في السيطرة على البلاد التي كانت في حوزة الموحدين من قبل. غير أن حال الدول الثلاث لم يكن يسمح لها بالهيمنة الكلية وحسم الموضوع بسبب الضعف وقصر اليد من جهة، وبسبب التركيبة الإجتماعية، التي أصبحت بها القبائل والعشائر تتميز باستقلال أكثر مما كانت عليه في زمن ما قبل سقوط الموحدين من جهة أخرى، بحيث صارت القبائل محل إغراء واسترضاء سلاطين الدول الثلاث. ينظر: بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 27.

(²) ابن خلدون : العبر، مج 7، ص 162.

الدور الحضاري لمدينة تلمسان

تجمع المصادر التاريخية أن مدينة تلمسان على عهد الدولة الزيانية، لعبت دوراً علمياً وثقافياً رائداً في منطقة الغرب الإسلامي على وجه الخصوص، والعالم الإسلامي بشكل عام⁽¹⁾، فقد اتخذها الزيانيون كرسياً ملكهم. وفي إطار المنافسة مع الحواضر المغاربية الأخرى، اتجهوا إلى ابتناء المدارس ودور العلم وتشجيع العلماء على إستيطانها والبقاء فيها. على عكس فترة الوجود الموحدية بها، حيث كانت المدينة تمد المركز بما يحتاجه من كفاءات وإطارات⁽²⁾. غير أن الموحدية من جانب آخر إعتنوا بالمدينة، حيث أبقوها كمقر لولايتهم على المغرب الأوسط، وشيدوا أسوارها محققين بذلك حصانتها. وهكذا فقد عمد الزيانيون إلى فتح باب الهجرة للعلماء على مصراعيه، فجلبوا النخبة منهم، سواء من مختلف بلاد المغرب الأوسط، أو من الأندلس والمغرب الأقصى⁽³⁾.

وقد سجل القلصادي، صاحب الرحلة، أن سوق العلم بتلمسان نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والههم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجهد والإجتهد فيه مرتقبة⁽⁴⁾. لقد كان التعليم منتشراً

(1) هذا لا يعني أن المدينة قبل الحكم الزياني، كانت خارج دائرة التأثير العلمي والإشعاع الحضاري، فالجغرافي البكري الذي عاش خلال القرن 5هـ/11م، يشير إلى أنها " لم تزل داراً للعلماء والمحدثين وحمة الرأي على مذهب مالك بن أنس ". ينظر، البكري: المصدر السابق، ص 77.

(2) استدعى الخلفاء الموحدون الكثير من علماء تلمسان، وإستعملوهم في مختلف الوظائف الإدارية أو القضائية بمراكش، عاصمة الدولة، أو غيرها من مدن المغرب والأندلس، وكان من شأن هذا الوضع بطبيعة الحال أن يقيد تطور الحياة الفكرية بتلمسان في عصر الموحدية، ويحد من إزدهارها ويجعلها تابعة إلى حد بعيد للحياة الثقافية السائدة في مراكش وسائر في خطاها. ينظر: عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 137.

(3) المهدي البوعبدلي: أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 125.

(4) القلصادي أبوالحسن علي: رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع، [ب.ت.]، ص 95.

في شتى مدن الدولة الزيانية ومعظم قراها، وكان ينحصر في مرحلة أولى في تعليم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن، وذلك في الكتاتيب والمساجد، ثم في مرحلة ثانية كان الطلبة يقبلون على دراسة النحو واللغة والأدب والفقه، فينالون بضاعة وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافي لائق، ومن معرفة دينهم والإمام بالعلوم اللسانية. ثم كان الذين يريدون مواصلة دراستهم والتخصص في العلوم، ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة، فيدرسون العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وتوحيد، والعلوم العقلية والاجتماعية والأدب وغيرها، بمزيد من العمق والتفصيل⁽¹⁾.

وفي عهد بني زيان، أسست مدارس تلمسان الخمس، وأول مدرسة أسست بها، هي التي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م)، وعين للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام⁽²⁾. ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1336م) المدرسة التاشفينية، بجانب الجامع الأعظم، فكانت تحفة فنية رائعة. ثم شيدت أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط، مدرسة بقرية العباد⁽³⁾ خارج تلمسان، أمر ببنائها أبو الحسن المريني سنة 748هـ/1347م، كما

(1) عبد الحميد حاجيات: مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 138.

(2) الفقيهان العالمان، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الإمام الفقيه الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام، من أهل برشك، قر بهما سلاطين بنو زيان، ونالو حظوة كبيرة عندهم، امتهنا التدريس والفتيا، وكونا طلبة كثر. ينظر: يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، الجزء الأول، المكتبة الوطنية، الجزائر 1400هـ/1980م، ص 130، وأحمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، إشراف عبد الحميد الهرامة، الجزء 1+2. منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا 1989م، ص 291 وما بعدها.

(3) العباد مدينة صغيرة شبه رنض، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان ينظر حسن الوزان، المصدر السابق، ص 24.

أنشأ ابنه أبو عنان ⁽¹⁾ مدرسة أخرى بجانب ضريح ومسجد الولي الصالح الملقب بالحلوي ⁽²⁾، سنة 754هـ/1353م ⁽³⁾. أما المدرسة الخامسة، فهي المدرسة اليعقوبية، أسسها أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م)، سنة 765هـ/1363م ⁽⁴⁾.

وربما وجدنا أن التعليم يُعطى خارج المدارس، ونقصد به الحلقات الضيقة وبيوتات العلم المشهورة، وهي تكوّن وحدات ثقافية لها إشعاعها وحركيتها بسبب قوة الرابطة بين الشيوخ والأتباع، وبسبب تقيدها بأفكار أساسية تستدعي نضالات خاصة في سبيل الفكر ⁽⁵⁾.

ويلاحظ أن طريقة التعليم الجاري بها العمل آنذاك، كانت طريقة الإلقاء والشرح، يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور في المادة المدروسة، ويتولى الأستاذ شرحه فقرة بعد فقرة، حسب ما تيسر له من غزارة حفظه وسعة إطلاعه، والطلبة يقيدون في كراريسهم ما يستدعي انتباههم من شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة. وإمتازت طريقة التعليم بتلمسان بإعتمادها، بالدرجة الأولى، على البحث والتفكير، وعدم الإكتفاء بالحفظ، فكان لذلك أثر محمود في تشجيع

(1) أبو عنان فارس بن أبي الحسن، الملقب بالمتوكل على الله، بوع للحكم في حياة والده عام 749هـ/1348م، توفي عام 759هـ/1358م ينظر أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا لأخبار ملوك دول المغرب الأقصى -الدولة المرينية - ج3 تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص 182 وما بعدها.

(2) أبو عبد الله الشوذلي الإشبيلي المعروف بالحلوي: ولي قضاء إشبيلية آخر الدولة الموحدية، ثم فر بنفسه من هذه الخطة، وآوى إلى تلمسان في زي المجانين، اشتهر ببيع الحلواء للصبيه والتصدق بثمنها. وذكر يحيى بن خلدون أن قبره مقصود مبارك. ينظر: يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص 128.

(3) ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1990، ص 484، وعبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 138.

(4) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 138.

(5) عبد الحميد مزبان: المرجع السابق، ص 43.

الأذهان وتكوين أجيال صالحة، من كبار العلماء الذين ساهموا مساهمة كبرى في تقديم الحركة العلمية الإسلامية في عصرهم، في شتى المجالات⁽¹⁾.

استقطاب تلمسان للعلماء

حرص حكام و سلاطين تلمسان على مجالسة العلماء والفنانين، وإشتهرت تلمسان بأنها مدينة ثقافية. ومال شعراؤها إلى مدح الملوك مدحا تقليديا، وبرعوا في ذلك وتصنعوا، وكان المجتمع فيها رقيقا متدينا مثقفا⁽²⁾. وقد اتجه الكثير من السلاطين إلى الإحتفاء بالعلماء، ويذكر التنسي أن يغمراسن بن زيان كانت له " في أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا"⁽³⁾، وأنه أقنع -بعد إلحاح طويل- الفقيه العالم أبا إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي⁽⁴⁾ بسكن تلمسان. أما السلطان الزياني أبي حمو الأول فقرب الفقيهين البارزين ابني الإمام، اللذين سيكون لهما دور كبير في إزدهار الحياة الفكرية بتلمسان، عندما إبتنى المدرسة لطلبة العلم، وإبتنى لهما دارين عن جانبيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك، واختصهما بالفتيا والشورى، فكانت لهما في دولته

(1) عبد الحميد حاجيات : المرجع السابق، ص 139.

(2) شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ص 208.

(3) التنسي محمد بن عبد الله : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه، محمود بوعياذ، المكتبة الوطنية، الجزائر 1405هـ/1985م. ص 126.

(4) إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي المطماطي، استوطن تلمسان ودرس بها وإنتفع به خلق لا يحصون. قال عنه أحمد بابا " وإليه الرحلة شرقا وغربا، انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب كلها، ترد عليه أسئلة من تلمسان وبلاد إفريقية كلها ". ينظر، أبو عبد الله محمد بن مرزوق: المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزهراوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1429هـ/2008م. ص 274، 275.

قدم عالية⁽¹⁾، أما السلطان أبو تاشفين الأول حينما بنى المدرسة التاشفينية، نصب الفقيه عمران المشدالي⁽²⁾ للتدريس بها يضاهاى به أولاد الإمام، وتفقه عليه بتلمسان تلاميذ كثير⁽³⁾. وحتى عبد الرحمن ابن خلدون، كان مقربا من دوائر الحكم في بلاد المغرب الأوسط، فقد استقر بتلمسان عام 776هـ/1374م، ودرس لسنين بمدرسة العباد، وأخذ في بث العلم⁽⁴⁾.

يظهر مما تقدّم، أن رجال الحكم في تلمسان لعبوا دورا بارزا في دعم حركة العلم والثقافة، بتشجيعهم للعلماء وحرصهم على إبقائهم فيها، وأنفقوا عليهم المال، وإبتنوا لهم المدارس ودور العلم، وهذا غاية ما يصبوا إليه أي عالم، الذي يطمح إلى إكتساب الإحترام وتحصيل نصيب من المال يضمن له قوت يومه ويحفظ كرامته في نفوس الخاصة والعامة .

لذلك سيكون من الطبيعي أن تستقطب تلمسان العديد من علماء بلاد المغرب والأندلس، فقد كان حظّها من المهاجرين الأندلسيين وافرا. فمن الوافدين عليها من الأدباء أبو بكر ابن الخطاب⁽⁵⁾، فقد كان - حسب ابن خلدون - مرسلا بليغا وكاتبا مجيدا وشاعرا محسنا

(1) ابن خلدون: العبر، مج7، ص 206-207.

(2) عمران بن موسى المشدالي، البجائي الأصل، ولد عام 670هـ/1271م، كان فقيها حافظا علامة، درس الحديث والفقه والفرائض والمنطق والجدل، وكان كثيرا الإتساع في الفقه والجدل، كون تلاميذ عدة أبرزهم، العلامة أبو عبد الله أحمد المقرئ، توفي الفقيه المشدالي عام 745هـ/1344م. ينظر يحيى بن خلدون: بغيه الرواد، ص 121، وأحمد بابا، نيل الإبتهاج، ص 350 وما بعدها.

(3) ابن خلدون: العبر، مج7، ص 854.

(4) المصدر نفسه: ص 1038-1039.

(5) محمد بن عبد الله بن داود بن الخطاب الغافقي، نزيل تلمسان، من أهل مرسية، وكان من أبرز الكتاب خطا وأدبا و شعرا ومعرفة بأصول الفقه. كتب بغرناطة عن ملوكها، وقفل إلى مرسية، وقد إختلت أمورها، فأرتحل إلى تلمسان، وكتب بها عن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان. ينظر، يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ص 129.

فاستكتبه⁽¹⁾. كما إستقطبت تلمسان، أبا عبد الله التجيبي، المتوفى عام 610هـ/1213م، وهو محدث من أهل إشبيلية، قدم المغرب فحدث بفاس سنة 594هـ/1198م، ثم بسبته وتلمسان، وبها استقر إلى أن توفي سنة 610هـ/1213م. وألف معجم شيوخه ومعجم شيوخ أبي طاهر السلفي، وأربعين حديثا وغيرها⁽²⁾.

وأول ما يلاحظ في هذا المجال، هو إنصراف أغلب العلماء، في هذه الفترة إلى العلوم الدينية، متأثرين إلى حد بعيد بالإصلاح الديني، الذي دعا إليه الموحدون، والذي كان يؤكد على ضرورة الرجوع إلى الأصول من كتاب وسنة⁽³⁾، وترك الفروع، فأغلب علماء هذه الفترة يولون علوم القرآن والحديث أهمية كبرى ويخصصون لها معظم إنتاجهم⁽⁴⁾، ولربما هذا الأمر هو الذي يفسر لنا أنّ حلقات العلوم العقلية كانت متنقلة بين المدارس والبيوت لأنها محدودة الإنتشار، ويعد أصحابها من الهواة المترددين ما بين العلانية والتستر خوفا من التهم الموجهة إليهم من الفقهاء. وكان الحذاق من

(1) ابن خلدون: العبر، مج 7، ص 163.

(2) رشيد بورويبة وآخرون: الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي، ج 3، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 342.

(3) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 137.

(4) كان الموحدون يعتقدون أنّ صراعهم ضد المرابطين، لم يكن صراعا سياسيا محضا، ولكنه صراع فكري و إيديولوجي بالدرجة الأولى. لذلك فقد رأوا في انتصارهم السياسي إنجازا لشطر واحد من مشروعهم "الإصلاحي" فقط، وبقي عليهم إنجاز الشطر الآخر عن طريق زعزعة البنية الذهنية المرتكزة على القالب الفروعى و العقيدة السلفية، وطرح بديل لكل ذلك، هذا التصور هو الذي كان أساس صراعهم ضد فقه الفروع. ينظر، محمد المغراوي: مساهمة في دراسة النظم بالغرب الإسلامي، خطة القضاء بالمغرب في الدولة الموحدية (515-668هـ/1121-1269م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، إشراف، محمد زبير، السنة الجامعية 1986-1987، ص 77.

أهل هذه التعاليم يخالطون رجال الشريعة ويبحثون فيهم روح العقلانية، وقد تشبع بها الكثير من الفقهاء وأهل التوحيد⁽¹⁾.

وبقدر ما استقطبت تلمسان من العلماء الذين وفدوا عليها كحاضرة علمية وثقافية، تشجع العلماء والطلبة على استيطانها، بقدر ما أنجبت المدينة الكثير من ابنائها⁽²⁾، الذين نبغوا في مختلف العلوم والفنون، وكان لهم من التأثير والإشعاع الذي تجاوز تلمسان والمغرب الأوسط إلى بلاد المغرب الإسلامي كلها وحتى المشرق الإسلامي.

ويمكن أن نشير إلى بعض من هؤلاء -على سبيل المثال لا الحصر- الذين برزوا كأعلام في حقول العلم والمعرفة، كأبي عبد الله محمد بن محمد المقرئ، الذي ولد بتلمسان في عهد أبي حمو الأول، كان مشاراً إليه بالإجتهد والحفظ وسعة الإطلاع، يقوم أتم قيام على الفقه والتفسير والعربية، ويحفظ الأخبار والحديث والتاريخ ويشارك بإجتهاده في الأصلين والجدل والمنطق ويكتب الشعر، ويتكلم في طريق الصوفية ويعتني بالتدوين فيها. صحب أبا عنان المريني سنة

(1) عبد المجيد مزبان : المرجع السابق، ص 43.

(2) ظهر في مدينة تلمسان العديد من بيوتات العلم، كأسرة المرزوقة التي اشتهرت على العهد الزياني، بل إن البعض من أفرادها العلماء، أشاعوا في كامل بلاد المغرب الإسلامي، وحتى مشرقه. و من أبرز علماء هذه الأسرة، محمد بن مرزوق الخطيب، المتوفى سنة 781 هـ / 1379 م، وابن مرزوق الحفيد، المتوفى سنة 814 هـ / 1439 م، و الفقيه ابن مرزوق الكفيف، المتوفى سنة 908 هـ / 1495 م، و الخطيب السبط محمد بن مرزوق، المتوفى سنة 920 هـ / 1514 م، و غيرهم من العلماء النجباء الذين أنجبهم تلك الأسرة العلمية المباركة. ينظر. نصر الدين بن داود: بيوتات العلم بتلمسان من القرن 7 هـ / 13 م إلى القرن 10 هـ / 16 م، دكتوراه في التاريخ الوسيط، مرقونة، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، قسم التاريخ و علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، إشراف، أ.د محمد بن معمر، السنة الجامعية (1430-1431 هـ / 2009-2010 م)، ص 88 و ما بعدها .

749هـ/1358م إلى فاس، فولي القضاء بها ودرّس بها، إلى أن توفي فيها سنة 759هـ/1358م،

فحمل إلى تلمسان ودفن بها (1).

كما برز أبو عبد الله محمد الشريف الحسني، المعروف بالشريف التلمساني، وصفه التمبكتي بإمام أهل المغرب قاطبة، عالما بعلوم جمة من المنقول والمعقول. وممن صرح ببلوغه درجة الإجتهد، الإمام الخطيب ابن مرزوق الجد (2) في رسالته التي رد فيها على أبي القاسم الغبريني. أخذ عن أبي موسى عمران المشدالي، وأبي محمد عبد الله المجاصي وغيرهما، وظهرت نجابته في مختلف العلوم من معقول ومنقول، ودرس التنجيم والرياضيات. وقد تخرج عليه كثير من مشاهير العلماء، مثل ولده أبي عبد الله، وأبي إسحاق الشاطبي، وعبد الرحمان بن خلدون، وأخيه يحيى. وكان علماء الأندلس أعرف بقدرته وأكثرهم تعظيما له، حتى أن العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب، كان إذا ألف تأليفا بعثه إليه وعرضه عليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه. ولد سنة 710هـ/1310م، توفي سنة 771هـ/1369م (3).

(1) أحمد بابا : نيل الإبتهاج، ص 425-424، وعبد الحميد حاجيات : المرجع السابق، ص 144-143.
 (2) محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب، ولد عام 711هـ/1311م، وهو محدث فقيه، قال عنه صاحب كتاب فهرس الفهارس "ابن مرزوق فخر المغرب على المشرق"، له شرح العمدة في الحديث، وضع شرحا لابن الحاجب سماه "إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب"، ينظر : بغية الرواد، ص 115، ونيل الإبتهاج، ص 450، وعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني : فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية 1402هـ/1982م، ص 251.
 (3) أحمد بابا : نيل الإبتهاج، ص 430، وما بعدها، ومحمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج2، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ/2008م، ص 35-36، وعبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 143-142.

وفي ميدان الشعر، برز محمد بن خميس التلمساني، فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أنه فحل الألوان في النظم المطول، أقدر الناس على إجتلاب الغريب، ومزج الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها . كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان، ثم فرّ عنهم، وقد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجري بأبواب الملوك . وشعره بديع، ومن ذلك، قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الحكم، وهي من مشاهير أمداحه. -من الطويل-

سَلِ الرِّيحَ إِنْ لَمْ تَسْعِدِ السَّفِينِ أَنْوَاءُ

فَعِنْدَ صِبَاهَا مِنْ تِلْمَسَانَ أَنْبَاءُ

وَفِي خَفَقَانِ الْقَلْبِ مِنْهَا إِشَارَةٌ

إِلَيْكَ بِمَا تُنْمِي إِلَيْهَا وَإِمَاءُ

سَمَرُ اللَّيَالِي لَيْلَةٌ بَعْدَ لَيْلَةٍ

وَلِللأُذُنِ إِصْعَاءٌ وَلِلْعَيْنِ إِكْلَاءُ

وَإِنِّي لِأَصْبُو لِلصَّبَا كُلِّمَا سِرْتُ

وَلِلنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ أَصْبَاءُ

وَأَهْدِي إِلَيْهَا كُلَّ حِينٍ تَحِيَّةً

وَفِي رَدِّ إِهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إِهْدَاءٌ⁽¹⁾.

و يذكر أنه كان للجالية الأندلسية، تأثير واضح في الحركة العلمية و الثقافية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين (14-15م)، فقد عُرف عن الأندلسيين تفوقهم في مختلف العلوم بصفة عامة و الفنون خاصة، و هذا ما جعل المجتمع الزياني يستفيد من معارفهم الأدبية والعلمية⁽²⁾.

تاهرت

تعتبر تاهرت من المدن البارزة في بلاد الغرب الإسلامي، فقد كانت حاضرة علمية هامة، تركت آثارها وبصماتها الواضحة في حقل الثقافة والعلوم المختلفة. وقد سجلت كتب التاريخ والرحالة والجغرافين، هذا الدور الحضاري البارز للمدينة.

يذكر صاحب كتاب الإستبصار، أن من مدن المغرب الأوسط المشهورة، مدينة تاهرت⁽³⁾، وهي مدينتان كبيرتان أحدهما قديمة أزلية والأخرى محدثة، والقديمة ذات سور، وهي على جبل ليس

(¹) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، مج 2، تحقيق، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى 1394هـ/1974م، ص 529، وما بعدها، و طاهر توات : ابن خميس التلمساني، حياته وآثاره، الملكية للنشر، الحراش، الجزائر، الطبعة الأولى 2007، ص 61.

(²) محمد بو شقيف : تطوّر العلوم بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين (14-15م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، مرقونة، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، قسم التاريخ و علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، إشراف، أ.د لخضر عبدلي، السنة الجامعية (1431-1432هـ / 2010-2011م)، ص 32.

(³) كاتب مجهول : الإستبصار، مصدر سابق، ص 178.

بالعالي وبها كثير من الناس، وفيها جامع، وفي المحدثه أيضا جامع⁽¹⁾. وبين مدينة تاهرت وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد، وهي كثيرة الضباب والأمطار⁽²⁾.

لم تكن تاهرت في البداية سوى معسكرا للقبائل البربرية، المعتنقة للمذهب الإباضي⁽³⁾، غير أن عبد الرحمن بن رستم⁽⁴⁾، مؤسس الدولة الرستمية (160-269هـ/777-909م)، نجح في جمع تلك القبائل، وقام بابتناء مدينة تاهرت التاريخية المعروفة⁽⁵⁾. اتخذها الإباضية عاصمة لهم، وهي على منحدر يشرف من علو قدره ألف متر على سبب للمرعى، وفيه ينتجع الرحل في فصل الصيف، ويبدلون محصول ماشيتهم بحبوب التل⁽⁶⁾.

(1) ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [ب.ت.]، ص 86.

(2) ياقوت الحموي الرومي : معجم البلدان، ج 2، المادة تاهرت، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية 1995، ص 07

(3) ينتسب أتباع هذا المذهب إلى عبد الله بن إباض، الذي خرج أيام مروان بن محمد . فمن آرائهم أن مخالفتهم من المسلمين ليسوا مشركين ومناكحتهم جائزة ومواراتهم حلال وغنيمتهم أموالهم من السلاح والكرام عند الحرب حلال، وما سواه حرام . وهم عدة فرق : الحفصية، كان إمامهم حفص بن أبي المقدم، واليزيدية، أصحاب يزيد بن أنيسة، والحارثية، أصحاب الحارث الإباضي. ويلاحظ وجود طوائف من الخوارج الإباضية في المغرب، عرفوا بالتطرف، كأبي يزيد مخلد بن كيداد الذي ظهر في القرن 4هـ/10م، وتورد الكثير من المصادر أن الخوارج النكار الإباضية هم الغالبون على خوارج المغرب. ينظر : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : مقالات الإسلاميين، ج1، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الحدائث، بيروت، الطبعة الثانية 1405هـ/1985م، ص 169، وما بعدها، والشهرستاني أبو الفتح محمد عبد الكريم : الملل والنحل، تحقيق، عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت [ب.ت.]، ص 134-135-136.

(4) عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، تجمع جميع المصادر على انتمائه إلى الفرس، نسبته لطبقة الحكام الأكاسرة. بنى مدينة تاهرت عاصمة الإمارة الرستمية، وبويع بأمانة الملك الجديد عام 160هـ/777م، وقيل عام 162هـ/779م، ينظر : أبو العباس أحمد ابن سعيد الشماخي: كتاب السير، تحقيق محمد حسن، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 1995، ص 42-43، محمد بن موسى بابا عمي وآخرون : معهم معجم أعلام الإباضية، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1421هـ/2000م، ص 246-247.

(5) دخل ابن رستم تاهرت، وكان في تعدادة 6 آلاف إباضي، وبجوزته مبلغ من المال في حدود 40 ألف درهم، ينظر : E.F : GAUTIER : LE passe de l'afrique du nord. les siècles obscurs. payot. paris, 1952, p 303

(6) شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ص 43.

غير أنه تجب الإشارة، إلى أن وفرة المياه، كان عاملا حاسما في تشييد المدينة في المكان الذي بنيت فيه، حيث أشار ابن حوقل أن لسكانها مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم⁽¹⁾. أما صاحب كتاب الإستبصار، فيشير أن المدينة أقيمت على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب، يسمى منية، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس، ومنه تشرب أرضها⁽²⁾. وكان من نتيجته إزدهار الفلاحة في سهول تاهرت، حيث كثرت بساينها وتعددت ثمارها، وكانت تُنتجُ سفرجلا يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة⁽³⁾. وهكذا سرعان ما تحولت المدينة إلى قوة جديدة، بعيدة عن الطريق الساحلي وعن القيروان⁽⁴⁾. وعرفت المدينة المستحدثة فترة رخاء، نتيجة الثروة الفلاحية للجهة واستقطابها للتجارة الصحراوية الكبرى وتجارة المشرق، وما نتج عن ذلك من ترسيب كميات كبيرة من الذهب والفضة . وعرفت تاهرت إقتصادا نقديا نشيطا نتيجة الأموال القادمة من التجارة والفلاحة والضرائب. وعليه فقد تجمعت هنا ثلاث مصادر رئيسة للربح: الشكل البدائي وهو تربية الماشية، والثروة الفلاحية، والتجارة الخارجية⁽⁵⁾.

وكانت تاهرت مسورة، أي تحيطها الأسوار، ولها أربعة أبواب وهي :

- باب الصفا من الجهة الشرقية.

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86.

(2) كاتب مجهول : الإستبصار، ص 178.

(3) المصدر نفسه: ص 179.

(4) لقد إنتقل الصراع على الحكم بين الأمويين والخوارج من المشرق، إلى بلاد المغرب ، ودارت معارك عديدة في طرابلس والقيروان وغيرها من الأماكن .وبعد إتصال الحرب، اتجه الإباضية إلى تاهرت بعيدا عن سلطة الدولة الأموية بالقيروان .

(5) الباروني النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم الثاني، مطبعة الأزهار البارونية، الجزائر، ص 19. 30، ومحمد بن حسن : القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط. دار الرياح الأربع للنشر، تونس [ب.ت]، ص 155-156.

- باب المطاحن من الجهة الغربية.

- باب الأندلس في شمال المدينة.

- باب المنازل في جنوبها وتستعمله القوافل القادمة من الصحراء⁽¹⁾.

إن هذا الرخاء الإقتصادي الذي عرفته المدينة، وما نعمت به من استقرار سياسي وعافية في أحوالها الأمنية، رافقته نهضة علمية و فكرية كبيرة، سجلتها لنا كتب مصادر التاريخ، خاصة كتب التراجم والطبقات والرحلات.

ويذكر أنه، عندما أسس عبد الرحمان بن رستم مدينة تاهرت، كان المسجد أول بناء وضع في المدينة على عادة المسلمين. فكان النواة التي تلقى فيها العلماء ثقافتهم بفضل حرية المناظرة والجدل التي كانت سائدة في ذلك المسجد⁽²⁾.

وقد توافد الخوارج من مصر والعراق والجزيرة العربية وفارس على تاهرت، التي أصبحت مركز إشعاع قوي لجميع الخوارج. وكانت تاهرت تحتضن فرقا أخرى للصفرية والمعتزلة⁽³⁾، على مقربة من

(1) البكري: المصدر السابق، ص 26-27، وأحمد سليمان: تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبية. الجزائر 2007، ص 82 - 83.

(2) بشير رمضان التليسي: الإتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن 4هـ/10م، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، ص 90.

(3) المعتزلة أو القدرية، هي طائفة كانت نشأتها في بلاد العراق، التي كانت مهدا للحضارتين الفارسية والسامية، والتي أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة في عهد العباسيين. وقد سموا القدرية أيضا لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان. وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعيد، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينظر: الشهرستاني: المصدر السابق، ص 10-11.

تاهرت يبلغ عددهم ثلاثة آلاف، كانت هذه الفرق والمذاهب تتمتع بحرية الفكر. فكان لكل منها مسجدها وعلمائها وحلقات دروسها⁽¹⁾. و قد فتح الرستميون المجال واسعا أمام حرية الفكر، فلم يضايقوا أحدا ولا طردوا مخالفا، بل إنَّ من أتى إلى حلقات الإباضية من غيرهم قريبه و ناظروه أطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلقات غيرهم كان يجد سعة الصدر في النفس⁽²⁾. ويورد الشماخي أن العالم أبا تميم درج على عادة تتمثل في جمع علماء الفرق يتناظرون بين يديه، خاصة المعتزلة حيث أثاروا العديد من النقاشات المتعلقة بأسماء الله⁽³⁾. كما أن أمراء بني رستم شملوا الثقافة الدينية والأدبية برعايتهم، حتى نهضت نهضة عامة في تاهرت ونواحيها. فكان كل هؤلاء الأئمة رجال علم وأدب وعلماء دين ورؤساء مذهب، يتطلب منهم كل هذا أن تكون لديهم ثقافة متينة، وأن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم. فالغلبة في هذه المناظرات والمناقشات لمن كان أكثرهم ثقافة وأرجحهم عقلا⁽⁴⁾. فقد كان الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (208-258هـ/ 823-871م) مشغوبا بنشر العلم حيث كان يجلس إلى أربع حلقات، وهو لا يزال صغيرا، وكان يحرص على القراءة وتلقي العلم ويقول لأتباعه: عليكم بقراءة كتب المسلمين⁽⁵⁾. وزيادة على ذلك كان الأمراء الرستميون، يعقدون مجالس للعلم والتعليم، يعلمون الناس ويلقون عليهم في المساجد

(1) محمد الطمار: المرجع السابق، ص 94-93.

(2) إبراهيم بكير بحاز: الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات ألفا، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1431هـ/2010م، ص 396 - 397.

(3) الشماخي: كتاب السير، المصدر السابق، ص 319.

(4) محمد الطمار: المرجع السابق، ص 94.

(5) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 91.

دروسا في التفسير والحديث والفقہ وعلم الكلام والأدب والعلوم الرياضية والتنجيم⁽¹⁾. كما تركزت الحياة الفكرية على لون آخر من فنون الآداب، وهو كتابة السير، وخاصة المتعلقة بالعلماء و أشياخ المذهب و الحكام (=الأئمة)⁽²⁾. وكانوا يجتهدون في نقل كل ما يصدر من كتب ذات شأن في بلاد المشرق الإسلامي، وخصوصا في بلاد عُمان، حتى أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان الرستمي (171-208هـ/787-823م) ابتاع من البصرة في دفعة واحدة حمل أربعين بعيرا من الكتب، وهي الأحمال التي نقدّرها بالوزن العصري بما لا يقل عن عشرة أطنان من الكتب، ابتيعت من البصرة في مجرد دفعة واحدة، ولقد أودعت هذه الكتب وسواها قبلها أو بعدها، في أول مكتبة عمومية أسّست في تاهرت، وهي المكتبة التي أطلق عليها المعصومة⁽³⁾. كما ابتكر الأمراء الرستميون نظام التعليم المتنقل بالبوادي ليستفيد منه الرّحل ومربو المواشي وابنائهم، فكانوا يخصصون قيمة تقوم مقام مدرسة، وأخرى للصلاة، ويتبعهم هذا الجهاز كلّما حلّوا بجهة أخرى⁽⁴⁾.

(1) محمد الطمار : المرجع السابق، ص 94.

(2) صالح معيوف مفتاح: جبل نفوسة و علاقته بالدولة الرستمية من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أواخر القرن الثالث الهجري، أطروحة الدكتوراه، مرقونة، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، إشراف، محمد حمام، السنة الجامعية 2000-2001، ص 87.

(3) عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، طبعة 2009، ص 45.

(4) إبراهيم حركات : المرجع السابق، ج1، ص 25-26.

كان لرعاية الأئمة الرستمين، وحبهم للعلم أثره الواضح في نشر الثقافة والعلوم في إمارتهم، إذ تشير كتب الطبقات والتراجم إلى عدد غير قليل من علماء الإباضية الذين أسهموا في تأكيد وتثبيت القاعدة الثقافية داخل الإمارة الرستمية، وبخاصة في تاهرت⁽¹⁾، ومن هؤلاء وأشهرهم:

- الشيخ مهدي النفوسي :

كان إماما في المناظرة، والجدل، دعاه الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لمناظرة رأس المعتزلة الواصلية⁽²⁾، بتاهرت، فناظره وانتصر عليه. على أن شهرة علماء الإباضية تكمن في تخصص كل عالم في علم معين. فهذا محمد بن يانس كان عالما في الحلال والحرام، والشيخ مهدي النفوسي كان إماما في الجدل والمناظرة. وهكذا كان علماء تاهرت وجبل نفوسة وجربة في الغالب علماء متخصصين في فن من فنون المعرفة، بحيث يكون العالم رأسا في العلم الذي يخصه⁽³⁾.

- عمرو بن فتح :

وصفه الدرجيني، بأنه بحر العلوم الزاخر، الضابط الحافظ المحتاط المحافظ، لازم الدرس والإجتهد. وكان عالما كبيرا له تواليف في الأصول والفروع، وهو أول من حاول أن يؤلف متبعا لثلاثة

(1) بشير رمضان التليسي : المرجع السابق، ص 92.

(2) هم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء، كان تلميذا للحسن البصري، يقرأ عليه العلوم والأخبار. يدور اعتزال الواصلية على أربع قواعد : الأولى، القول بنفي الباري عز وجل، الثانية، القول بالقدر، الثالثة، القول بالمنزلة بين المنزلتين، الرابعة، القول في الفريقين من أصحاب الجمل، وأصحاب صفين، أن أحدهما مخطئ لا بعينه. ينظر : الشهرستاني : الملل والنحل، المصدر السابق، ص 46 مابعدا.

(3) الدرجيني : المصدر السابق، ج2، ص 313-314، وبشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص 92.

قواعد وهي الكتاب والسنة، والرأي، ويجعل كل قاعدة. وقال الباروني أن عمروسا بقي متفرغاً لطلب العلم مدة عشرين سنة كاملة⁽¹⁾.

-أبو الحسن علي بن أبي الرجال التاهرتي :

المتوفى سنة 426 هـ/1035 م، هو من أسرة عربية من شيبان، تتجاذبه ثلاث جهات : المغرب الأوسط الذي تنتمي إليه أسرته في تاهرت، والأندلس التي قضى بها شطرا من حياته، وأفريقية التي اكتسب بها الجاه والشهرة. كان على ثقافة واسعة تجمع بين الشرعيات والأدب والرياضيات. ولابن أبي الرجال أرجوزة فلكية، لكن شهرته قامت على كتابه البارع في أحكام النجوم، والذي تجاوز أربعمئة صفحة، فقد تُرجم هذا الكتاب إلى القشتالية القديمة سنة 1256م، على يد يهوذا بن موسى. ومن الإسبانية نُقل إلى اللاتينية، حيث طبع لأول مرة سنة 1385م⁽²⁾.

إنّ تلك النهضة العلمية والثقافية والحضارية التي عرفتها تاهرت، كان وراءها أمراء الدولة الرستمية، التي كانت تنافس الدولة العباسية، فصمم الأئمة على أن لا تكون دولتهم متخلفة، ولاسيما في الميدان الثقافي. فأخذوا بتلايب العلم، وأرسلوا البعثات إلى المشرق، فيرجعون مزودين بالعلوم وبأنفس الكتب العربية والفارسية. وكانت العائلة الرستمية تعرف اللغة الفارسية وتحافظ عليها، إنها لغة أجدادهم، ولغة العلم والحضارة القديمة. وكان لهم مترجمون يحسنون الفارسية يترجمون تلك الكتب⁽³⁾.

(1) الدرجيني : المصدر السابق، ص 320، ومابعدهما، الباروني النفوسي، المصدر السابق، ص 253-254.

(2) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 438.

(3) محمد الطمار : المرجع السابق، ص 95.

ومهما يكن الأمر، فإن الحياة الثقافية في تاهرت، كان يقودها عدد من العلماء، يشرفون على تنظيمها من خلال حلقات الدروس التي كانوا يقيمونها بين العامة لتلقينهم مبادئ العبادات، أو بين طلاب العلم في الفقه، وعلم الكلام، واللغة والنحو، وغيرها من ضروب المعرفة. على أن أساس هذه القاعدة الثقافية في المدينة، كان المسجد لما له من ميزة على تنشئة الأطفال تنشئة دينية، تُمكن المبتدئ من الإنطلاق لتأسيس كيانه الثقافي الذي تحدده مواهبه وقدراته⁽¹⁾.

فاس

تقدّم لنا المصادر القديمة فيضا من المعلومات التاريخية حول مدينة فاس، كلها تقريبا تتفق على أهمية موقعها، وغناها بالمياه والغابات والسهول، وهي مقومات ترشح أي مدينة صغيرة للنماء والتطور.

ويذكر لنا ياقوت الحموي، أن فاساً، مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه . وفاس مختطة بين نثيتين عظيمتين، وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه⁽²⁾. أما صاحب كتاب الإستبصار، فيسترسل في وصف الثروة المائية للمدينة، فيقول إن نهرها كبير غزيرالماء عليه أرحية كثيرة⁽³⁾. وهذا النهر تتفرع عنه جداول مائة

⁽¹⁾ بشير رمضان التلسي : المرجع السابق، ص 94.

⁽²⁾ ياقوت الحموي : المصدر السابق ج 4، ص 230.

⁽³⁾ كاتب مجهول : الإستبصار، المصدر السابق، ص 180.

هامة عددها ثمانية تشق المدينة، عليها نحو ستمائة رحي في داخل المدينة، كلها دائرة لا تبطل ليلا ولا نهاراً⁽¹⁾.

وقالت الحكماء قديما، أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي : النهر الجاري، والمحرت الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها، وكف جبارتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها، وزادت عليها بمحاسن كثيرة، فلها من الحرت العظيم، سقيا وبعلا على كل جهة منها، ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبلتها، يصبح كل يوم على أبوابها من أحمال حطب البلوط، والفحم مالا يوصف كثرة، ونهرها يشقها نصفين، ويتشعب في داخلها أنهارا، وجداول وخلجانا، فتتحلل الأنهار ديارها وبساتينها، وجنائها، وشوارعها، وأسواقها، وحمّاماتها، ويطحن بها أرحاؤها، ويخرج منها وقد حمل أثقالها، و أقدارها، ومادتها⁽²⁾. وبالإضافة إلى هذا، كانت توجد بعين المكان مواد كثيرة الضرورية للبناء من طين وحجر وجبس وجير، كانت تنتشر بوفرة على منحدرات واد فاس⁽³⁾.

وتضيف بعض الدراسات التاريخية المتأخرة إلى هذه المزايا الطبيعية، أن هذا الموقع يتوفر على خاصية جغرافية أخرى لبناء المدن، تتمثل في كون واد فاس، كما نحتته الطبيعة، لا يحتاج لا إلى

(1) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 230.

(2) العربي أكتينح : تأسيس أول دولة عربية إسلامية في المغرب الأقصى، قيام الدولة الإدريسية، نشأة مدينة فاس، مطبعة أميمة، فاس، المغرب، الطبعة الأولى، 2008، ص 30.

(3) المرجع نفسه: ص 32.

إعداد، ولا إلى صيانة ولا إلى حراسة، بحيث لا تستطيع لا هجمات القبائل البربرية المتاخمة، والغير منسجمة فيما بينها، ولا قوة عسكرية معادية أن تتدخل في تغيير مجراه، أو الإستحواذ ولو على نقطة ماء منه⁽¹⁾.

وأخيرا، فإن فاس تقع في ملتقى الطرق التجارية، فهي تربط بين السهول الأطلسية والمغرب الشرقي، مروراً بممر تازة المؤدي أيضاً إلى بلدان المغرب الكبير، ومنها إلى المشرق من جهة، ومن جهة أخرى، توجد على الطريق التجاري الهام الرابط بين الشمال والجنوب، والمنطلق من مدينة نكور (=الحسيمة الحالية) في اتجاه سجلماسة⁽²⁾، ومنها إلى بلاد السودان، حيث يوجد الذهب. ففاس إذاً كانت مهياًة، منذ البداية، لأن تصبح مدينة تجارية مهمة في هذا الموقع الاستراتيجي والممتاز من بلاد المغرب⁽³⁾.

تذهب معظم مصادر كتب التاريخ، أن إدريس الثاني (213-221هـ/828-836م)، لما عظم ملكه، وإستقامت له الأمور، وكثر أنصاره وحشمه، ممن وفد عليه من العرب والبربر من أفريقيا والأندلس، وضافت بهم وليلي، عزم على الإنتقال منها، وتأسيس مدينة جديدة، يسكنها هو وخاصته، وجنوده وأهل دولته.

⁽³⁾ GAUTIER (E.F) :le passé de l'afrique du nord.les siecles obscurs ,payot ,paris 1952 P 295.296

⁽²⁾ سجلماسة ، مدينة أسسها مدرار بن عبد الله سنة 140هـ/757.758م، وهي على طرف الصحراء، بينها وبين غانة والصحراء مسيرة شهرين في رمال وجبال غير عامرة قليلة الماء، يسكنها قوم مستوفة رخالون. ينظر: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م، ص 144، وشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م ص186، وكاتب مجهول: الإستبصار، ص 200. 201.

⁽³⁾ العربي أكنينج : المرجع السابق، ص 32.

بوشر ببناء المدينة في ربيع الأول سنة 192هـ/828م، على الضفة الشرقية لنهر فاس، ووضع إدريس الثاني حجر الأساس بنفسه، بعد أن دعا للمدينة الجديدة أن يجعلها الله دار علم وفقه، يتلى بها كلام الله، وتقام بها حدوده، كما دعا لأهلها أن يجعلهم الله متمسكين بالسنة والجماعة طالما بقيت المدينة، وبدأ ببناء الأساس، ثم دور الإمام، والمسجد الجامع الذي عرف بجامع الأشياخ، وأحيط البناء بسور من الخشب و القصب، وكان فيه ستة أبواب⁽¹⁾، وأصبحت في عصر الجزائاني أحد عشر باباً⁽²⁾.

بدأ العمل في بناء مدينة فاس بعدوة الأندلس، وأدارها بالسور من ناحية القبلة. وقد أقام بها ثلاثمائة أسرة، جاءت من قرطبة، بعد أن ثاروا على الحكم الأول الأموي (180-206هـ/796-821م)، برىض هذه المدينة الغربي بزعامة يحيى بن يحيى الليثي، وقد أرغم هؤلاء على الهجرة إلى فاس والأسكندرية وأقاموا بها⁽³⁾.

وأما عدوة القرويين، فإنها أسست سنة 193هـ/809م. فقد أقام إدريس الثاني بالموضع المعروف بالمقرمدة، وأصبح يعرف فيما بعد بدار القيطون، ومن هناك راح يوجّه عمليات البناء

(¹) ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب، ص 38، وعلي الجزائاني : جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1387هـ/1967م، ص 233.

(²) وهي :باب الفتوح، وباب الخوخة، وباب بني مسافر، وباب الجيسة، وباب يصلتين، وباب الشريعة، وباب المطمر، وباب الوادي، وباب الحديد، وباب زيتون ابن عطية، وباب الجيزين، ينظر الجزائاني : المصدر السابق، ص 43.

(³) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 318. 319.

والتشبيد، فبدأ سورها من رأس العقبة، وفتح هناك باباً أسماه باب إفريقية⁽¹⁾. فوفد على العدو ثلاثمائة أسرة جاءت من القيروان، تاركين بلادهم لنفس الأسباب التي أدت إلى هجرة الأندلسيين⁽²⁾.

و إلى جانب هؤلاء القوم، وفد على إدريس، في تلك الأيام أيضاً، جماعة أخرى من الناس، من بلاد العراق، فأسكنهم بناحية عين علون، حسب رواية ابن أبي زرع⁽³⁾. وهكذا وبفضل هؤلاء المهاجرين، نمت مدينة فاس بسرعة، فالأندلسيون جلبوا معهم تجربة رائدة في ميدان البناء، والبستنة والصناعة التقليدية. والقيروانيون حملوا معهم الأموال والخبرة في إدارة الأعمال. إلا أن هاتين الحضارتين ظلتا لمدة طويلة، خاصة في أيام خلفاء إدريس بن إدريس، تعيشان داخل أسوارهما منفصلتين عن بعضهما البعض، تناصب كل واحدة منهما الأخرى العدا، ويحكمها عاملان، كل واحد مستقل بعدوته يدير على حدى أمور جماعته، في إنتظار من يلتمّ الشمل ويوحد المدينة في بوتقة واحدة، كما سيحصل أيام المرابطين و الموحدين بعددهم⁽⁴⁾.

(1) إسماعيل العربي : دولة الأدارسة، ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 83.

(2) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 319.

(3) ابن أبي زرع : المصدر السابق، ص 39.

(4) العربي أكتينح : المرجع السابق، ص 42.

الدور الحضاري لمدينة فاس

إن إدريس الثاني لم يشيد مدينة فقط، بل أسس أول دولة للمغرب الأقصى⁽¹⁾. وهكذا سوف يتعاظم دور هذه المدينة وتكتسب أهمية كبرى نظرا لدورها السياسي⁽²⁾. ولكن هذا الدور السياسي سيرافقه نهضة علمية وفكرية عظيمة. ونبغ من علماء المدينة أعداد كثيرة في حقول علمية مختلفة، كما استقطبت الكثير من رجال العلم من مختلف أصقاع الغرب الإسلامي قاطبة .

جامع القرويين

إنّ الهجرة المختلفة للكثير من الأسر القيروانية والأندلسية، قد أدى إلى أن تتحول مدينة فاس إلى مركز هام من مراكز الإشعاع الثقافي والديني والاجتماعي، يضاهاي القيروان وتونس وقرطبة وغيرها، لاسيما بعد أن أنشأت فاطمة الفهرية القيروانية، جامع القرويين بالمدينة، الذي أصبح فيما بعد جامعة علمية ودينية كان لها دور عظيم في نشر الحضارة والعلم والثقافة العربية الإسلامية على مدى قرون وقرون⁽³⁾.

تروي مصادر التاريخ أن هذا الجامع أسس في عدوة القرويين غربي فاس، على عهد الإمام يحيى بن محمد بن إدريس، الذي حكم بداية من سنة 234هـ/849م إلى سنة 245هـ/859م. بعد أن ضاق جامع الأشياخ بوارديه، وأن بانيتها هي السيدة فاطمة أم البنين، وهي من أسرة عربية فهرية

(1) شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ص 58.

(2) Abdallah Laroui ;L'histoire du maghreb un essai de synthèse.centre culturel arabe casablanca .1995 p.105

(3) محمد الفاضل بن عاشور : المحاضرات المغربية، جمع وإعداد عبد الكريم محمد، الدار التونسية للنشر، 1974، ص 14.

قبروانية⁽¹⁾، هاجرت إلى المغرب واستقرت بالعدوة القروية من مدينة فاس. وكان المسجد في ذلك الوقت على شكل مربع تقريبا ومساحته 1248م مربعا، وبعد مدة تقرب من قرن إستدعت الحاجة إلى توسيعه، وقد تحقق ذلك في سنة 322هـ/934م، على يد حاكم فاس أحمد بن أبي بكر الزناتي، على عهد الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمان الناصر، الذي كان مسيطرا بنفوذه على المغرب في ذلك الوقت. وكانت هذه الزيادة في جهات المسجد الثلاث: الشرق والغرب والجنوب. وكان مقدارها 2748م مربعا، فصارت مساحة المسجد حينئذ 3996م مربعا. ولقد حدثت زيادة أخرى مقدارها 1850م مربعا على يد سلطان المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (533.500هـ/1107.1139م) سنة 531هـ/1137م، فصارت مساحة المسجد 5846م مربعا. وكانت الزيادة في هذه المرة من الجهة الشمالية أي من ناحية المحراب، وإمتازت بزخرفة فنية رائعة⁽²⁾.

لقد كان بناء هذا المسجد الجامعة، فتحا جديدا بهذه المدينة العظيمة، إذ أثل مجدها وأذاع شهرتها وأبقى ذكرها وصيّرّها عن جدارة حاضرة المغرب وأم مدنه. ففي مطلع القرن الرابع الهجري، استطاع جامع القرويين أن يحمل عبء تعليم علوم الدين واللغة العربية بكفاءة تامة، ولما دمر الهلاليون مدينة القيروان وجامعها، اجتذبت جامعة القرويين، علماء القيروان، ثم اجتذبت علماء

(1) إسماعيل العربي: دولة الأدارسة، المرجع السابق، ص 130.

(2) أنظر الهامش رقم 2 من الصفحة 236، الذي وضعه محقق كتاب أعمال الأعلام الخاص بالمغرب للوزير لسان الدين ابن الخطيب، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.

الأندلس الفارين من بطش النصارى، ومجون ملوك الطوائف . فكانت مدينة فاس بهؤلاء العلماء، وبما أنتجوه من نهضة علمية فائقة، تنافس بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق⁽¹⁾.

كما أن المدينة أنجبت العديد من العلماء النابغين، الذين أسهموا في إثراء حركة العلم والمعرفة بالمدينة . وسجلت لنا المصادر التاريخية إنتاجاتهم التي مست مختلف مجالات العلوم والفنون وغيرها من أصناف الإبداع. على أن فاساً بلغت في عهد الموحدين ما لم تبلغه في عصر من العصور السابقة، حتى سميت ببغداد المغرب لكثرة طلابها وعلمائها من جميع الأصقاع، حيث كان بها من الفقهاء الأعلام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذ هي قاعدة المغرب ودار العلم والأدب⁽²⁾.

كما اهتم المرينيون بمدينة فاس، و أولوا لها عناية كبيرة⁽³⁾، حيث بنوا العديد من المدارس والمعاهد العلمية فيها خاصة مدرسة الصفارين المشهورة⁽⁴⁾، التي بناها السلطان يعقوب بن عبد الحق

(1) عبد الله علي عّلام : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة [ب.ت.]، ص 274.

(2) يوسف الكتاني : مدرسة الإمام البخاري في المغرب، ج2، دار لسان العرب، بيروت [ب.ت.]، ص 433.

(3) في سنة 674هـ/1275م بني السلطان أبو يوسف يعقوب المريني مدينة ملاصقة لفاس سماها المدينة البيضاء، وسميت من بعده فاس الجديدة وبني ابن سعيد عثمان إلى جانب المدينة البيضاء مدينة حمص . وقد كثرت في المدينتين الجوامع والمساجد والحمامات والأسواق والمدارس والخوانق والربط . ينظر: ابن الأحمر الأمير إسماعيل بن يوسف، نثر فوائد الجمال في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1967، ص 27.

(4) كانت المدارس التي بنيت في فاس على العهد المريني تختلف عن مدارس المرحلة السابقة في مصدر تمويلها، الذي يعتمد على الأعباس و ليس بيت المال، كمدرسة الحلفاويين، و هذا التمويل جعل تدخل الدولة في المجال التعليمي تدخلا غير مباشر، حيث أن السلاطين كانوا يحبسون على المدارس أملاكهم الشخصية كغيرهم من الرعايا، و يتقربون لله بالتحجيس من أجل نشر العلم و إحيائه، فهم يتصرفون هنا لا كحكام و لكن كمسلمين أتقياء و كمحسنين، و على هذا الأساس لا يعتبر بناؤهم للمدارس عملا رسميا أو تدخلا من طرف الدولة في المجال التعليمي و لتوجيهه وجهة معينة . و لكن رغم هذا الطابع الشخصي و الإحساني لمدارس هذه المرحلة، فإن الدولة تتولى الإشراف على المدارس من الناحية الإدارية لا من الناحية التنظيمية للمدارس، التي تخضع لشروط المحبّس . ينظر، إسكان الحسين : جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط، من القرن 7هـ /13م إلى القرن 9هـ/15م

(657-685هـ/1258-1286م)، وعيّن لها السلطان المدرّسين، وأعطى لطلبتها النفقة، كما زود المدرسة بخزنة كتب وردت إليه من الأندلس⁽¹⁾. كما كان هؤلاء السلاطين يكثرّون التردد على هذه المدارس والمرافق⁽²⁾. وتشير بعض المصادر أن العديد من السلاطين المرينيين كان يمتلك نصيبا وافرا من العلم والثقافة كأبي عنان، فقد كانت له معرفة تامة بالفقه والمنطق وأصول الدين، وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه، حافظا للحديث عارفا برجاله، فصيح القلم، كاتباً مرسلًا بليغًا، بارع الخط⁽³⁾.

وفي نفس السياق، يُذكر أنه كان لسلاطين بني مرين حرص كبير أن تختص المدارس التي شيّدوها بتدريس العلوم الدينية، خاصة الفقه على المذهب المالكي، حيث أبدوا حرصا بالغاً على حمايته والدفاع عنه⁽⁴⁾.

وتفسّر لنا بعض الدراسات التاريخية المعاصرة، أن اهتمام الدولة المرينية بالجانب الفكري والعلمي وتقريب العلماء إليهم، إنما مرده تحقيق مطامح سياسية، طالما راودت مخيلة حكامها، وهي

رسالة دبلوم دراسات العليا في التاريخ، مخطوطة، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، إشراف محمد زنيبر، السنة الجامعية 1987_1988، ص 66.

(¹) ابن خلدون : العبر، م7، ص 210، ورجي لوتورنو : فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين، بيروت، 1967، ص 28.

(²) يوسف الكتاني : المرجع السابق، ج 2، ص 436.

(³) إسماعيل ابن الأحمر : روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثالثة، 3142هـ/2003م، ص 38، ولسان الدين بن الخطيب : اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1425، هـ/2004م، ص 116.

(⁴) G.Marcais:l'architecture musulmane d'occident ,Paris ,1955 P285

توحيد كامل بلاد المغرب الإسلامي تحت لواء دولتهم⁽¹⁾، وقد استقطبت المدينة الكثير من العلماء في مختلف أصناف العلوم والفنون، وأسهم مجهودهم في زيادة الإشعاع العلمي والحضاري لها، ومن أبرزهم:

- أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة، المولود سنة 519هـ/1125م وله تصانيف مفيدة، كتابه "آفاق الشمس في الأفضية النبوية" ومختصره "إشراق الشمس"، وله "نفس الصباح في غريب القرآن" و"ناسخه ومنسوخه" و"حسن المرتفق في بيان ماعليه المتفق" و"قصد السبيل في معرفة آيات الرسول" و"مقام المدارك في إفحام المشرك" ومقامع هامات الصلبان ومراتع رياض الإيمان، يردّ به على بعض القسيسين بطليطلة. ولما قدم فاس إلتزم إسماع الحديث، والتكلم على معانيه بجامع القرويين، وإستمر على ذلك صابرا محتسبا، ونفع به خلقا كثيرا، توفي بفاس سنة 582هـ/1186م⁽²⁾.

- محب الدين أبوعبد الله محمد بن عمر بن رُشيد الفهري السبتي⁽³⁾، ولد بسبته سنة 657هـ/1259م، وبها نشأ وتربى ودرس وتفقّه، ثم رحل إلى الأندلس حوالي سنة 692هـ/1293م، فأسندت إليه الخطابة والإمامة بمسجد غرناطة الأعظم، وبعد قضاء مدة بها عاد إلى فاس التي احتضنته ومنحته الشهرة والمجد وأولته الرياسة والمشيخة. ثم رحل فيما بعد إلى المشرق، فحج وروى وسمع وأخذ بمصر والشام والحجاز عن طائفة من مشاهير شيوخها ومحدثيها، منهم الحافظ

(1) محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المديني، دار القلم، الكويت، 1987، ص 330.

(2) ابن فرحون: الديباج، ص 119.

(3) سيأتي تفصيل نشاطه العلمي في بلاد الشام ضمن الفصل الثاني، من الباب الثالث من هذه الرسالة.

شرف الدين الدمياطي، وابن عساكر، والقطب القسطلاني وغيرهم. ثم عاد من رحلته إلى فاس، واستقر بها، وألّف رحلته الشهيرة، وبقي بها مكرما معظما يعلم ويؤلف ويفيد إلى أن توفي سنة 721هـ/1321م⁽¹⁾.

-عثمان بن عبد الله القيسي القرشي المعروف بالسلاجي، إمام أهل المغرب في علم الإعتقادات، لقي علي بن أحمد اللخمي المعروف بالإشبيلي، وكان له بصر بكتاب الإرشاد، فلازمه وفهم عليه الكتاب المذكور. أخذ عنه أبو عبد الله بن عبد الكريم الكتامي، ثم لازم مدينة فاس، وإنما شهر بالسلاجي لأجل أملاك، كانت له بجبل "سليجو" كان يتردد عليها من فاس. وله "البرهانية" وضعها لإمراة أندلسية أسمها خيرونه، وهي من الصالحات، دخل مراکش وأخذ عن أهلها، ثم لازم مدينة فاس وزهد في الدنيا وأهلها، وانتصب لتعليم العلم. توفي بفاس سنة 564هـ/1168.1169م⁽²⁾.

-أحمد بن شعيب الجزائني، من أهل مدينة فاس، كان من أهل المعرفة بصناعة الطب والتدقيق فيه، مشاركا في الفنون خصوصا في علم الأدب، حافظا للشعر، ذكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمحدثين. و الغالب عليه العلوم الفلسفية، وتَهتَّك في علم الكيمياء و ضلع فيه وله شعر رائق وكتابة حسنة وخط طريف، توفي بتونس سنة 749هـ/1348م⁽³⁾.

(1) يوسف الكتاني : المرجع السابق، ج 2، ص 240. 241.

(2) كاتب مجهول : مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوبايا، دار أبي الرقراق الرباط، الطبعة الأولى، 2005م، ص 166، وأحمد ابن القاضي المكناسي: جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج2، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط 1973، ص 458.

(3) ابن القاضي : المصدر السابق، ج1، ص 119 وما بعدها.

- عبد الرحمن الهزميري، جمع بين الرياضيات والفقه والأصول والعلوم الباطنية، وصاحب طريقة انتمى إليها كثيرون، وكان شيخا في العلوم العقلية، توجه إلى تلمسان في محاولة لرفع الحصار المريني عنها، وتوفي في رجوعه سنة 706هـ/1306م⁽¹⁾.

- عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي القروي، يعرف بالديباجي، وكان عالما بالأصول مدرسا لها، وله فيها تصانيف منها "الكتاب المستوعب في أصول الفقه"، ومنها كتاب "الإنتصار" اختصره من كتاب الإنتصار لأبي بكر بن الطيب، وله رسالة في الإعتقادات، وأقرأ بقلعة حماد، وبمدينة فاس⁽²⁾.

- أبو الطيب أحمد بن الحسين بن محمد المهدي المسيلي⁽³⁾، وهو من الشعراء البارزين الذين استقطبتهم المدينة، تصفه بعض المصادر، أنه من أعيان شعراء المغرب الراسخين في الأدب، المتمسكين منه بأمتن سبب، وكان شعره مدونا بالثغر الأعلى بمدينة سرقسطة⁽⁴⁾ وإستوطن أخيرا مدينة فاس، وإستفاد الناس من علمه و نبوغه، وولي أحكام القضاء بها. وكان محمود الحال، حسن الخلق، إلى أن توفي بها سنة 558هـ/1163م. فمن شعر أبي الطيب أحمد بن الحسين -من الطويل-:

مَتَى طَلَعَتْ تِلْكَ الْأَهْلَةَ فِي الْخُمْرِ وَنَابَتْ لَنَا تِلْكَ الْعَيُونَ عَنِ الْخُمْرِ

⁽¹⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج 2، ص 334.

⁽²⁾ ابن الأبار القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، المجلد الخامس الجزء الثالث، ضبط نصه خلال الأسبوطي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 1429 هـ/2008م، ص 47.

⁽³⁾ المسيلة، بالفتح ثم بالكسر، والياء الساكنة ولام، مدينة بالمغرب الأوسط تسمى المحمدية، اختطها أبو القاسم محمد بن

المهدي في سنة 315هـ/927م. ينظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج5، ص 130

⁽⁴⁾ سرقسطة بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال طليطلة، مبنية على نهر كبير، ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس. ينظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج3، ص 212.

وَمَنْ عَلَّمَ الْأَعْمَارَ تَسْتَعِجْزُ النَّقَا وَهَذِي الثَّنَايَا الزَّهْر تَسْطُو عَلَى الدُّرِ

شُمُوسٌ أَبَتْ أَلَّا الشَّمَّاسُ سَحِيَّةٌ وَأَقْمَارٌ حُسْنٍ فِي الْهَوَى غَمَرَتْ صَبْرِي

تَدَكَّرْتُ وَالتِّذْكَارُ مِنْ عُمَرِ الْأَسَى لِيَالِنَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ وَالْجِسْرِ

لِيَالِي لِأَدْمَعِي يُبَدِّدُ بِالنَّأْيِ وَلَا سَنَّتِي مِمَّا تُرْوَعُ بِالْحَجْرِ⁽¹⁾.

كما استقطبت فاس، المحدث والمفسر الكبير، أبا بكر بن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي، القاضي الحافظ، من كبار فقهاء المالكية، بلغ رتبة الإجتهد في علوم الدين، وبرع في الأدب، ولد في إشبيلية، وبها نشأ وأخذ عن علمائها. ورحل إلى المشرق سنة 485هـ/1092م، فأخذ عن علماء مصر والشام وبغداد والحجاز، وعاد سنة 495هـ/1102م فتصدر للتدريس، ورحل إليه للسمع والأخذ عنه، استوطن فاس، فأقبل على نشر العلم والتأليف. من آثاره "أحكام القرآن و"الناسخ والمنسوخ" و"قانون التأويل" و"أنوار الفجر المنير" في التفسير، ألفه في عشرين سنة. قيل أنه في ثلاثين مجلدا، وقيل في ثمانين، كانت في خزانة السلطان المريني أبي عنان بمراكش⁽²⁾.

(1) ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، سيدا بيروت، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م، ص 49 وما بعدها.

(2) الضبي أحمد بن يحيى: بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م، ص 80، وعادل نويهض: معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، المجلد الثاني، مؤسسة نويهض للنشر، بيروت [ب.ت.]، ص 558. 559.

مراكش، بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف وشين معجمة و هي حسب ياقوت الحموي، أعظم مدينة بالمغرب وأجلّها، وكان بها سرير ملك بني عبد المؤمن، وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر⁽¹⁾.

وتورد الكثير من المصادر أن سبب اختطاط المدينة، يعود إلى أن الأمير أبا بكر بن عمر ابن إبراهيم بن تورفيت اللّمتوني(447-463هـ/1107-1055م)، لما خرج من الصحراء باللّمتونين، وإحتلوا بأغمات وريكة⁽²⁾، وكثر الخلق بها، وضيقوا على أهلها، وكانوا على حال صعبة، شكا أشياخ وريكة وهيلانه، إلى الأمير أبي بكر بن عمر، مايلحقهم في ذلك العناء والمشقة، وأنهوه إليه المرة بعد المرة، إلى أن قال لهم: "عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة إن شاء الله"⁽³⁾.

و حسب بعض المصادر فقد اجتمع الرأي أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة، فعرفوا بذلك الأمير أبا بكر بن عمر، وقالوا له: قد نظرنا لك أيها الأمير موضع صحراء، رحب الساحة، واسع الفناء، يليق بمقصدك . فعند ذلك ركب الأمير أبو بكر بن عمر ومعه قومه المثلثون ووجوه الناس وصاروا معه إلى فحص مراكش، وهو خلاء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام،

(1) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 94، والسلاوي الناصري : الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 191.

(2) أغمات :هي مدينتان، أحدهما تسمى أغمات وريكة، والأخرى أغمات هيلانا، وبينهما نحو 08 أميال، ، وبأغمات وريكة، كان يسكن الأعيان وينزل التجار، لأنها كانت دار التجهيز للصحراء، تبعد ب 15 ميلا، من الشمال الغربي لمدينة مراكش. ينظر، كاتب مجهول : الإستبصار، ص 207، وابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 125.

(3) كاتب مجهول : الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 15.

ولاينبت إلا السدر والحنظل، وكان ذلك سنة 462هـ/1070م. فانقلوا إلى تلك الرحبة، فوجدوا في فحوصها من المسرح الخصب للجمال والدواب، وشرع الناس في بناء الدور من غير التسوير عليها⁽¹⁾.

وتورد بعض المصادر أن مدينة مراكش توسعت بعد ذلك، خاصة على عهد السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين (463.500هـ/1107.1071م)، حيث بنى فيها دار الأمة، ثم اختط سورها ابنه علي (533.500هـ/1106._113م) سنة 514هـ/1120م⁽²⁾.

هكذا يظهر لنا أن أبا بكر بن عمر المتوني، هو الذي قرر اختيار الموقع والإستقرار به صحبة جنوده، ولكن الذي عمد إلى تأسيس المدينة و تعميرها، بكل معنى الكلمة، هو يوسف ابن تاشفين⁽³⁾.

وفي عهد الموحدين، واصلت المدينة توسعتها، و تشعبت وظائف المدينة، و أصبحت تؤدّي وظائف سياسية و تنظيمية و دينية وإقتصادية، بالإضافة إلى الوظيفة العامة⁽⁴⁾، وهذا بسبب العناية التي أولاهها السلاطين الموحدون الأوائل لها. فعبد المؤمن بن علي ابنتى من الأموال التي غنمها من

(1) كاتب مجهول : الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 15. 16.

(2) لا ينبغي أن نحمّل هنا، أن المرابطين حرصوا على تحصين المدينة وتوسعتها لتحقيق أهداف سياسية واضحة، تتمثل في ضمان عصبية قلبية ذات شوكة قوية، تتمثل في المصامدة الموحدين بجبل درن، إذ يورد ابن خلدون " اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره، ولتتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة والأكثر جمعا ". ينظر ابن خلدون: العبر، م6، ص 184.

(3) محمد زنيبر : المغرب في العصر الوسيط، الدولة، المدنية، الإقتصاد، تنسيق محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى 1420هـ/1999م ص 340

(4) محمد رابطة الدين : مراكش على عهد الموحدين، جوانب من تاريخ المجال و الإنسان، أطروحة دكتوراه دولة، مرقونة، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، إشراف د. حليلة فرحات، السنة الجامعية (2001-2002)، ص 79-80.

المرابطين عدة ابنية فخمة في مراكش، وكان من بين المساجد والمعاهد التي أنشأها، المسجد الجامع الذي يتبع القصر، وهو من صنع المهندس الشهير "الأحوص المالقي"، وقد أنشأه على أبداع طراز وفن. وكان بهذا المسجد مخارج وأروقة بديعة الصنع، وممّرات سرية تمتد خفية إلى القصر، بحيث يستطيع السلطان أن يزور المسجد وأن يغادره دون أن يراه أحد. وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة، صنع من خشب الصندل الأحمر والأصفر، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزالج ومقاطع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة، وكانت المقصورة التي يجلس بها عبد المؤمن بن علي أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب، فقد كانت حسب أقوال المؤرخين تسع نحو ألف شخص، وكانت تتحرك بواسطة مفاصل متحركة، وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت، بل تدور جميع في أتم سكون⁽¹⁾. وأنشأ عبد المؤمن بن علي في مراكش مسجدا ضخما في مكان منعزل قليل السكان، وأمر سكان الأحياء المجاورة أن يصلّوا فيه وأن يغلقوا المساجد التي في أحيائهم، وزود الحي الذي يقطنه الأندلسيون بماء الشرب بواسطة قنطرة مائية⁽²⁾. وكان يعقوب المنصور (580.595هـ/1184. 1199) أشد منه شغفا بالابنية الفخمة، ومن بين المنشآت العديدة التي أمر بإقامتها في مراكش مساجد بأبراج عالية وقصور ذات حدائق غناء وحصن ذو أبراج عالية⁽³⁾.

(1) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص 253.

(2) المرجع نفسه: ص 255.

(3) المرجع نفسه: ص 254.

والجدير بالملاحظة، أن هذه النهضة العمرانية التي عرفتها المدينة رافقتها ثورة علمية وفكرية امتد إشعاعها عبر الأفاق البعيدة في بلاد المغرب وحتى المشرق الإسلامي .

وهنا يبدو من الضروري، الإشارة إلى الدعم والتشجيع الذي كان يقدمه الحكام والسلاطين للعلم ورجاله، حتى أصبحت حاضرة مراكش هي بغداد المغرب⁽¹⁾. وكان يوسف بن تاشفين المرابطي محبا للعلماء، مكرما للصلحاء محافظا على الدين مستبشرا للتقوى⁽²⁾. أما المهدي بن تومرت فقد كان -حسب ابن القطان -، يقرض طلبة العلم مبلغا من المال، في حدود ألف دينار لكل واحد منهم، يتجرون به ويردون السلف، حتى تتحسن ظروفهم المادية⁽³⁾. أما عبد المؤمن بن علي، فقد أغدق النعم الكثيرة، على الفقيه والقاضي أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري الخزرجي . ويورد ابن فرحون أن أعطياته للرجل كانت "مترادفة، وصلاته متواليه، وربما وصله في المرة، الواحدة بخمسمائة دينار"⁽⁴⁾.

وهكذا فلم تكد تمضي على تأسيس مراكش قرابة نصف قرن، حتى عمدتها نهضة علمية وعمرانية، جعلت منها المركز الثقافي الثاني بعد القرويين، بسبب وفود العلماء والفقهاء إليها من جميع الأنحاء، خاصة من الأندلس، بعد أن انضمت إلى المغرب، كما قصد المدينة رجال الفنون

(1) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 3، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م، ص153.

(2) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص ببلاد المغرب، تحقيق أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1964، ص 234.

(3) ابن القطان المراكشي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1990، ص 169.

(4) ابن فرحون : الديباج، المصدر السابق، ص 118.

والصناعات، وذلك تحقيقاً لرغبة الكثير من رجال الحكم، الذين أبهرتهم معالم حضارة الأندلس وتقدمها العمراني والعلمي⁽¹⁾.

وقد استقطبت المدينة الكثير من الفقهاء⁽²⁾ في مختلف الفنون والعلوم والآداب، بالإضافة إلى

العلماء النوابغ الذين أنجبتهم المدينة، ويمكن أن نبرز إسهامات هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

اجتذبت مراكش، المفسر الكبير ابن بقي أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي ابن مخلد الأموي، أبا القاسم، قاضي القضاة بالمغرب، ولد بقرطبة سنة 537هـ/1143م، كانت له إمامه في اللغة وعلم العربية، ولي قضاء الجماعة بمراكش، بالإضافة إلى خطتي المظالم والكتابة العليا. له كتاب في " الآيات المتشابهات " قيل أنه، أحسن ما كتب في بابه، وكان لا تفارقه في سفر ولا في حضر. توفي عام 625هـ/1228م⁽³⁾.

عبد الرحمن السّهيلي، أبو القاسم، الإمام المشهور، صاحب كتاب "الروض الأتّف" في شرح سيرة الرسول (ص)، وله كتاب "التعريف والإعلام فيما أجهّم في القرآن من الأسماء والأعلام"، وله

(1) يوسف الكتاني: المرجع السابق، ج 2، ص 434.

(2) لعله من المفيد الإشارة، إلى أن الدولة المرابطية، خصت فئة الفقهاء بمعاملة متميزة جعلت بعض الدارسين يميلون إلى وصفها بدولة الفقهاء. و مما يفسر ذلك أن الزعيم الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي لعب دوراً هاماً في تأطير جماعة المرابطين، وفق تكوين روحي و عسكري صارم، ساعد الملتزمين -ضمن عوامل أخرى- على تنفيذ مشروعهم العسكري في اكتساح المغرب، إنطلاقاً من عام 445هـ/1054م، و يؤكّد المراكشي بخصوص نفوذهم على العهد المرابطي بقوله "بلغوا مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغبرها وكبيرها موقوفة عليهم... فعظم لذلك أمر الفقهاء، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت أموالهم، واتسعت مكاسبهم". ينظر عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد العربي العلمي، ومحمد سعيد العريان، الدار البيضاء، المغرب 1978 ص 253، ومحمد المغراوي: خطة القضاء بالمغرب، المرجع السابق، ص 12.

(3) عادل نويهيض: المرجع السابق، ج 1، ص 83.

كتاب " نتائج الفكر " في الفرائض .أخذ عنه الناس وانتفعوا به، وله أشعار كثيرة . ويورد صاحب كتاب الديباج، أنه كان ببلده " يتسوغ بالعفاف ويتبّلغ بالكفاف "، حتى نما خبره إلى صاحب مراكش، فطلبه إليها وأحسن إليه، وأقبل بوجهه كلّ الإقبال عليه، وأقام بها نحو ثلاث أعوام، توفي بمراكش سنة 581هـ/1185م⁽¹⁾.

كما استقطبت مراكش، العالم الموسوعي القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمران اليحصبي السبتي، أبو الفضل، إمام وقته في الحديث وعلومه، كان عالماً بالتفسير والفقه واللغة والنحو وكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، أندلسي الأصل، تحول جدّه إلى فاس، ثم سكن مدينة سبتة، التي ولد القاضي عياض بها. ورحل إلى الأندلس وأخذ عن علمائها، وذكر ابن القاضي، أنه جمع من الحديث كثيراً، وله عناية كبيرة به وإعتناء بجمعه وتقيده، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم⁽²⁾.

وجمع عياض رصيذاً كبيراً من الثقافة الحديثية والفقهية والأصولية والأدبية واللغوية كان هو من أكبر أعلامها بسببته والأندلس . وانعكس هذا الرصيد على محاضراته ومؤلفاته، فنال بذلك شعبية واسعة عبر العالم الإسلامي كله . وكان من الذين أجازوه، العالمان الكبيران، أبو عبد الله المازري، وأبو بكر الطرطوشي. ومع هذا فشخصية عياض الفكرية والمنهجية بارزة ومتميزة⁽³⁾. قال عنه الحافظ

(1) ابن فرحون : المصدر السابق، ص 237. 238.

(2) النبھاني، أبو الحسن علي بن عبد الله: تاريخ قضاة الأندلس، أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ/2006م، ص 499.

(3) إبراهيم حركات :المرجع السابق، ج2، ص 98.

السيوطي "وبعد صيته، وكان إمام أهل الحديث. في وقته، وأعلم الناس بعلمه، وبالنحو واللغة وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم" ⁽¹⁾ توفي بمراكش سنة 544هـ/1149م. اشتهر كتابه "الشفاء" في المشرق والمغرب، ونال صيتا كبيرا. وفي هذا وضع لسان الدين بن الخطيب أبياتا يمدح فيها الكتاب :-من

السريع-

كفأك إعجازاً كتابُ الشِّفاءِ والصُّبْحُ لا يُنكِرُ عنه الوُضُوءُ

لله ما أجزلتَ فينا بهِ ومن منحةٍ تُقصرُ عنها المَنُوحُ

روضٌ من العلمِ همي فوقهُ من حسيبِ الفكرِ الغمامُ السَّفُوحُ

ومعلمٌ في الدِّينِ شيدتهُ فهذه الأعلامُ منه تفوحُ ⁽²⁾

كما عاش في مراكش زاهد مشهور هو أبو العباس السبتي، المولود سنة 524هـ/1130م

بسبته. ودخل أبو العباس مراكش سنة 540هـ/1145م، وقد وجد الموحدين يضربون عليها حصارا

في إنتظار استسلام المرابطين بها، وكان نزوله في البداية بجبل "جيلين"، وتحدث الروايات عن

إصطحابه أحد الفقراء من سبته، وعن تعبده في الجبل وهو بعد مراهق في السادسة عشر ⁽³⁾.

⁽¹⁾ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن: طبقات الحفاظ، تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983، ص470.

⁽²⁾ لسان الدين بن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء [ب.ت.]، ص191.

⁽³⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج3، ص98.

وهناك رواية تقول، أنّ أبا العباس ظل ساكنا بالجبل زهاء أربعين سنة، ورواية تقول أنّ يعقوب المنصور، هو الذي استقدمه إلى مراكش. والذي يبدو ممكنا، أن يعقوب المنصور هو، الذي دعاه إلى الإستقرار نهائيا داخل المدينة، بعد أن تواترت أخبار كرامته ومايتلاحق ببابه من وفود. وفي كل حال، فإن أبا العباس قضى شطرا من حياته في تعليم العربية والحساب بمراكش، وهو يأخذ على ذلك أجرا من تلاميذه، وكل هذا دون أن يعرف قط كيف استكمل أبو العباس رصيده الأساسي من المعرفة . فمن المرجح أنه تلقى مزيدا من التكوين الثقافي لدى شيوخ مراكش، التي إتسع إشعاعها مند أيام عبد المؤمن. وقد أصبح للشيخ الشاب، مريدون وحتى مساكين يلازمونه، وهناك بعض الروايات تذكر أن المنصور كان يعظمه، وأنه حبس عليه زاوية ورباطا ومدرسة، وذلك في محيط جامع الكتبيين. وهذا يسّر عليه إيواء الطلاب والوافدين بالزاوية، وشاد له الرباط للتعبد والذكر، والمدرسة للتعلم⁽¹⁾.

ويورد التادلي، أنّ أبا العباس أعطي بسطة في اللسان وقدرة على الكلام، لا يناظره أحد إلا أفحمه، وكان سريع الجواب . وكان القرآن ومواقع الحجج على طرف لسانه عتيدة حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه . يأتيه من يأتيه لإنكار عليه، فما ينصرف عنه إلا وقد سلّم له وإنقاد لقوله⁽²⁾.

(1) إبراهيم حركات : المرجع السابق، ج3، ص، 98. 99.

(2) التادلي : المصدر السابق، ص 451.

وكان أصل مذهبه الحزب على الصدقة⁽¹⁾، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرق، فيحضر الناس على الصدقة، ويأتي بما جاء في فضيلتها من الآيات والآثار، فتنهال عليه الصدقات، فيفرقها على المساكين وينصرف. توفي بمراكش سنة 601هـ/1204م⁽²⁾.

ويذكر أن مراكش، أنجبت عالما كبيرا في علوم التعاليم العقلية، وهو ابن البناء المراكشي، أحمد ابن محمد بن عثمان الأسدي . كان والده يحترف البناء كمهنة. كان إمام الحضرة المراكشية، عظّمته ملوك الدول، أخذ من علوم الشريعة حظا وافرا وبلغ في العلوم القديمة الغاية القصوى والمرتبة العليا. كان ينظر في أحكام النجوم وأخذ في علوم أهل السنة . وألف ابن البناء كتبا عدة، وخاصة تلك ذات الصلة بالعلوم العقلية، ككتاب "التخليص" في الحساب، وله مقدمة على أوقليدس الحكيم، والمقالات الأربع وجزء في ذوات الأسماء والمنفصلات، ومقالة في المكاييل الشرعية، وجزء في المساحات، و"منهاج الطالب في تعديل الكواكب"، وله "المنامخ في رؤية الأهلة"، وتأليف في أحكام النجوم، ومقالة في علم الإسطرلاب، ورسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة والنهي عن تغييرها. وله قانون في معرفة الأوقات بالحساب، وله كلام على الزجر والفال والكهانة⁽³⁾. مولده سنة 654هـ/1256م، وفاته سنة 721هـ/1321م⁽⁴⁾.

(1) ابن قنفذ القسنطيني : أنس الفقير وعز الحقيير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص 8.

(2) التادلي : المصدر السابق، ص 452.

(3) ابن القاضي : جذوة الإقتباس، المصدر السابق، ص 148 وما بعدها.

(4) عادل نويهض : المرجع السابق، ج 1، ص 67.

كما استقطبت مراكش، شاعر بلنسية، أبا الحسن علي بن لبّ بن شلبون المعافري، وكان من الأدباء النجباء، تقلد منصب الوزارة في العديد من حواضر المغرب الإسلامي، توفي بمراكش سنة 639هـ/1241م⁽¹⁾. له قصيدة يمدح ويعتذر عند قدومه مع وفد بلنسية سنة 622هـ/1225م إلى

إشبيلية :-من الطويل-

حَنَانِيكَ قَدْ تُبْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ ثَبْنَا
فَجَدَّدْ لَنَا الرُّحْمَى وَأَكْثِرْ لَنَا الْأَمْنَ

هُوَ الْقَدْرُ الْجَارِي عَلَى النَّاسِ حُكْمُهُ
فَلَا غَرَوْا إِِنْ جَاءُوا سُرَاعًا وَأَبْطَانَا

إِذَا لَمْ تَكُنْ بِالْمُرْتَجِينَ عِنَايَةً
سَمَاوِيَّةٌ عَادَتْ عِيَادَتُهُمْ إِنْنَا

مَلَكْنَا فَصَرَفْنَا تَصَارِيْفَ بَحْتِي
بِهَا مَرَّةً رِيحًا وَآوَنَةً عَيْنَا

وَأَمَّا وَأَعْضَاءُ الْخَلِيفَةِ شَامِلٌ
فُبَشْرَى بِمَا نَلْنَا بِهِ الْخَيْرَ وَالْأَمْنَا

وله قصيدة يمدح أيضا أولها: -من الطويل-

أَوْجَهْكَ وَالْأَحَاطُ وَالْقَدْرُ وَالرُّدْفُ
أَمِ الْبَدْرَ وَالْبَعْثُورَ وَالْعُصْنَ وَالْحَقْفُ

وَرِيَّاكَ عَمَّ الْخَافِقِينَ أَرْبُجْهَا
أَمِ الْمَسْكَ مِنْ دَارِينَ نَمَّ لَهُ عُرْفُ⁽²⁾

(1) ابن الأبار القضاعي: تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م، ص 216.

(2) ابن الأبار: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

كما استقطبت مراكش عالما موسوعيا، هو سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي ثم السهيلي، منسوباً إلى قرية من قرى مالقة، ساهم تبحره في شتى العلوم في الإشعاع العلمي والفكري، الذي كانت تعرفه المدينة، قال عنه ابن الزبير أنه كان واسع المعرفة غزير العلم، نحويًا متقدماً أديباً لغويًا عالماً بالتفسير، وصناعة الفقه حافظاً للتاريخ القديم والحديث نبيها ذكياً صاحب إختراعات واستنباطات مستغرية، واهتدأت نبيهة، وتواليف جلييلة، منها كتاب "الروض الأنف على السير" وهو كتاب جليل، وكتاب "التعريف والإعلام بما انبهم في القرآن من الأسماء والأعلام"، وجزء في الفرائض إلى غير ذلك مولده سنة 508هـ/1114م، متوفي بحضرة مراكش سنة 581هـ/1185م⁽¹⁾.

كما جذبت المدينة الحافظ علي بن محمد بن عبد المالك بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى الكتامي الحميري، من أهل فاس، وأصله من قرطبة، يعرف بابن القطان، ويكنى أبا الحسن. أورد عنه ابن الأبار، أنه كان من أبصر الناس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية، مع التفنن في المعرفة والدراية، وجمع برنامجاً مفيداً في مشيخته. كوّن طلبة كثر في مراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة. ومن تواليفه كتاب "الزرع في القياس في إبطال القياس"، وله مقالات في الأوزان وغير ذلك. ودرّس وحدّث وأخذ عنه. خرج من مراكش بسبب الفتن التي عرفتها سنة 621هـ/1224م، واضطرب أمره إلى أن توفي بسجلماسة سنة 628هـ/1231م⁽²⁾.

(1) ابن الزبير: صلة الصلة، المصدر السابق، ج 6، ص 114.

(2) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج 5، ص 127.

كما استقطبت المدينة الصوفي الكبير علي بن إسماعيل بن حرزهم الفاسي، كان فقيها عارفا بالمسائل والفقه والحديث ومعرفة التفسير والتصريف، وكان يتكلم على رعاية المحاسبي⁽¹⁾. وكان ورعا عارفا بالكلام مع الورع والزهد في الدنيا والتخشن في الملبس، وحسن الخلق، واجتمعت القلوب على محبته، يهابه كل من لقيه⁽²⁾. وكان يرى أن عليه عبء الإصلاح الإجتماعي جزئيا على الأقل، ولذلك عمل على تهذيب وتقويم الكثيرين من الناس بفضل أسلوبه الصوفي، وكونه قدوة في الزهد والصلاح، وقام بهذه المهمة بمراكش التي استفادت من إشعاعه الثقافي كما كان الشأن بفاس، وقد حل بمراكش قبل سقوطها في يد الموحدين⁽³⁾، توفي عام 559هـ/1164م⁽⁴⁾.

كما اجتذبت المدينة الزاهد محمد بن أحمد بن محمد اللخمي أبو عبد الله بن اللحام، ولد بتلمسان سنة 558هـ/1163م كان حافظا صالحا زاهدا ذا حظ من الأدب والشعر، غزير الحفظ، يحفظ من سمعة واحدة كل ما يطرق أذنه، استقدمه يعقوب المنصور الموحدي إلى مراكش فاستوطنها وحظي عنده وعند ملوكها بالترحاب والعناية، له كتاب في الوعظ " حجة الحافظين ومحجة الواعظين"، توفي بمراكش سنة 614هـ/1217م⁽⁵⁾.

(1) الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي، من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد في الدنيا والمواعظ. كان فقيها متكلمًا متقدمًا، كتب الحديث وعرف مذاهب النساك، له من الكتب "الرعاية لحقوق الله" و"التفكر والإعتبار". توفي سنة 243هـ/857م، ينظر، ابن نديم: الفهرست، المصدر السابق، ص 230-231، و آدم ميتز: المرجع السابق، ج 2، ص 20-21.

(2) ابن القاضي: جُدوة الإقتباس، المصدر السابق، ص 464.

(3) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج 3، ص 91.

(4) ابن القاضي: المصدر السابق، ص 465.

(5) الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص 189-190.

تونس

يذكر صاحب كتاب الإستبصار أن مدينة تونس مدينة قديمة البناء⁽¹⁾، وهي فكرة يدعمه فيها ابن حوقل، عندما يورد عن المدينة أنها قديمة أزلية⁽²⁾، ويقدم لنا الجغرافي ابن سعيد إحداثيات موقعها، حيث الطول 32° والعرض 31، 30° وهي على بحيرة مالحة تدخلها المراكب الصغار، بينما المراكب الكبار ترسى في مينائها وبين ساحل البحيرة عند تونس وفمها عند البحر عشرة أميال⁽³⁾.

وكان اسمها في القديم "ترشيش"، فلما أحدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان سميت تونس⁽⁴⁾ وكان بقرب "ترشيش" هذه صومعة راهب، فكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء تلك الصومعة وتأنس بصوت الراهب، فيقولون هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الإسم، فسميت تونس⁽⁵⁾.

ومعلوم أنّ المدينة كانت تتوفر على طاقات إقتصادية هامة سجلتها الكثير من كتب الجغرافيين والرحالة، فابن حوقل يذكر أن المياه التي كانت تسيح في المدينة وحولها، ورغم قلتها في وقته، إلا أن الإنتفاع بها كثير، أما سهولها وأراضيها فهي خصبة في ذاتها، متسع بغلاتها⁽⁶⁾. وأما صاحب كتاب

(1) كاتب مجهول : الإستبصار، المصدر السابق، ص 120، ياقوت الحموي:المصدر السابق، ج2، ص.60

(2) ابن حوقل:المصدر السابق، ص 143.

(3) ابن سعيد : المصدر السابق، ص 143.

(4) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 75.

(5) كاتب مجهول :الإستبصار، المصدر السابق، ص 121.

(6) ابن حوقل : المصدر السابق، ص 75.

الإستبصار فيعتبر المدينة أشرف مدن إفريقية، وأطيبها ثمرة، وأنفسها فاكهة⁽¹⁾. أما الرحالة البلوي فأعجب بحداثتها ورياضها الفسيحة وغراسها المتنوع الكثير⁽²⁾.

الدور الحضاري للمدينة

أجمعت المصادر التاريخية على أن مدينة تونس " دار علم وفقه " ⁽³⁾. ولا شك أن رواج سوق العلوم والفنون بالمدينة، مرده إلى تشجيع رجال السلطة للعلم وأهله، فالسلطان الموحدى عبد المؤمن ابن علي ابنتى بالمدينة عدة مدارس ومعاهد ⁽⁴⁾، أما السلطان الحفصى أبو عبد الله المستنصر (647-675هـ/1249-1276م)، فبالإضافة إلى شغفه بالعمران وتشيد الحدائق، فقد امتلأ بلاطه بالشعراء والأمراء⁽⁵⁾. أما والده السلطان أبي زكريا يحيى (626.647هـ/1229.1249م)، فكان عالما و شاعرا ، يجب مجالسة طلبة العلم ويشاركهم أحسن مشاركة في غير ممارسة⁽⁶⁾، أما السلطان أبي حفص عمر بن أبي زكريا (683.694هـ/1284.1295م)، فكان يعظم الفقهاء والصلحاء، و يبرهم وييادر إلى حوائجهم⁽⁷⁾.

بيد أن أبرز سلطان حفصى أعطى دفعا قويا للحركة العلمية والفكرية بحاضرة تونس، هو أبو فارس الحفصى، ذلك أن فترة حكمه عرفت استقرارا سياسيا واضحا انعكس إيجابيا على الحياة

(1) كاتب مجهول : الإستبصار، المصدر السابق، ص 121.

(2) البلوي : المصدر السابق، ص 166.

(3) كاتب مجهول: الإستبصار، المصدر السابق، ص 120.

(4) يوسف أشباح : المرجع السابق، ص 254.

(5) شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ج 2، ص 179.

(6) ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية

للنشر، تونس 1968، ص 112-113.

(7) المصدر نفسه: ص 155.

الفكرية. فقد أخضع الكثير من المناطق التي عرفت حركات تمرد ضد الحكم الحفصي، كبرقة وطرابلس وغيرها. فكسب أبو فارس من استرجاع الدولة الحفصية لسابق عزها نفوذاً أدبياً كبيراً، زاده إشعاعاً تعلقه بالدين، إذ أنه قرّب إليه العلماء والأشراف وأقام المواكب البهيجة بمناسبة الأعياد الإسلامية، وتجاوزت سمعة أبي فارس حدود مملكته، كما تشهد بذلك السفارات، وما كانت ترسله إليه غرناطة وفاس ومصر، وحتى البقاع المقدسة من هدايا، وما تقدمه من آيات التبجيل، وتسابقت الدول النصرانية من جهتها إلى عقد المعاهدات مع سلطانٍ في مثل هذه القوة، يتمسك بزمام مملكة مزدهرة⁽¹⁾.

جامع الزيتونة منارة للعلم في تونس الإسلامية

تتفق معظم المصادر، أن عبيد الله بن الحبحاب⁽²⁾، هو الذي ابتنى جامع الزيتونة⁽³⁾ المشهور،⁽³⁾ المشهور، الذي سوف يخلّد إسم تونس المدينة، ويجعلها تقترن بإسمه عبر مختلف العصور التاريخية، كان ذلك سنة 144هـ/761م⁽⁴⁾.

(1) شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ج2، ص 186 - 187.

(2) اختاره الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك لولاية المغرب، لما كان يتمتع به من مؤهلات متميزة، جمعت بين الإدارة والقيادة والعلم، ينظر : الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السّقطي، تونس، 1967، ص 107، ومغلة شهاب أحمد : تاريخ المغرب العربي، دار الفكر، عمان [ب.ت.]، ص 132.

(3) هناك روايات تشير إلى أن بناء جامع الزيتونة ابتدأ على يد الأمير حسان بن نعمان الغساني، الداخلة لإفريقية سنة 79هـ/698م، ثم جاء الأمير عبد الله بن الحبحاب الداخلة سنة 114هـ/761م، وأتم بناءه سنة 141هـ/758م، ولما تولى زيادة الله بن الأغلب الإمارة بالقيروان، أحدث ابنية فخمة، وصار من أحسن الجوامع القائمة على أساطين من المرمر والرخام. ينظر محمد خضر حسين : تونس وجامع الزيتونة، تحقيق علي الرضا التونسي، 1391هـ/1971م، تونس، ص 22

(4) ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج2، ص 62، والوزير السراج الأندلسي : الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج1، القسم الثالث، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، 1970، ص 574.

ويقدم لنا الجغرافي الزهري وصفا دقيقا لتفاصيل هذا الجامع، إذ يقول أنه "جامع كبير فيه خمسمائة سارية، من الرخام الأبيض، وبإزاء المحراب سوار من الرخام المجزع مطليات الرؤوس بالذهب، وفيه صحن عظيم، أبيض من شقيقه، وصحن آخر فيه ثلاث جباب من الرخام المجزع برسم ماء المطر، وفي شرقي الجامع الصحن المفروش بالرخام الأبيض مرتفع نحو الخمسة عشر ذراعا، يشرف على شارع البلد وعلى السوق، وتحت هذا الصحن سقاية عظيمة البناء، وهي سبعة أقواس وقوسان فيها أحجار من الرخام محفورة. وعليها أسود من النحاس ترمي الماء من طلوع الشمس إلى غروبها، يستسقي الناس من هذا الماء، والخمسة أقواس في كل قوس منها خمس نهود من النحاس. يأتي الرجل إليها فيلقي فمه على النهدي، فيخرج له ماء عظيم، فيشرب حتى يروى فإذا نزل فمه، جف الماء، فلم يُنظر منه شيئا، وهو كذلك أبدا" (1).

ولما أتى الأغالبة (2)، نشطت الثقافة، واعتنوا بأصحابها، فلم يكتفوا بما وجدوا من المعاهد وفي طليعتها مسجد القيروان، فقد وسَّعوا جامع الزيتونة، وجعلوا منه معهدا زاخرا بالعلماء. وأحدثوا بجانب هذه الخزانة، دواليب تحفظ فيها الآلات الفلكية لحساب سير الكواكب ورصدها كالإسطرلاب (3).

(1) الزهري: كتاب الجغرافية، المصدر السابق، ص 108.

(2) سميت دولة الأغالبة بهذا الإسم، نسبة إلى عميد أسرة الأغالبة، وهو الأغلبي بن سالم بن عقيل بن خفاجة التميمي. دخل إفريقية في قوات محمد بن الأشعث الخزاعي، سنة 144هـ/761م، ثم عهد إليه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بولاية إفريقية في أواخر سنة 148هـ/765م. ينظر ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، نشر دار الثقافة، بيروت [ب.ت.]، ص 133 وما بعدها.

(3) محمد الطمار: المرجع السابق، ص 89-90.

وفي عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز، عرف جامع الزيتونة دفعة علمية هامة، حيث أقام خزانة كبيرة للكتب تابعة للجامع، تضم اختصاصات مختلفة كالعلوم الشرعية واللغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات، وإحداث قراءة البخاري في كل يوم بعد صلاة الظهر بجامع الزيتونة، وكتاب "الشفاء" للقاضي عياض السبتي، وأوقف على ذلك وقفا⁽¹⁾ يعتني بتغطية التكاليف المادية لهذه العملية العلمية .

و قد أنجبت مدينة تونس واستقطبت، علماء أجلاء في مختلف ميادين العلم والمعرفة، ساهموا بمجهوداتهم في الإشعاع العلمي والحضاري للمدينة . نورد بعضاً منهم، على سبيل المثال وليس الحصر:

- محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، عالم موسوعي أنجبت مدينة تونس، وصفه صاحب كتاب الديباج "الإمام العلامة المقرئ الفروع الأصيل البياني المنطقي، شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ"⁽²⁾. ويذكر الوزير السراج- نقلا عن السيوطي- أنّ ابن عرفة برع في الأصول والفروع والعربية والمعاني والبيان والفرائض والحساب، وكان رأساً في العبادة والزهد والورع، ولم يكن بالمغرب من يجري مجراه بالتحقيق، ولا من ادعى، ولا من اجتمع له في العلوم ما اجتمع له، وكانت الفتيا تأتي إليه مسيرة شهر. ولد سنة 710هـ/1310م، مات سنة 803هـ/1400م⁽³⁾.

(1) الزركشي : المصدر السابق، ص 116.

(2) ابن فرحون : الديباج، المصدر السابق، ص 419.

(3) الوزير السراج : المصدر السابق، ج1، ص 579.

- عبد الله محمد بن هارون القرطبي، من العلماء الأندلسيين الذين استقطبتهم الحضرة التونسية. كان إماما عالما أدبيا، كاتباً مسنداً، وعمّر وأخذ عنه الناس كثيراً . ويذكر الرحالة البلوي عندما زار تونس، أنه التقاه، واعتبره عالماً فقيهاً أصولياً متكلماً، نفع الناس كثيراً، فازدحم لإفادته أفواج الناس، واقتبسوا علمه. ويورد أنه قرأ عليه مختصر ابن الحاجب⁽¹⁾، الفروع والأصولي، قراءة تفقهه وبحث، وسمع عليه الكثير من تأليفه، ومنها مختصر ابن الحاجب الأصولي، وشرح مختصره الفروع، وشرح المعالم الفقهية⁽²⁾ ولد ابن القرطبي سنة 603هـ/1206م، توفي بتونس سنة 702هـ/1302م⁽³⁾.

ويستشف مما أورده الرحالة البلوي، الذي أقام بتونس مدة غير قصيرة أثناء رحلته المشهورة إلى بلاد المشرق، أن العديد من علمائها اتخذوا من بيوتهم دوراً لحلقات العلم والدرس، أبرزهم الفقيه القاضي أبي زكريا يحيى بن يوسف، الذي رحل إلى المشرق العام 688هـ/1289م، وعاد بزاد كبير من العلوم التي حصلها هناك، خاصة و أنه كان يحضر، بحرص شديد واهتمام بالغ لحلقات الدرس، التي

(¹) مختصر ابن الحاجب، عنوانه الكامل "منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل"، للشيخ الإمام جمال الدين بن عمرو ابن عثمان بن عمر، المعروف بابن الحاجب المالكي، المتوفى سنة 646هـ/1248م، صنّفه أولاً ثم اختصره قال فيه: "لما رأيت قصور المهمم على الإكثار وميلها إلى الإيجاز والاختصار، صنفت مختصراً في أصول الفقه، ثم اختصرته على وجه بديع". وينحصر في المبادئ والأدلة السمعية والإجتهد والترجيح". ينظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، دار الفكر، بيروت. 1999، ص 684.

(²) البلوي: المصدر السابق، ج2، ص 98-99.

(³) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 234.

كان يقيمها العالم الكبير ابن دقيق العيد⁽¹⁾. حيث قرأ البلوي على أبي زكريا يحيى في بيته بتونس جميع كتب موطأ الإمام مالك بن أنس⁽²⁾.

كما استقطبت المدينة، نخبة من أعلام الأندلس، أبرزهم، أبو الحسن علي بن سعيد، المتوفى سنة 685هـ/1286م، الشاعر والأديب، صاحب كتاب "القدح" و "المغرب في حلى المغرب" و "الغصون الياضعة في شعراء المائة السابعة". وأبو الحجاج يوسف بن محمد البيالي، المتوفى بتونس سنة 653هـ/1255م، الذي صنف بتونس سنة 646هـ/1248م كتاب "الحماسة". ثم نبغ بتونس، شاعران أندلسيان، هما محمد الخير، الذي قدم من مالقة سنة 864هـ/1560.1459م. ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف المتوفى سنة 899هـ/1494م⁽³⁾.

هذا وجددير بالتذكير، أن مدينة تونس عرفت أوج إشعاعها العلمي والحضاري، على عهد الحفصيين، الذين شيّدوا فيها العديد من المدارس⁽⁴⁾، أهمها مدرسة الشماعيين، سنة 633هـ/1236.1235م، على يد أبي زكريا الأول، قرب الجامع الأعظم بتونس، و المدرسة التوفيقية، من بناء السيدة عطف أم المنتصر الحفصي، المتوفى سنة 675هـ/1276م. و مدرسة أبي

(1) العلامة المشهور ابن دقيق العيد، أورد عنه ابن فرحون، أنه تفرّد بمعرفة العلوم في زمانه و الرسوخ فيها، اشتغل بمذهب مالك و أتقنه، ثم اشتغل بمذهب الشافعي، و أفتى في المذهبين، ولد سنة 625هـ/1228م، و توفي سنة 702هـ/1302م، ينظر، ابن فرحون : الديباج، ص 413-414 .

(2) البلوي : المصدر السابق، ج2، ص 101.

(3) محمد طالي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، مجلة الأصالة، مرجع مذكور سابقا، ص 69.

(4) يبدو أن عدد المدارس على عهد الرحالة العمري، قد تقلص في تونس إلى ثلاث، وهو الذي زارها في منتصف القرن الثامن هجري، حيث ذكر مدارس، الشماعية، المعرضية، ومدرسة الهواء، ينظر العمري ابن فضل الله: وصف إفريقيا والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة، وهو نشرة جزئية، نشرها الأستاذ حسن عبد الوهاب من كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، مطبعة النهضة، تونس، [ب.ت.]، ص 07.

زكريا الثاني (675. 678 هـ/1276 1279 م). و مدرسة المعرض، من بناء عمر بن أبي زكريا (683. 694 هـ/1284. 1295 م)، وهي أيضا بتونس، أنشئت مكان فندق وحبس عليها خزانة نفيسة⁽¹⁾.

القيروان

تميّزت مجهودات العرب الحربية في إفريقية، منذ عهد عمرو بن العاص إلى عهد معاوية ابن حديج والي الأمويين على إفريقية، بميزتين : الكشف والتعرف على هوامش الإقليم ومسالكه، دون الإيغال في أراضيه، ثم العودة السريعة بعد انتهاء عمليات الإستطلاع، إما إلى برقة أو إلى الفسطاط⁽²⁾، أو الشام، اكتفاءً بما حصلوا عليه من معلومات ومغانم وأسلاب. والسبب في هذه الظاهرة، أنه لم يكن للعرب، وقتئذ بإفريقية، معقل حصين يحميهم، ولا مدينة يلتجئون إليها، بعد انتهاء أعمالهم، لإصلاح شؤونهم واستجماع قواهم، وتضميد جراحهم، وتحديد أسلحتهم⁽³⁾.

(1) إبراهيم حركات : المرجع السابق، ج1، ص 27.

(2) الفسطاط : وفيه لغات وله تفسير واشتقاق، يورد ياقوت الحموي، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما قدم الجابية، خلا به عمرو بن العاص، وذلك سنة 18 هـ/639 م، فقال يا أمير المؤمنين "إئذن لي في المسير إلى مصر، فإنك إن فتحتها، كانت قوة للمسلمين وعونا لهم، وهي أكثر الأرض أموالا... فتخوّف عمرو بن الخطاب على المسلمين ". والفسطاط هي أول مدن الإسلام في القطر المصري، بناها عمرو بن العاص سنة 18 هـ/639 م، وكان موقعها بين القاهرة ومصر العتيقة، وتسمى الآن أمبابة. ينظر : ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 4، ص 261 وما بعدها، واليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1408 هـ/1988، ص 91، و الهامش رقم 03، الذي وضعه محقق كتاب : فتوح إفريقيا والأندلس لابن عبد الحكم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص 82.

(3) موسى لقبال : المغرب الإسلامي : مند بناء معسكر القرن حتى إنتهاء ثورات الخوارج - سياسة ونظم - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981، ص 28.

أما فكرة بناء مدينة ثابتة، تكون قاعدة للفتح في بلاد المغرب⁽¹⁾، فهي لعقبة بن نافع الفهري الفاتح العربي الشهير، المتوفى سنة 63هـ/683م، الذي سار إلى إفريقية، ونازل مدنها، فافتتحها عنوة "ووضع السيف في أهلها، وأسلم على يده خلق من البربر، وانتشر بينهم الإسلام، فجمع عقبة حينئذ أصحابه وقال: إن أهل هذه البلاد قوم لاخلق لهم، إذا عضّهم السيف أسلموا، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عاداتهم ودينهم، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا، وقد رأيت أن ابني ههنا مدينة يسكنها المسلمون"، فاستحسن جنوده الفكرة وتحمسوا لبناء معسكر يأويهم⁽²⁾.

وفي غمرة الحماس، اقترح بعض رجاله أن تكون القاعدة الجديدة قريبة من البحر، لتكون بجنودها بصفة الرباط، فلم يقبل ذلك، لما يجره على المسلمين وقاعدتهم الناشئة من متاعب ومخاطر من جانب الروم المتفوقين بحريا. كما استبعدت فكرة التوغل بالقاعدة في الداخل، خشية من تحركات القبائل البربرية، المتقلبة الأهواء. ونجح أخيرا الرأي الوسط، الذي يقترح بناءها في موضع بين الساحل والداخل، على أن تكون قريبة من السباخ، ليتاح لإبل المسلمين أن ترعى في أمان⁽³⁾. فاختط عقبة دارا للإمارة، واختط الناس حوله، واختط جامعها، وعمر الناس المدينة، فاستقامت في سنة 55هـ/675م⁽⁴⁾.

(1) يعتبر الفاتح الإسلامي معاوية بن حديج، عامل الأمويين على إفريقية، أول من وضع نواة مدينة القيروان حينما احتفر آبارا، أصبحت مكانا لراحة جيوش الفاتحين.

(2) ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص 426.

(3) موسى لقبال: المرجع السابق، ص 30.

(4) ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص 421.

وبعد الإنتهاء من البناء، حددت مساحة المدينة، بحوالي ثلاثة عشر ألف وستمئة ذراع، وتشتمل هذه المساحة المدينة بما فيها من المسجد، ودار الإمارة، ومعسكر الجند، وخطط القبائل، والمساجد الخاصة، ثم مساكن القبائل المواليه للمسلمين . ويؤيد ذلك أن بناء هذه المدينة، حمل كثيرا من البربر على اعتناق الإسلام، راضين معتبطين، والإنضمام إلى السلطة الجديدة، والإقامة حول القاعدة الناشئة⁽¹⁾.

وكان قيام قاعدة القيروان، حدثا له أهميته البالغة، في تاريخ المغرب الإسلامي، لأنها أصبحت نواة لولاية جديدة في ولاية المغرب، كما كانت قاعدة الفسطاط نواة لولاية مصر الإسلامية. ونظرا لأهمية المنطقة، وبكارتها وغناها، وكثرة أسلابها، ورحابة ميدانها، كانت منية ولاة مصر منذ عهد عمرو بن العاص⁽²⁾.

وهكذا فقد غدت القيروان - حسب الإصطخري - أجل مدينة بأرض المغرب⁽³⁾. وازدهرت المدينة إقتصاديا، حيث أصبحت مركزا تجاريا كبيرا استقطب التجار و البضائع من كافة الأصقاع، كما ظل إشعاع المدينة العلمي وتأثيره لفترات طويلة⁽⁴⁾.

(1) موسى لقبال: المرجع السابق، ص 32.

(2) المرجع نفسه: ص 33.

(3) الإصطخري، أبو أسحاق إبراهيم: مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927م، ص 40.

(4) إن الإشعاع الحضاري للقيروان، تعرض للأفول بعد ذلك، ثم التلاشي، بسبب الغزو الهلالي للمدينة . ويشير ابن الأبار، أن أول من قدم القيروان من العرب هو مؤنس بن يحيى الرياحي، الذي استطاع هزيمة المعز بن باديس سنة 443هـ/1051م، في ثلاثة آلاف فارس، وهو في أعداد عظيمة وجموع كثيفة، وخرّبوا القيروان وتغلبوا على نواحيها. ينظر: ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتري، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1380هـ/1961م، ص 200. من جانب آخر فإن البعض من المتخصصين في تاريخ المغرب، يرى أنه من الخطأ النظر إلى عرب بني هلال كأعراب مخربين، بل إنّ القضية في نظرهم أكبر من ذلك. أن غزو القبائل العربية الهلالية، كان معركة وجود أساسها إيجاد مواطن للكلا و منابع الحياة بالمنطقة=

ولاشك أن الإستقرار السياسي وتشجيع رجال الحكم للعلم، كان له الدور الأبرز في تلك الريادة، التي حازتها المدينة في كافة بلاد الغرب الإسلامي. كما أن المدينة كانت تقوم خاصة في عهد بني زيري، بالنسبة إلى إفريقية بدور العاصمة السياسية والإقتصادية والدينية والثقافية⁽¹⁾. فكان من الطبيعي، أن تستقبل الفقهاء والوعاظ والشعراء، لأنها كانت مركزا للوالي، كما أورد المفكر محمد الطمار⁽²⁾.

شكلت مساجد القيروان⁽³⁾، مركز إستقطاب علمي، بفعل حلقات الدروس التي كان يقدمها العلماء في شتى العلوم، بخاصة العلوم الدينية. قامت الدراسة بالمساجد لفترة طويلة على أساس اختيار الطالب لشيخه وحلقات الدروس وأنواع المعارف والمصنفات التي يرغب في دراستها، متنقلا من حلقة إلى حلقة. ولا يوجد حدّ في الزمان للدراسة ولا للتدريس، وهذا ما كان يحدث عبر العالم الإسلامي عموما⁽⁴⁾. وفي هذا المجال يبرز جامع القيروان، وهو أول جامع بني في المغرب الإسلامي، بدأ إنشاؤه، مند قدوم عقبة بن نافع في فتحه الأول لإفريقية، وشهد ترميمات وتجديدات عديدة بعد

Georges Marcais :La berberie musulmane et L'orient au moyen age. Paris. = ينظر: 1946 p:203

(1) الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري، من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، ص10.

(2) محمد الطمار : المرجع السابق، ص 81.

(3) احتوت القيروان على 15مسجدا في عصر الصنهاجين، ببناءات مختلفة. ينظر الهادي روجي إدريس : المرجع السابق، ج2، ص 17.

(4) إبراهيم حركات : المرجع السابق، ج1، ص 23.

ذلك، فيما عدا محراب عقبة الذي احتفظ به حتى الآن، وقد استقبل هذا الجامع البعثات العلمية والدينية⁽¹⁾. التي وفدت على القيروان، خاصة خلال فترة القرون الثلاثة لتأسيس المدينة .

مساهمة العلماء في الإشعاع العلمي للمدينة

أنجبت و استقطبت القيروان، الكثير من العلماء، الذين أشاعوا بإسهاماتهم العلمية المدينة، وعززوا مكانتها في المغرب الإسلامي كافة. ومن أبرزهم :

-عبد الرحمن، أبو محمد بن أبي زيد، سكن القيروان، وكان حسب رواية ابن فرحون، إمام المالكية في وقته وقدمتهم، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله . وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، وكتبه تشهد له بذلك، فصيح القلم، ذا بيان ومعرفة بما يقوله، ذابًا عن مذهب مالك، قائمًا بالحجة عليه، بصيرا بالرد على أهل الأهواء، يقول الشعر ويجيده، ويجمع إلى ذلك صلاحًا تامًا، وورعًا وعفة⁽²⁾.

وذكر القاضي عياض، أنه حاز رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار، وكثر الآخذون عنه . وملاأت البلاد تواليه، وكان يعرف بمالك الصغير. له كتاب "النوادر والزيادات" على المدونة، مشهور في أزيد من مائة جزء . وكتاب "مختصر المدونة" مشهور و على كتابيه هذين المعول بالمغرب في التفقه. وكتاب "الإقتداء بأهل السنة"، وكتاب "الذب عن مذهب مالك"، وكتاب "الرسالة" مشهور. وكتاب "تفسير أوقات الصلوات"، وكتاب "الثقة بالله، والتوكل على الله سبحانه". توفي العالم أبا زيد القيرواني سنة 386هـ/996م⁽³⁾.

(1) إبراهيم حركات : المرجع السابق، ج1، ص 22.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص222.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2، ص142 وما بعدها.

- أبو إسحاق إبراهيم السبائي، الزاهد، كان واحد زمانه ورعا وزهدا وعقلا، كان يوالي في الله ويعادي في الله، قويا في إيمانه جلدا في نفسه، نزيه النفس كثير الجد والإجتهد، توفي سنة 356هـ/967م⁽¹⁾. قال أبو الحسن القابسي⁽²⁾ "نعي إلينا أبو إسحاق السبائي، وأنا بمصر، بعد سبعة عشر يوما من وفاته، فجميع من بمصر من العلماء والفقهاء والفقراء والصالحين والمحدثين، كلهم عزّاني فيه رحمة الله عليه"⁽³⁾.

كما استقر أحد منظري التصوف من أهل صقلية المسمى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري بالقيروان، وذهب به التصريح، بأنه تمكن من رؤية الله في حالة يقظة، مؤكداً أن الفقهاء عاجزين عن فهم مثل هذه الأسرار الخفية . واستنكر ابن أبي زيد بشدة هذه النظريات، وألّف رسالتين في الموضوع. وقد أثار هذا الموقف ضجة كبيرة في البلاد، وتهجّم عدد كبير من الصوفيين والفقهاء والمحدثين على ابن أبي زيد وإتهموه بإنكار كرامات الأولياء، كما لو كان من المعتزلة. وفند كثير من المؤلفين الأندلسيين والشرقيين آراه⁽⁴⁾.

(1) الدباغ : معالم الإيمان، ج 3، ص 37.

(2) أبو الحسن القابسي عالم المغرب، سمع من العديد من علماء إفريقية، ثم رحل إلى المشرق سنة 352هـ/963م، حيث تعزز تكوينه العلمي ثم عاد إلى القيروان سنة 357هـ/968م، وسمع منه خلق كثير منهم أبو عمران الفاسي، و أبو القاسم الليدي . وله تأليف منها : "الكتاب الممهّد"، وله كتاب "الملخص"، ورسالة في الإعتقادات، ورسالة في الذكر والدعاء . توفي سنة 403هـ/1012م، ينظر الدباغ، المصدر السابق، ج 3، ص 146.

(3) المصدر نفسه: ص 74.

(4) الهادي روجي إدريس : المرجع السابق، ج 2، ص 310.

وقد استفتى بعض خصوم ابن أبي زيد من القيروانيين، وكذلك المعني بالأمر ذاته، بالباقلاني⁽¹⁾، الذي قيل أنه ألف كتابا يحمل هذا العنوان "الفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء". ويتضح من ذلك، أن الأمر يتعلق بتوضيح أكثر مما يتعلق بتفنيد. إذ أن ابن أبي زيد، قد قصد وضع حدّ لبعض مظاهر التصوف المتطرف، التي تشبه الشعوذة. ولربما حرصا منه على وضع حد لهذا الجدل، أكثر من حرصه على الرجوع عن رأيه. ألف ابن أبي زيد كتابا بعنوان "جزء في إثبات كرامات الأولياء"⁽²⁾.

وفي ميدان الطب النظامي، فإن أول طبيب نظامي عرفته إفريقية هو أبو يوحنا بن ماسويه السرياني، الذي رافق الوالي يزيد بن حاتم إلى القيروان، وتولى مدواته ومعالجة شخصيات الدولة. وإبتداءً من سنة 155هـ/772م، ظلت إفريقية تستقبل مجموعة من الأطباء وعلماء الطب الوافدين من المشرق، لاسيما خلال القرنين الثالث والرابع، و بعضهم مسلمون مثل إسحاق بن عمران البغدادي⁽³⁾.

يتضح من المعطيات الواردة في هذا الفصل، أن الحواضر في بلاد المغرب بنيت لتحقيق غايات مختلفة، أبرزها اتخاذها كقواعد لنشر الإسلام، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة القيروان، كما اتخذت لتوطيد النفوذ السياسي للدول و الكيانات السياسية التي نشأت ببلاد المغرب. و هي إلى جانب

(1) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور، كان على مذهب الشيخ أبي الحسين الأشعري، ومؤيدا اعتقاده وناصر طريقتة. سكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره. توفي ببغداد سنة 403هـ/1012م، ينظر ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 269-270.

(2) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ص 311.

(3) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج 1، ص 406-408.

هذا، اهتمت بالعلوم و الفنون، و أنشأت المدارس و المعاهد بما لنشر العلوم الدينية و غيرها . كما استقطبت هذه الحواضر العديد من العلماء الأعلام من بلاد المشرق، فتجسدت بذلك حركة في التواصل العلمي بين المغرب و المشرق .

الفصل الثاني:

الحواضر العلمية في بلاد المشرق

دمشق

دمشق الشام، بكسر أوله، وفتح ثانيه، وشين معجمة، وآخره قاف : البلدة المشهورة قسبة الشام .وهي حسب ياقوت الحموي، جنة الأرض بلا خلاف، لحسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة، وكثرة مياه، قيل : سميت بذلك لأنهم دَمَشَقُوا في بنائها، أي أسرعوا⁽¹⁾. وتقع دمشق، حيث الطول ستون درجة والعرض أربع وثلاثون درجة⁽²⁾ . وبلغت المدينة أوج مكانتها أيام حكم الأمويين.

وأصبحت دمشق عاصمة أكبر إمبراطورية حتى ذلك الزمان، امتدت من الأطلسي وحتى الصين .ومنها إنبثقت حركة التعريب التي إمتدت على طول البلاد العربية⁽³⁾ . لقد اتخذها معاوية ابن أبي سفيان (41-60هـ/661-680م) حاضرة لخلافة . ولاغرو، فقد عمل منذ وليها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على توطيد نفوذه في بلاد الشام، مستعينا بأتباعه وذوي قرباه، وجذب الأنصار حوله، بالعطايا والمنح .ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأمويين . أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام، وكثرة النماء فيها، وقربها من بلاد الحجاز التي كانت لا تزال مركز القوة الدينية في الإسلام، ومن سائر مواطن القبائل العربية، مما يساعد على تجنيد الجنود، إذا دعت الحاجة إلى ذلك⁽⁴⁾ .

(1) ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص 463.

(2) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا، ص 152.

(3) سلامة صالح النعيمات وآخرون : الحضارة العربية الإسلامية، الشركة العربية المتحدة للتسويق، القاهرة، 2008، ص 216.

(4) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ج2، ص 295.

ولا عجب، فإن الدولة الأموية، كانت تحتفظ بالدم العربي والعصبية العربية. هذا إلا أن دمشق، كانت قريبة من حدود الإمبراطورية البيزنطية، تلك الحدود التي كان النزاع يقوم فيها بين العرب والروم، الذين لم تكد الحروب تخبو نارها بينهم في وقت من الأوقات، كما أن قرب حاضرة المسلمين في العصر الأموي من هذه الحدود، من شأنه أن يسهل حشد الجيوش في أقرب وقت⁽¹⁾.

فكانت دمشق عاصمة لكل المسلمين، وكان طبعاً أن يقصدها العلماء من كل مكان. وقد شجع الخلفاء الأمويون الشعر والخطابة وفنون الأدب، فكانت الحركة العلمية الأخرى تنمو من نفسها، وأهم هذه الحركات، الحركة الدينية، وكان الباعث على نشوئها الحماسة الدينية، وحاجة الناس إلى معرفة الحلال والحرام، وخاصة فيما يعرض من الحوادث التي لم تكن تعرض لها في صدر الإسلام⁽²⁾.

وعلى مر تاريخ دمشق في العهد الإسلامي، لعب قسم كبير من رجال السلطة والحكم، دوراً بارزاً في تشجيع العلماء والأدباء ورجال الفكر. فالأيوبيون (567-648هـ/1171-1250م)، لم تنحصر شهرتهم في الدفاع عن البلاد الإسلامية وتوحيدها وتحرير ما اغتصب منها فقط، بل كانت شهرتهم أكثر فأكثر بإهتمامهم بالعلم والعلماء. لقد عمل الأيوبيون في دمشق على تنشيط العلم، وعززوا مكانته في البلاد قاطبة، حتى لم يكن يضاهيهم في عصرهم في هذه الناحية أحد، وقد بذلوا

(1) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ج2، ص 295.

(2) سلامة صالح النعيمات : المرجع السابق، ص 216.

للعلماء ثمن علمهم بكرم وسخاء، وشيّدوا لهم المدارس والمعاهد . فوفد العلماء من كل قطر وناحية إلى هذه البلاد التي راجت فيها بضاعتهم⁽¹⁾.

وترجع الروح العلمية ونشاطها، وسيادتها في الدولة الأيوبية إلى أن الأيوبيين هم أنفسهم، كان للبعض منهم مؤلفات متنوعة في العلوم والفنون⁽²⁾.

كما عني صلاح الدين الأيوبي⁽³⁾ بأمر الثقافة، ونشرها في أرجاء بلاده، حيث كان كلما سمع بعالم ممتاز زيّن له الجيئى إلى بلاده، وحقق له جميع رغباته، وكان يغدق على المدرّسين، ويوسّع الرزق على القائمين بشؤون الثقافة، حتى صارت أرزاق أرباب العمائم إقطاعا وراتبا، تتجاوز مئتي ألف دينار، وربما كانت ثلاثمئة ألف دينار⁽⁴⁾.

كما تطرق العالم، و الرحالة الأندلسي ابن جبير إلى الأوقاف الكثيرة التي حبّست على مدارس العلم والعلماء والمتصوفة، فقد لاحظ أن الرواتب تجري عليهم دون حاجتهم إلى امتهان

(1) أحمد الأوتاني : دمشق في العصر الأيوبي، تقدم سهيل زكار، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2007، ص 377.

(2) كان الملك المنصور محمد بن عمر بن شهنشاه بن أيوب، صاحب حماه، يحب العلماء، وكان في خدمته ما يناهز مائتي متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجّمين والكتاب .ألف هذا الملك تاريخا على السنين في عدة مجلدات .ينظر : ابن شاکر الكتيبي : فوات الوفيات، ج4، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت [ب.ت.]، ص 12.

(3) الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ-1137-1193م) من ألمع الشخصيات في تاريخ الإسلام، وهي لاتستطيع فقط ببطولة صاحبها وأعمالها العظيمة، ولكنها تستطيع أيضا بجلالة الشخصية ونوازع الإنسانية المؤثرة .أورد ابن خلكان، أنه كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر، محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية، معاشرًا لأرباب الفضائل حازما في أموره، ينظر : ابن خلكان : المصدر السابق، ج 5، ص 81، ومحمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية، شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية 1390، هـ/1970م، ص 14.

(4) أحمد الأوتاني: المرجع السابق، ص 378.

حرف أخرى بقوله "وقد كفاهم الله مؤن الدنيا و فضولها"⁽¹⁾. كذلك وصف ابن جبير الجامع الأموي⁽²⁾، وصفا حيا، وأنه كان بمنزلة جامعة كبيرة، تدرّس فيه العلوم والفنون، وتعدّد فيه حلقات التدريس للطلبة يوميا. وخصّصت مرافق بالجامع لإيواء الغرباء وطلبة العلم، وتجري عليهم نفقة معلومة⁽³⁾.

الحياة العلمية في دمشق الإسلامية

شهدت دمشق فترة إزدهار علمي وحضاري كبيرين، جعلها مركز إشعاع هام، أثر في الكثير من أرجاء العالم الإسلامي والعالم أجمع وقتذاك. وأنجبت المدينة واستقطبت الكثير من العلماء النوابغ، وعديد طلبة العلم من كافة الأصقاع، منهم :

(1) ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد : الرحلة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت [ب.ت.]، ص 199.

(2) الجامع الأموي، هو من أكبر جوامع المسلمين وأقدمها وأشهرها وأجملها وأتقنها، بناه عبد الملك بن مروان، و ذلك سنة 89 إلى سنة 96 هجرية ' جمع إليه أشهر الصناع من مملكته المتسعة، و أتاه بإثني عشر ألف صانع من بلاد الرّوم أيضا، فأتى عظيما جميلا متقنا بالنقوش الجميلة و الأدهنة البديعة، و أنفق عليه الملايين الكثيرة. و للجامع سبعة أبواب خارجية. ينظر ابن جبير : المصدر السابق، ص 191، و عبد الرحمن بك سامي : القول الحق في بيروت و دمشق، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/1981م، ص 97.

(3) ابن جبير : المصدر السابق، ص 191.

- الوليد بن مسلم الدمشقي القرشي المتوفى عام 194هـ/908م . كان عالم دمشق بدون منازع، صنف التصانيف والتواريخ، روى عن الأوزاعي⁽¹⁾ وتأثر به، كان بارعا في حفظ المغازي، روى عنه كثيرون أبرزهم أحمد بن حنبل⁽²⁾ وابن راهويه، وابن المديني⁽³⁾.
- أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الغساني الدمشقي، قال السيوطي : شيخها ومحدثها، كان إمام أهل الشام في الحفظ والإتقان، وإليه كان مرجع أهل الشام في الجرح والتعديل لشيوخهم . توفي مسجوناً في بغداد سنة 218هـ-833م⁽⁴⁾ .

أصبحت دمشق منطلقاً لتكوين أبرز علماء الحديث المعروفين⁽⁵⁾، فقد إستقطبت العالم ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد الربيعي القزويني، سمع بالشام والعراق وخراسان . كان ثقة متقناً،

(1) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، إمام أهل الشام، ولد سنة 88هـ-707م، لم يكن بالشام أعلم منه، قيل أنه أجاب في سبعين ألف مسألة . توفي ودفن بمدينة بيروت، سنة 157هـ-774م . ينظر ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 127، وأمينة بيطار: الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (132-358هـ/968/750م)، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1970، ص 383.

(2) الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن محمد بن هلال، ولد في بغداد سنة 164هـ-781م . كان إمام المحدثين، صنف كتاب "المسند"، وهو مصنف مشهور في علم الحديث، وقيل أنه كان يحفظ ألف ألف حديث، امتحن في محنة خلق القرآن على عهد الخليفة العباسي المعتصم (218-227هـ/833-842م)، وسجن إلى أن أخرجته الخليفة المتوكل (232-247هـ-847-861م)، وأكرمه وأحسن إليه . توفي الإمام أحمد سنة 241هـ-856م، ينظر: أبو الفرج بن الجوزي : صفة الصفوة، ج1، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 1430 . 2009م، ص 478 وما بعدها، وابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 63 . 65.

(3) السيوطي: طبقات الحفاظ، المصدر السابق، ص 132.

(4) المصدر نفسه : ص 166 . 167.

(5) كما أقام بدمشق عالم الحديث المشهور التّسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان، القاضي الحافظ، صاحب كتاب "السنن"، وكان إمام عصره في علم الحديث، وانتشرت تصانيفه في مختلف أصقاع بلاد الإسلام، وهو أحد الأئمة الأعلام، روى عن قتبية بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم بن حبيب، وإسحاق بن موسى الأنصاري وإبراهيم بن سعيد الجوهري، توفي سنة 303هـ-915-916م، ينظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج5، ص 281-282 .

متحجًا به، له معرفة كبيرة بالحديث . حفظ مصنفات في السنن والتفسير والتاريخ، وكان عارفا بهذا الشأن، مات سنة 238هـ-852-853م⁽¹⁾.

ولقد أنجبت دمشق حافظا كبيرا، ترك أثارا لا تمحى في هذا العلم، وهو ابن عساكر أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين، المولود سنة 527هـ-1133م، كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فإشتهر به، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق دينا، جمع بين معرفة المتون والأسانيد⁽²⁾.

سمع ببغداد في سنة 520هـ-1126م، من كبار علمائها، ثم رجع إلى دمشق، ثم رحل إلى خراسان ودخل نيسابور، وصنف التصانيف وخرّج التخاريج، وكان حسن الكلام على الأحاديث، محظوظا في الجمع والتأليف، صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة، وله شعر لا بأس به في علم الحديث :- من الوافر -

ألا إنَّ الحديثَ أجلُّ عَلمٍ	وأشرفُهُ الأحاديثُ العَوالي
وأنفَعُ كُلُّ نَوعٍ مِنْهُ عِنْدِي	وأحسُّهُ الفرائدُ في الأمالي
وإنَّكَ لَن تَرَى لِلعَلمِ شَيئًا	يُحَقِّقُهُ كَأفواهِ الرِّجالِ
فَكُنْ يَاصِحًا واحِرِصْ عَلِيهِ	وخذُهُ عَنِ الرِّجالِ بِأَمَلالِ
ولا تَأخذُهُ مِنْ صُحُفٍ فَتُرمَى	مِنَ التَّصحيفِ بِالدَّاءِ العُضالِ

(1) السيوطي : المصدر السابق، ص 282. 283. ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج 4، ص 344.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 309، السيوطي : طبقات الحفاظ، المصدر السابق، ص 475. 476.

توفي الحافظ ابن عساكر الدمشقي سنة 571هـ-1175م وحضر الصلاة عليه السلطان

صلاح الدين الأيوبي⁽¹⁾.

كما كان للنساء دور بارز في رواية الحديث بدمشق، لعل أبرز إسم يبرز، هو زينب بنت يحيى، المعروفة بأم عمر، ولدت سنة 648هـ-1250م. سمعت من البلداني، وإبراهيم بن خليل، وعمر بن عوّة الجزري النحاس، وعثمان بن خطيب القزّافة، والزين خالد النابلسي، وروت عنهم وتفردت بمعجم الطبراني الصغير عن ابن خليل المذكور. نالت إجازات من أبرز أعلام علم الحديث في وقتها. قرأت عليها جماعة كبيرة من الطلبة والعلماء، يذكر الصفدي أنها أجازته هو شخصيا في الحديث. وكان لأم عمر شغف بالعبادة والخير، ومحبة سماع الحديث وإسماعه. توفيت حسب رواية الصفدي سنة 735هـ-1334م. وصلي عليها بجامع دمشق، دفنت بمقبرة الباب الصغير⁽²⁾.

أما في حقل التفسير، فقد ازدهر هذا العلم بفضل جهود العلماء، سواء أولئك الذين أنجبتهم دمشق، أو الذين وفدوا إليها. ويبرز في هذا المجال المفسر الدمشقي ابن الحسيني، أحمد بن إسماعيل ابن خليفة بن عبد العال، شهاب الدين، أبو العباس، المولود سنة 749هـ-1348م مفسر مؤرخ حافظ للحديث، ولد بدمشق وبها نشأ وتعلم، ثم رحل إلى مصر وأخذ عن جماعة من العلماء، وعاد

(1) السيوطي : طبقات الحفاظ، المصدر السابق، ص 309 وما بعدها.

(2) ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله محمد : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من انبائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري، ج 3، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ/2006م، ص 820-821، والصفدي صلاح الدين خليل، أعيان العصر وأعوان النصر، ج2، تحقيق عمر محمد عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م، ص 275.

ودرس بالعديد من مدارس دمشق، كانت له حلقة بالجامع الأموي وغيره. من كتبه "جامع التفاسير"⁽¹⁾.

أما في علم أصول الفقه⁽²⁾، فقد استقطبت المدينة العالم شمس الدين الأصفهاني، محمد بن محمود بن عبد الكافي، المولود سنة 616هـ-1219م، قدم الشام بعد سنة 650هـ-1252م، وناظر الفقهاء، وإشتهرت فضيلته، وإنتهت إليه الرياسة في معرفة الأصول، وشرح "المحصل" للإمام فخر الدين الرازي⁽³⁾، شرحا كبيرا حافلا، وصنف كتاب "القواعد" مشتملا على أصول الدين والفقه والمنطق والخلاف، وهو أحسن تصانيفه. غادر دمشق وولي قضاء قوص والكرك، ودخل مصر وولي تدريس الفقه الشافعي، وتخرج به خلق، ورحل إليه الطلبة، توفي سنة 688هـ-1289م⁽⁴⁾.

أما في المنطق، فقد وفد على دمشق الرضا الرومي، المولود سنة 646هـ-1248م وهو إبراهيم بن سليمان رضى الدين، أبو إسحاق الرومي، ثم الحموي، ويعرف بالأب الرومي، عالم

(1) عادل نويهض: معجم المفسرين، ج 1، ص 29، 30.

(2) علم أصول الفقه، هو علم يتعرف منه استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الإجمالية اليقينية. و موضوعه الأدلة الشرعية الكلية من حيث إنها يستنبط عنها الأحكام الشرعية. و مبادئه مأخوذة من العربية و بعض الأحكام الشرعية و العقلية. و الغرض منه تحصيل ملكة استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة التحصيلية، و هي الكتاب و السنة و الإجماع و القياس. و فائدته استنباط تلك الأحكام على وجه الصحة. ينظر، ابن خلدون: المقدمة، ص 452-453، و أحمد ابن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة: مفتاح السعادة و مصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار بن حزم، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م، ص 408.

(3) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الطبرستاني الأصل الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي، فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة، منها تفسير القرآن الكريم، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله، ومنها في علم الكلام "المطالب العلية"، و "نهاية المعقول"، وغيرها من التصانيف التي مست مختلف العلوم والفنون. ولد سنة 544هـ-1149م، و توفي سنة 606هـ-1209م، ينظر، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 248 وما بعدها، و عادل نويهض: معجم المفسرين، ج 1، ص 65.

(4) ابن شاکر الکتیبي: المصدر السابق، ج 4، ص 38.

بالمنطق والتفسير والحديث، نسبته إلى آب كرم، من قرى قونية في تركيا . سكن دمشق و درّس بها، واستفاد منه خلق كثير من الطلبة، إلى أن مات بها سنة 732هـ-1331 1332 م، أثنى عليه جماعة من الأعلام و العلماء⁽¹⁾.

كما استقطبت المدينة، العلامة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العالم الخطيب، كمال الدين أحمد بن نعمة المقدسي الشافعي. أورد ابن الجزري عنه في تاريخه، أنه لم يجمع لأحد من العلماء من المذهب والأصوليين، والحديث والفتوى، والنحو، واللغة وحسن الخط والدين⁽²⁾. وولي التدريس بعدة مدارس، وخطب بجامع دمشق بجلسته أنواعا من العلوم، وإنتهت إليه رئاسة الشافعية، صنف كتابا في أصول الفقه، قرأه عليه جماعة، وأذن لجماعة من أصحابه في الفتوى، فأفتوا في حياته، وبعضهم تولّوا القضاء، وكان ثاقب الذهن، حسن المناظرة، مولده سنة 622هـ-1225م، توفي سنة 694هـ-1294 1295م⁽³⁾.

أما في ميدان علم القراءات، فقد أنجبت دمشق عالما معروفا، هو محمد بن النضر بن مر ابن الحراء الربيعي، المعروف بالإمام أبي الأخرم. قال الداودي في كتاب "طبقات المفسرين" إنتهت إليه رئاسة الإقراء بالشام، وكان له حلقة عظيمة وتلاميذة جلة⁽⁴⁾.

(1) عادل نويهض: معجم المفسرين، ج1، ص 14.

(2) ابن الجزري: المصدر السابق، ج1، ص 262-263.

(3) المصدر نفسه: ص 265.

(4) الداودي شمس الدين محمد: طبقات المفسرين، تحقيق عبد السلام عبد المعين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م، ص476.

كان عارفاً بعلل القراءات، بصيراً بالتفسير والعربية، إرتحل الناس إليه من كافة أصقاع البلاد

الإسلامية. توفي ابن الأخرم الدمشقي سنة 341هـ. 952 م، وقيل سنة 342-953م⁽¹⁾.

كما وفد على دمشق عالم موسوعي، هو أبو الفتح الملك الأشرف، عمر بن يوسف بن عمر

ابن علي بن رسول، الشيخ الإمام، ورد في أوائل سنة 548هـ-1153م من بغداد إلى دمشق، كان

غاية في الذكاء وصفاء الحس، والنفاد في العلوم الرياضية والطب والهندسة والمنطق والحساب وفنون

النجوم والأحكام والمواليد والفقهاء وما يتصل به، وتواريخ الأخبار والسير والأدب. توفي في دمشق سنة

548-1153م⁽²⁾.

أما الشعر، فقد عرف حركة قوية، خاصة في فترة القرنين الثالث والرابع هجري. وتفوّقت

بلاد الشام عامة، ودمشق على وجه أخص على غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى، فقد ظهرت

حركة شعرية وأدبية كبيرة، فاقت ماكانت عليه بغداد وقتذاك، حسب شهادة الثعالبي⁽³⁾.

ومن أبرز شعراء الشام أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي، المعروف بأبي الرّقعّمق، وهو أحد

المّداح الجيّدين، فمن غرر محاسنه، قوله يمدح من قصيدة أولها - من بحر الخفيف :-

قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَهُ وَإِعْتَادَهُ وَأَقْلَنَاهُ ذَنْبَهُ وَعِثَارَهُ

(1) الداودي : المصدر السابق، ص 477.

(2) أحمد عيسى : معجم الأطباء، (=و هو ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي اصبيعة) دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1402هـ-1982م، ص 96.

(3) سجل الثعالبي أن "شعراء عرب الشام وما يقارنها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام"، ويعلّل ذلك لقربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق، لمجاورتهم الفرس والنبط، ينظر : الثعالبي أبو منصور عبد الملك: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج1، تحقيق، إبراهيم صقر مكتبة مصر [ب.ت.]، ص 25.

وَالْمَعَانِي لِمَنْ عَنَيْتَ وَلَكِنَّ	بِكَ عَرَّضْتُ، فَاسْمِعِي يَا جَارَهُ
مِنْ مُرَادٍ بِهِ أَنَّهُ أَبَدَ الدَّهْرَ	ر تَرَاهُ مُحَلَّلًا أَرْزَارُهُ
عَالِمٌ أَنَّهُ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ	مُبَاحٌ لِأَعْيُنِ النَّظَارَةِ
هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ فَلَكُمْ هَتَّ	كَ مِنْ ذِي تَسْتَرٍ أَسْتَارُهُ
سَحَرْتَنِي الْحَاظُهُ وَكَذَا كُ	لَّ مَلِيحٌ لِحَاظُهُ سَحَّارَهُ
مَا عَلَيَّ مُؤَثِّرُ التَّبَاعُدِ وَالْأَعْرَ	اضِ لَوْ آتَرَ الرِّضَى وَالزِّيَارَةَ
وَعَلَى أَيِّ وَإِنْ كَانَ قَدْ عَدَّ	بَ بِالْهَجْرِ مُؤَثِّرٌ إِيْثَارَهُ
لَمْ أَزَلْ لِأَعْدِمْتُهُ مِنْ حَبِيبٍ	أَشْتَهِي قُرْبَهُ وَأَبِي نِقَارَهُ ⁽¹⁾ .

القدس:

حملت القدس أسماء متعددة عبر عصورها التاريخية مثل: أوشيلم، ييوس، إيليا كاييتولينا، إيليا، بيت المقدس، القدس الشريف، دار السلام، القدس، وغيرها من الأسماء، ويميل البعض إلى تفسير الإسم أوراشاليم بمعنى مدينة السلام أو أرض السلام، و ذهب بعضهم إلى إعطاء معنى مجازيا للإسم، بمعنى مدينة الله، مدينة العدل، مدينة الحق وغيرها من المعاني⁽²⁾.

(1) الثعالبي: المصدر السابق: ص 291.

(2) شوقي شعث: القدس الشريف، مجلة ثقافية مقدسية، العدد 74، جوان 2009، ص 7-8.

و المقدس، بفتح أوله، و سكون ثانيه، و تخفيف الدال و كسرهما، أي بيت المقدس المطهر

الذي يتطهر به من الذنوب⁽¹⁾

و القدس هي قبلة المسلمين الأولى، و معراج الرسول محمد صلى الله عليه و سلم، و مهد

المسيح عليه السلام، تعايشت على أرضها الديانات الثلاث.

و تقع القدس حيث ست و خمسون درجة و إحدى و ثلاثون دقيقة و العرض اثنتان

و ثلاثون درجة⁽²⁾.

فتح العرب المسلمون مدينة القدس في خلافة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، عام

15هـ/638م، و قد حافظ رضي الله عنه على الأماكن المقدسة المسيحية و اليهودية، و بقيت تلك

الأماكن في يد أصحابها يمارسون فيها عباداتهم وفقاً لأصول ممارسة شعائرهم، و مع الفتح العربي

الإسلامي وفد عدد كبير من العرب المسلمين، فأخذ بذلك العصر العربي الإسلامي ينمو و عاد إلى

المدينة طابعها العربي الإسلامي⁽³⁾.

لقد أولت الدول الإسلامية التي قامت، أهمية كبيرة للمدينة المقدسة، بدءاً من الدولة الأموية

التي بنى خلفاؤها قبة الصخرة المشرفة و المسجد الأقصى، مروراً بالدولة العباسية التي واصل حكامها

الإهتمام بالقدس، كما اهتمت الدويلات التي استقلت عن الخلافة العباسية في مصر و بلاد الشام

⁽¹⁾ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 166.

⁽²⁾ (ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص 151

⁽³⁾ (شوقي شعث: المرجع السابق، ص 16

بالمدينة، خاصة من قبل الأيوبيين. فقد شهدت المدينة في عهد صلاح الدين الأيوبي رخاءً و تطوراً كبيراً، فأقيمت فيها المدارس و المعاهد و الأربطة و المستشفيات و الملاهي، و انتعشت الحركة التجارية، فكثرت المواد التي كانت تصدر إلى الخارج، و منها الجبن و القطن و الزبيب، و ظلت القدس أثيرة عند صلاح الدين حتى وفاته بدمشق، عام 589هـ / 1193م و دفنه فيها⁽¹⁾.

كما استمات المماليك في الدفاع عن بلاد الشام عامة و القدس الشريف خاصة ضد الأطماع الصليبية، خاصة على عهد السلطان الظاهر بيبرس (658 - 678هـ / 1260-1279م) الذي دافع عن المدينة، و هزم الصليبيين في أكثر من موقعة، حتى تصفيتهم. و أقام المماليك منشآت علمية كثيرة، تجاوزت الخمسين مدرسة، بالإضافة إلى العمران الراقى الذي عرفته المدينة على عهدهم⁽²⁾.

و نظراً لما تمتعت به المدينة من أمن و إستقرار على العهدين الأيوبي و المملوكي، ازدهرت الحياة العلمية و الفكرية، و غدت مهوى أفئدة كثير من العلماء و طلبة العلم في ذلك الوقت، إلى جانب صبغتها الدينية، مع تعدد مدارسها، التي حظيت برعاية و عناية الحكام من سلاطين و أمراء،

(¹) شوقي شعث: المرجع السابق، ص 20. 21.

(²) محمد سهيل طقوس: تاريخ المماليك في مصر و بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1431هـ / 2010م،

ص 85، و ما بعدها.

و الكثيرين من أهل البر، و الذين جاءوا لهم بالعقارات التي خصّصت لأعمال الخير، و كان ينتفع من ريعها على العلماء و طلبة العلم⁽¹⁾.

و قد برزت في المدينة العديد من بيوتات العلم التي أنجبت علماء نوابغ، كانت لهم بصمتهم الواضحة على الصعيد العلمي للحضارة العربية الإسلامية من أبرزهم:

- نصر بن إبراهيم المقدسي (ت 490هـ / 1097): وصفه الياضي، بالشيخ الإمام العلامة القدوة المحدث، مفيد الشام، شيخ الإسلام، أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود النابلسي المقدسي الفقيه، الشافعي، الورع الزاهد، ذو المناقب العديدة، و السيرة الحميدة، كان إماما علامة، مفتيا محدثا، حافظا زاهدا، ورعا، كثير القدر عديم النظر⁽²⁾.

ولد قبل عشر و أربع مئة، و ارتحل إلى دمشق قبل الثلاثين، فسمع "صحيح" البخاري من أبي الحسن بن السّمسار، صاحب الفقيه أبي زيد المروزي، و سمع من عبد الرحمن بن الطّبير، المتوفى سنة 431هـ / 1039م، و أبي الحسن محمد بن عوف المزني، و ابن سلوان المازني، و طبقتهم، و سمع من هبة الله بن سليمان و غيره. لحقه أبو حامد الغزالي و تفقّه به، و ناظره، و كان يشغل في جامع دمشق في الزاوية الغربية الملقبة بالغزالية⁽³⁾.

(1) علي السيد علي: القدس في العهد المملوكي، مجلة صامد، السنة 13، العدد 85، تموز، آب، أيلول 1991، عمان، الأردن، ص 255.

(2) الياضي أبو محمد عبد الله: مرآة الجنان و عبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م، ص 117.

(3) محمد بن عزوز: المحدثون المغاربة في دمشق، المرجع السابق، ص 71.

درس العلم في بداية مشواره ببيت المقدس، ثم انتقل إلى صور، فأقام بها عشر سنين ينشر العلم، ثم انتقل منها إلى دمشق، فأقام بها سنين يحدّث، و يدرّس، و يفتي على طريقة واحدة من الزهد في الدنيا و التنزّه عن الدنيا، و الجري على منهاج السلف من التقشّف و تجنب السلاطين، ورفض الطمع، و الإجتراء باليسير، كما وصفه الياضي⁽¹⁾.

- عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت 620هـ / 1223م) : وصفه ابن رجب الحنبلي بالفقيه الزاهد، الإمام، شيخ الإسلام و أحد الأعلام، ولد سنة 541هـ / 1146م، قدم دمشق مع أهله و له عشر سنين، فقرأ القرآن. سمع من والده و أبي المكارم بن هلال، و أبي المعالي بن صابر و غيرهم. و رحل إلى بغداد سنة 561هـ / 1166م، و سمع الكثير من هبة الله الدقاق، و ابن البطّي، و سعد الله الدجاجي، و ابن شافع، و أبي زرعة، و خلق كثير⁽²⁾. أما الذهبي فذكر "حاز قصب السبق، و انتهى إليه معرفة المذهب الحنبلي و أصوله. و كان مع تفننه ورعا زاهدا ربانيا عليه هبة و وقار، و فيه حلم و تؤدة، و كان يفحم الخصوم بالحجج و البراهين"⁽³⁾.

وقال عمر بن الحاجب الحافظ: هو إمام الأئمة، و مفتي الأمة، خصه الله بالفضل الوافر، و الخاطر الماطر، و العلم الكامل، طنت في ذكره الأمصار، و ضنّت بمثله الأعصار، و قد أخذ بمجامع الحقائق النقلية و العقلية، فأما الحديث فهو سابق فرسانه، و أما الفقه فهو فارس ميدانه، أعرف

(1) الياضي: المصدر السابق، ص 117.

(2) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة، ج3، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى 1425هـ / 2005م، ص 281. 282.

(3) الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غير، ج3، حققه، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1405هـ / 1985م، ص 180. 181.

الناس بالفتيا. و له المؤلفات الغزيرة، و ما أظن الزمان يسمح بمثله، متواضع عند الخاصة و العامة، حسن الإعتقاد، ذو أناة و حلم و وقار، و كان مجلسه عامراً بالفقهاء و المحدثين و أهل الخير، و صار في آخر عمره يقصده كل أحد. و كان كثير العبادة دائم التّجهّد، لم ير مثله (1).

و قال أبو شامة الدمشقي: كان، ابن قدامة إماماً من أئمة المسلمين، و علماً من أعلام الدين في العلم و العمل، صنف كتباً حسناً في الفقه و غيره، عارفاً بمعاني الأخبار و الآثار، سمعت عليه أشياء، و كان بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع المظفري، و يخطب يوم الجمعة إذا حضر، فان لم يحضر فعبد الله بن أبي عمر هو الخطيب و الإمام. و أما بمحارب الحنابلة بجامع دمشق، فيصلّي فيه الموقف إذا كان حاضراً في البلد، و إذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبدالغني، ما لم يحضر الموقف، و كان بين العشائين ينتقل حذاء المحراب... و جاءه مرة الملك العزيز ابن العادل يزوره، فصادفه يصلي، فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته، ثم اجتمع به، و لم يتجوّز في صلاته، و كان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرّب الدّولعي بالرّصيف، ويمضي معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى، فيقدم لهم ما تيسّر يأكلونه معه (2).

و قال الضياء: كان رحمه الله إماماً في القرآن و تفسيره، إماماً في علم الحديث و مشكلاته، إماماً في الفقه، بل أوحد زمانه فيه، إماماً في علم الخلاف، أوحد زمانه في الفرائض، إماماً في أصول الفقه، إماماً في النحو، إماماً في الحساب، إماماً في النجوم السيارة و المنازل. و لما قدم بغداد، قال له

(1) نقلاً عن محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 79.

(2) أبو شامة شهاب الدين الدمشقي: المدّيل على الروضتين، ج2، تحقيق إبراهيم الزبيق، دار الرسالة، شركة البشائر الإسلامية، بيروت، 1431هـ/ 2010، ص 367. 370.

الشيخ أبو الفتح بن المني: اسكن هنا، فإن بغداد مفتقرة إليك، و أنت تخرج من بغداد و لا تخلف فيها مثلك⁽¹⁾.

أما اليافعي فأورد عنه في كتابه مرآة الجنان: " الشيخ موفق الدين بن قدامة الحنبلي...انتهت إليه معرفة المذهب و أصوله، كان تقيا ورعا زاهداً مستغرق الأوقات في العلم و العمل"⁽²⁾. و كانت وفاته يوم السبت يوم عيد الفطر أول شوال، و دفن من الغد بجبل قاسيون خلف الجامع المظفري في مقبرتهم المشهورة، و كانت له أيضا جنازة عظيمة ذات جمع وافر، امتدّ الناس في طرق الجبل، فملئوها⁽³⁾.

محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي (ت 676هـ / 1277م)

ولد يوم السبت رابع عشر صفر، و قيل الأحد سنة 603هـ / 1206م بدمشق، و توفي بالقاهرة سنة 676هـ / 1277م، سمع من علماء كبار كالتاج الكندي و ابن الخرساني و ابن ملاعب و الشيخ الموفق و تفقه عليه و حضر بن طبرزد و سمع ببغداد من الفتح بن عبد السلام و عمر ابن كرم الحمامي و الداهري و جماعة أخرى من المتقدمين في العلم، و سكن المدينة و تأهل بها⁽⁴⁾. ثم انتقل إلى مصر، و سكنها إلى أن مات بها، و عظم شأنه بها، و صار شيخ المذهب علما و صلاحا و ديانة و رئاسة، و انتفع به الناس، و ولي بها مشيخة خانقاه سعيد السعداء، و تدريس

(1) محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 80.

(2) اليافعي: المصدر السابق، ج4، ص 38.

(3) أبو شامة الدمشقي: المصدر السابق، ص 370.

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص 292.

المدرسة الصالحية، و ولي قضاء القضاة مدّة ثم عزل، و اعتقل مدّة، ثم أطلق سراحه، فأقام بمنزله يدرّس بالمدرسة الصالحية و يفتي، و يقرئ العلم إلى أن توفي (1).

و تجمع المصادر التي ترجمت له، أنه كان مشهوراً بمكارم الأخلاق و حسن الطريقة. قال البرزالي في تاريخه " كان حسن السّمت و ضيئ الوجه، نيّر الشّيبة، و له معرفة بالفقه و الأصول، وكان كثير البر و الصلة و الصدقة، كثير التواضع و التودد.

و قال الذهبي: استوطن مصر بعد الأربعين و رأس بها في مذهب أحمد، و كان إماماً محققاً، كثير الفضائل، صالحاً، خيراً، حسن السيرة، مليح الشكل، كثير النفع و المحاسن.

و قال القطب اليوناني، كان من أحسن المشايخ صورة، مع الفضائل الكثيرة التامة، و الديانة المفرطة، و الكرم و سعة الصدر، و هو أول من درّس بالمدرسة الصالحية للحنابلة، و أول من ولي قضاء القضاة منهم بالديار المصرية، و تولّى مشيخة خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة مدّة، و كان كامل الأدوات، سيّداً، صدرا من صدور الإسلام و أئمتهم، متبحراً في العلوم، مع الزهد الخارج عن الحدّ، و احتقار الدنيا، و عدم الإلتفاف إليها.

حدّث بالكثير، و سمع من الكبار، منهم الدمياطي و الحارثي، و الشريف أبو القاسم الحسيني الحافظ، و عبد الكريم الحلبي (2).

أحمد بن عبد الدايم المقدسي، الصالح، الكاتب المحدث المعمر، الخطيب زين الدين أبو العباس، ولد سنة 575هـ / 1179هـ بفندق الشيوخ من أرض نابلس، و سمع الكثير بدمشق كيحي

(1) ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق، ج4، ص 143

(2) ابن عماد: المصدر السابق، ص 147. 148، و محمد بن عزوز، المرجع السابق، ص 85. 86.

الثقفي، و أبي عبد الله بن صدقة، و أبي الحسن بن الموازني و إسماعيل الجنزوي، و غيرهم. و دخل بغداد وسمع بها من أبي الفرج بن كليب، و المبارك بن المعطوش، و أبي الفرج بن الجوزي، و أبي الفتح ابن المنذائي، و عبد الله بن أبي المجد، و عبد الوهاب بن سكينه، و سمع بحرّان من خطيبها الشيخ فخر الدين، و أجاز له خطيب الموصل أبو الفضل، و عبد المنعم الفراوي، و تفرد بالرواية عنهم أيضا، وقرأ بنفسه، و عني بالحديث، و تفقه على الشيخ موفق الدين، و خرّج لنفسه مشيخة عن شيوخه و جمع تاريخا لنفسه، و كان فاضلا متنبها، و له نظم⁽¹⁾.

و كان يكتب خطا حسنا، و يكتب سريعا، فكتب ما لا يوصف كثرة من الكتب الكبار، والأجزاء المنثورة لنفسه و بالأجرة، حتى كان يكتب في اليوم إذا تفرغ تسع كراريس أو أكثر، و يكتب مع انشغاله بمصالحه الكراسين و الثلاثة، و كتب "تاريخ الشام" لابن عساكر مرتين و "المغني" للشيخ موفق الدين مرّات، و ذكر أنه كتب بيده ألفي مجلّدة، و أنه لازم الكتابة أزيد من خمسين سنة⁽²⁾.

و كان حسن الخلق و الخلق، متواضعا، دينا، و حدث بالكثير بضعا و خمسين سنة، و انتهى إليه علو الإسناد، و كانت الرحلة إليه من أقطار البلاد، و خرّج له ابن الظاهري مشيخة، و ابن الخباز أخرى.

(¹) ابن رجب الحنبلي: الذيل، المصدر السابق ج4، ص 97. 98، و اليونيني الشيخ قطب الدين: ذيل مرآة الجنان مج2، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد، الهند، 1375هـ/ 1955م، ص 436.

(²) ابن رجب الحنبلي: المصدر نفسه: ص 98. 99.

سمع منه الحُقَّاط المقدسيون، كالحافظ ضياء الدين، و الزكي البرزالي، و السيف ابن المجد،
وعمر بن الحاجب.

روى عنه الأئمة الكبار، و الحُقَّاط المتقدمون و المتأخرون، منهم الشيخ محي الدين النووي،
والشيخ شمس الدين بن أبي عمر، و الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، و الشيخ تقي الدين بن تيمية،
و خلق كثير، آخرهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن الخباز، حضر عليه أجزاء. و آخر من روى عنه
بالإجازة، أحمد بن عبد الرحمن الحريري. توفي الشيخ أحمد بن عبد الدايم المقدسي سنة 688هـ/
1269م⁽¹⁾.

هذا و لعله من المفيد الإشارة إلى أن مدينة القدس استهوت أفئدة الكثير من رجال العلم
والطلبة من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، نظرا لمكانتها الدينية العظيمة و لرواج سوق العلم و المعرفة
بها.

و هكذا فقد استقطبت المدينة الكثير من العلماء، الذين كانت لهم إسهاماتهم المختلفة في تدعيم
المناخ الثقافي العام في مدينة القدس منهم:

- الرَّملي أحمد بن حسين بن حسن بن علي بن أرسلان، أبو العباس شهاب الدين الرملي،
المولود سنة 773هـ / 1371م، و يعرف بابن رسلان، عالم بالفقه و أصوله و العربية، مشارك في
الحديث و التفسير و الكلام و غيرها، زاهد من كبار الشافعية. ولد بالرملة بفلسطين، و بها نشأ
وتعلّم، ثم انتقل إلى بيت المقدس و أخذ عن جماعة من الأعلام، و اشتهر، فكثرت تلامذته ومريده،

(¹) ابن رجب: المصدر السابق، ص 99.

و قصده الناس من جميع الأنحاء، له تصانيف نافعة في التفسير و الحديث و الأصليون و العربية وغيرها كقطع متفرقة من التفسير، توفي بالقدس سنة 844هـ / 1440م⁽¹⁾.

- الكركي إبراهيم بن موسى بن بلال بن عمران بن مسعود بن دمج، برهان الدين الكركي، المولود سنة 776هـ / 1374م، عالم بالقراءات و التفسير و الفقه و العربية و الأصول، ولد بالكرك الشوبك ببلاد الأردن، و أخذ عن علماء بيت المقدس، و دمشق و الخليل و القاهرة و الرملة، حج وزار بيت المقدس مراراً، و تردّد على القاهرة غير مرة، ثم استوطنها سنة 808هـ / 1405م. ولي قضاء المحلة بمصر سنة 827هـ / 1423م، و ناب في القضاء بمنوف سنة 829هـ / 1425م، ثم عاد إلى القاهرة و توفي فيها، من آثاره " إعراب المفصل " من سورة الحجرات إلى آخر القرآن⁽²⁾.

- أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسي الطرطوشي، وصفه ابن خلكان، بالفقيه المالكي الزاهد، صحب أبا الوليد الباجي بمدينة سرقسطة، و أخذ عنه مسائل الخلاف و سمع منه، و أجاز له و قرأ الفرائض و الحساب بوطنه، و رحل إلى المشرق سنة 476هـ / 1083م، و حج و دخل بغداد والبصرة، و تفقه على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي، و سكن مدينة بيت المقدس و درّس بها⁽³⁾.

و كان إماماً عالماً زاهداً ورعاً ديناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا، راضياً منها باليسير، وكان يقول: إذا عرض لك أمران، أمر دنيا و أمر أخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا

⁽¹⁾ عادل نويهض: معجم المفسرين، ج1، ص 34. 35.

⁽²⁾ المرجع نفسه: ص 23. 24.

⁽³⁾ ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 262.

والأخرى. و له من التصانيف " سراج الملوك " و كتاب " بر الوالدين " و كتاب " الفتن " و غير ذلك، توفي الطرطوشي سنة 520هـ / 1126م بثرغ الأسكندرية⁽¹⁾.

- علي بن أحمد أبي بكر الكناني، و يكنى أبو الحسن، و يعرف بابن حنين، أصله من طليطلة، ولد بقرطبة سنة 476هـ / 1083م، و بها نشأ، رحل فحج و أقام بالقدس تسعة أشهر يعلم القرآن، و روى في رحلته عن رزين بن معاوية، و أبي حامد الغزالي، و غيرهما، و قفل إلى المغرب و استقر بمدينة فاس، فسمع بها علي أبي القاسم خلف بن فرنون بن الأبرش - الموطأ- و السير، و علّم القرآن، بالمسجد المنسوب إليه بفاس، و روى الناس عنه. قال عنه ابن الزبير كان فاضلاً ورعاً زاهداً، جليلاً، توفي بفاس سنة 569هـ / 1173م⁽²⁾.

- أحمد بن محمد، أبو العباس المصري القرافي، المعروف بابن الهائم، المولود سنة 756هـ أو 753هـ / 1352-1355م بالقرافة الصغرى، و سمع من التقي بن الحاتم، و الجمال الأميوطي، وتفقه على شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني و اشتغل كثيراً، و برع في الفقه و العربية، و تقدم في الفرائض و الحساب و متعلقاتهما على أهل عصره⁽³⁾.

و ارتحل إلى بيت المقدس، فانقطع هناك به للتدريس و الإفتاء، و ناب هناك في تدريس الصلاحية، و كان حبراً مهاباً معظماً قولاً بالحق. و له عدة تواليف انتفع بها الناس، و صار عليها المعول و هي " الفصول المهمة في علم مواريث الأمة، و " المعونة في الحساب الهوائي " و " مختصرها "

⁽¹⁾ ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 263. 264.

⁽²⁾ ابن الزبير: صلة الصلة، ج6، ص 223. 224.

⁽³⁾ الداودي: طبقات المفسرين، المصدر السابق، ص 61.

و " المبدع" و كتاب " نزهة النظّار في صناعة الغبار" و مختصر تلخيص ابن البناء المسّمى بالحاوي و"رج الياسمينية في الجبر و المقابلة" و " ترغيب الرائض في علم الفرائض" و الألفية فيه المسّماة "بالكافية" و " النفحة القدسية" و " غاية السؤل في الإقرار بالدّين المجهول" و " نظم قواعد الإعراب لابن هشام" المسّمى " بتحفة الطلاب" و " القواعد الحسان فيما يتقوم به اللسان" المشهور "السماط"، بالإضافة إلى العديد من المؤلفات. أما الكتب التي لم يكملها فكثيرة، منها: " شرح الجعبرية في الفرائض"، و " العقد النضيد في تحقيق كلمة التوحيد"، كتب منه ثلاثين كراساً، و " تحرير القواعد العلائية و تمهيد المسالك الفقهية" و " البحر العجاج في شرح المنهاج"، و قطعة جيّدة من التفسير إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾⁽¹⁾، و " إبراز الخطايا في فن الوصايا" و غيرها من الكتب العديدة التي بدأ في تأليفها و لم يُنهها⁽²⁾.

وذكر ابن حجر، أنه اجتمع بابن الهاشم بيت المقدس و استفاد منه، و أورد أنه توفي سنة

815هـ / 1412م⁽³⁾.

- أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن أحمد، الملقب حجّة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، المولود سنة 450هـ / 1058م، ذكر ابن خلكان أنه لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، ولد بالطابران، بخرسان، و رحل إلى جرجان فأخذ عن أبي نصر الإسماعيلي، ثم إلى نيسابور حيث لازم دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، و جدّ في الإشتغال حتى تخرج في مدّة

(1) سورة البقرة: الآية 36.

(2) الداودي: المصدر السابق، ص 61. 62.

(3) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بانباء العمر في التاريخ، ج7، تحقيق عبد الوهاب البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1406هـ / 1986م، ص 81.

قريبة، و صار من الأعيان، فخرج من نيسابور إلى العسكر، و لقي الوزير نظام الملك، فأكرمه وعظّمه و بالغ في الإقبال عليه، ثم فوّض إليه الوزير تدريس مدرسته النظامية المشهورة بمدينة بغداد، باشر إلقاء الدروس بها، و ذلك في شهر جمادى الأولى سنة 484هـ / 1091م، و أعجب به أهل العراق و ارتفعت عندهم منزلته. ثم أقبل على العبادة و السياحة، فحج، و رجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين، و انتقل منها إلى بيت المقدس، و اجتهد في العبادة و زيارة المشاهد و المواضع المعظمة، ثم قصد مصر و أقام بالأسكندرية مدة⁽¹⁾.

عاد إلى وطنه طوس، فطلبه الوزير فخر الدين ابن نظام الملك إلى نظاميه نيسابور فأجاب إلى ذلك، و صنّف الكتب المفيدة في عدة فنون منها كتاب " الوسيط " و " البسيط " و " الوجيز " و " الخلاصة " في الفقه، و منها " إحياء علوم الدين "، و هو من أنفس و أشهر الكتب، و له في أصول الفقه " المستصفي "، فرغ من تصنيفه سنة 503هـ / 1109م، و له " المنحول و المنتحل في علم الجدل " و له " تهافت الفلاسفة " ثم عاد إلى طبران، و اتخذ خانقاه للصوفية و مدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزّع أوقاته على وظائف الخير، من ختم القرآن و مجالسة أهل الزهد و الورع، و القعود للتدريس، إلى أن انتقل إلى جواره سنة 505هـ / 1111م⁽²⁾.

بغداد

إن تاريخ بغداد، بإعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية، سنة 132هـ/749م وسقوطها، وقد رأى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (132-

(¹) ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 216. 217.

(²) ابن خلكان: المصدر نفسه: ص 218، و عادل نويهض، المرجع السابق، ج2، ص 612.

136هـ-750-754م) ضرورة إتحاد حاضرتة الجديدة، وسط أرض خصبة يرويها ماء دجلة والجداول التي تأخذ ماءها من الفرات، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أفراد دولته، و تتوفر فيه سبل المعيشة، فبعث روادا يختارون له مكانا يبني فيه حاضرتة الجديدة، فدلّوه على مكان يتميز بطيب هوائه وجودة غذائه⁽¹⁾. وبعد تردد اقتنع أبو جعفر المنصور بملاءمة المكان . ويقدم لنا الطبري الدوافع التي جعلته يخطط مدينة بغداد في المكان المذكور سنة 145هـ/762م بقوله " هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شئى، يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية، وماحول ذلك، وهذا الفرات يجيئ فيه كل شئى من الشام والرقّة، وما حول ذلك"⁽²⁾. لكن ياقوت الحموي يضيف سببا آخر لعمارته، وهو أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، فبلغه ذلك من فعلهم، فإنتقل عنهم يرتاد موضعا يبني فيه مدينة، ويكون الموضع - يضيف ياقوت - واسطا رافقا بالعامّة والجنّد⁽³⁾.

وكانت بغداد قبل تمصيرها، قرية قديمة، بناها بعض ملوك الفرس، وتقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يلتقي فيه نهر الفراء بدجلة⁽⁴⁾. وأغار عليها المسلمون سنة 23هـ/644م، بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني، وغنموا منها غنائم كثيرة، خاصة الذهب والفضة⁽⁵⁾.

(1) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص 295-296.

(2) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ج 4، تحقيق، نواف الجراح، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1426هـ-2005م، ص 1601.

(3) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 447.

(4) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج 2، ص 298.

(5) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 447.

شرع المنصور في بناء حاضرتة الجديدة في موضع بغداد القديمة وأمر بإحضار المهندسين والبنائين والفعلة والصناع، من النجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وواسط. وعمّرت المدينة بالناس وإزدحمت بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها⁽¹⁾.

وكانت بغداد، بعظمتها وهيبتها ومركزها العلمي والثقافي والعسكري، معقد آمال العرب والمسلمين، حتى قيل إن من لم ير بغداد لم ير الدنيا. ولهذا كان العلماء والفقهاء والشعراء من جهة والتجار والباحثون عن الثروة والعمل من جهة أخرى، يشدّون الرحال جميعاً إلى بغداد، ليستقروا فيها بقية حياتهم، أو ليتزودوا بالعلم والثقافة، ويعودوا إلى أوطانهم مجازين في التدريس أو الفقه أو الإفتاء⁽²⁾. وقد لعب الخلفاء ورجال الحكم دوراً هاماً في رفع حركة العلم والثقافة التي شهدتها المدينة⁽³⁾.

فكان الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ-813. 833م)، يحفل مجلسه بالعلماء ورجال الدين، وينظرهم أحسن منظر، وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، وكانت هذه الحلقات تدوم يوماً كاملاً⁽⁴⁾. وكان المأمون يميل إلى الإقناع في الجدل والمناقشة، وإحتمال آراء المتناظرين، إذا لم تتفق

(1) البلاذري أبو الحسن: فتوح البلدان، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة 1421هـ/2000م، ص 289 وما بعدها، وحسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص 305-306.

(2) سلامة صالح النعيمات وآخرون: المرجع السابق، ص 219.

(3) لم تزدهر حركة العلم والثقافة ببغداد طوال تاريخها الإسلامي. و معلوم أنها تعرضت لنكبات سياسية أثرت على العلم، ففي سنة 451هـ-1059م، احترقت بغداد والكرخ، حريقاً كبيراً أتى على خزانة الكتب التي وقفها أردشير الوزير، ونهب ما سلم من الكتب. وفي سنة 606هـ-1258م، دمر المغول بغداد بزعمارة هولوكو، وفقدت المدينة معظم سكانها في هذه الكارثة، وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عني الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور بغداد واتخذها حاضرة لدولته، ينظر: ابن الأثير عز الدين الشيباني: الكامل في التاريخ، ج 10، دار بيروت للطباعة، بيروت، 1402هـ/1984م، ص 07. 08، وحسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص 147 وما بعدها.

(4) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة الإسلامية، بيروت [ب.ت.]، ص 19.

مع آرائه وميوله، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق وغيرهما من الرذائل التي كانت متفشية بين قواده وجنده⁽¹⁾. كما حرص المأمون على الإستمرار في إنجاز المكتبات ودور العلم، فقد أمدّ بيت الحكمة بمختلف الكتب والمصنّفات. ويعد بيت الحكمة من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي، وكانت تحوي جميع الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب، كما كان للعلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إليها أكبر الأثر في تقدم الحركة العلمية في عهد العباسيين، ونشر الثقافة. ويعد بيت الحكمة مؤسسة علمية من الطراز الراقي اهتمت بترقية الأبحاث الأدبية والعلمية والفلسفية والفقهية، وتجردت الدراسات العليا، ويمكن القول أن هذه المؤسسة تحولت في زمن المأمون إلى أكاديمية بكل معنى الكلمة. كانت تحوي أماكن للدرس وأماكن أخرى لخزن الكتب، وأماكن للترجمة والنقل، وأماكن للتأليف، إلى جانب المرصد الفلكي، الذي كان له دور مميز، أفادوا منه كثيرا⁽²⁾.

وجعل هارون الرشيد (170. 193هـ-786-809م) من بغداد كعبة رجال العلم والأدب، وحسب رواية ابن طباطبا، فإنه لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنيين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل

(1) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص 64.

(2) حسين الحاج حسن: حضارة العرب في العصر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ-1994م، ص 40.

صلة ويرفعه إلى أعلى درجة، وكان شاعرا⁽¹⁾ راوية للأخبار والآثار والأشعار⁽²⁾. وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وبنائهم⁽³⁾.

وكان للوزير نظام الملك، أبو الحسين علي بن إسحاق، المولود سنة 408هـ-1017م، مجلسا عامرا بالقراء والفقهاء، أنشأ المدارس بالأمصار وخصص لها النفقات العظيمة، ورغب في العلم، وأملى الحديث ببغداد ونيسابور وغيرها من مدن خراسان، حتى وفاته سنة 485هـ-1092م⁽⁴⁾.

وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف الموازية، أن تزدهر مدينة بغداد وتنفق سوق العلوم والمعارف بها، وتستقطب العلماء ورجال الثقافة من كافة الأصقاع، وقد برز العديد من العلماء الذين أثروا الحياة العلمية بالمدينة.

ففي علم الحديث إستقطبت المدينة الإمام الحربي، إبراهيم بن إسحاق بن بشير البغدادي، المولود سنة 198هـ-814م، من أعلام المحدثين، أصله من مرو، واشتهر وتوفي ببغداد سنة 285هـ-898م. كان حافظا للحديث عارفا بالفقه بصيرا بالأحكام، تفقه علي يد الإمام أحمد بن حنبل،

(1) كان العديد من الأمراء في بغداد يقرضون الشعر ويشجعون الشعراء، عبر تنظيم مجالس للشعر، وحتى أبناء الخلفاء نظموا الشعر وأجزوا في صلة أهل الشعر، عن إزدهار حركة الشعر في أوساط الطبقة الحاكمة ينظر: الصولي أبو بكر محمد بن يحيى: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، نشره، ج هيورت (ن)، دار المسيرة، بيروت، الطبعة لثانية، 1399هـ/1979م.

(2) ابن طباطبا محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية [ب.ت.]. دار صادر، بيروت، ص 196.

(3) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء من الملوك، تحقيق، جمال الدين الشيبان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955، ص 52.

(4) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج 3، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ/1979م، ص 373-374، وحسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج 4، ص 34.

وصنف كتباً كثيرة منها "غريب الحديث" و "مناسك الحج" و "سجود القرآن" و "دلائل النبوة" وكان عنده اثنا عشر ألف جزء في اللغة وغريب الحديث كتبها بخطه⁽¹⁾.

الحافظ أبو بكر أحمد بن علي البغدادي المعروف بالخطيب، المولود سنة 392هـ-1002م، صاحب "تاريخ بغداد"، وغيره من المصنفات، كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين، وكان فقيهاً، فغلب عليه الحديث والتاريخ⁽²⁾. نشأ في بغداد، وسمع بها، ثم رحل فسمع شيوخه وقته بالبصرة ونيسابور وأصبهان وهمدان والكوفة والري ودمشق سنة 445هـ-1053م. ثم حجَّ وعاد إلى بغداد، فقربه وزير القائم بامر الله العباسي وعرف قدره. درّس الحديث بجامعة المنصور ببغداد، وهو أشهر مراكز التعليم في المملكة الإسلامية وقتذاك. له 79 كتاباً، منها "السابق واللاحق" في تفسير القرآن. توفي خطيب البغدادي سنة 463هـ-1071م، وكان قد إنتهى إليه علم الحديث وحفظه في وقته⁽³⁾ وفي ميدان التفسير، أنجبت بغداد عالماً كبيراً، كان له كبير الأثر في إثراء الإنتاج النظري لهذا الحقل، بل كان عالماً موسوعياً، كانت إسهاماته في شتى العلوم الأخرى، وهو ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن، المولود سنة 508هـ-1114م، فقيه حنبلي، صنف في فنون عديدة منها "زاد المسير في علم التفسير"، وله "الموضوعات" في أربعة أجزاء، ذكر فيها كل حديث موضوع وله أشعار كثيرة منها التي يخاطب فيها أهل بغداد :- من المتقارب-

عَدِيرِي مِنْ فِتْيَةِ الْعِرَاقِ قُلُوبُهُمْ بِالْجَفَا قُلُوبُ

(1) خير الدين الزركلي : الأعلام، ج1، الطبعة الثالثة، بدون مكان وتاريخ النشر، ص 24.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 92.

(3) ابن خلكان : المصدر نفسه: ج1، ص 92. 93، وعادل نويهض : المرجع السابق، ج1، ص 49، وآدم ميتيز : المرجع

السابق، ج1، ص 332.

يَرُونَ الْعَجِيبَ كَلَامَ الْغَرِيبِ وَقَوْلُ الْقَرِيبِ فَلَا يُعْجَبُ

مَيَازِيهِمْ إِنْ تَنَدَّتْ بِحَبْرِ إِلَى غَيْرِ حَيْرَانِهِمْ تُقْلَبُ

وَعُذْرُهُمْ عِنْدَ تَوْبِيخِهِمْ مُعْنِيَةُ الْحَيِّ مَا تُطْرَبُ (1).

وفي ميدان علم النحو أنجبت واستقطبت بغداد أعلاماً بارزين، أسهموا في تفعيل المشهد الثقافي والعلمي ببغداد الإسلامية، أبرزهم المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، إزداد سنة 210هـ-825م، من أهل البصرة وسكن ببغداد، كان إماماً في النحو واللغة، ألف عدة مصنفات في النحو منها كتاب "الكامل"، وكتاب "الروضة"، و "المقتضب"، وكتاب "معاني القرآن"، ويعرف "بالكتاب التام"، وكتاب "الحروف في معاني القرآن إلى سورة طه"، وكتاب "إعراب القرآن"، وكتاب "الإشتقاق"، وكتاب "القوافي"، وكتاب "الخط والهجاء"، وكتاب "فروة الشعر"، وكتاب "طبقات النحويين البصريين" (2).

وفي ميدان التصوف، كانت بغداد تعج بالمتصوفة والزهاد، الذين إمتد أثرهم إلى أرجاء البلاد الإسلامية، وغدوا مرجعاً في التصوف، بل إن البعض منهم شكل بمفرده مدرسة، كالجنيد أبو القاسم بن محمد الخزار القواريري، ويدعى شيخ الطائفة، عاش زاهداً منصرفاً عن أمور الدنيا وملذاتها. ذكر ابن الجوزي، أن الشيخ الجنيد، كان عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع، ويصلي كل يوم أربعمئة ركعة، صحب خاله الزاهد المشهور السري السقطي المتوفى سنة 251هـ-865م، والحارث المحاسبي وغيرهما وكان يقول: مذهبنا هذا مقيد بالأصول والكتاب والسنة، ورئي يوماً وفي

(1) ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 140-141.

(2) الداودي: طبقات المفسرين، المصدر السابق، ص 480-481.

يده سبحة، فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة ؟ فقال : طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه. توفي الشيخ الجنيد ببغداد سنة 297هـ-910م⁽¹⁾.

وكان يعيش في بغداد، حوالي عام 300هـ-913م، ثلاثة من كبار مشايخ الصوفية متقاربين وهم : أبو بكر الشبلي المشهور بإشارته، وكان أبوه حاجبا بدار الخلافة، وتولى هو نفسه إدارة دواوين كثيرة، وأبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش، المتوفى عام 328هـ-940م، صاحب "النكت الصوفية"، والخلدي، المتوفى عام 348-959م، عن خمس وتسعين سنة، وهو أول من ألف في تاريخ الصوفية وحكاياتهم، وكان يفخر بأنه يحفظ أكثر من مائة ديوان من دواوين الصوفية⁽²⁾.

أما التاريخ⁽³⁾، فقد عرفت بغداد الإسلامية طائفة كبيرة من أعلام هذا العلم، لاسيما في أواخر العصر العباسي الأول، بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية. وبدأ العلماء يصنفون الكتب في مختلف العلوم والفنون، منها التاريخ، ولعل أبرز مؤرخ أئمة مدينة بغداد هو الخطيب البغدادي -المذكور سابقا- الذي ألف كتاب "تاريخ بغداد" في أجزاء عدة.

(1) ابن الجوزي : المصدر السابق، ج1، ص 495 وما بعدها، وابن خلكان :المصدر السابق، ج1، ص 373. 374. والأبشيهي النابلسي: المستطرف في كل فن مستظرف، ج1، تحقيق، محمد سعيد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م، ص 251 252.

(2) آدم ميتز: المرجع السابق، ج2، ص 28-29.

(3) عزف ابن خلدون التاريخ أنه هو معرفة أحوال الطوائف، وبلداتهم، ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم، ووفياتهم إلى غير ذلك، وموضوعه، أحوال الأشخاص الماضية، من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء، والملوك والسلاطين وغيرهم، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته، العبرة بتلك الأحوال والتنصح بما، وحصول ملكة التجارب، بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز عن أمثال مانقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم كما قيل عمر آخر للناظرين ينظر ابن خلدون : المقدمة، ص 09 وما بعدها. وأحمد مصطفى: مفتاح السعادة، المرجع السابق، ص 173-174.

كما يفيدنا ابن نديم، أن الواقدي، كاتب السير، المولود سنة 130هـ-748م، إنتقل إلى بغداد من المدينة المنورة، وألّف أبرز مصنّفاتة بها، فقد كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح، وإختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام، ومن أبرز كتب الواقدي : كتاب "التاريخ والمغازي" وكتاب "أخبار مكة"، كتاب "الطبقات"، وكتاب "فتوح الشام"، كتاب "القرآن"، كتاب "السيرة". توفي سنة 207-822م⁽¹⁾.

كما لقيت الفلسفة رواجاً بسبب تصدي أعلام كبار للتأليف والترجمة في هذا الفن، وكان لها رواد أكثر أيضاً من الطلبة المولعين بها⁽²⁾.

ولقد لعب تشجيع الخلفاء ورجال الحكم، الدور الأكبر في الإشتغال بالفلسفة. فقد كان أبو جعفر المنصور -حسب رواية ابن العبري- يرسل ملوك الروم ويسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة، فكانوا يبعثون إليه منها ما حضرهم، فإستجداد لها مهرة التراجمة، وكلفهم أحكام ترجمتها. فيذكر أن تلك الكتب ترجمت له على غاية ما أمكن. ثم حرّض الناس على قراءتها. ورغبهم في تعلمها. فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمنظراتهم ومذاكراتهم⁽³⁾.

(1) ابن نديم : المصدر السابق، ص 127-128.

(2) هذا الإقبال الذي عرفته الفلسفة، لا يعني أن وضعية الفلسفة في الفضاء الثقافي الإسلامي كانت وضعية مريحة، إذ كثيراً ما ارتبطت بالزندقة والإلحاد والخروج عن الدين، فلم ينجح المتمرسون بالعلوم القديمة من المحن والاضطهاد والملاحقة والمتابعات من قبل الفقهاء، خاصة فقهاء السلطان، المحتكرين للقول في الدين، والمتحالفين مع العناصر السياسية، ولعل محنة الحلاج والسهوردي تكشف صحة هذا الرأي. ينظر : عبد الحميد العابد : وضعية الفلسفة كمحدد للنظام الثقافي في المغرب الأوسط، ومساهمة علمائه، مجلة عصور العدد 12-13/14-15، مخبر البحث التاريخي (مصادر وتراجم)، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ص 234.

(3) ابن العبري الملطي : تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1421هـ-2001م، ص 136، وصاعد الأندلسي : طبقات الأمم، تحقيق حياة علوان، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1985، ص 128 وما بعدها.

إن هذا الإهتمام الذي لقيته الفلسفة، خاصة من قبل النخب ورجال الحكم. قد سجله لنا أبو حيان التوحيدي، حيث يورد الكثير من أفكار فلاسفة اليونان في الحكمة والمنطق، والحساب والهندسة وغيرها . و يختصر لنا قيمة الفلسفة، حينما أورد الحكمة اليونانية المشهورة في حب الفلسفة، وهي أن الدنيا تحلو وتطيب إذا "تفلسف ملوكها وملك فلاسفتها " (1).

وكان النبوختي، الحسن بن موسى بن الحسن، المتوفى سنة 310هـ/922م، أبرز الفلاسفة الذين أحببتهم بغداد، فقد كان فلكيا، عرف بنزعتة الفلسفية اليونانية . كان يجتمع إليه جماعة من الثقلة، مثل أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق بن ثابت وغيرهما . وكان أول منجم نال حظوة لدى الخليفة المنصور العباسي . و للنبوختي كتاب " اختصار الكون والفساد " لأرسططاليس، و "التوحيد " و "الرد على أصحاب التناسخ " و "الرد على الغلاة" (2).

كما استقطبت بغداد، الفارابي أبو نصر محمد بن محمد، المتوفى سنة 339هـ/950م، وهو أكبر فلاسفة المسلمين، ويورد ابن خلكان أنه لم يبلغ أحد رتبته في الفلسفة من علماء المسلمين، ولم يزل أبو نصر الفارابي ببغداد منكبا على الإشتغال بهذا العلم والتحصيل له، إلى أن برز فيه وفاق أهل زمانه، وألف بها معظم كتبه، ثم سافر إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق. أين كانت وفاته بها . في السنة المذكورة سابقا (3).

(1) أبو حيان التوحيدي : كتاب الإمتاع والمؤانسة، ج2، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، [ب.ت.]. ص 13.

(2) عادل نويهض: المرجع السابق، ج1. ص 148، وينظر، المقدمة التي وضعها عبد المنعم الحفني في الصفحة 12 لكتاب النبوختي، فرق الشيعة، دار الرشد القاهرة، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م.

(3) ابن خلكان.: المصدر السابق، ج5 ص 153 وما بعدها.

وجدير بالملاحظة، أن بغداد كحاضرة، عرفت إزدهار فنون عديدة، وعلوم شتى، كالموسيقى والشعر والكتابة والمنطق والهندسة والحساب وغيرها. وأن التوسع في شرح أعلامها و تأثير تراثهم قد يستدعي شرحاً مطوّلاً يخرجنا عن الغرض الذي أردناه لهذا البحث .

القاهرة

القاهرة مدينة بجنب الفسطاط، لا تفصلها عنها سوى سور واحد، وقد سجل لنا ياقوت الحموي، المتوفى سنة 626هـ-1229م، أنها في عصره المدينة العظمى في الديار المصرية، يتركز فيها كل المؤسسات السياسية الإدارية والثقافية والعلمية .وفي المحصلة، فهي أطيب وأجل مدينة رآها لإجتماع أسباب الخيرات والفضائل بها⁽¹⁾.

ويشاطر ابن سعيد المغربي، رأي ياقوت، حيث يؤكد أن القاهرة هي قاعدة الديار المصرية، حيث الطول ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة، والعرض تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة⁽²⁾.

بنى القاهرة، القائد جوهر الصقلي⁽³⁾، سنة 358هـ-969م، بعد أن استولى على مصر (= يعني الفسطاط وأطلال العساكر وماجاورها)، كما وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز لدين الله⁽¹⁾.

⁽¹⁾ ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج4، ص 301.

⁽²⁾ ابن سعيد : المصدر السابق، ص 129.

⁽³⁾ أبو الحسن جوهر بن عبد الله، المعروف بالكاتب الرومي، كان من موالي المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، صاحب أفريقية . جهّزه إلى الديار المصرية ليأخذها بعد موت كافور الإخشيدي، ونجح في إقامة الدعوة للفاطمين بالديار المصرية . ثم سيّر في سنة 358هـ/969م، عسكرياً إلى دمشق، وغزاها فملكها . توفي جوهر الصقلي، سنة 381هـ-991م ينظر : ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 375 .376.

وإذا كان جوهر، قد فاته ما أشار به المعز لدين الله، من إختيار منطقة الرصد، واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية، فإن الخلفاء الفاطميين، لم تفتهم مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجزيرة، فإنتفعوا بها وبشاطئ النيل وحافتي الخليج و شبرا، حيث الخضرة والماء، فأنشأوا المناظر والحدايق التي كانوا يقضون فيها أوقات فراغهم. وكان لإنتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميمها بخاصتهم من الناس، فأمتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة⁽²⁾.

الجامع الأزهر

لما تم الجوهري فتح مصر سنة 358هـ-969م، لم ير أن يفاجئ السنة في مساجدهم، بإقامة شعائر المذهب الفاطمي، حتى لا يثير كراهة المصريين. لذلك وضع جوهر أساس الجامع الأزهر في 14 رمضان سنة 359هـ-970م، وتم بناؤه في سنتين تقريبا، وأقيمت الصلاة فيه في 07 رمضان سنة 361هـ-972م⁽³⁾.

وأهم خصائص الأزهر، أنه وإن بدا كغيره من المساجد لإقامة الشعائر، لم يلبث أن أصبح جامعة، يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب مختلف العلوم والفنون. ففي سنة 378هـ-988م تحول الأزهر إلى جامعة تدرّس فيها العلوم الدينية والعقلية، وسرعان ما أصبح منارة علمية تجذب طلاب العلم إليه. وقد عمل الكثير من الخلفاء الفاطميين، على جذب طلاب العلم

(¹) أبو تميم معد، الملقب المعز لدين الله بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، بويغ في حياة أبيه، وجلس على سرير ملكه سنة 341هـ-952م. دانت له الكثير من البلاد في المغرب والمشرق، دخل القاهرة دخول المنتصر سنة 362هـ-973م، توفي المعز بها سنة 365هـ-976م ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق: ج5، ص 224 وما بعدها.

(²) البلوي، المصدر السابق، ج1، ص 215، وحسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص 557-558.

(³) حسن إبراهيم حسن، المرجع نفسه، ص 578.

إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن، مما يسهل عليهم طلب العلم. وقد بنى الخليفة الفاطمي العزيز بالله (365-386هـ-976-996م)، بجوار الأزهر، دارا لجماعة من الفقهاء، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة، ويقرؤون القرآن الكريم إلى صلاة العصر، وقد أجرى على هؤلاء الأرزاق وأغدق عليهم الصلوات⁽¹⁾.

ظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين، حتى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة، فوجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي⁽²⁾، مذهب الفاطميين، فأنشأ المدرسة الناصرية لتدريس المذهب الشافعي، الذي كان صلاح الدين يدين بعقائده. كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة، المدرسة القمحية سنة 566هـ-1170م، بجوار الجامع العتيق، وسميت ب"القمحية"، لأن صلاح الدين أوقف عليها أرض من الفيوم تغل القمح، وكانت تدرس المذهب المالكي. وقد كان عبدالرحمن ابن خلدون، ممن درّس في هذه المدرسة⁽³⁾. وقد عزل قضاة الشيعة، وأسند قضاء مصر إلى قضاة من الشافعية في كل أنحاء البلاد، واستعاد المذهب السني بهذا قوته⁽⁴⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 579.

(2) الشيعة، هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نضا ووصية، إما جليا وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين. والشيعة فرق شتى، كان الفاطميون في مصر يشيعون الإسماعلية، نسبة للإمام جعفر إسماعيل، وهذا الصنف يدعون "الواقفة"، لأنهم وقفوا على موسى بن جعفر، ولم يجاوزوه إلى غيره. ينظر: أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، ج1، المصدر السابق، ص، 100 والشهرستاني: الملل والنحل، المصدر السابق، ص 146-167-168.

(3) عمر سي عبد القادر: الروابط الثقافية بين الأندلس ومصر المملوكية، من القرن 7 إلى 9هـ/13. 15م، مذكرة ماجستير، مرقونة، في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف د.مبخوث بودواية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 1430-1431هـ/2009-2010م، ص 60.

(4) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص 580. 581.

وقد لاحظ الرحالة الأندلسي ابن جبیر في نهاية القرن السادس هجري، أن مدينة القاهرة مليئة بالجوامع والمدارس، و أن السلطة تتدخل لبناء المدارس وتعليم أبناء الفقراء، بل إن الأرزاق، كانت تجرى عليهم في غالب الأوقات⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي -والحال كذلك -أن تزدهر الحياة العلمية والفكرية بالقاهرة، وتستقطب العلماء ورجال الفكر، وتستهوئ أفئدة الطلبة الراغبين في تحصيل العلم والإتصال بمشايخه وحيازة الإجازات منهم⁽²⁾.

لقد أنجبت القاهرة، وإستقطبت الكثير من مشاهير العلماء والمبزرين في العلوم و الفنون، منهم - على سبيل المثال وليس الحصر -:

القرافي، أحمد بن إدريس الصنهاجي المصري، المتوفى سنة 684هـ-1285م. قال عنه ابن فرحون، كان إماما بارعا في الفقه، إنتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب الإمام مالك⁽³⁾. جدّ في طلب العلوم، فبلغ الغاية القصوى، فكان بارعا في علوم الحديث والعلوم العقلية، وله معرفة بالتفسير، وتخرّج على يديه جمع من الطلبة والعلماء. ألّف كتبًا مفيدة، وقع الإجماع على قيمتها العلمية الكبرى، منها كتاب "الذخيرة" في الفقه، وهي من أجل كتب المالكية، وكتاب "القواعد"، وكتاب "شرح

(1) ابن جبیر : المصدر السابق، ص 53.

(2) سحّل لنا الرحالة البلوي، المتوفى سنة 680هـ-1280م، جانبًا من جوانب الحياة العلمية بالقاهرة، حيث أحازه علماءها في شتى أصناف العلوم، كالفقه والحديث والقراءات والنحو والتصوف وغيرها. ينظر، البلوي : المصدر السابق، ج، 1 ص 226 وما بعدها.

(3) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 128.

التهديب"، وكتاب "شرح الجلاب"، وكتاب "الإنتقاد في الإعتقاد"، وكتاب "المنجيات والموبقات"، في الأدعية ومايجوز منها⁽¹⁾، وغير ذلك من المصنفات النافعة التي أوجدت صدى خارج الديار المصرية.

خليل بن إسحاق الجندي، المشهور بالشيخ خليل، كان صدرا في علماء القاهرة، مجمعا على فضله وديانته، أجمعت المصادر التي ترجمت له، أنه من أهل التحقيق، ثاقب الذهن، أصيل البحث، مشاركا في فنون من العربية والحديث والفرائض، متضلعا في الفقه على مذهب مالك . أقبل على نشر العلم . فانتفع به خلق كثير، ألف مختصرا في الفقه المالكي ، جمع فيه فروعاً كثيرة جداً، مع الإيجاز البليغ، وأقبل عليه الطلبة ودرسوه⁽²⁾.

كما استقطبت مدينة القاهرة، الفقيه الكبير القاضي، عبد الوهاب البغدادي المالكي، المولود سنة 362هـ/933م، كان فقيهاً أديباً شاعراً، صنف في الفقه المالكي كتاب " التلقين"، وهو مع صغر حجمه من خيار الكتب وأكثرها فائدة، وله كتاب "المعونة" و "شرح الرسالة" وغير ذلك عدة تصانيف . دخل مصر، فحمل لواءها، وملاً أرضها وسماءها بعلمه، وذيع صيته في العلم، كما أورد عنه ابن فرحون. توفي بمصر سنة 422هـ-1031م⁽³⁾.

ومن أقطاب العلم الذين أشاعوا مصر علماء، الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، المولود سنة 150هـ-767م، بغزة، إجمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة رسوله (ص)، وكلام

⁽¹⁾ ابن فرحون : المصدر السابق: ص 129.

⁽²⁾ ابن فرحون :المصدر نفسه: ص 185-186، وأحمد بابا :نيل الإبتهاج، المصدر السابق، ص 167.

⁽³⁾ ابن فرحون: المصدر السابق، ص 261 ومابعدها.

الصحابة وأثارهم الكثير، مع الرسوخ في معرفة إختلاف العلماء واللغة والشعر وغيره. قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: "ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي"⁽¹⁾.

والشافعي أول من تكلم في أصول الفقه، وهو الذي إستنبطه، دخل مصر سنة 199هـ-815م ولم يزل بها إلى توفى سنة 204هـ-820م⁽²⁾.

وفي ميدان التصوف، كانت الديار المصرية تحمل، إرثا كبيرا منذ ذي النون المصري⁽³⁾، فقد كوّن الأخير مدرسة لها أساساتها وأدواتها، لذلك كان من الطبيعي، أن يزدهر العرفان في مصر الإسلامية، من خلال المشايخ الذين أنجبتهم مصر، أو أولئك الذين وفدوا إليها. وهنا يمكن أن نورد بعضا من أعلامه .

ابن الرفاعي، أبو العباس أحمد بن أبي الجسن، كان رجلا صالحا فقيها شافعي المذهب، أصله من العرب، إنضم إليه خلق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه، والطائفة المعروفة

(1) ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 163، السيوطي: المصدر السابق، ص 157.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 165.

(3) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، المعروف بذي النون المصري، الصالح المشهور، تميزت شخصيته بالعلم والورع والأدب، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك، من كلامه الصوفي: "إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح تقطع العلائق". ترك ذو النون تلامذه كثر في مصر وبلاد المشرق عامة. توفي سنة 245هـ-859م، ينظر: السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين: طبقات الصوفية، ويلييه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، تحقيق، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 2010، ص 27 وما بعدها. وابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 315 وما بعدها.

بالرفاعية والبطائحية من الفقراء⁽¹⁾، منسوبة إليه، ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء، عالم كبير توفي الشيخ الرفاعي سنة 578هـ-1182م⁽²⁾.

كما أنجبت القاهرة⁽³⁾، متصوفا وشاعرا، كان له كبير الأثر في مجال شعر الزهد، وهو شرف الدين بن الفارض، عمر بن علي بن المرشد، المولود سنة 576هـ-1171م بالقاهرة. قال الصفدي، كان سيد شعراء عصره، وشعره صنَّع إلى الغاية. أكثر فيه من الجناس، فقل من يحسنه، غلب عليه الزهد والتفقر، من ذلك: -مجزوء الكامل-

وحياة أشواقِي إليك وحرمة الصَّبْر الجميلِ

لَا أَبصرتُ عيني سِوا لك وَلَا حَسوتُ إلى خَليلِ

وإذا قِيلَ مَنْ تُحِبُّ تَحَطًّا لك لسانِي وَأنتَ في القَلْبِ

عَمِيَّتْ عَيْنٌ مَنْ رَأَى مُقَلَّ عَيْنِ كَ وَطُوبَى لِعَيْنٍ مِثْلَ عَيْنَيْكَ

توفي ابن الفارض بالقاهرة سنة 632هـ-1234م⁽⁴⁾.

(1) سمي الصوفية فقراء، لتخليهم عن الأملاك، وحقيقته أن لا يستغني العبد إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها، والفقير نعته السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود قال الجنيد: "إذا لقيت الفقير فلا تبدأ بالعلم وأبدأ بالرفق، فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه، ينظر عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الأولى، 1400هـ-1980م، ص 207.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 171. 172.

(3) من دلائل اهتمام سكان القاهرة بالتصوف والمتصوفة، هو الترحاب الذي كان يلقاه أي صوفي من خارج القاهرة، أثناء زيارته لها، أو مروره عبرها مسافرا إلى جهة أخرى. ويشير المقرئ أن الصوفي والزاهد الدمشقي، الشيخ شمس الدين محمد القونوي، عندما زار القاهرة سنة 783هـ-1381م، أتاه الناس في أمواج كبيرة يلتمسون بركة زيارته. ينظر: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، القسم الثاني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتاب، 1970، ص 455.

(4) الصفدي: المصدر السابق، ج 15، ص 03-04.

وفي ميدان الفقه، استقطبت القاهرة عالما شافعيًا كبيرًا، وهو السبكي علي بن عبد الكافي . قال الداودي في طبقاته، كان السبكي فقيها حافظًا أصوليًا نحويا لغويا مقرئًا، متضلعا أيضا في علوم البيان والجدل والخلاف⁽¹⁾. ولد بسبك، من أعمال الشرقية، سنة 683هـ-1284م. برع في علوم شتى، وتخرج به خلق في أنواع العلوم، ولى قضاء دمشق سنة 739هـ-1338م، فباشره بعفة ونزاهة على الوجه الذي يليق به، غير ملتفت إلى الأكابر والملوك. درّس في مدارس عديدة في دمشق، صنف نحو 150 كتابا مطولا ومختصرا، منها تفسير القرآن في ثلاث مجلدات لم يكمل و " الرقم الأبريزي في شرح مختصر التبريزي " و " الفتاوى " في مجلدين، وغيرها من المصنفات . توفي بمصر، سنة 756هـ-1355م، ودفن بمقابر الصوفية⁽²⁾.

كما حفلت القاهرة بالشعراء، وقد أنجبت المدينة، الكثير منهم، وكان الشاعر ابن حصينة، رضي الدين يحيى بن سالم، المتوفى سنة 580هـ-1184م، من شعراء الديار المصرية، ومن شعره :

-من الطويل-

تَمَلَّكَ قَلْبِي غَادِرٌ غَيْرَ غَادِرٍ	فَوَجِدِي لَدَيْهِ أَوَّلَ مِثْلِ آخِرِ
وَجَاءَ بِقَدِّ عَادِلٍ فَمَنْ الذِّي	رَأَى عَادِلًا أَزْرِي عَلَى كُلِّ جَائِرِ
نَصِيرِي دَمْعِي وَهُوَ أَوَّلُ خَاذِلِ	فَمَنْ مُنْقَذِي مِنْ سَافِرِ الطَّرْفِ سَافِرِ
فَبِتُّ أَسِيرَ الْقَلْبِ وَالِدَمْعِ مُطْلَقُ	أُرَدُّ طَرْفِي بَيْنَ سَاهِ سَاهِرِ
يُوَاصِلُنِي وَدَمْعِي وَنَوْمِي مُهَاجِرِي	فَمَنْ وَاصِلِي تُبْتُ النُّحُولَ وَهَاجِرِي

(1) الداودي : المصدر السابق، ص 285.

(2) المصدر نفسه: ص 285-286.

ومن شعره أيضا - من الرمل -

أودعوا إذ ودّعوني الحرّقا	فنعيم العيش لي عاد شقّا
بدّلوا الحجر وصانوا وصلهم	فأمطباري قال لي أن لا بقا
أخذوا نومي وأعطوا مقلتي	عندما رثوا عليها الأرقا
آه من الحاظ قوم كَلَمّا	فوثوا سهما لقلبي رشقا
رّمفوا جسيمي فما ابقوبه	بعد هجرانهم لي رَمَقا
وأبوا إلا انتقاما في الهوى	ففضى الحب على من عشقا

وقال أيضا :- من الكامل -

كُفّ الملام فليس من شأنك شاني	إنّ الشجّي إلى الخلي لشاني
لو كان نخلص بالملامة مغرم	ما سلطت مني على غيلان
ولما عدت أسد الرجال وحسدها	عند اللقاء لواحظ الغزلان
بانّت أمامة الغرام مخيم	عندي وبان لبنيتها سلواني
وإذا سطا جيش الغرام على امرئ	نقل الذي في السر للإعلان
أسكنتها قلبي فبان خرابه	والقلب يخربه أذى السكان ⁽¹⁾ .

(1) ابن شاعر الكتيبي : فوات الوفيات، ج4، ص 272 ومابعدها.

ويذكر أن من العلوم التي ازدهرت بالقاهرة علم القراءات⁽¹⁾، حيث أسهم الكثير من

العلماء في إثراء هذا الصنف من العلوم، لعل أبرزهم :

قاسم بن فيرة، خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الضرير المقرئ . ولد بشاطبة سنة

538هـ/1143م، تفقه ببلده شاطبة، وأخذ العلوم عن شيوخها، ورحل إلى الإسكندرية، فسمع من

أبي طاهر السلفي⁽²⁾، و نزل مصر وتصدّر للقراءة بها، فعظم شأنه وبعد صيته، وانتهت إليه الرئاسة

في علم القراءات بالقاهرة، وكان مقرئاً محققاً من أهل التجويد والتعليل، والمعرفة بالقراءات، والقيام

عليها والحفظ لها، وله فيها القصيدة اللامية الطويلة المسماة: حرز الأماني ووجه التهاني⁽³⁾. قال عنها

ابن خلدون، أنها مصنفة جيدة، ضمت أسماء القراء بحروف أ.ب.ج.د، لتكون أسهل للحفظ،

(1) كانت الآية أو الآيات أو السورة ينزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم (ص)، فيقوم النبي بتبليغها لأصحابه فور نزولها. وكان أكثر الصحابة يحفظ و يقرأ، وأقلهم يحفظ ويقرأ ما روه عن الرسول على طرق مختلفة في بعض ألفاظه، وكيفيات الحروف في آدائها، وتُنقل واشتهر، إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر، بروايتها من الجهم الغفير، وهم عبد الله بن عامر، المتوفى بالشام سنة 18هـ-639م، وأبو معبد عبد الله بن كثير، المتوفى في مكة سنة 120هـ-738م، وأبو بكر عاصم، المتوفى بالكوفة، سنة 127هـ-745م، وأبو عمر بن العلاء، المتوفى بالبصرة، سنة 154هـ-771م، ونافع بن نعيم، المتوفى بالمدينة، سنة 169هـ-785م، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى بالبصرة، سنة 189هـ-805م، وأبو عمارة حمزة بن حبيب، المتوفى سنة 216هـ-831م. فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة، ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت، فكتب فيما كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة وعلماً منفرداً، وتناقله الناس بالمشرق والمغرب، في جيل بعد جيل، ينظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 437-438، وأحمد ابن مصطفى: المصدر السابق، ص 675، وحسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص 416-417.

(2) السلفي، الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو طاهر عماد الدين الأصبهاني، كان لا يجزّ عام مولده. وقال: كتبوا عني بأصبهان في أول سنة 492هـ-1099م وأنا ابن سبع عشرة سنة أو نحوها. كان حافظاً ناقداً، متقناً ثبتاً ديناً، حبراً حسب رواية الإمام السيوطي، روى عنه الكثير من الحفاظ في حياته، له تصانيف عدة أبرزها "معجم شيوخ أصبهان"، و "معجم شيوخ بغداد" و "معجم شيوخ السفر". كان أوحده زمانه في علم الحديث، وأعلمهم بقوانين الرواية توفي سنة 576هـ-1180م. ينظر السيوطي: المصدر السابق، ص 469.

(3) ابن الأبار: المصدر السابق، ج5، ص 177-178.

فاستوعب فيها علم القراءات إستيعابا حسنا، وعني الناس بحفظها وتلقيها للطلبة المتعلمين⁽¹⁾، توفي سنة 590هـ-1194م⁽²⁾.

كما استقطبت القاهرة، شيخا آخر في هذا العلم، وهو إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المؤمن بن سعيد بن كامل بن علوان التنوخي البعلبي الأصل الدمشقي المنشأ، نزيل القاهرة، المولود سنة 709هـ-1309م. كان حسب رواية ابن حجر، شيخ الديار المصرية في وقته في القراءات والإسناد مات سنة 800هـ-1397م⁽³⁾.

ويبدو أن القاهرة أصبحت مدرسة كبيرة للتكوين في علم القراءات، يقصدها الطلبة من كافة الجهات داخل الديار المصرية وخارجها. فمن المغرب تكوّن بالقاهرة الحسن وابن عبد الله الراشدي التلمساني، المتوفى سنة 685هـ/1286م، و عبد الرحمن الأنصاري الدكالي، المتوفى سنة 695هـ/1295م، و عثمان بن محمد التوزري، المتوفى سنة 713هـ/1313م⁽⁴⁾.

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 438.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 323.

(3) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة السابعة، دار الجبل، بيروت، 1414هـ-1993م، ص 11-12.

(4) إبراهيم حركات: مدخل إلى تاريخ العلوم، ج3، ص 14.

الحجاز (=مكة والمدينة)

قطر فقير خلا من الأنهار، واشتدت حرارته فلم تسمح للنبات أن ينمو إلا في وديان بعثرت هنا أو هناك، يعيش أكثر أهله عشية بدوية⁽¹⁾، ولم تتعاقب عليه مدنيت مختلفه تورثهم حضارة وعلما عن أمم حكموهم أو تعاقبوا عليهم، فقد أورثهم استقلالهم أنفة وعزة واعتدادا بالنفس وحرية جاوزت الحد، لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين⁽²⁾.

وجاء الإسلام فأعطى لمكة⁽³⁾ والمدينة⁽⁴⁾ شأنًا علميا كبيرا، لكنه العلم الديني المطبوع بالطابع العربي، فمكة كانت نبع الإسلام، وبها كانت نشأة النبي محمد (ص)، وبها كانت الأحداث الأولى من دعوة قريش إلى الإسلام ومناهضتهم له، وبها كان التشريع المكي، الذي لا يفهم فهما حقيقيا حتى

(1) سجّل الرحالة والجغرافي، ابن حوقل، خلال القرن 4هـ-12م، أن مكة ليس بها ماء جار إلا شيئا أجري إليها من عين بأمر من بعض ولائها، وكانت أكثر مياههم من مياه الأمطار، التي تتجه إلى مواطن وبرك كانت عامرة بها، فخربت بإستيلاء المتولين على أموال أوقافها وإستثمارهم بها. وليس بجميع مكة شجر مشمر غير شجر البادية، وإذا جزت الحرم، فهنالك عيون وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل، ينظر، ابن حوقل: صورة الأرض، المصدر السابق، ص 27 .

(2) سلامة صالح النعيمات وآخرون: المرجع السابق، ص 214.

(3) تسمى مكة أيضا أم القرى، لأنها أصل الأرض، وقيل سميت مكة أم القرى لأنها أقدم القرى، التي في جزيرة العرب وأعظمها خطرا، إما لاجتماع أهل تلك القرى فيها كل سنة، أو انكفائهم إليها وتعويلهم على الإعتصام بها لما يرجونه من رحمة الله ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 254-255، وأبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق، رشدي الصالح حسن، ج1، مطبع بنتو، مدريد، إسبانيا [ب.ت.]، ص 107-108.

(4) يحدّد لنا ابن سعيد موقع المدينة المنورة، من حيث الطول 65 درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمس وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، وحسب ابن حوقل وياقوت الرومي الذي أخذ عن الأول، فإن المدينة تعادل نصف مكة من حيث الحجم والإتساع، وهي في صرة سبخة الأرض، ولها نخيل كثير ومياه، ونخيلها وزروعها تسقى من الآبار، وللمدينة سور، والمسجد في نحو وسطها، وقبر النبي (ص) في شرقي المسجد، والمدينة المنورة، هي مدينة الرسول (ص)، إليها هاجر، وبها كان أكثر التشريع الإسلامي، وكانت منبعا لأكثر الأحداث التاريخية في صدر الإسلام، كما كانت مركز الخلافة وبها الكثير من الصحابة الذين شاركوا في بعض ما وقع من أحداث مهمة كالغزوات، وأنبروا أيضا لنشر العلم بها، ينظر، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 28 وياقوت الحموي : المصدر السابق، ج5، ص82 وما بعدها.

يفهم ما كان يحيط به من ظروف مكية، وبعض هذا التشريع الإسلامي إنما هو إقرار لما كان يفعل في مكة قبل الإسلام من مناسك الحج⁽¹⁾.

ولهذه الأسباب التاريخية، كانت مكة والمدينة مهدا لإزدهار علوم التفسير والفقه والحديث، وتكوّن بهما طبقات من علماء الفقه و المحدثين⁽²⁾. وهكذا فقد استقطبت مكة والمدينة، الكثير من العلماء، الذين ساهموا بدورهم في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الحجاز، من أبرزهم علي سبيل المثال: المحدث، كريمة المروزية بنت أحمد بن محمد بن حاتم، المجاورة، المتوفية سنة 465-1093م. قال الذهبي: الشيخة العاملة الفاضلة المسندة، سمع كثير من الخلق عنها الصحاح، وكان لها فهم ومعرفة مع الخير والتعبد⁽³⁾.

إمام الحرمين، أبو المعالي الجويني، المولود سنة 419هـ-1028م، الفقيه الشافعي، الملقب ضياء الدين، قال عنه ابن خلكان، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، الجمع على إمامته، المتفق على غزارة مادته تفننه في العلوم والأصول والفروع والأدب، وغير ذلك،

(1) سلامة صالح النعيمات وآخرون: المرجع السابق، ص 215.

(2) لما فتح الرسول (ص) مكة، خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها، ويعلمهم الحلال والحرام وقراءة القرآن، وكان عبد الله ابن العباس، يُعلّم أهلها كذلك التفسير والحديث والفقه والأدب. وأشهر من تخرج من هذه المدرسة مجاهد بن جبير، الذي اشتهر برواية أقوال ابن العباس في تفسير القرآن، وعطاء بن أبي رباح، الذي كان يعد أعلم الناس بمناسك الحج، وكان يجلس في المسجد الحرام، ويجتمع الناس حوله، فيفتيهم ويحدثهم ويعلمهم. كذلك تخرج من هذه المدرسة طاووس بن كيسان من أبناء اليمن، وقد أدرك كثيرا من الصحابة، وأخذ عنهم، وكان من فقهاء مكة ومفتيها.

أما مدرسة المدينة المنورة، فكانت أكثر علما وأوفر المدارس شهرة، وإشتهر فيها الكثير من الصحابة، مثل عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر. وعلى يد هؤلاء الصحابة العلماء، تخرج كثير من العلماء التابعين ومن أشهرهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير. وأخيرا أنجبت هذه المدرسة الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة. ينظر الطبري: المصدر السابق، ج2، ص453 وما بعدها، وسلامة صالح النعيمات وآخرون: المرجع السابق، ص 214-215.

(3) شمس الدين الذهبي: أهل المائة، تحقيق، أبو يحيى عبد الله الكندري، أبو عبد الله حسام أبو قريظ، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ-1997م، ص 70-71.

صنف في علوم شتى، منها كتاب "الشامل" في أصول الدين و"البرهان" في أصول الفقه و"تلخيص التقريب" و"الإرشاد" و"العقيدة النظامية" و"مدارك العقول". خرج إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين، وبالمدينة يدرّس ويفتي، ويجمع طرق المذهب، فلهذا قيل له إمام الحرمين. توفي بنيسابور، سنة 478هـ-1085م⁽¹⁾.

كما استقطبت مكة، عالما كبيرا، هو الزمخشري محمود بن عمر بن محمد، جار الله، المولود سنة 467هـ-1075م في زمخشر، من قرى خوارزم، ورحل إلى عدة أماكن وخاصة إلى مكة، حيث جاور بها زمنا، فلقب بجار الله، وأخذ بمذهب الاعتزال، ودافع عنه في قوة، حتى عدّ خاتمة شيوخ المعتزلة، ومات بالجرجانية من قرى خوارزم، سنة 538هـ-1144م بعد رجوعه من مكة. أشهر كتبه "الكشاف عن حقائق التنزيل"، في تفسير القرآن الكريم، فرغ من تأليفه عام 528هـ-1134م، وقد صادف نجاحا كبيرا، واعتمد على آراء المعتزلة⁽²⁾.

كما كان العالم العز بن جماعة الحافظ، المولود سنة 694هـ-1295م، من العلماء الذين ساهموا بالقسط الوافر، في إثراء الحياة العلمية بمكة، تكوّن في بداية مشواره العلمي على يد ثلاثة من العلماء المشهورين، كالحافظ أبي الفضل بن عساكر والدمياطي، وأجاز له ابن وريدة، وبلغ شيوخه ألفا وثلاثمائة. صنف "تخرّيج أحاديث الرافعي" و"المناسك الكبرى" و"الصغرى". كوّن تلاميذ كثير، ومكث بمكة أواخر حياته منبريا للتدريس، حتى وفاته بها سنة 767هـ-1365م⁽³⁾.

(1) ابن خلكان : المصدر السابق، ج3، ص 167-168-169.

(2) عادل نويهض : المرجع السابق، ج2، ص666.

(3) السيوطي: المصدر السابق، ص 535-536.

ومن العلماء الذين أنجبتهم، محب الدين الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر ابن محمد بن إبراهيم الطبري، شيخ الحرم المكي، وحافظ الحجاز وعالمه، كان عارفا بالتفسير، متضلعا في الفقه على المذهب الشافعي . ولد بمكة سنة 615هـ-1218م، أخذ عن مشيختها وأفتى ودرّس وحدث، سمع عليه الكثير من المشايخ والأعيان، من كتبه "الكافي في غريب القرآن" وكتاب يتضمن ترتيب القرآن على السور، مات بمكة سنة 694هـ-1295م⁽¹⁾.

كما استقطبت مكة من المغاربة، رزيق بن معاوية بن عمّار، أبو الحسن العبدي الأندلسي، المتوفى بمكة سنة 525هـ-1131م، حدث ودرّس بها واستفاد منه الكثير من الطلبة، كان رجلا صالحا عالما فاضلا، عالما بالحديث⁽²⁾. و محمد بن علي بن يحيى الأندلسي، المتوفى سنة 715هـ/1315م، حج سنة 700هـ/1300م، فسمع بالمدينة من أبي القاسم القتبوري: الشفا للقاضي عياض، و من الكمال عبد الله بن محمد الغرناطي: الشاطبية. و بمكة الكثير على العز التوزري . و أقرأ بمكة و حدث بالموطأ⁽³⁾.

ومن العلماء المغاربة الذين تكوّنوا في علم الحديث بمكة، وعادوا إلى بلادهم وإستفاد منهم الناس :

الحسين بن محمد بن خيرة بن حيون، أبو علي الصدفي، المعروف بابن سكرة السرقسطي، المولود سنة 452هـ-1060م كان إماما في علم الحديث، وآخر أئتمته في الأندلس، كان حافظا

(1) عادل نويهض: المرجع السابق، ج1، ص 45.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 191-192.

(3) تقي الدين الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق، محمد عبد القادر أحمد عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، ص312.

للحديث وأسماء الرجال والعلل، كان إماما أيضا في الفقه، سمع بمكة المكرمة من أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري⁽¹⁾. كان كثير الفوائد، غزير العلم. وأخذ عنه الناس علما كثيرا، وحدث ببغداد، وعني بالحديث والضبط وحفظ أسماء الرجال، وكان موصوفا بالعلم والدين والعفة والصدق، ثم عاد إلى الأندلس، وإستقر بمدرسة مرسية، ورحل إليه الناس توفي سنة 514هـ-1120م⁽²⁾.

خلف بن قاسم بن سهل، المعروف بابن الدباغ، المتوفى بمكة سنة 393هـ-1003م، سمع بدمشق و بمكة وبالرملة. وألف كتبا حسانا، وخرّج "مسند حديث مالك" و "مسند حديث شعبة". وعد شيوخه الذين كتب عنهم : مائتان وستة وثلاثون شيخا، روى عنه جماعة من الكبار منهم: أبو عمر بن عبد البر⁽³⁾ وأبو عمرو الداني وأبو الوليد الفرضي⁽⁴⁾.

أما المدينة المنورة، فقد إزدهر فيها أيضا علم الحديث والسير، ومن أبرز رواد علم الحديث، أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي، صحابي جليل، ولد سنة 21هـ-642م، أصله من اليمن، قدم المدينة والرسول (ص) بخيبر، فسار إليها ولقى النبي (ص) وأسلم، ثم عاد معه إلى المدينة، ولازمه حتى توفاه الله. روى أبو هريرة عن الرسول الكثير من الأحاديث. وكان من الحفاظ الصحابة، وروى عن أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وأسامة بن زيد، وعائشة أم المؤمنين، وحدث

(1) الطبري، إبراهيم بن علي بن الحسين الشيباني، مفسر قاضي، من فقهاء الشافعية، ولي قضاء مكة، كان إماما في المذهب، له تصانيف عديدة في الفرائض والتفسير، ولد سنة 492هـ-1099م. توفي سنة 533هـ-1139م، ينظر، الداودي: المصدر السابق، ص 17، وعادل نويهض، المرجع السابق، ج1، ص 16.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 173-174.

(3) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر التّمري الحافظ، شيخ علماء الأندلس، و كبير محدثيها في وقته، تفقه في قرطبة عند أبي عمر بن المكوي، وكتب بين يديه، ولزم أبا الوليد بن الفرضي، الحافظ، وعنه أخذ كثيرا من علم الرجال والحديث، وهذا الفن كان الغالب عليه، ينظر: القاضي عياض : المصدر السابق، ج2، ص 352.

(4) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 185.

عنه خلائق، حيث تروي بعض المصادر، أنه روى عنه ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم، من الصحابة والتابعين، وغيرهم حتى وفاته بالمدينة سنة 59هـ-679م⁽¹⁾.

كما برز أيضا، الفقيه أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز المعروف بالماجشون، سمي بذلك لحمرة في وجهه، وقيل أنه من أهل أصبهان، انتقلوا إلى المدينة. كان فقيها مالكيا تفقه على الإمام مالك، وعلى ولده عبد العزيز. ذكر ابن فرحون، أن عبد الملك دارت عليه الفتوى في وقته، إلى أن مات، وعلى أبيه قبله، فهو فقيه بن فقيه، وكان مفتي أهل المدينة في زمانه وكان ضرير البصر وتفقه به خلق كثير وأئمة جلة، كابن حبيب⁽²⁾ وسحنون. توفي سنة 213هـ-828م، حسب رواية ابن خلكان، وسنة 214هـ-829م - حسب رواية ابن فرحون -⁽³⁾.

عبد الله بن محمد بن أبي القاسم اليعمري، التونسي الأصل، المدني المولد، المتوفى سنة 769هـ-1367م، حصل تكوينه القاعدي في مكة والمدينة على يد شيوخ أجلاء، كالشيخ رضي الدين الطبري، كانت مشاركته في أصول الدين مشاركة حسنة، وحدث ودرس وأفاد، وإليه إنتهت الرياسة بالمدينة النبوية. أقام مدرّسا للطائفة المالكية ومتصدرا للإشتغال بالحرم النبوي، أكثر من خمسين سنة، وانفرد في آخر عمره بعلو الإسناد، فلم يكن في المدينة أعلى سندا منه، ناب في القضاء حوالي أربعة وعشرين سنة، وأمّ في المحراب النبوي في بعض الصلوات، ودعي إلى أن يقوم بالخطابة

(1) عادل نويهض: المرجع السابق، ج1، ص 266.

(2) عبد الملك بن حبيب بن سليمان، أبو مروان السلمي، فقيه مشهور، متصرف في فنون من الآداب وسائر المعاني، تفقه بالأندلس، ثم رحل، ولقي أصحاب مالك وغيرهم، وله في الفقه الكتاب الكبير المسمى "الواضحة"، في الحديث والمسائل. كانت وفاته بالأندلس، سنة 238هـ-852م، ينظر، الحميدي أبو محمد: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق، روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ/1987م، ص 250-251.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق، ح3، ص 166-167، وابن فرحون: المصدر السابق، ص 251-252.

والإمامة نائباً، فامتنع إعظاماً للمقام النبوي. له تآليف عديدة في أنواع شتى، منها كتاب "الدر الملخص في التقصي والملخص" وشرح "مختصر التفرغ" لابن الجلاب النيلي، سماه "كفاية الطلاب في شرح مختصر الجلاب"، وله "نهاية الغاية في شرح الآيات" وله في العربية "العقدة في إعراب العمدة"، عمدة الأحكام في الحديث أعربها إعراباً جامعاً لوجوه الإعراب واللغة والإشتقاقات. قال ابن فرحون، كتبه كلها في غاية الجودة والإتقان⁽¹⁾.

وبجانب الحياة المحافظة في مكة والمدينة، كانت تسودهما حياة أخرى، هي حياة فرح ومرح وطرب وشراب، وكما أنتجت الحياة الأولى الزهد والورع والعلم والدين، أنتجت الحياة الثانية فناً بديعاً من غناء وتنادر وأدب، وقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيها بالمغنين والمغنيات.

ولعلّ الشّيعيّ الذي يفسر لنا غنى الحجاز بالغناء والمنادرة، هو تواجد أستقراطيو العرب فيه، وهم العنصر الفاتح الذي نال خير الجوارى و أرفعهن نسبا وأكثرهن تأدبا، ومنهن من تربى في بيوت الملوك والأمراء، وتأدّب بأداب الحضارة، فنقلن ذلك إلى الحجاز. وقد تكون العلة أن البدو، حين تحضروا وبُسط لهم في العيش، أسرفوا في اللهو، شأن كثير من غنى بعد الحرمان⁽²⁾. وقد يكون لانعزال الحجاز عن الحياة السياسية والعسكرية على عهد الأمويين جعل شبابه ينصرفون إلى حياة اللهو والترف ويقبلون على الطرب الشدو والغناء والموسيقى. وهناك سبب آخر ساعد على تعزيز الحركة الفنية في المدينتين المقدستين، وإن كان ذلك بمعنى آخر ومن زاوية أخرى، وهو ترتيل القرآن

(1) ابن فرحون: المصدر السابق: ص 234 وما بعدها.

(2) سلامة صالح النعيمات وآخرون: المرجع السابق، ص 215.

والتغني به فالمعلوم أن التغني بالقرآن قد نشأ في مكة والمدينة نشأة طبيعية بسيطة. فالحدود الصوتية الفنية التي كان يتحرك فيها المتغنون جعلت التغني أقرب إلى المصحف المرتل منه إلى التلاوة المجودة⁽¹⁾.

نستنتج من هذا الفصل أن الحواضر في بلاد المشرق الإسلامي، تعددت و تنافست في تشييد العمران و بناء المدارس و دور العلم المختلفة، فكان من الطبيعي أن تزدهر الحياة العلمية بها، فأقبل الكثير على التعلم في شتى الإختصاصات العلمية و الفنية . و ما من شك أن رجال الحكم و السلطة كانت لهم اليد الطولى في تشجيع رجال العلم، و الإعثناء بالطلبة و المهتمين، يحدوهم في ذلك تحقيق غاية كبرى قام عليها الدين الإسلامي، و هي الإقبال على العلم و القراءة .

(1) محمد عبد الرحمان مرحبا: الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثالثة، 1988-1989، ص 457.

الباب الثاني:

التواصل العلمي بين المشرق والمغرب

- الفصل الأول: المؤثرات العلمية المشرقية في المغرب
- الفصل الثاني: المؤثرات العلمية المغربية في المشرق

الفصل الأول:

المؤثرات العلمية المشرقية في المغرب

أولاً: دور المشرق في تحديد الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب أو هجرة الثقافة في

رحاب الفتح

ما من شك، في أنّ الصلات الثقافية والعلمية بين المشرق والمغرب، صلات قديمة وعريقة، يرجع تاريخها إلى دخول الإسلام إلى المغرب، وإيمان سكانه به وسعيهم إلى نشره في الأندلس وباقي الأقطار⁽¹⁾.

فالمشرق والمغرب، طرفان يمثلان أكثر ما يمكن من التباعد الجغرافي داخل ما يسمى اليوم بالعالم العربي، والانتقال من هذا الطرف إلى الطرف الآخر، يُمثل رحلة طويلة وشاقة، وبخاصة في العصور الوسطى، فهو تحول من قارة إلى قارة أخرى. ومع ذلك، فما شوهد تاريخان يسيران سيرا متوازيًا، مثل تاريخ المشرق وتاريخ المغرب إذا نظرنا إليهما بنظرة المقارنة⁽²⁾.

هذا التواكب في أهم الأحداث التاريخية، التي تمسّ بكيان الدولة العربية الإسلامية، سواء في المشرق أو المغرب، اللذين عاشا نفس المواجهة مع أوروبا المسيحية، متقلبين بين النصر والهزيمة. فإذا نظرنا إلى هذا الكيان من الداخل، نجد مظاهر أخرى للتواكب، ففي الوقت الذي قامت فيه الثورة ضد الأمويين بالمشرق في بداية القرن الثاني للهجرة، وانتهت بإزالة رؤوسهم وإحلال العباسيين محلهم، إندلعت الثورة في المغرب بشكل عام مرتكزة على المذهب الخارجي، وانتهت

(1) حسن جلاب: صفحات من التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب، وقائع تكريم منتدى الأثنية بجدة للدكتور حسن

جلاب، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م، مراكش، المغرب، ص 5.

(2) ينظر: محمد زبير، ظاهرة التواكب بين تاريخ المشرق والمغرب العربيين في كتابه المغرب في العصر الوسيط، - الدولة، المدينة،

الاقتصاد، تنسيق: محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ص

بقيام عدة إمارات خارجية، كالرستميين في تاهرت. وفي الأخير، تأسست دولة التي اعتمدت على بربر المغرب، كما اعتمد العباسيون على الخراسانيين⁽¹⁾.

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأثره في ثقافة سكانه:

كان العرب قد أتموا فتح مصر سنة 21 هـ/642م، ومنذ هذا التاريخ تصبح مصر قاعدة لكل الفتوحات المتوجهة غربا على طول سواحل بلاد المغرب، وكانت هذه البلاد - شأنها كشأن مصر- خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، وفي سنتي 22 هـ/643م و23 هـ/644م، يضطلع فاتح مصر عمرو بن العاص بفتح برقة، ثم طرابلس، بعد قتال عنيف مع الروم البيزنطيين، ومن تحالف معهم من البربر⁽¹⁾.

بعد أن استقرت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان توجه معاوية بن خديج السكوني في سنة 45 هـ/666م على رأس حملة واصلت التقدم العربي إلى إفريقية، إلا أنه انسحب إلى مصر بعد أن أحرز انتصارات كبيرة، ثم ولي حكم إفريقية عقبة بن نافع مرتين؛ قام في الأولى بإنشاء مدينة القيروان، التي أصبحت قاعدة للامتداد نحو الغرب، وفي الثانية قام بحملته الكبرى التي اخترق فيها جبال الأوراس، ووصل إلى طنجة على المحيط الأطلسي، قبل أن ينحدر جنوبا محترقا جبال الأطلس، ومنتجها إلى جنوب المدينة المعروفة اليوم، باسم "أغادير" على شاطئ المحيط. وفي طريق

⁽¹⁾ محمد زنيبر: المرجع السابق، ص 33.

⁽²⁾ ابن عبد الكريم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح إفريقيا و الأندلس حققه: عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1964، ص 30-31، و ابن الأثير القضاعي: الحلة السراء في أخبار الأمراء ج1، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1985، ص 13-14-15.

عودته من هذه الحملة الكبرى، أحاط بجيشه بربر قبيلة أوربه⁽¹⁾، جنوبي واحة بسكرة، فاستشهد هو وكل من معه سنة 63هـ/683م. وتبع ذلك أن احتل الزعيم البربري كسيلة مدينة القيروان، وشغلت الخلافة الأموية بالحرب مع عبد الله بن الزبير⁽²⁾ عن الإهتمام بشؤون إفريقية، فلما استقرت الخلافة لعبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م)، بعث زهير بن قيس البلوي في سنة 69هـ/688م، لإسترداد إفريقية، ولكن الحرب انتهت بهزيمته ومقتله على أيدي البربر ومن تحالف معهم من الروم البيزنطيين. وعاد عبد الملك لتوجيه حملة أخرى بقيادة حسان بن النعمان الغساني، وفيها بين سنة (72هـ/690م و85هـ/704م) استطاع حسان أن يستعيد إفريقية، ويتم فتح المغرب الأوسط⁽³⁾.

(1) أوربة: قبيلة بربرية نسبة لأحد أجدادها الذي أطلق عليه "أورب بن برنس بن بر"، حيث يتدرج نزولا في سلم الأجداد حتى مازيغ، وهي أول قبيلة من البربر نجحت وأفلحت في قتل واحد من كبار ولاة العرب وقادتهم العسكريين البارزين ألا وهو "عقبة ابن نافع الفهري"، كانت مواطنها الأولى منطقة تاهودا المحدودة ضمن أعمال إفريقية جنوبا، حيث أطراف الصحراء، ثم تشتتت القبيلة بسبب التوسع العربي الإسلامي بين المغربين الأوسط والأقصى. ينظر: البكري، المصدر السابق، ص: 107، 90، 117. وسبع قادة هجرة قبيلة أوربة البربرية من المغرب الأوسط: المواطن، الملابس والتناج، مجلة عصور، العدد 16، جوان/ديسمبر 2010، مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ص: 177-178.

(2) - هو أبو حبيب عبد الله بن الزبير بن العوام، وأمه ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق، وهو أول مولود في المدينة بعد الهجرة، تنازع حكم بلاد الحجاز مع الأمويين إلى أن تمكن عبد الملك بن مروان من إرسال الحجاج بن يوسف الثقفي وقتل ابن الزبير وصلبه سنة 73هـ/692-693م. ينظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، المصدر السابق، ج1، ص 302 وما بعدها. وأبو الحسن بن أبي سرور الروحي: بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (ب-ت) ص: 50-52.

(3) - محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي، في سلمى خضراء الجبوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الثانية، 1999، ص 56.

وبعد عزل حسان بن النعمان عهد عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة، وكان عاملا على مصر، وإليه ولاية شمال إفريقية كله، إلى موسى بن نصير اللخمي، بولاية إفريقية، وكان من صفوة رجال الدولة الأموية، كفاءة واقتداء. وكان أبوه يتولى رئاسة حرس معاوية بن أبي سفيان، ولما كبر ابنه عينه عبد الملك معاونا لأخيه بشر، لما ولّاه العراق، فتربى في حجر الدولة، ونشأ في كنفها، واضطلع بأهم المناصب، قبل أن يتقلد هذه الولاية⁽¹⁾.

غزا موسى بن نصير طنجة، وافتتح درعة وصحراء تافيلات، وأرسل ابنه إلى السوس⁽²⁾، فأذعن البربر لسلطانه وأخذ رهائن المصامدة، فأنزلهم بطنجة سنة 88هـ/707م، وولّى عليها طارق بن زياد الليثي⁽³⁾. وعاد ابن نصير إلى القيروان بعد أن أتم فتح المغرب كله فيما بين سنتي 85هـ/704م و95هـ/714م، ثم قام بتنظيم إدارته فقسمه إلى خمس (05) ولايات: برقة وكانت تابعة لمصر، وإفريقية وتمتد من طرابلس إلى إقليم الزاب عند مجرى نهر شلف إلى مجرى نهر ملوية وعاصمتها مدينة تلمسان، والمغرب الأقصى، وهي ما يلي ذلك غربا حتى المحيط الأطلسي، ثم جنوبا إلى وادي أم الربيع جنوبا حتى الصحراء وهي ولاية السوس، وعاصمتها سجلماسة⁽⁴⁾.

(1) - عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق: أحمد بن ميلاد، محمد رابح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1410هـ/1990م، ص 87.

(2) - المقصود به هو السوس الأقصى، وهي بلاد ذات غلات زراعية كثيرة، زاد من أهميتها موقعها الذي جعلها ملتقى للتجار وطرق التجارة بين بلاد السودان والمغرب. ينظر: يعقوبي أحمد بن واضح: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ/1988م، ص 115، وابن حوقل: المصدر السابق، ص 90.

(3) - السلاوي الناصري: الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيقك محمد عثمان، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 428هـ/2007م، ص 84.

(4) - محمود مكّي: المرجع السابق، ص 58 59.

فتح الأندلس:

الحكايات المتعلقة بفتح الأندلس والشائعة في المصادر العربية ثم بعد ذلك في المدونات المسيحية والقصائد الملحمية الإسبانية، تردّ هذا الفتح إلى قصّة طالما استهوت الأحيلة الشعبية، وهي اعتداء الملك القوطي "لذريق" على ابنة جميلة لحاكم سبته، "يوليان"، كانت تعيش في قصر "لذريق" بطليطلة⁽¹⁾، على عادة نبلاء القوط، الذين كانوا يبعثون بابنائهم وبناتهم لكي يتربوا في القصر الملكي، وتقول القصة أنّ هذه الابنة كتبت إلى أبيها بغير اعتداء الملك عليها، فصمم انتقاما لشرفه على إزالته من ملكه، وهكذا اتصل بطارق بن زياد، حاكم طنجة، ففاوضه في أمر فتح الأندلس، مقدا له كل معونة ممكنة⁽²⁾.

قد تكون هذه القصة صحيحة وقد لا تكون، ولكنها لا تكفي وحدها لتفسير الفتح الإسلامي للأندلس، فقد كان هذا الفتح ضمن خطة مركزية، وضعها قادة الفتح في المغرب والسلطة المركزية في دمشق، لأن الفتح جاء نتيجة طبيعية لإتمام فتح المغرب، وكثرة عدد مرابطي "طنجة" من مسلمي البربر وبقائهم بدون نشاط ورغبتهم في تجربة حظهم إلى جانب إخوانهم

(1) طليطلة بضم الأولى وفتح الثانية، مدينة أندلسية ذات خصائص محمودة، يتصل عملها بعمل وادي الحجاره، ذكر ياقوت إنها من أجلّ المدن قدرا وأعظمها خطرا، مثلث قصورها أقصى حد من الأناقة والتفنن. وكانت شبيهة ببذخ وثناء قصور بني الأفضس في بطليوس (403-487هـ/1022-1094م)، والمعتمد في إشبيلية (461-481هـ/1069-1091م). ينظر: ياقوت الحموي، المص السابق ج4 ص 241، وليوبولدو طاريس طالباس: التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية، ج1، ترجمة محمد يعلى، دار أبي الرقراق، الرباط، الطبعة الأولى 2007، ص 149.

(2) la conquêt et ، tome 1، - Levi-Provençal: histoire de l'Espagne musulman⁽²⁾ P: 12، 1999، Paris، maisonneuve et larose. l'emirat hispano-umaiyade ومحمود مكّي: المرجع السابق، ص: 58.

العرب في ميدان الفتح العسكرية والثقافية، ووجدوا في شخصية طارق - وهو منهم - الرجل الذي يستطيع أن يُفجّر طاقاتهم الحربية ويقودهم إلى ميادين النصر، وإنّ الأسلوب الحربي الذي انتهجه العرب، لا يكاد يختلف عن أسلوبهم الذي مارسوه في المغرب وفي غيره من البلدان المفتوحة، فالفتح الدائم بجيوش ضاربة، يجيء تاليا لعمليات استطلاعية، تقل أو تكثر بحسب ظروف الإقليم ومقاومة السكان⁽¹⁾.

قام طارق بن زياد، في رمضان سنة 91هـ/710م، بإرسال حملة استطلاعية إلى جنوب الأندلس لجسّ نبض ومعرفة مقاومة القوط الغربيين، وقد عهد بقيادة الحملة إلى طريف بن مالك المعافري الذي عبر إلى شبه جزيرة إيبيريا بقوة تتألف من أربعمئة (=400) راجل ومئة (=100) فارس، حيث تمكّن من النزول في مكان يدعى "بالوماس" على الشاطئ الإيبيري؛ سمي فيما بعد باسم قائد الحملة طريف، وقام بشن غارات سريعة امتدت حتى الجزيرة الخضراء محققا أهدافه، ثم عاد إلى المغرب⁽²⁾.

واستمرت انتصارات الفاتحين المسلمين، رغم بعض العراقيل التي صادفتهم، حتى كانت المعركة الفاصلة بين المسلمين وإسبان، هي معركة "كورة شدونة"، سنة 92هـ/711م، وانتهت بانتصار المسلمين على ملك إسبانيا القوطي لذريق، ثم تكررت المعارك بين المسلمين وإسبان

⁽¹⁾ موسى لقبال: المرجع السابق، ص 93.

⁽²⁾ لسان الدين بن الخطيب السلماني: تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي برونسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، 1956، ص 6، وسهله شهاب أحمد: المرجع السابق، ص 81.

في مختلف الميادين الاسبانية مثل: ليون وقشتاله، حتى انتهى الأمر إلى قيام حكم إسلامي⁽¹⁾ في إسبانيا⁽²⁾.

⁽¹⁾ يقسم الحكم الإسلامي في الأندلس إلى العصور التالية:

أ. عصر الولاة (92هـ/711م - 138هـ/760م): وهو العصر الذهبي في تاريخ الأندلس الإسلامية، وكانت الأندلس خلاله إمارة أموية مستقلة سياسيا عن الخلافة العباسية، علما أنّ البعض يرى أنّ عصر الولاة يبدأ سنة 92هـ/711م مع عبد العزيز بن موسى بن نصير.

ب. عصر الخلافة (316هـ/929م - 422هـ/1031م): امتد حكم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله علي مدى نصف قرن كامل (300-350هـ/912-961م)، وينقسم عهده إلى قسمين: السنوات الست عشرة الأولى كانت نهاية عصر الإمارة المستقلة، ثم ما بقي من السنوات حكمه التي مرت في ظل عهد جديد هو عهد الخلافة، وامتد عصر الخلافة في الأندلس قرنا كاملا حتى سنة 422هـ/1031م،

ج. دول الطوائف (422هـ/1031م - 484هـ/1091م): تُعد هذه المرحلة من أخطر مراحل تاريخ الأندلس الإسلامية، ففيه انفرط عقد البلاد، وتوزعها نحو ستين (60) دويلة تتفاوت فيما بينها صغرا وكبرا وقوة وضعفا، ومع أن هذا العصر لا يتجاوز نحو ستين سنة فإن تتبع الأسر الحاكمة التي ملكت تلك الإمارات أمر عسير لأن الحروب المتصلة بينها أدت إلى تحولات مستمرة في مسارها التاريخي.

د. عصر المغاربة (479هـ/1086م - 612هـ/1214م): وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين، وكانت عاصمتهم مدينة مراكش في جنوب المغرب الأقصى، وانتهى هذا العصر بهزيمة دولة الموحدين أمام الجيوش المسيحية الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة 609هـ/1212م.

هـ. عصر مملكة غرناطة (636هـ/1238م - 897هـ/1492م): وهو عصر دولة بني الأحمر، هذه المملكة التي كان نفوذها لا يتجاوز عُشر مساحة ما كان بأيدي المسلمين في الأندلس، ولكن الغريب هو أنّ هذه البقية الباقية استطاعت أن تظل على قيد الحياة قرنين ونصف قرن من الزمان، وكان ذلك بفضل الزعيم محمد بن يوسف بن نصر وذريته، ينظر: الحميدي: الجذوة، المصدر السابق، ص 15 وما بعدها. ورينهت دوزي: تاريخ الإسلام والمسلمين في الأندلس، ترجمة: حسين حبشي، ج2، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، [ب.ت.]، ص 69 وما بعدها. ونحلة شهاب أحمد: المرجع السابق، ص 80 وما بعدها. ومحمود مكي: المرجع السابق، ص 58 وما بعدها. وعبد العزيز الثعالبي: المرجع السابق، ص 95 وما بعدها. ومحمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 414.

⁽²⁾ حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1419هـ/1999م، ص270.

هذه لمحة وجيزة عن أهم محطات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب من برقة شرقا إلى إفريقيا والمغرب الأوسط، ثم المغرب الأقصى والأندلس غربا، والملاحظ أنّ هذا الفتح استهلك عقودا من السنين من جهود الفاتحين⁽¹⁾.

لكن ينبغي أن ننبه - وهذا ما يهمنا أكثر - أنّ الفتح الإسلامي أثر في تاريخ الثقافة واتجاهاتها في بلاد المغرب، لأن ثقافة بلاد المغرب - بعد الإسلام - إنما هي في أساسها نتاج للفتح الإسلامي، فقد بدأت الثقافة الإسلامية يوم الفتح نفسه، لأنه فتح جاء بكتاب سماوي صالح لكل زمان ومكان، وهو كتاب دين قويم، ودستور سياسة، وقاموس لغة، ومجمع ثقافة وتاريخ أمم. لذا كان الفتح فتحا ثقافيا جامعا، وكانت اللغة العربية هي لغة القرآن. وقد وجدت طريقها إلى قلوب المغاربة دون مشقة وعناء، ولعل ذلك يرجع إلى أنّ اللغة الفينيقية، كانت قد مهّدت الطريق أمام اللغة العربية، ومن ثمّ لم يجد المغاربة صعوبة في فهم اللغة العربية أولا، ثم إتقانها والتحدث بها ثانيا، وبخاصة في عواصم المدن بعد اختلاط العرب الفاتحين بالمغاربة⁽²⁾.

⁽¹⁾ من المعروف أنّ الفتح العربي الإسلامي للمغرب استغرق مدة طويلة تقرب من الثمانين عاما، وهي مدة طويلة نسبيا إذا ما قورنت بالفتوحات الإسلامية الأخرى في الأراضي الفارسية والبيزنطية، فقد اجتاح العرب العراق والشام ومصر في مدة لا تزيد على العشر سنوات، أما فتح المغرب فقد امتد من عام 644هـ/644م، حتى نهاية القرن الأول الهجري، وهذا راجع في رأي الكثير من الباحثين، إلى مناعة بلاد المغرب طبيعيا، وشدة مراس أهلها وشجاعتهم في القتال، ولاشك أنّ هناك عوامل أخرى خارجية ساعدت على طول هذه المدة التي تم فيها الفتح العربي الإسلامي للمغرب، مثل إنقسام المسلمين على أنفسهم أيام الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتوقف الفتوحات الإسلامية نتيجة لذلك. هذا إلى جانب الغارات البحرية التي شنّها البيزنطيون على الجيوش العربية لوقف تقدمها في المغرب، وكانت خبرة العرب بالشؤون البحرية قليلة في بادئ الأمر. ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، [ب،ت]، ص 46. وجورج مارسي، المرجع السابق، ص 30.

⁽²⁾ بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 187.

ومن المعروف أيضا، أنّ الفتوحات الإسلامية اختلفت عن الغزوات الواسعة النطاق، التي كانت تقوم بها أقوام متعددة ما بين فترة وأخرى في التاريخ الإنساني، إذ أنّها لم تكن حربا بالمعنى المتداول للكلمة هدفها توسيع سلطان أو كسب غنيمة، بل كانت جهادا ينظمه قانون؛ هو الشريعة الإسلامية، التي حددت لهذه الحرب أهدافها بتأمين حرية الدعوة، ورسمت للقائمين بها حدود العمل وطرق التنفيذ في بعض الأحيان. لذلك كله كان للجيش العربي الإسلامي بنية وأجهزة مختلفا عن الجيوش الأخرى تبعا لاختلاف في الغاية، وهذا الأمر بذاته أداة أكثر ملاءمة وأكبر فعالية في نقل الثقافة⁽¹⁾، إذ أنّ الجهاد فرض، مما جعل الصحابة والتابعين، وهم حملة العلم ونقلته، يقفزون إلى المقدمة فيه لحرصهم على القيام بفروضهم، وأسهم هذا، إضافة لمكانتهم الاجتماعية، في جعل القيادات من نصيبهم في الغالب⁽²⁾.

وتتابعت الفتوحات الإسلامية صوب بلاد المغرب، لتزيد في ترسيخ أقدام المسلمين، و تزيد في مساحة الأراضي التي يتم بسط النفوذ عليها، ويتم تبعا لذلك نشر الثقافة الإسلامية.

(1) لقد كان الإسلام دين تسامح، وقد جعل الجهاد المقدس واحدا من تعاليمه الرئيسية، ولتقديم البراهين علينا أن نرى عدد غير المسلمين الذين عاشوا في معظم البلاد الإسلامية، فمنهم من عكف على التجارة ومنهم من زاول حرفته وخاصة الطب، ومنهم من مارس مهام عامة، أو خدم في جماعات، فنشاطهم المهني حر، وقدراتهم محل تقدير، والسلطات لا تلجأ للشدة إلا ضد الذين لا يحترمون الديانة الإسلامية أو الذين يرتدون لدين آبائهم بعد اعتناق دين حكامهم، فالإسلام دين ليس من صفاته الإضطهاد فحسب، بل هو عادة قليل الميل إلى التبشير. ينظر: جورج مارسي، المرجع السابق، ص 43.

(2) أحمد بدر: هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن الثاني للهجرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد 8، رجب 1402هـ/أبريل 1982م، ص 78.

ومن ناحية أخرى ضمّ الجيش في جملة أجهزته جهازاً يمكن تسميته بالجهاز المعنوي، حسب مصطلحاتنا الحديثة، وتقتضي مهماته أن يكون العاملون فيه من حملة العلم أيضاً. وقد ظهرت نواته منذ عهد الرسول (ص)، فاستمر بعده لأنه سنّه⁽¹⁾، كما يُفهم من رواية أوردها الطبري، في معرض حديثه عن معركة اليرموك سنة 13هـ/634م، وذلك بقوله: "وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاص أبو سفيان بن حرب، وكان على الطلائع قباث بن أشيم، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود"⁽²⁾.

على الرغم من إسناد الرواية مهمّة القراءة لقارئ واحد، إلا أنه يمكن الاعتقاد بأن القراء في الجيش، قد تعددوا تبعاً لتضخم عدد أفرادهم وتمايز فرقهم، كما أنّ انتشار تعلم قراءة القرآن الكريم وحفظه في أوساط الناس جعل أعداد القراء كبيرة. حتى أننا نجد في ثنايا روايات الإخباريين المهتمين بتبيان تمايز فرق الجيش، وحدات خاصة بالقراء. أما القاص فكان ممن يحمسون الجند أثناء الاستعداد لدخول المعركة، مستخدماً الأخبار والقصص الدينية، والتذكير بأوامر الله التي يقوم المجاهدون بتنفيذها، فهو والحال كذلك واعظ، ومن هذه المهام التي يقوم بها حملة العلم من المسلمين الأقباض، وصاحبها يجمع لديه الغنائم قبل قسمتها وقد يتولى فيما بعد قسمتها. وقد نظّم الشرع العملية مما جعل العارف به مؤهلاً لها⁽³⁾. فحملة عبد الله بن سعد بن أبي السرح عام 27هـ/647م، كان من ضمنها عدد كبير من علماء الإسلام، منهم عبد الله بن العباس المتوفى

(1) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 78.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المصدر السابق، ج 2، ص: 579-580.

(3) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 79.

سنة 68هـ/687م، وهو حبر الأمة قام بتقسيم الغنائم. ويقول التابعي طاووس⁽¹⁾: أدركت نحو خمس مائة من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، إذا ذكروا ابن العباس فخالقوه، لم يزل يقرّرهم حتى ينتهوا إلى قوله⁽²⁾. أضيف إلى ذلك، أنّ الجيش كمجموعة من المسلمين، اقتضى قيامهم بفروضهم الدينية، كنشوء بعض المهام التي عيّن لها موظفون معروفون بمكانتهم الدينية والعلمية، منها جمع الصدقات، التي عيّن لها لأول مرّة في صفوف الجيش الفاتح حنش الصنعاني، وهو تابعي اشتهر بغزارة علمه وسعة درايته وشدة حماسته لنشر الإسلام، وقد أخذ عنه الناس حيثما سار، من مصر حتى الأندلس مروراً بالمغرب⁽³⁾.

ومهما يكن الأمر، فإن الحملات الأولى للمسلمين على بلاد المغرب، قد جعلت المنطقة شيئاً فشيئاً تنهياً للدخول النهائي في حظيرة الدولة الإسلامية الكبرى. وبنفس الخطوات والنجاحات التي حققها المسلمون على الصعيد السياسي حققوها على الصعيد الثقافي، ولو أنّها كانت بدرجة أقل وغير ملموسة مع بداية الفتح. ذلك أنّ الانتصارات العسكرية، كانت لا تستغرق وقتاً طويلاً، في حين تستغرق عملية الثقافة وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً. ومع ذلك فإنها لم تتوقف رغم توقّف الفتح⁽⁴⁾. ويقدم لنا الدباغ نصّاً يفيد أنّ مجموعة من المتطوعين المسلمين كانوا لا يغادرون المناطق التي فتحها المسلمون، وبخاصة تلك التي يتوفر فيها الأمن، ومن خلال ذلك،

⁽¹⁾ عبد الرحمن طاووس بن كيسان اليماني من أكبر أصحاب عبد الله بن العباس رضي الله عنه، أدرك خمسين من الصحابة، وأكثر روايته عن ابن عباس، توفي بمكة حاجاً سنة 106هـ/724م. ينظر: محمد بن أحمد كنعان، خلاصة تاريخ ابن كثير، المرجع السابق، ص 147.

⁽²⁾ الدباغ: المصدر السابق، ص 108.

⁽³⁾ أحمد بدر: المرجع السابق، ص 79.

⁽⁴⁾ بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص: 188-189.

كانوا يعلمون المغاربة حديثي العهد بالدين مبادئ الدين الإسلامي في أمكنة وزوايا، سوف تصبح مساجد كاملة في مراحل لاحقة⁽¹⁾.

ولعله من المفيد الإشارة أنّ أول اتصال علمي منظم بين المشرق والمغرب، كان تلك التعبئة التي أرسلها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/718-720م)، وساهمت إلى حد بعيد في بداية إرساء إسلام المغاربة على أسس صحيحة⁽²⁾.

كما أنّ الوالي موسى بن نصير، وأثناء عمليات الفتوحات التي أنجزها، ترك على البربر في بلاد تونس، خلقا يسيرا من العرب، لتعليمهم القرآن وفرائض الإسلام⁽³⁾، وممن تدخلهم الرواية ضمن أصحاب هذا الفاتح، صالح بن منصور الحميدي، الذي نزل في منطقة الرّيف، ونشر الإسلام في صفوف قبائله من عمارة، وبعض فروع صنهاجة، وأنشأ أحفاده فيما بعد، دولة لهم في منطقة عاصمتها نكور⁽⁴⁾.

ومع انتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد منذ قيام الدولة العباسية عام 132هـ/749م، أصبح ولاة المغرب يشعرون في أحيان كثيرة بنوع من الاستقلالية، وبخاصة عندما حكم أحفاد عقبة بن نافع والمهالبة. وكان لابد لتحقيق هذه الغاية، أن تنشط الحركة الثقافية ليزاحم العِلْم

(1) الدباغ: المصدر السابق، ج 1، ص 32.

(2) أرسل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز مجموعة من التابعين يفتقون أهل إفريقية منهم: موهب بن حيي المعافري، وحيان ابن أبي طلحة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور القرشي، وإسماعيل بن عبيد وإسماعيل الأنصاري، وطلق بن جابان وعبد الرحمن ابن رافع التنوفي، وأبو عبد الرحمن الحبلي، وسعد بن مسعود التجيبي. ينظر: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، طبقات علماء إفريقية، جمع وتحقيق: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص: 20-21.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 5، ص 320.

(4) البكري: المصدر السابق، ص: 91-92، و 99.

المغربي العلم المشرقي. ولذا انكب الؤلاة على تأسيس معاهد العلم⁽¹⁾، ودعوة المشهورين من اللغويين والنحويين والفقهاء، والأدباء والأطباء والمبدعين عموماً، وقد اشتهرت هذه الظاهرة في بلاد المغرب والأندلس لتكوين جهاز علمي قادر على حمل لواء الثقافة الإسلامية⁽²⁾.

وهكذا سوف تضطلع الحواضر السياسية والعلمية، التي قامت في بلاد المغرب كالقيروان، وتلمسان، وتاهرت، وفاس، وسجلماسة بدور علمي وثقافي كبيرين، جعل من هذه الحواضر منارة للعلم والمعرفة، وتساهم بدورها في إثراء الحضارة العربية الإسلامية كما مثيلاتها الحواضر المشرقية.

ثانياً: انتقال الثقافة عن طريق دعاة الأحزاب السياسية - المذهبية

عندما كانت عمليات فتح المغرب تأخذ مجراها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، كان المشرق يعجّ بالتيارات السياسية التي تبلورت خلال صراعها مع السلطة السياسية الأموية على شكل مذاهب اعتقادية، ضمن إطار الدين الإسلامي، وعند هزيمتها في ثوراتها المعلنة على السلطة السياسية، كانت تلجأ للتنظيم السري ونشر مبادئها بواسطة دُعاة، توجههم إلى سائر أنحاء ديار العرب والإسلام.

وقد أفاد الدُعاة الموجهون للمغرب، من عدة ظروف مواتية، منها بعده عن المركز ورغبة القبائل المغربية البربرية الإستقلال، شأنهم في ذلك شأن غيرهم ممن ينتمون إلى قبيلة تربط بين أفرادها رابطة العصبية، التي تسعى إلى الملك الذاتي. إضافة لكون بعض هذه المذاهب، تعزف على

(1) نسجل في هذه المرحلة تأسيس جامع الزيتونة بتونس عام 144هـ/761م، وإنشاء أول مكتبة في بلاد المغرب في تاهرت وهي مكتبة المعصومة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستمي (171-208هـ/787-823م).

(2) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 191.

وتر المساواة بين المسلمين، وعدم تفضيل قريش على غيرها كالخوارج⁽¹⁾، وإجازة بعضها الثورة على أئمة الجور ضمن إطار أحد مبادئها بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكل هذا وجد زعماء القبائل المغربية أنّ بينهم وبين هذه الأحزاب ودعواتها قضية مشتركة هي العداء للسلطة، وأصبحت مبادئ هذه الأحزاب منتشرة ومرتسخة، وأصبح لها بين المغاربة أتباع أكثر متحمسون، مستغلة هذه الأحزاب الإسلام السطحي للمغاربة في تلك المرحلة⁽²⁾.

⁽¹⁾ ظهر الخوارج بعد موقعة صفين التي دارت رحاها على شاطئ الفرات سنة (37هـ/657-658م) بين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان، ذلك أنّ معاوية لجأ عندما أوشك جيشه أن ينهزم إلى حيلة بارعة شتت بها جيش خصمه: فقد توقف القتال بناء على طلبه لإيجاد حل سلمي للمشكل القائم بين الطرفين المتنازعين عن طريق التحكيم إلى كتاب الله "القرآن"، ولما تبين الإمام وأصحابه أنّ معاوية خدعهم حاولوا استئناف القتال من جديد، غير أنّ جماعة منهم كالأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي اعتبرت أنّ قبول التحكيم جريمة كبيرة، وطلبت من علي أن يتوب عما ارتكبه لأنه - في نظرهم - كفر عندما وافق على ذلك، وأن يواصلوا بعد ذلك قتال معاوية. ينظر: الشهرستاني، المصدر السابق، ص: 114-115. وعمار طالبي: آراء الخوارج الكلامية، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م، ص: 45-46، و محمد بن عميرة: دور زناطة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص47.

⁽²⁾ أحمد بدر: المرجع السابق، ص: 82-83.

استغل الخوارج هذه الظروف المواتية في المغرب، حيث ظهر في أواخر النصف الثاني للقرن الأول الهجري داعية كبير وهو عكرمة مولى الصحابي الشهير عبد الله بن العباس ومثل اتجاهها يدعى الصفرية⁽¹⁾، ظهر في القيروان، وكان مقامه في مؤخرة المسجد، ونجح في إقامة اتصالات من أناس من قبائل مغربية شتى، ومن أماكن عدة، فبرز بين أتباعه فيما بعد ميسرة المطغري⁽²⁾، أو المدغري، ويوصف في المصادر الإسلامية بعدة أوصاف مفتعلة مثل: الحقيير أو الفقير، والسقاء، بينما يصفه بعض مؤرخي الخوارج ومن شايعهم بالخفير تنزيهاً به عن وصف الحقارة، ويذكرون أنه كان وجيهاً في قومه ومن ذوي الصلاح والتقوى والعلم، نجح في قيادة الصفرية عن رضا وطواعية في المعركة، وبلغ من شدة اقتناعهم به، أن قبلوا تزعمه لسفارتهم إلى المشرق، ثم فكرة مبايعتهم له إماماً، ودعوتهم إياه بلقب أمير المؤمنين لأول مرة في تاريخ المغرب الإسلامي⁽³⁾، وأشعل انتفاضةً انطلقت من طنجة في أقصى بلاد المغرب عام 122هـ/740م، وهددت سلطان الأمويين في المغرب كله. ومن لقي عكرمة، سعد المكناسي، الذي أسس حفيده عيسى بن يزيد أو مزيد

(1) الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر، وموطنهم الإقليم الشرقي من الجزيرة العربية، ومن آرائهم عدم تكفير القعدة عن القتال إذا كانوا على نفس عقيدتهم ومذهبهم، وعدم جواز قتل أطفال المشركين، لأنهم ليسوا في نظرهم كفار يجب تخليدهم في النار، وتمسكوا بالتيقن في القول دون العمل، ووافقوا الأزارقة في رأيهم بأن أصحاب الكبائر مشركون إنما قالوا: ما كان من هذه الذنوب قد ترتب عليه حدّ من الحدود فلا ينبغي أن يوصف صاحبه بالإشراك، ومن أقوال زعيمهم: الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران: كفر بالنعمة، وكفر بإنكار الربوبية، والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سنة، وبراءة من أهل الجحود فريضة. ينظر: أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، المصدر السابق، ص 157 وما بعدها، والشهرستاني: المرجع السابق، ص 158.

(2) البكري: المصدر السابق، ص 135.

(3) موسى لقبال: المرجع السابق، ص 158.

الأسود، مع ما يزيد على أربعة آلاف من الصفرية دولة، اتخذت من سجلماسة في أقصى جنوب المغرب الأقصى على حدود الصحراء دولة صفرية سنة 140هـ / 757م⁽¹⁾.

و يذكر أن المذهب الصفري تغلغل في المغرب الأقصى، حتى شواطئ الأطلس غربا عندما تزعم أشتاتا من القبائل زناتية - اشتهرت باسم برغواطة - صالح بن طريف، أحد أعوان ميسرة، ولو أنّ المذهب اختلط هنا ببقايا معتقدات أخرى، قائمة في المنطقة المعروفة بتامسنا، والممتدة على الأطلسي من الرباط إلى ما وراء الدار البيضاء، وامتدت مواطن انتشار الصفرية نحو المغرب الأوسط، عندما انتشرت بين بني يفرن الزناتيين المقيمين حول تلمسان، والذين بايعوا أميرهم أبا قرّة، إماما لهم حوالي سنة 140هـ / 757م⁽²⁾.

لقي المذهب الخارجي الثاني الإباضي، انتشارا ماثلا في سعة النطاق، لكنه كان أكثر تعمقا في الأفكار وأكثر رسوخا، حيث انتشر، وربما نتج ذلك عن حسن تنظيم دعوته وطريقته في إعداد أتباعه وأفراده. فقد لجأ شيوخ هذا المذهب للسرية، فقد نجح الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي بكر التميمي، في نشر المذهب الإباضي هناك، عندما أرسل مسلمة بن سعد الحضرمي إلى بلاد المغرب، فقد تمكن هذا الأخير، من إقناع الكثيرين من البربر في جبل نفوسة⁽³⁾، باعتماد الإباضية. كما أرسل عددا منهم إلى البصرة ليدرسوا أصول المذهب وتعاليمه على الإمام أبي عبيدة

(1) السلاوي الناصري: الاستقصا، ج1، ص 104.

(2) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 84.

(3) نفوسة جبال بالقرب من طرابلس الغرب، افتتحها عمرو بن العاص وكانوا نصارى، وبجهد الجبال مدينتان إحداهما سرور في وسط الجبل، والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفاوة. ينظر: البكري، المصدر السابق، ص 9، وياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص: 296-297.

مسلم، وقد ساهم هؤلاء بعد عودتهم إلى ديارهم في نشر المذهب الإباضي بين القبائل البربرية؛ كهوارة، وزناتة، وسدراتة، ولواته. الأمر الذي دفع دعاة الإباضية الأوائل، إلى إرسال المزيد من البعثات إلى البصرة للتفقه في أصول المذهب، وأول بعثة ضمت أربعة أشخاص: أبو درار إسماعيل ابن درار الغدامسي، وعبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدراتي، وأبو داوود القبلي النفاوي. ودعي هؤلاء حملة العلم⁽¹⁾، واستمرت مهمتهم خمس سنوات، عادوا بعدها إلى المغرب "حملةً للعلم". ثم قاموا بتدريس ما حصلوه بالمشرق في حلقاتهم، التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب، وفي تلك الحلقات تلقى الأتباع، الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق، إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات، فكانت بمثابة مدارس للعلوم النقلية والعقلية في آن واحد، ومراكز لتعريب البربر ونشر الحضارة العربية أيضاً⁽²⁾.

مع العلم أنه عُرف عن أقطاب الخوارج المشاركة، سواء منهم من قدم المغرب كي ينشر أصول المذهب، أو من نقل عنه حملة العلم المغاربة، بأنهم من مشاهير العلماء في صفوف التابعين، وقد نقلوا علمهم عن كبار الصحابة المبرزين في هذا المضمار، فجاير بن زيد، الذي تنسب إليه إمامة الإباضية، كان من كبار التابعين، ويقال أنه أدرك سبعين من أهل بدر، وأخذ أكثر ما أخذ من ابن العباس وعائشة أم المؤمنين، واعتبره العاملون في جمع الحديث الصحيح، كالبخاري ومسلم وأبي داود ثقة. وكان له مؤلف ضخيم هو (مدونته)، التي احتوت على الحديث وأقوال

(1) محسن بربر: الإباضية، المرجع السابق، ص 37.

(2) محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب منتصف القرن الرابع الهجري، رؤيا للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2020، ص 475.

الصحابة وفتواهم. أما عكرمة ناشر مذهب الصفرية في المغرب، فقد أخذ عن عبد الله بن العباس وعائشة وأبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، وروت عنه جماعة كبيرة من التابعين، منهم جابر بن زيد إمام الإباضية، واحتج بحديثه عامة الأئمة القدماء، إذ اعتبر لدى الجميع حافظ علم سيده، عبد الله بن العباس، المشهور بين الصحابة بعلمه الواسع⁽¹⁾.

وما من شك أنّ الصلة لم تنقطع بين خوارج المشرق والمغرب، فكانت فقهاء المذهب في المشرق وتصانيفهم تغد إلى المغرب بشكل دائم، فقد نسخ إباضية البصرة لعبد الوهاب ابن عبدالرحمن بن رستم، آلاف الكتب لتزويد المكتبة المعصومة بتاهرت. كما أنّ ديوان نفوسة كان يحوي ثلاثمائة وثلاثين ألف جزء من مؤلفات المشاركة⁽²⁾. كما أنّ أعلام العلم المشاركة كانوا يزورون بلاد المغرب للتدريس والإفتاء⁽³⁾.

ولا شك أنّ ذلك الإتصال الثقافي بالمشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، فظهر كثيرون من الأعلام المغاربة في شتى حقول العلم والمعرفة؛ كالمهدي النفوسي، الذي ذكر الشماخي أنه، له اليد العليا في علم الجدل (=علم الكلام)، حيث كانت له قدرة كبيرة في البرهان والإستدلال⁽⁴⁾، وأبو الحسن الأبداني، فقيه وعالم النفوسة الشهير⁽⁵⁾.

(1) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 86.

(2) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 476.

(3) أبو الربيع الوسياني: سير مشايخ المغرب، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 37.

(4) الشماخي: السير، المصدر السابق، ص 79.

(5) المصدر نفسه: ص: 81-82.

ولا شك أنّ انتشار آراء الخوارج بين البربر، أحدث ثورة فكرية في بلاد المغرب، وساعد على التنافس الفكري بين الخوارج، وبين غيرهم من أتباع المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى، التي وفدت إلى بلاد المغرب. وأهم المجالات الفكرية التي جرت في هذا الصدد كانت مع السنة المالكية والمعتزلة، ثم مع الشيعة الفاطميين⁽¹⁾.

ولعله من المفيد التذكير، أنّ إفريقية سادها مذهب مالك، إلا أنّ مذهب الخوارج تسرب إليها بشقيه؛ الصفري والإباضي، وكانت حلقات المذهب تعقد في مساجد إفريقية يسودها النقاش الحر بينهم وبين مخالفيهم، إلى أن جاء الإمام سحنون التنوخي، الذي قام - حسب الدباغ - بتفريق أهل البدع من الجامع، وكانوا فيه حلقة من الصفرية والإباضية، وأدّب جماعة منهم لمخالفتهم أمره وأطافهم، وأمرهم أن لا يجلسوا في حلقة⁽²⁾.

وعلى خلاف ذلك، حظي المالكية في دول الخوارج بتسامح إلى أبعد الحدود، حيث كانت لهم الحرية التامة في ممارسة شعائرهم في ساحة مساجد تاهرت، ماعدا المسجد الجامع⁽³⁾.

(1) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 477.

(2) الدباغ: المصدر السابق، ص: 87-88.

(3) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 478.

وإذا صدّقنا رواية البكري، فإن تاهرت كانت تضم في روابضها جماعات من الواصلية⁽¹⁾، بلغ عددها الثلاثين ألف⁽²⁾، وعلى الرغم مما قاموا به من دور معادٍ لأئمة بني رستم، وتمردهم في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فقد حظوا بتسامح ديني إلى أبعد الحدود. وحسبنا ما كان يحدث بين شيوخهم وزعماء الإباضية من محاورات على غرار ما كان يحدث بالمشرق بين زعيمهم واصل بن عطاء وبين أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة شيخ إباضية المشرق⁽³⁾. وتفيدنا مصادر الإباضية بالمساجلات التي كانت تدور بين متكلمي المعتزلة ونظرائهم من الإباضية في تاهرت، وكيف أنّ المعتزلة أفحموا الإمام عبد الوهاب ذاته في نقاشاتهم، فلم يجد عبد الوهاب من وسيلة لردّ محاجاتهم في كثير من المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع، إلا الاستعانة بمشايخ في جبل نفوسة⁽⁴⁾. وكانت المعارك الجدلية بين الإباضية والمعتزلة لا تفتقر أبداً، ومع ذلك نعم المعتزلة في العصر الرستمي الأخير بتسامح كبير، فكانوا يلتقون في مناظرات ومساجلات

(1) الواصلية طائفة من المعتزلة، تنسب إلى واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري، واعتزلهم يدور على أربعة قواعد: القول بنفي صفات الله تعالى، القول بالقدر، القول بالمنزلة بين المنزلتين، القول في الفريقيين من أصحاب الجمل، وأصحاب صفين، أنّ أحدهما مخطئ لا بعينه. ينظر: الشهرستاني، المصدر السابق، ص 46 وما بعدها، وأبو القاسم البلجي: فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1986، ص 64 وما بعدها.

(2) البكري: المصدر السابق، ص 67.

(3) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 480.

(4) أرسلت نفوسة خيرة علمائها مجادلة المعتزلة أبرزهم محمد بن يانس، وأبو الحسن الأبلاني. ينظر: الشماخي، المصدر السابق، ص 62.

مشهورة مع مشايخ الإباضية على نهر "مينة" خارج تاهرت، وكان قطب الإباضية المدافع عن مذهبهم، ويدعى عبد الله بن اللمطي، له معهم مواقف مشهودة⁽¹⁾.

و في هذا المجال يُقدم لنا النفوسي، نصا غاية في الأهمية، يدعم فكرة انتشار المحاورات والنقاشات بين أعلام المذاهب والفرق: "كثرت الأقوال وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل، وفتت المناقشة في المسائل الخلافية، وأهمها مسألة الإمامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها ويدّعي أنه أولى وأحقّ بها، ويقيم على ذلك الحجج ويرتب الأدلة"⁽²⁾.

وكان أئمة الخوارج يُقدرون العلم والعلماء، فقد عُرف عن حكام سجلماسة، حب العلم والرغبة في طلبه وتحصيله، كما كان البيت الرستمي، بيتا للعلوم، جامعا لفنونها من علوم التفسير والحديث، وعلم اللسان، وعلم النجوم، والأصول والفروع، والفرائض. و يذكر أن عبد الرحمن ابن رستم بويع بالإمامة لعلمه وخصاله⁽³⁾.

وإلى الخوارج، يرجع الفضل في وضع البذور الأولى لنشر الإسلام في بلاد السودان الواقعة جنوبي الصحراء، ذلك أنّ أبا القاسم سمكو بن واسول، أمير سجلماسة، قام بنشر الإسلام على المذهب الصنفي بين الجماعات السودانية التي كانت تعمل في نقل التجارة عبر الصحراء، ومعروف أنّ كثيرين منهم آثروا الاستقرار بسجلماسة بعد إسلامهم، وبفضل بني مدرار انتشر

(1) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 481.

(2) الباروني النفوسي: كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم الثاني، مطبعة الأزهار البارونية، الجزائر، [ب.ت.]، ص: 115-116.

(3) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص: 483-484.

الإسلام بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة و متونة، التي كانت تضرب بنواحي سجلماسة، على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة⁽¹⁾.

ومن الأهمية بمكان الإشارة، إلى أنّ النمط العمراني والزخارف المنحوتة على البنايات كانت تُمثل مظهرها من مظاهر التمازج لأنماط العمران المشرقي مع النمط المغربي المحلي، فحفريات حديثة في مقر تاهرت وصلت لإكتشاف قلعة على سهل مستطيل كان يسيطر على المدينة، وهذا المبنى ذو المدخل الوحيد والفناء الأوسط الكبير المحاط بالحجرات المترتبة على السور، يذكرنا بالقصور السورية للعهد الأموي. كما أن عدم وجود أي زخرفة يرجع للطابع العسكري للمبنى، أو بالأحرى للتقشف الذي يجهر به الأئمة الإباضيون. كما أنّ الكثير من الابنية في تاهرت كانت ذات مؤثرات عراقية⁽²⁾.

الدعوة الفاطمية:

كان لقيام الدولة العبديّة بإفريقية أثره الواضح على الاتجاه الثقافي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إذ أنه رغم تعاطف أهل المغرب مع آل بيت الرسول (ص)، ومع علي رضي الله عنه وبنائه، لِمَا لحق بهم من مآسي تبلورت في التأييد الواضح لقيام الدولة الإدريسية منذ عام 172هـ/787م⁽³⁾. ولكن المذهب الشيعي قد دخل بلاد المغرب قبل

(1) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 485.

(2) جورج مارسي: المرجع السابق، ص: 133-134.

(3) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 201.

قيام دولة الأدارسة⁽¹⁾ بزمن قصير، فالقاضي النعمان، يشير إلى أنّ رجلين أحدهما يدعى أبا سفيان، والآخر يُعرف بالحلواني، أرسلوا إلى بلاد المغرب من قبل الإمام جعفر الصادق (83-148هـ/702-765م)، وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشر فضلهم، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر، ثم يفترقان فينزل كل واحد منهما ناحية⁽²⁾، فلما وصلا إلى مرجانة، على نحو ثلاث مراحل من القيروان، نزل أحدهما بـ "تالة"، التي تقع على بعد 45 ميلا شرق الحدود الجزائرية، واستطاع بمسلكه وعمله نشر مذهبه في "مرجانة" و "الأريس". واستفاد أيضا من وضع المدينة كمركز للتبادل التجاري، لنشر مذهبه في نقطة في الجريد، عن طريق جماعة كان أفرادها يُسوقون التمر إلى تلك المدينة ويشترون القمح، أما الثاني فعمل في منطقة الأوراس، إذ نزل في موضع الناضور، على مقربة من بجاية، ونشر مذهبه في صفوف قبائل كتامة، ومعلها جبل إيكجان، على مقربة من سطيف وغيرها من القبائل البربرية الأخرى⁽³⁾.

(1) إنّ تطور حكم الأدارسة في بلاد المغرب يكشف لنا أنّ دولتهم لم تكن شيعية بالمعنى الفكري العقائدي وإنما كانوا رجالا يرومون الحكم والسلطة، وأكبر دليل على ذلك أنهم لم ينشروا المذهب الشيعي بين البربر المغاربة، وكان بإمكانهم فعل ذلك.

(2) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الطبعة الثانية، 1986، ص: 26-27.

(3) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 87.

زحف عبد الله على سجلماسة، وأطلق سراح قائده وعاد به في عام 297هـ/910م إلى رقادة عاصمة الأغالبة المهزومة⁽¹⁾.

ولقد كانت عودة مظفّرة، إذ دخل الإمام عبيد الله مدينة رقادة في موكب بهيج وتلقّب رسمياً بلقب المهدي، وتسمّى باسم أمير المؤمنين، وكان انتصاب المهدي بعاصمة الأغالبة إيذاناً بانتصار الشيعة، وخاصة قبيلة كتامة، فمنها تكوّن جيش الداعي وبفضل ابنائها غزا الفاطميون المغرب ومصر⁽²⁾.

وبظهور الدولة العبيدية، انقرضت إمارة بني مدرا من سجلماسة، بعد أن استقامت مائتين وستين سنة، وانقرضت أيضا إمارة بني رستم من تاهرت بعد أن دامت مائة و ثلاثين سنة، وسقطت دولة بني الأغلب، بعد أن حكمت مئة وعشرة سنين، وسقطت أيضا دولة الأدارسة على يد العبيديين سنة 305هـ/918م⁽³⁾.

وإذا كان العبيديون قد استطاعوا سياسيا أن يقيموا دولة في بلاد المغرب، فإن مذهبهم، الذي أرادوا فرضه بالقوة تارة، وبالترغيب تارة أخرى قد لقي معارضة كبيرة من جانب علماء مذهب مالك⁽⁴⁾.

(1) محمد عبد الحي محمد شعبان: الدولة العباسية: الفاطميون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص 226.

(2) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 74.

(3) عبد العزيز الثعالبي: المرجع السابق، ص: 323-324.

(4) بشير رمشان التليسي: المرجع السابق، ص 202.

لكن السؤال الذي يطرح هو: لماذا تلقى مذهب العبيديين تلك المعارضة الشرسة من قبل

فقهاء المذهب المالكي؟

والإجابة على ذلك تتطلب دراسة المذهب الإسماعيلي، وما يذهب إليه العبيديون من اعتقادات تتضمن الاعتقاد القائم على أحقية آل بيت الرسول (ص)، من علي وفاطمة رضي الله عنهما بزعامة المسلمين. أضف إلى ذلك، أنّ عبيد الله المهدي - الذي ظهر بعد استتار- رأى منذ البداية أن يقرر في أذهان رعيته - على ما تقول المصادر السنية- كثيرا من مبادئ الإسماعيلية المتطرفة، فأظهر التشيع ونشر أمورا تخالف في أحيان كثيرة قواعد الإسلام⁽¹⁾.

نقدم نصّا لابن حماد، حول الممارسات التي أحدثها العبيديون، وسببت حنقا لفقهاء المالكية: "وكان من جملة ما أخذت عبيد الله، أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من آذان صلاة الصبح "الصلاة خير من النوم" وزاد "حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر" مرتين، لا إله إلا الله مرة، ثم يقول المؤذن: أحيك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين، وجامع شمل الإسلام والمسلمين، وأعز بسلطانك جانب الموحدين، وأباد بسيوفك كافة الملحدين، وصلى عليك وعلى آبائك الطاهرين، وابنائك الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"⁽²⁾.

(1) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 202.

(2) أبو عبد الله محمد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 27.

وقد حاول العبيديون نشر مذهبهم بالقوة بين الناس، ويقدم لنا المقرئزي - وهو شيعي المذهب - نصاً يؤكد ذلك: "أحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حبس، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس وهم قليل، وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم"⁽¹⁾.

غير أنّ الكثير من المصادر الإسماعيلية، تؤكد غير ما ذهبت إليه بعض مصادر السنة وبعض الإسماعيلية، فالداعي إدريس، يشير أنّ المهدي العبيدي لما فتح القيروان سنة 297هـ/910م، "واصل الجلوس للناس، وأزال المظالم، وأقام من الشريعة الغراء المعالم، وأمر بإقامة الحدود، وأظهر تحريم الخمر، وسائر جميع المحرمات"⁽²⁾. ولما استقر أبو عبد الله الشيعي برقادة نادی فيها - حسب القاضي النعمان - "بالأمان وبطلب أهل الدعارة والفساد فأنكاهم عقوبة، فسكنت الدهماء، وأمنت السبل، ومشت السيارة، وخاف أهل الأذى والدعارة.. وأمر بقطع شرب الخمر، وكل ما ظهر من المنكر، ونشر العدل وأذاعه، واستوت الأمور واعتدلت، واشتدت المملكة وقويت"⁽³⁾.

(1) المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، حققه: جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1367هـ/1948م، ص 92.

(2) الداعي إدريس: المصدر السابق، ص 112.

(3) القاضي النعمان: المصدر السابق، ص: 246-247.

ولو أخذنا بما كتبه الإسماعيلية في عيد الله المهدي، لكان كثير مما وُصف به السنّيون المذهب الإسماعيلي غير صحيح، ولكن ينبغي أن نعي أنّ كتب الإسماعيلية مثل (المجالس والمسائرات)، و(دعائم الإسلام) للقاضي النعمان بن حيّون المغربي، أو غيرها من الكتب التي دّونت بعد ذلك، مثل كتب الداعي إدريس، التي استخدمها الإسماعيلية للردّ بها على أهل السنة، تتفق إلى حد كبير مع مذهب أهل السنة، على عكس كتب الباطن، التي توضح حقيقة المذهب الإسماعيلي، والتي كانت تطبيقاً فعلياً في إفريقية مما دعا المالكية بها إلى الوقوف في وجه العبيديين ومناصرة الثورات التي قامت ضدهم⁽¹⁾.

كما لا يمكن الحديث عن موقف علماء القيروان، دون ربطه بموقف علماء المذهب المالكي، هذا المذهب الذي ترعرع في القيروان، وبرز من صلب أتباعه شيوخ سطع نجمهم في المشرق والمغرب، لعل أشهرهم سحنون، وابنه محمد. ومعلوم أنّ المذهب المالكي كان يدين أي شكل من أشكال التمرد على السلطة حتى ولو جارت، فقد كان سحنون يقول ويدعو إلى عدم جواز حمل السلاح على الإمام ولو كان جائراً. ومن هنا يأتي التعارض بين الفاطميين وعلماء القيروان، فالفاطميون غاصبون للسلطة والعلماء هم حراس المذهب وأسس الشرعية السياسية. وعليه؛ فإن أي موقف يصبغ الشرعية على الفاطميين، يعتبر خروجاً عن المذهب، إن لم يكن

(1) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 205.

مروقا عن الدين، وقد نظر علماء القيروان إلى كل من اقترب من الفاطميين أو انحرف في خدمتهم⁽¹⁾، نظرة استهجان وإنكار وكانت العبارة الشائعة في النصوص هي عبارة "التشريق"⁽²⁾.

ولم يكتف أتباع مذهب مالك بذلك، ولكنهم ظلوا طيلة وجود العبيديين ببلاد المغرب، يرفعون راية العصيان للعبيديين، وتحملوا خلال ذلك كثيرا من أصناف التعذيب والقتل. فقد استمر علماء مذهب مالك في التصدي للعبيديين جيلا بعد جيل، حتى خروجهم إلى مصر عام 361هـ/971م، وانتصار المذهب المالكي آخر الأمر في عهد الدولة الزييرية، وبخاصة في عهد المعز ابن باديس، الذي نكب في عهده أتباع الشيعة، عام 406هـ/1002م⁽³⁾.

لكن يجدر التنويه، إلى أن دخول المذهب الشيعي قد أفرز ظاهرة واتجاها مذهبيا وثقافيا جديدا زادته تلك المناظرات التي جرت بين المالكية والشيعة رسوخا، وقد حفلت كتب التراجم بتلك المناظرات⁽⁴⁾.

(1) تقدم لنا المصادر بعض فقهاء القيروان الذين اعتنقوا المذهب الشيعي أو التشريق، إما خوفا على حياتهم، أو طمعا في تحسين أوضاعهم المادية والمعيشية، كعلي بن منصور الصفار وعبد الملك بن محمد الضبي. ينظر: الخشني أبو عبد الله محمد بن الحارث: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، نشره وصححه: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1415هـ/1994م، ص: 283-284.

(2) الطاهر المنصوري: علماء القيروان أمام المذهب الفاطمي في كتاب: الصراع المذهبي ببلاد المغرب، تنسيق: حسن حافظي علوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1429هـ/2008م، ص: 51-52.

(3) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 206.

(4) يورد الخشني جانبا من تلك المناظرات والسجلات الفكرية، منها مناظرة أبي عثمان سعيد بن محمد بن الحداد الذي كان الكلام والجدل والمناظرة بابه، دخل في مناقشات عدة مع متكلمين شيعة. ينظر: الخشني، المصدر السابق، ص 257 وما بعدها.

الفقه والحديث:

من المعروف أنّ فترة القرن الثاني الهجري في المشرق، هي فترة جمع الحديث، التي بدأت بقوة في أوله، وقد اشتهر من المجموعات جامعا سفيان الثوري، المتوفى سنة 165هـ/ 782م، ومنها (الجامع الكبير) الذي أدخله أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المقيم في حصن على البحر بناحية سفاقس، وكان مشاهير الفقهاء يقصدون هذين الإثنين لسماع جامعي سفيان عليهما. أما في الفقه فقد برز في هذه الفترة مذهب مالك بن أنس في المدينة وأبي حنيفة النعمان في العراق، هذا عدا مذاهب متعددة ظهرت آنذاك وبلغت حوالي ثلاثة عشر مذهباً، ومع ذلك كان العديد من الفقهاء لا يتقيدون بأبي واحد منها⁽¹⁾.

و على الرغم من العدد الكبير للمذاهب الفقهية في بلاد المشرق، إلا أنّ الفقهاء المغاربة اشتهر فيهم الأخذ عن مالك بن أنس في الفقه، ويفيدنا القاضي العياض أن اثنا عشر من طلاب العلم من المغرب والأندلس أخذوا عن مالك⁽²⁾.

(1) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 89-90.

(2) من أهل القيروان: البهلول بن راشد، وعلي بن زياد، وأبو مسعود بن أشرس، وعبد الله بن خروج، وأبو مجرز القاضي محمد ابن عبد الله، وعبد الله بن أبي حيان اليحصبي، وعبد الله بن غانم القاضي. ومن الأندلس: محمد بن يحيى السبائي، وحفص بن عبد السلام السرقسطي، وزياد بن عبد الرحمن بن محمد، وسعيد ابن عبدوس، وسعد بن أبي هند. ينظر: القاضي عياض، المصدر السابق، ج 1، ص 144، و

Ahmed Bekir: histoire de l'école malikite en orient jusqu'à la fin du moyen âge, imprimerie de l'UGTT, Tunis, 1962, P: 77

وهؤلاء كلهم تتلمذوا لمالك، وأخذوا عنه مباشرة، فلمّا عادوا إلى القيروان بثوا علمهم بين الناس، وما يزال المذهب يتسع وينتشر إلى أن جاء سحنون، فغلب في أيامه، وفضّ الحلقات التي كان يعقدها أهل المذاهب الأخرى⁽¹⁾.

واستقر المذهب بعده في أتباعه، فشاع في تلك الربوع، وهؤلاء وإن كانوا كلهم عملوا على نشر المذهب المالكي في تونس خاصة، إلا أنّ علي بن زياد كان أسبقهم وأكثر من غيره، حتى يقال إنّ الفضل في نشر المذهب المالكي في تونس يعود إليه بالدرجة الأولى⁽²⁾، فقد كان أول من أدخل (موطأ مالك) وفسّر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه، وأصبح معلما لعدد من مشاهير فقهاء المغرب، ومع ذلك فإنه لم يدخل (الموطأ) وحده، وإنما درّس أيضا (جامع سفيان الثوري). أما "ابن فروخ"، الذي تولى القضاء في القيروان ولقي مالكا، وبصحبه اشتهر، وبه تفقه، فقد أخذ من ناحية أخرى عن أبي حنيفة، واشتهرت مناقشته لتلميذ أبي حنيفة زفر بن الهذيل، القياس المشهور، وقد دوّن عن أبي حنيفة عشرة آلاف مسألة، لذلك كان يحكم بما يراه صوابا سواء من أقوال مالك أو من أقوال أهل العراق. أما ابن غانم قاضي إفريقية⁽³⁾، فقد أخذ عن مالك، وعليه اعتماده، ومن سفيان الثوري، وكذلك من أبي يوسف صاحب أبي حنيفة. وكان في تدرّسه يخصّص يوما لكتب أبي حنيفة، وعندما تُعرض له قضايا جديدة يكتب مالك من جهة ولأبي

(1) عمر الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، [ب.ت.]، ص 22.

(2) — عمر الجيدي: المرجع نفسه، ص 23.

(3) — عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ولي قضاء القيروان بعد مانع بن عبد الرحمن، ولّاه روح بن حاتم سنة (171هـ/787-788م)، وهو يومها ابن (42) سنة، ومات سنة 190هـ/806م. ينظر: الخشني، المصدر السابق، ص 304.

يوسف من جهة أخرى. وقام البهلول بن راشد، المتوفى في سنة 183هـ/799م بتأليف كتاب في الفقه على مذهب مالك، ومع ذلك كان في أحكامه يميل أحيانا إلى رأي الثوري⁽¹⁾.

بعد ذلك جاء أسد بن الفرات⁽²⁾، ليوازن في الإعتدال على الإمامين ويحمل رأيهما في كل قضية. أخذ (الموطأ)⁽³⁾ عن مالك، وحمله إلى العراق حيث رواه عنه أحد كبار تلامذة أبي حنيفة، وقد لقي اثنين منهما، وهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن، وارتبط بصدقة مع هذا الأخير، ثم حمل مسائل جماعة أبي حنيفة، وعرضها على ابن القاسم، تلميذ مالك بمصر، فأجابته هذا بالحكم فيها، إما نقلا ثابتا عن مالك، وإما ما يضمن أنه سمعه عنه، أو ما يعتقد أنه حكمه في قضية مشابهة. وما لم يجد له أصلا عند مالك، قال به باجتهاده على أصل قول مالك⁽⁴⁾.

سجّل أسد بن الفرات، كل هذا في ستين كتابا سميت (الأسدية)، فعلا مقامه بها واشتهرت في المغرب، لكن المالكية حطت خطوة إلى الأمام، بتدوين أحكام أئمتها في كتاب خاص على يد سحنون بن سعيد، الذي حمل (الأسدية) لابن القاسم في مصر، فأسقط منها ما شك فيه، وهذبها سحنون وبوّها وألحق فيها ما اختار ذكره مما اختلف عليه كبار أصحاب مالك

(1) - أحمد بدر: المرجع السابق، ص 90.

(2) أسد بن الفرات ذو الأصل الشامي من حران، ولد سنة 145هـ/762م، توفى في حصار سرقوسة من غزوة صقلية، وهو أمير الجيش وقاضيه سنة (213هـ/828م). ينظر: ابن فرحون، المصدر السابق، ص: 161-162.

(3) الموطأ: للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة المتوفى سنة 179هـ/795م، وهو كتاب مفيد قدم قصد فيه جمع الصحيح، شرحه أبو محمد عبد الله بن محمد النحوي البطليوسي المتوفى سنة 521هـ/1127م، وأبو موران عبد الملك بن حبيب المالكي المتوفى سنة 239هـ/853م، والشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي وسماه (كشف المغطاء في شرح الموطأ)، وله (تنوير الخوالم على موطأ الإمام مالك)، وشرح الموطأ المحدث محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقاني المصري المتوفى، سنة 1122هـ/1710م. ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2، ص 724.

(4) ابن خلدون: المصدر السابق، ص: 161-162، وأحمد بدر: المرجع السابق، ص 90.

فدعيت (المدونة)، وتسمى (المختلطة)، فالمدونة الموجودة بين أيدينا هي ثمرة مجهود ثلاثة من الأئمة: مالك بإجاباته، وابن القاسم بقياساته وزياداته، وسحنون بتنسيقه وتهذيبه وتبويبه وبعض إضافاته، ذلك أنها أساسا سماعات ابن القاسم من مالك، أجاب بها عن أسئلة سحنون لما قدم إليه من تونس طلبا للعلم. فكان ابن القاسم إذا وجد في المسألة المسؤول عنها قولاً لمالك، أجاب طبق ما سمعه منه، وإلا قاس على أصله، وأحيانا كثيرة يستعمل في الجواب فكرة، ويجتهد رأيه، وإن خالف أصول مذهب إمامه، إن تبين له وجه الدليل، كما أنّ سحنونا لم يكتف فقط بالجمع والتنسيق، بل أضاف إلى ذلك إضافات من (الموطأ)، ومن سماعات شيوخه، وما اختاره لنفسه⁽¹⁾.

وهكذا بات الإمام سحنون، مرجعا كبيرا في المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي، يؤكد لنا هذه الحقيقة صاحب كتاب (شجرة النور الزكية)، نقلا عن القاضي عياض " انتهت إليه الرئاسة في العلم، وعليه المعول في المشكلات، وإليه الرحلة، ومدونته عليها الاعتماد في المذهب"⁽²⁾.

ويلاحظ عموما، أنّ الفقهاء المغاربة ظلوا في حالة تبعية للفقهاء المشاركة، ولو أنهم أبقوا باب الاختيار منهم مفتوحا ليأخذوا من كل قضية ما يعتقدون صحته وملاءمته، ونجد عديدا من الأمثلة على هذين الوجهين للرابطة التي ربطت الفقهاء المغاربة بأساتذتهم المشاركة. وقد بالغ بعضهم في تقليد هؤلاء المشاركة إلى حد جعل السلوك حتى في الدقائق، تقليدا للأئمة في المشرق،

(1) عمر الجيدي: المرجع السابق، ص 177.

(2) ابن مخلوف: شجرة النور الزكية، ج 1، المصدر السابق، ص 151.

حتى أنّ البهلول بن راشد ذاته، وضع مرّة خيطا في خنصره كي يذكر شيئا، ثم خشي أن يكون ابتدع بدعة. ولما أخبره بعض أصحابه أنّ عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك قال: الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الإسلام. ومع اتباعهم للأحكام الجاهزة التي يستخرجها الأئمة المشاركة من الأصول، إلا أنهم يحاولون عند التطبيق مراعاة الظروف المحلية والحكم على الأشياء في ضوء المبدأ العام. كما هو الحال في قضية "الأشربة"، التي عرضها أسد بن الفرات في كتابه الأشربة وفيه حكم بجواز شرب المنصف، أي عصير العنب الذي يغلى حتى يذهب نصفه ويبقى النصف الآخر، لكنه رأى أنّ الحكم يتعلق بعنب خراسان وهو حسب قوله: "كثير العسل قليل الماء فهو ينعقد على النصف، وأما غيره فلا يجوز حتى ينعقد وإن بلغ الثلثين". قال: ولقد اخترنا عنينا بمجردة (= وادي)، فوجدناه لا ينعقد إلا على الثلاثة أرباع لأنه قليل العسل كثير الماء، ولا يحل قبل انعقاده، وكذلك قال أهل العلم، إذا انعقد قبل أن يبلغ الثلثين حل، لأن الحكم فيه انعقاده، ولا يشرب الطلا حتى يصير أصفر كعسل النحل"⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي، أن تأخذ العلوم المختلفة في التبلور في بلاد المغرب الإسلامي، خاصة وإنّ إقبال المغاربة على النهل من العلوم والمعارف كان كبيرا. كما أنّ رجال الحكم قلّدوا الخلفاء في المشرق في الاهتمام بالعلوم وتشجيع العلماء، ونسجل في هذا الجانب إقدام الأغالبة على خطوة علمية هامة سنة 264هـ/878م، تمثلت في إقامة أشهر مكتبة ومؤسسة للبحث هي بيت الحكمة بالرقادة، الذي جعل منها نموذجا مصغرا لبيت الحكمة العباسي الذي أنشأه المأمون

(1) أحمد بدر: المرجع السابق، ص 91.

بيغداد. وقد ضمت مؤلفات في العلوم الفلسفية والرياضية، فضلا عن العلوم الدينية والإنسانية، وقد اضطلع بيت الحكمة بجهود في ترجمة بعض المؤلفات اللاتينية، بما في ذلك كتاب *(Pilinum)* في علم النبات، وعندما حرّب العبيديون رقادة، نقلوا كتبها إلى المهديّة، فلما انتقل المعز إلى مصر، حملت الكتب إلى القاهرة. ومن ترددوا على بيت الحكمة للبحث وتوجيه الطلاب، الطبيب الفيلسوف اسحاق بن عمران. وتلميذه أبو بكر، محمد بن الحرار، وإبراهيم أخو أبي بكر هذا، والفضل ابن علي بن المظفر، وهو طبيب وأديب⁽¹⁾. مع العلم أنّ الرستميّين كانوا في تاهرت - قبل الأغالبة- قد أنشؤوا أول مكتبة عامة في بلاد المغرب الإسلامي قاطبة، أطلقوا عليها "المعصومة"، في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستمي (179-208هـ/787-823م).

واستمر تأثير المشرق على المغرب في حقل العلم والثقافة تباعا، ففي ميدان علم القراءات كان تأثير أبي الحسن بن محمد الأنطاكي، المتوفى سنة 377هـ/987م كبيرا، فعندما نزل الأندلس أصبح مقرئها ومسندها، وصنّف قراءة ورش التي ستصبح القراءة المعتمدة في الغرب الإسلامي بأكمله، واستطاع هذا النابغة أن يكون فريقا من القراء في تلك البلاد؛ منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ، وإبراهيم بن مبشر، وطائفة أخرى من قراء الأندلس. ويورد لنا المقري نقلا عن

⁽¹⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج1، ص 62.

ابن الفرضي⁽¹⁾، أن الأنطاكي، أدخل بلاد المغرب علما جما، وكان بصيرا بالعربية والحساب وله حظّ من الفقه، كان رأسا في القراءات لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته⁽²⁾.

وفي ميدان الموسيقى، يرد ذكر زرياب أبي الحسن على بن نافع، المتوفى حوالي سنة 238هـ/852م، الذي وصل إلى بلاد المغرب، وانتقل بعدها إلى الأندلس استجابة لدعوة تلقاها من البلاط الأموي في قرطبة. تفيدنا الرواية التي يقدمها المقري أنّ زرياب، أدخل التراث الموسيقي إلى الأندلس - الذي سينتشر في الحواضر المغاربية الأخرى - ونشره بطريقة تؤكد الندية التي كانت قائمة وقتذاك بين قرطبة وبغداد في الحقل الثقافي والعلمي، بأن زاد في أوتار العود وترا خامسا اختراعا منه، إذ لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع، فزاد عليها وترا خامسا أحمر متوسط، فاكتمل به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة⁽³⁾.

لكن من المناسب الإشارة، إلى أنّ الدراسات التاريخية المتأخرة حول الموسيقى الأندلسية وتأثير زرياب فيها تضع استفهاما حول ما كان لذلك التجديد من فائدة علمية، لأن الوتر قد أضيف في الوسط، وحيث أنه لم يرد ذكر لأي تغيير في التوافق اللحني ليناسب هذا الوتر الدخيل، يغدو من الصعب أن نرى كيف ساعد ذلك في تقوية الكفاءة اللحنية للآلة، لكن الذي

(1) أبو الوليد بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الأندلسي، المولود سنة 351هـ/962م، المعروف بابن الفرضي، كان فقيها عالما في فنون من العلم كالحديث، وعلم الرجال، والأدب. وله من التصانيف (تاريخ علماء الأندلس)، وكتاب (المؤتلف والمختلف)، وكتاب في أخبار شعراء الأندلس، وغير ذلك، توفي مقتولا بقرطبة سنة 403هـ/1012م. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص: 105-106.

(2) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م، ص 144.

(3) المصدر نفسه: ص 125-126.

يُشار إليه هنا، هو لون هذا الوتر (الأحمر)، الذي يرمز إلى النفس. وفي هذا تطوير لإدخال الموسيقى في نظام الكون، وهو ما كان الكندي⁽¹⁾ في المشرق يتوسع فيه في الحقبة نفسها، ويعبر عنه بالإشارة إلى أوتار العود الأربعة، التي يرتبط بها مختلف أنواع القواعد الرباعية. وهكذا يكون للوتر الخامس مضمون فكري رمزي صرف يكمل ما يعادله من رموز الألوان في نظرية الأمزجة الأربعة في الكيان البشري، التي تناظرها أوتار العود الأربعة⁽²⁾.

لكن ينبغي التنويه أنّ التجديد الموسيقي الذي أدخله زرياب - ومن بعده تلامذته - ساهم في إثراء الألحان بالأندلس⁽³⁾. وحسب رواية ابن خلدون، فإن تأثير مدرسة زرياب في الأندلس، انتقل تأثيرها إلى بلاد العدو بإفريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها⁽⁴⁾.

و من العوامل التي كان لها أثر في تطور هذا الفن، تتمثل في عناية الأندلسيين بالموسيقى، و برز عدد من العلماء فيها تأليفا و صناعة، و تتمثل هذه الظاهرة في انتشار المؤلفات المشرقية بالأندلس "كرسائل الكندي"، و كتاب "الموسيقى الكبير"، و "إحصاء العلوم" للفارابي، و "الشفاء" و "النجاة" لابن سينا، و "رسائل إخوان الصفا، و "مفاتيح العلوم" للخوارزمي،

(1) الكندي المتوفى حوالي سنة 22هـ/840م، ينسب إليه أكثر من مبحثا في الفيزياء والطقس والمد والجزر والبصريات والصوت والموسيقى، فقد كتب في المطر والضباب والرياح أسبابها واتجاهاتها، واختلاف سرعة الضوء عن سرعة الصوت. وقد وصل في كل ذلك إلى آراء خالف فيها أرسطو. ينظر: عبد الرحمن مرجبا: المرجع السابق، ص 336.

(2) أوين رايت: الموسيقى في الأندلس (دراسة شاملة)، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، في سلمى الخضراء الجيوشي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، المرجع السابق، ص 808.

(3) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السادسة، 1981، ص 223.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ص 428.

و "الكافي" في الموسيقى للحسين بن زبلة (ت 440هـ/1048م)⁽¹⁾، و من ضمن العوامل أيضا التي ساهمت في تطور فن الموسيقى و الغناء بالأندلس هو انتشار الجوازي المغنيات، سواء منهن الأندلسيات أو الوافدات إلى الأندلس من المشرق⁽²⁾.

كما شهد القرنان السادس والسابع، في ظل الحكم الموحدية خاصة، قدوم عدد من المفكرين المشاركة، إما بكيفية حرة، أو في مهمات دبلوماسية، أو لأغراض ثقافية أو مجرد الرغبة في الحصول على هبات سخية من عواهل الموحدين، الذين كانوا يعتبرون نظامهم خلافة شرعية، وعليها التزامات معنوية وسياسية تجاه العالم الإسلامي. وفي كل حال، فإن الفتوح وعوائد تجارة الذهب والرقيق، درت عليهم أموالا دافقة، ظهر أثرها في بناءاتهم وفي التشجيعات المالية التي استفاد منها المشاركة الوافدون، الذين قصدوا البلاط الموحدية، كما وجدوا التشجيع في أوساط المثقفين في عموم بلاد المغرب⁽³⁾.

ومن بين الوافدين:

- إبراهيم بن خلف بن منصور الدمشقي، ويُعرف بالسنهوري، وسنهو من ديار مصر. كان من العلماء المحدثين، قدم إشبيلية سنة 603هـ/1206م، وقبلها بسنة، زار تونس، ثم توجه إلى

⁽¹⁾ فائزة البوكيلي : الحياة العلمية في الأندلس في العصر المرابطي، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، مخطوطة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية 'جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف محمد المغراوي، السنة الجامعية 2004-2005م. ص 379.

⁽²⁾ المرجع نفسه: ص 380.

⁽³⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج 1، ص: 147-148.

المغرب، وأجاز عددا من الدارسين، سَمَّى كتاب (الموطأ) وصحيح مسلم والبخاري من جملة أسانيده⁽¹⁾.

- تقي الدين الموصللي الصوفي، أورد الغبريني، أنه من أساطين الحكمة، وتوصل إلى ما يتوصل إليه أهل البراهين من خالص الصواب، كانت رحلته إلى صقلية، نظَّم في مجالس ملوكها مناظرات في علم الأديان، أقام الحجة عليها، مما اضطرهم إلى صرفه بأدب خشية أن يفسد ملَّتهم⁽²⁾.

- أبو العباس الجدلي، من أهل أصبهان، رحَّالة عالم، وصل إلى الهند والصين ومناطق آسيوية أخرى، تنقل بين بجاية ومدن مغربية مثل سبتة، كان عالما بارعا في أصول الدين⁽³⁾.

- كما قدم إلى بلاد المغرب، المحدث أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن إسحاق ابن إبراهيم بن غياث التميمي البخاري⁽⁴⁾، المولود سنة 382هـ/992م، دخل إفريقية وصحب الزاهد المشهور محرز بن خلف التميمي المتوفي سنة 413هـ/1022م، ودخل الأندلس وبلاد المغرب، وكتب بها عن شيوخها، وله (رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها). وذكر المقرئ، أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة، توفي عام 471هـ/1078م⁽⁵⁾.

(1) ابن الأبار: التكملة، ج1، المصدر السابق، ص 125.

(2) الغبريني: المصدر السابق، ص 166.

(3) الغبريني، المصدر نفسه: ص 168، إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ج1، ص 148.

(4) هو غير الإمام البخاري محمد بن الحسن، المحدث المشهور، صاحب (الصحيح في الحديث).

(5) المقرئ: نفع الطيب، ج3، ص: 62-63.

أما الأدب، الذي بدأ بالشعر والقصص من أصله، وهذا هو ما حدث بالمغرب الإسلامي. فالأدباء الأوّلون هم من الشعراء الوافدين خلال الفتوح، ومن بين عدد من المثقفين، وُلّاة وغيرهم ممن حلّوا بإفريقية. وأصول الثقافة العربية الأولى بدأت بإفريقية قبل أن تتعمّ المغرب⁽¹⁾. فخلال القرن الثاني الهجري مثلاً، انتقل إلى القيروان في هذا المجال من المشرق، الشعر ومجموعاته. فقد قام أمان بن الصمصامة بن الطرماح بن حكيم، الشاعر والعالم باللغة، بنقل أشعار جدّه التي كان يحفظها، ومثله عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي، وكان نحوياً أيضاً حافظاً للشعر، فنقله مع تراث العائلة من جدها في حفظ الأنساب والتاريخ. كما دخلت في هذه الفترة كتب المغازي فقام أبو الوليد المهري بشرحها، وبدأ القيروانيون، على شاكلة المشاركة، بالسماع من الأعراب الذين يجلون بين صفوفهم وخاصة للتجارة، حتى أن وصف بكر بن حماد للشمس، ظل محفوظاً ومكرراً في كتبهم عدة قرون⁽²⁾، كما لم يعدم الأمر، ورود مشاركته إلى بلاط المهالبة، كما هو شأن قتيبة النحوي، أحد أعلام مدرسة الكوفة في النحو⁽³⁾.

وحيث أنّ الأدب المشرقي خضع للصنعة بأشكال مختلفة، فقد أصبح من سمات الأدب الناجح أن يجمع بني دقة الذوق وروعة الإبداع، وربما أضاف إلى ذلك، القدرة على النقد والتقييم،

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 178.

(2) – الأدبيات أوردها الجغرافي البكري في وصفه لتاهرت في كتابه (المغرب)، ص 67.

ما أحشن البرد وريعانه وأرطف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السمات
نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الدمى بالسبت

(3) – أحمد بدر: المرجع السابق، ص 92.

إذا لم يتخصص في ذلك، ومن ثمّ وجب أن يدرس البلاغة والبيان والبديع. ويذكر ابن خلدون فيما يخص المغاربة، أنهم ركزوا اهتمامهم على البديع من توظيفهم له في الشعر خاصة⁽¹⁾، لأن علم البديع سهل المأخذ كما قال، واستعملوه لتزيين الألفاظ، بينما صعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان، وربط ذلك بتقص التطور الحضاري لدى المغاربة⁽²⁾، وصعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان، لدقة أنظاريهما، وغموض معانيهما، فتجافوا عنهما⁽³⁾. لكن الواقع على ذلك العهد كان النقيض، حسب بعض الدراسات التاريخية المتأخرة، فالمغاربة أقبلوا بشكل مدهش على دراسة (الكتاب) لسيبويه⁽³⁾، وهو أصعب بكثير من أي كتاب بلاغة أو بيان، وعلوم كالأصول والمنطق والفرائض والرياضيات، أبدع فيها المغاربة مع كونها معقدة أو مجهددة للفكر أكثر مما هو الشأن في مواد كالإستعارة والمسند، والمسند إليه. وفي كل حال، فعصر "ابن خلدون" بالذات، يمثل أرقى ما وصلت إليه الكتابة الأدبية المغربية من حيث الصنعة واللجوء إلى الأساليب البلاغية، ثم إنّ البلاغة ومكملاتها لم تقف على أقدامها من حيث التقعيد واكتماله، إلا مع القرن السابع ثم الثامن. ولذلك نجد المغاربة يُقبلون على دراستها وحتى الإنتاج فيها، إلى جانب اهتمامهم بالعروض أيضاً، وهذا مع عنايتهم بالبديع منذ وقت مبكر⁽⁴⁾.

(1) - إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 179.

(2) - ابن خلدون: المقدمة، ص 552.

(3) - أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب ب"سيبويه"، المتوفى سنة (161هـ) عالم النحو المشهور، قال الحافظ فيه: "لم يكتب الناس في النحو كتاباً بأمثله". ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص 463.

(4) - إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 180.

وعموماً، فإن أهم الكتب التي كانت تدرّس في النحو واللغة حتى القرن الخامس الهجري مصدرها المشرق كـ(الإيضاح) لأبي علي الفارسي، و(الخصائص) لابن جني⁽¹⁾، و(الجمل) لعبد الرحمن الزجاجي، و غيرها . كما أن كثيراً من الكتب المشرقية واصلت تأثيرها بعد ذلك في حلقات الدروس المغربية، كما تدل على ذلك كتب الفهارس و البرامج و الرحلات و التراجم⁽²⁾.

الرحلة بين المشرق والمغرب وأثرها الثقافي:

عندما استقبل المغاربة موجات العرب الفاتحين، أخذوا عنهم دينهم ولغتهم، واجتهدوا ما استطاعوا لمنافستهم أو التفوق عليهم، واعتبروا أنّ العلم ليس حكراً على أحد، وأنّ تلقي العلم حق للجميع، وأنّ لطالبه الحق في الإتصال بالعلماء والأخذ عنهم، ومن ثمّ حرص المغاربة على تلقي العلم من مابعه، فجالسوا مشاهير العلماء وأخذوا عنهم ما ألفوا من كتب وما ألقوا من دروس⁽³⁾.

كانت رحلة المغاربة إلى المشرق، على وجه العموم، أكثر من رحلة المشاركة إلى المغرب⁽⁴⁾، فرحلاتهم في الغالب تتزامن مع موسم الحج لتأدية الفريضة ومقابلة العلماء ومناظرتهم والأخذ عنهم، وكان ملتقى المسلمين في الحج إضافة إلى تشاورهم في أمور دينهم

(1) ابن جني: هو أبو الفتح عثمان بن جني النحوي اللغوي، واحد عصره في مباحث التصريف وفقه اللغة وخصائصها، صحب المتنبي وأخذ عنه، كما اخذ عن أبي خالويه وأبي علي الفارسي، وكانت مباحثه في النحو والتصريف تمتاز بالتعمق في بحث العلل والأسباب، من أشهر كتبه الخصائص، وسير الصناعة، توفي سنة 392هـ/1002م. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص:246-247.

(2) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج 2، ص156.

(3) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 193.

(4) نقولا زيادة: الجغرافية و الرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962، ص167.

ودنياهم، فإنه ملتقى لأصحاب المذاهب الفقهية والسياسية، كما أنه ملتقى لاستقطاب العلماء أو القادة، وبخاصة أنّ ذلك العصر كان عصر التنافس بين الأمراء والخلفاء في احتضان العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وأرباب الصنائع، من نقاشين مهرة ونحاتين وخطاطين وبنّائين، وكل ما هو فريد نادر ولّد في نفوس العلماء الرغبة في الرحلة لتحقيق الأغراض التي يرسمها العلماء لأنفسهم ووفق إمكانياتهم⁽¹⁾.

لكن كانت هناك رحلة أخرى - وهي التي تمنا - بالاتجاه المعاكس، أي هجرة المشاركة إلى البلاد المغربية، بما فيها الأندلس والتأثيرات العلمية والثقافية المختلفة التي أحدثتها. ولعل الشيء الجدير بالتسجيل في هذا المجال هو الإتصالات بين تاهرت والمشرق، فقد توافد على المدينة مجموعات هامة من أهل العلم، ويبدو أنّ عددهم كان معتبرا إلى درجة أنّ أحياء ومساجد بنيت بتاهرت عُرفت بأسمائهم مثل مسجد الكوفيين والبصريين. وكان حُكام تاهرت الإباضية، ينحدرون من أصول فارسية، فإن الكثير من العناصر الفارسية تشجعت وهجرت إلى المدينة واستوطنتها.

ومن جانب آخر، فإن ديمقراطية المذهب الإباضي، خاصة ما تعلق منه باختبار الحاكم أو الإمام الذي لا يشترط فيه أن يكون قرشيا، بل الكفاءة والصلاح لتولي المنصب حتى ولو كان زنجيا، شجع الناس القادمين من مختلف الأصقاع على العيش تحت ضلال الدولة الرستمية، فقد سجّل لنا صاحب كتاب (السّير)، أنّ بعض من هؤلاء الغرباء، حظي بمكانة كبيرة، فتم اختياره من بين المرشحين للإمامة التي فاز بها عبد الوهاب بن رستم منهم مسعود الأندلسي وعمران

(1) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 193.

الأندلسي، خاصة الأول الذي نافس عبد الوهاب بن رستم حتى آخر مرحلة في التنافس على الإمامة⁽¹⁾.

وكان لتوافد الخوارج من مصر والعراق والجزيرة العربية وفارس على تاهرت، أن أصبحت مركز إشعاع ثقافي للعديد من الثقافات والمذاهب المتنوعة من مالكية وخوارج ومعتزلة . وقد وجدت هذه الفرق المناخ الملائم لها، وذلك بما وقّره التاهريون من حرية الرأي والمناظرة والجدل البعيد عن التعصب⁽²⁾. وقد أوردنا ضمن سياق هذا الفصل نصا للباروني النفوسي حول المناقشات العلمية التي احتضنتها مساجد تاهرت ودور العلم بها. ومن الدلائل الأخرى على بعد الرستميين عن التعصب المقترن بعقيدتهم الصلبة، هو عندما أراد أبو حاتم اختيار قاضيا قام باستشارة الإباضية وغير الإباضية، لأن هؤلاء ليسوا مستبعبدين عن إدارة الإمارة، بل يعاملون معاملة حسنة، والمناقشة مطلوبة مع من هم غرباء عن الطائفة⁽³⁾.

لذلك فإن التأثيرات الإسلامية المشرقية على المدينة كانت واضحة، فالكثير من مساكن المدينة مألوفة لدى تجار العراق الأغنياء، وبعض خطوط الأقواس المقسمة إلى فصوص، توحى بزينة المساكن الجميلة في سامراء، وبينما يذكرنا قصر تاهرت بمقار الأمويين، فأطلال سدراتة، هي

(1) الشمالي: السير، المصدر السابق، ص: 51-52.

(2) بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 212.

(3) جورج مارسلي: المرجع السابق، ص 131.

صدي ضعيف لفخامة العباسيين. إنّ هذا الفن الخارجي المختلف تماما عن فن القيروان كان معقّدا مثله، لأنهما كانا يستقيان من نفس المنهل⁽¹⁾.

إنّ التأثيرات الإسلامية القادمة من المشرق في جوانب العمران والبناء والنقش والزخرفة، تفنّد بعض آراء المدرسة الكولونيالية في التاريخ، خاصة منها ما ذهب إليه مارسيل مورسي، من أنّ الإنشاءات المعمارية للمدن الإباضية في المغرب الأوسط، خاضعة بالأساس للأسس القديمة الإفريقية والرومانية⁽²⁾، من دون أن يقدم دليلا واحدا على الإكتشافات الأثرية التي يمكن أن تدعم الطرح الذي قدّمه.

وما دمنا بصدد ذكر التأثيرات العمرانية والمعمارية المشرقية في بلاد المغرب، ينبغي الإشارة إلى تلك التأثيرات على العمران في الأندلس، فعبد الرحمن الداخل⁽³⁾، حاول أن يجعل من عاصمته قرطبة⁽⁴⁾، صورة من دمشق من حيث منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية في أشجارها وحدائقها. وكان يرسل رُسلا إلى بلاد الشام خصيصا لجلب أشجار النخيل والفاكهة

⁽¹⁾ جورج مارسلي: المرجع نفسه، ص 134.

⁽²⁾ - Mercier Marcel: la civilisation urbaine au mezarab -، alger، 1922، p: 19-20.

⁽³⁾ عبد الرحمن الأول بن معاوية الداخل، حفيد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ولد سنة 113هـ/731م. هرب من بطش الجنود العباسيين بعد سقوط الخلافة الأموية، وهرب متخفيا لاجئا من مكان إلى مكان: من شمال الشام إلى فلسطين إلى مصر، ثم إلى بلاد المغرب في ملحة أشبه بالأساطير، حتى وصل الأندلس ونجح في استعادة عرش أجداده، وتوطيد أركان ملكه حتى وفاته سنة 172هـ/788م. ينظر: الضبي، المصدر السابق، ص: 18-19، ومحمود مكّي: المرجع السابق، ص: 70-71، ومحمود السيد: تاريخ العرب في بلاد الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، ص 16 وما بعدها.

⁽⁴⁾ قرطبة مدينة عظيمة بالأندلس - حسب ياقوت الحموي- كانت عاصمة ملك بني أمية بالأندلس، امتازت بكثرة عماراتها ونظافة محلاتها، والقصور العظيمة والمنتزهات الفسيحة. ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ج4، ص: 324-325، وآدم ميتز: المرجع السابق، ج2، ص 272.

وأشغال الأشجار المثمرة، مثل التين والرمان والعنب، وهي أثمار معروفة إلى الآن في إسبانيا، وبالقرب من قرطبة، زرع الأمير عبد الرحمن، أول شجرة نخيل في الأندلس في حديقة قصره الذي بناه على نظام قصور أجداده في الشام، وقد بنى قصره خارج مدينة قرطبة على غرار القصور الأموية التي أنشأها هشام بن عبد الملك خارج دمشق بين تدمر ودمشق، ومن قصور عبد الرحمن قصر الرصافة، وهو قصر صيفي شمالي غربي قرطبة، وهو شبيه برصافة جدة، هشام، الذي بناه خارج دمشق سنة 110هـ/728م. وقد أطلق عليها اسما آخر هو قصر الدمشق، الذي أحاطه عبد الرحمن بأشجار النخيل والتين والرمان، وهو الذي اتخذ مقررا لراحته وأفراحه، وقلد به قصور بني أمية في المشرق، وكان يُعرف أيضا باسم منية الرصافة أي قصر الرصافة. ومن أشهر فواكه هذا القصر - المنية - الرمان السفري، الذي يُنسب إلى "سفر عبيد الكلاعي"، من جند الأردن الذي زرعه فأثمر وأينع، ونظرا للتشابه بين قصور بني أمية في المشرق وقصر الدمشق في الأندلس، فقد أحبه بنو أمية وقال أحد الشعراء فيه: -من الخفيف-

كُلَّ قَصْرٍ بَعْدَ الدَّمَشْقِ يُدْمُ فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَلَدَّ المَشْمُ

مَنْظَرٌ رَائِقٌ وَمَاءٌ نَمِيرٌ وَثَرَى عَاطِرٌ وَقَصْرٌ أَشْمٌ⁽¹⁾.

أما المسجد الجامع في قرطبة، الذي أقامه عبد الرحمن الداخل، عام (169هـ/785-786م)، فتظهر فيه أيضا المؤثرات الشامية الإسلامية، في زخارفه المعمارية، ونظام سقفه وعقوده (البوائك). وهذه العقود تزيد من ارتفاع السقف وتجعله إرتفاعا مناسبا مع اتساع المسجد. وكذلك

(1) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 284.

نجد هذا التأثير في الممر الذي يصل المسجد بقصر الإمارة، وهو المعروف باسم "السّاباط". كما أنّ مئذنة مسجد قرطبة تماثل مآذن مساجد الشام، لاسيما مساجد دمشق والقدس، وكان الأمير عبد الرحمن، قد استعان بالبنّائين والمهندسين الشاميين في بناء قصوره ومساجده ومقصوراته. وكان هذا التشابه في الفن المعماري بين الأندلس والشام ليس إلا وليد الوجود الشامي في الأندلس، ومحاولة من أمراء بني أمية الأندلسيين التشبه ببلادهم الأصلية. وهكذا طعم "عبد الرحمن" حضارة الأندلس بالطابع الشامي، وإليه يرجع الفضل في غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة⁽¹⁾.

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس، فقد كانت في الفترة الأولى متأثرة بالحياة الدينية السائدة في الشام، فقد كان في الأندلس الكثير من فقهاء وقضاة الشام، منهم فقيه أهل الشام صالح الخضر، وشيخ العرب الشاميين، القاضي مصعب بن عمران، والقاضي معاوية بن طليح وسواهم كثير. وقد اعتنق الأندلسيون في البدء مذهب الإمام الأوزاعي إمام الشام (توفي سنة 157هـ/774م)، وكان الإمام الأوزاعي من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد البيزنطيين. ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد، وهذه التشريعات كانت تناسب وضع الأندلسيين في الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والجهاد. إضافة إلى أنه من الطبيعي أن ينقل أمراء بني أمية المذهب الديني الذي أقاموا عليه أحكامهم في بلادهم الأصلية، ولهذا اعتنقوا في الأندلس مذهب الإمام الأوزاعي، الذي كان في الوقت نفسه مذهب أهل

(1) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 285.

الشام⁽¹⁾. ويذكر الضبي أن الفقير صعصعة بن سلام المتوفى سنة 192هـ/808م هو أول من نقل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس⁽²⁾. مع العلم أن بعض الدراسات التاريخية المتأخرة، تُصنّف صعصعة بن سلام في خانة المتزمتين، ذلك أنه اعتمد أسلوب التضييق في نشر مذهب الأوزاعي، فكان يرفض العمل بالرأي ويتمسك بالحديث وبتابع صحابة الرسول (ص)، معتبرا أن السنة الحية هي الممارسة المستمرة التي تبعها المسلمون منذ عهد النبي، كما حافظ عليها الخلفاء الراشدون وأكثر الخلفاء الأمويين، كما اعترف بها الفقهاء، وقد حفظت هذه الإرادة بالتمسك بمذهب القدماء أقدم الأحكام، التي حكم بها التشريع الإسلامي، ومن ميزات المحافظة على المنطق المنهجي بصورة بدائية، وبذلك تبقى واضحة ويمكن نقلها وتعليمها. ثم إن الأهمية التي يوليها المذهب للأمر العسكرية جعلته يسود في عهد قريب من زمن الفتح⁽³⁾.

وشهدت الأندلس الكثير من الأدباء القادمين من الشام والمشرق، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238-273هـ/852-886م)، شغوفاً بالبيان مؤثراً لأهل الأدب، وقد قرّب إليه الأدباء والشعراء، ومنهم أدباء الشام. وكان أبو اليسر، الشاعر المعروف بالرياضي، قد وصل من الشام قاصداً الأندلس، حيث أُلّف فيها كتاباً على لسان ابن الشيخ في الشام، وأقام فترة في بلاط ابن الحكم الذي أكرمه. ثم توجه الرياضي بعد ذلك إلى مصر ناقلاً معه أيضاً ملامح

(1) حسان حلاق: المرجع السابق، ص: 288-289.

(2) الضبي: بغية الملتبس، المصدر السابق، ص 281.

(3) دومينيك إيرفوا: علماء الأندلس، ترجمة: مصطفى الرقي، في سلمى خضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ص: 1180-1181.

من الحضارة الأندلسية. وقد شهدت الفترة وفود جماعات من العلماء من الشام إلى الأندلس لنشر العلم والدين، كما ذهب الأندلسيون إلى المشرق للتعلم والتزود⁽¹⁾.

كما كان هذا الأمير مشجعاً لحرية الفكر، كما يبدو في موقفه من الفقيه المحدث بقي بن مخلد ت: 286هـ/889م، الذي قدم بعد رحلته إلى المشرق بمجموعات من الأحاديث، ورسالة الإمام الشافعي، فثار عليه الفقهاء المالكيون، وأثاروا العامة عليه، وكادوا يفتكون به، لولا حماية الأمير وتشجيعه على نشر علمه. وفي عهده نبغ علماء مرموقون مثل عباس بن فرناس (ت: 274هـ/887م) الحكيم المخترع المنجّم، الموسيقي الشاعر، صاحب أول محاولة للطيران⁽²⁾.

ويذكر، أنه بعد وفاة وغياب الرعيل الأول لاسيما عبد الرحمن الداخل، وهو في الستين من عمره، تبين بأنّ المؤثرات الشامية بدأت تنقلص في الأندلس، لاسيما والأجيال الطالعة الجديدة لم يسبق لها أن رأت الشام أو ارتبطت بها، كما ارتبطت بها الجيل الأول. وزاد من تقلص المؤثرات الشامية في الأندلس، الصراع بين أبناء عبد الرحمن الداخل، لاسيما بين ابنه الأكبر سليمان، وابنه الأوسط هشام، فقد كان سليمان شامياً ومن مواليد الشام، عينه والده حاكماً على طليطلة، بينما كان هشام إسبانياً ومن جارية إسبانية، كما نشأ في تلك البيئة الإسبانية وعينه والده حاكماً على مدينة ماردة، وبينما كان سليمان يُمثل الحزب الشامي، كان هشام يُمثل الحزب الأندلسي. وقد جرت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار هشام وهزيمة سليمان الذي نفي إلى المغرب سنة 174هـ/790م. وكان معنى ذلك هزيمة الحزب الشامي. غير أنّه بالرغم من هذا الواقع، إلا أنّ

(1) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 290.

(2) محمود المكي: المرجع السابق، ص 82.

الخليفة هشام استمر معتمدا على الشاميين بصورة أساسية، ولما أراد محاربة البربر⁽¹⁾ أرسل لقتالهم سبعة وعشرين ألفا من الشاميين وانضم إليهم ثلاثة آلاف من المصريين⁽²⁾.

وربما كان أهم ما حدث في عهد هشام، هو دخول المذهب المالكي إلى الأندلس، وكان الأندلسيون - كما وضحنا - على مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام، ولكن طلبة العلم الذين كانوا يتوجهون في الحج إلى المدينة شهدوا ما كان للإمام مالك بن أنس من مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، وكان قد أتمّ مجموعته الفقهية (الموطأ)، الذي يُعد من أهم كتب التشريع التي تنظم حياة المجتمع الإسلامي في عباداته ومعاملاته، فأخذ هذا الكتاب عدد من تلاميذ مالك الأندلسيين؛ منهم الغازي بن قيس، وزياد بن عبد الرحمن المعروف ببشطون، وأهمهم بغير شك يحيى بن يحيى الليثي المتوفي سنة: 234هـ/848م، وروايته لـ(الموطأ) هي المعتمدة عند أهل الأندلس. وقد تحوّل الفقهاء المالكية منذ ذلك الوقت إلى طبقة لها نفوذ كبير في أوساط الشعب، وأصبح يختار منهم القضاة والمشاورون⁽³⁾.

(1) هي غير الفتنة البربرية المشهورة التي وقعت بالأندلس خلال القرن الخامس الهجري، والتي وقعت بين فئتين من المسلمين: البربر من جهة، والأندلسيون، وبخاصة منهم أهل قرطبة من جهة أخرى، حول منصب الخلافة، والتي ترتب عنها تردي أحوال الأندلس وضياعها من أيدي المسلمين في مرحلة لاحقة. ينظر: عبد القادر بوباية: البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (300-422هـ/912-1031م)، رسالة دكتوراه دولة، مخطوطة، قسم التاريخ، جامعة وهران، إشراف غازي الشمري، (1422-1423هـ/2001-2002م)، ص 269.

(2) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 290.

(3) محمود المكي: المرجع السابق، ص 73.

كما تأثرت الأندلس بالمؤثرات العلمية والحضارية للعراق، خاصة على عهد عبد الرحمن الثاني (207-238هـ/822-852م)، الذي آثر الابتعاد عن سياسة من سبقه من الأمراء الأمويين، وهي السياسة القائمة على الإبتعاد عن العراق، فبدأ بالأخذ من الحضارة العراقية، ثم بدأ نفسه بتقليد الخليفة العباسي في مظهره وملبسه، كما فتح أبواب الأندلس للتجار العراقيين، فامتألت أسواق الأندلس بالبضاعة والصناعات العراقية⁽¹⁾. وفي عهده شهدت قرطبة مؤثرات فنية وأدبية عراقية، ومما ساعد على ذلك، أنه كان محبا للعلم والعلماء فأحسن استقبالهم وأكرم ضيافتهم. وقد نقل علماء وفقهاء العراق معهم الكثير من المؤثرات الأدبية والعلمية العراقية، اختلطت بالمؤثرات الشامية والحجازية والمصرية، ومن قُضاته المقربين سعيد بن محمد بن بشر، ومحمد بن شراحبيل المعافري، وأبو عمر بن بشير، وفرج بن كنانة الشذوني، ويحيى بن معمر اللاهمني الإشبيلي، وكان أخص الناس بعبد الرحمن من أهل الأدب عبید الله بن قرلمان بن بدر الداخِل⁽²⁾.

وممن قدم الأندلس وحدث فيها، ثابت بن محمد الجرجاني العدوي وذلك سنة 406هـ/1015م، وهو بالإضافة إلى كونه قائدا عسكريا عند غزو المسلمين لسردانية، فهو أيضا

(1) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 293.

(2) ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1410هـ/1989م، ص: 75-76.

إمام في العربية، متمكنا في علم الأدب، مذكورا بالتقدم في علم المنطق، أملى بالأندلس كتاب
(=الجمل) للزجاجي⁽¹⁾.

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس، فقد تأثرت في بعض فتراتها بالمؤثرات الدينية
السائدة في العراق، فبالرغم من أنّ البعض يعتبر أنّ انتشار المذهب المالكي في الأندلس هو من
المؤثرات الحجازية، غير أنّ المذهب المالكي الذي انتشر في العراق أيضا، نقله بعض الفقهاء إلى
الأندلس عبر العراق، وليس عبر الحجاز والمدينة فحسب. ومن فقهاء ورواة الحديث الأندلسيين،
الذين زاروا بغداد ونقلوا معهم (موطأ) الإمام مالك: يحيى بن يحيى الليثي، فرغوس بن العباس،
وغيرهما. وقد نقل هؤلاء بعد عودتهم فضل مالك وسعة علمه وجلال قدره⁽²⁾.

وممن زار الأندلس من العراقيين، الرحالة التاجر ابن حوقل النصيبي خلال القرن الرابع
الهجري، ووصفها لنا في كتابه (صورة الأرض)، مُسجلا تواجد تشابه بين بعض مدنها والمدن
العراقية، خاصة من حيث الصناعات والحرف، ومما أورده عن قرطبة: "أعظم مدينة بالأندلس
قرطبة، وليس بجميع المغرب لها شبيه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يُدانيها في كثرة أهل وسعة
ورفعة وفسحة أسواق ونظافة محال، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق، ويزعم قوم من سافرتها
الواصلين إلى مدينة السلام، أنها كأحد جانبي بغداد"⁽³⁾.

(1) الضبي: المصدر السابق، ص 215.

(2) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 296.

(3) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 107.

ويواصل ابن حوقل في وصف قرطبة إلى أن يقول: وقرطبة وإن لم تك كأحد جانبي بغداد، فهي قريبة من ذلك ولاحقة به⁽¹⁾. ويورد حول بعض الصناعات الأندلسية المشابهة للصناعات العراقية: "ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق، ويكون منه المشمّع فيمنع، المطر أن يصل إلى لابسه"⁽²⁾.

ويذكر أنّ عبد الرحمن الثاني، قد أعجب بالأزياء العراقية، فبدأ يلبس الثوب العراقي والغفارة العراقية، (= كوفية وغطاء للرأس). كما يشار إلى أنّ منصب الوزير استحدث في الأندلس متأثراً بالأنظمة العباسية في العراق. وكان عبد الرحمن، هو أول من ربّب مسألة مجيء ودخول الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي حسب ما هو معمول به في بغداد⁽³⁾.

كما ينبغي الإشارة، إلى أنّ أثر زرياب وزوجته وبناته لم يقتصر على الموسيقى والغناء، وإنما كان أثرهم واضحاً أيضاً في الحياة الاجتماعية الأندلسية. فقد قامت عائلة زرياب، بتعليم الأندلسيات أسلوب تنظيم المظهر الخارجي للنساء وكيفية ترتيب الألبسة، والأوقات المناسبة لارتداء أنواع منها، أو ارتداء ألبسة وفق الألوان والأشكال في فصول معينة من السنة وفي وقت معين من اليوم. وقد عرفت هذه المراسم واللباقات باسم مراسم زرياب⁽⁴⁾. ومن جهة ثانية فقد نظم زرياب أسلوب تقديم الأطعمة، وأصبح حكماً في الذوق في المأكّل، وعمل على إضافة مأكولات جديدة نقلها من العراق، كما أدخل إلى الأندلس أنواعاً من الخضروات لم تكن شائعة

⁽¹⁾ الضبي: المصدر السابق، ص 108.

⁽²⁾ المصدر نفسه: ص 109.

⁽³⁾ حسان حلاق: المرجع السابق، ص 299.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص 299.

فيها، وحرص هو وعائلته على تعليم الفتيات والوصيفات الأندلسيات أسلوب الجلوس على طاولة الطعام وتراتبية تقديم الأطعمة. واقتداءً بزوجته وبناته، تعلمت النساء أناقة الملابس فأصبحن يلبسن الثياب فاتحة الألوان في الربيع، والملابس البيضاء في الصيف، والمعاطف والقبعات من الفرو في الشتاء، وفيما بعد شوهده الإسبان المسيحيون يلبسون الزي العربي الأنيق⁽¹⁾.

كان الحجاز في القرون الأولى للهجرة مركزا ثقافيا للعلوم الدينية والفنية والموسيقية، ويقدم لنا كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي، صورة واضحة عن هذا الواقع من خلال الأخبار التي ساقها في هذا الباب⁽²⁾. ولقد اجتمع في زمن واحد المغنيات في الحجاز: جميلة، وهبت، وبر، والفؤاد، ونومة، والضحي، ورحمة، ووهبة الله، وعزة الميلاد، وحبابة، وسلامة، وبلبله، ولذة العيش، والزرقاء⁽³⁾. ولقد انتقلت تلك المؤثرات إلى بلاد المغرب والأندلس.

ومن بين مغنيات المدينة، التي وفدت إلى الأندلس عجفاء، التي أثار إعجاب الأندلسيين بغنائها في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل، والثنائي الغنائي علون و زرقون اللتين وفدتا في عهد هشام أيضا. وقد بنى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام قصرا خاصا للمغنيات، أطلق عليه اسم "دار المدنيات" نسبة إلى المدينة، وكان بعض الفتيات القادمات من الحجاز لا تهتم إلا بقراءة القرآن ونشد المدائح والموشحات الدينية والشعر المتين الملتزم⁽⁴⁾، ويورد الضبي أنّ رجلا

(1) أوبن رايت: الموسيقى في الأندلس، المرجع السابق، ص 809، وحسان حلاق: المرجع السابق، ص 299.

(2) ابن عبد ربه الأندلسي: كتاب العقد الفريد، ج4، تحقيق: إبراهيم محمد صقر، مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م، ص 237 وما بعدها.

(3) سلامة صالح النعمات وآخرون: المرجع السابق، ص 215.

(4) حسان حلاق: المرجع السابق، ص 301.

مشرقيا يدعى الشيباني دعا مرة قاضي قرطبة محمد بن إسحاق بن السليم المتوفى سنة 367هـ/977م، وقال له: عندي جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها، فإن أذنت أسمعك عُشرا من كتاب الله عز وجل وأبياتا، فقال له: افعل، فأمر الجارية فقرأت ثم أنشدت، فاستحسن ذلك القاضي، وعجب منه، وأعجب بصوتها وكافأها بهدية مالية مقدارها دينار⁽¹⁾.

كما تظهر لنا التأثيرات الحجازية في البلاد المغرب، من خلال رحلات المغاربة إلى هذه البلاد، سواء لأداء فريضة الحج⁽²⁾ في الغالب، أو للاتصال بعلماء مكة والمدنية، ولتحصيل العلم عنهم، ولجلب التزكية العلمية منهم وأخذ مصنفاتهم، خاصة في العلوم الدينية إلى بلاد المغرب، وبالتالي إثبات قدراتهم العلمية.

تُقدم لنا العديد من المصادر، مجموعة هامة من أسماء المغاربة، الذين رحلوا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وطلب العلم، وعادوا فيما بعد حاملين لزاد علمي كبير، واستفاد منه أبناء بلدهم المغاربة، و منهم من استوطن المنطقة بشكل دائم حتى وافته المنية هناك، أو استقر مدة طويلة بها، مما يمكننا أن نورد نماذج من هؤلاء:

(1) الضبي: المصدر السابق، ص: 50-51.

(2) لقد اهتم المغاربة بالرحلة الحجازية، وبخاصة منهم الذين كانوا يمارسونها بالفعل، وتعددت وتنوعت الرحلات الحجازية، وبذلك أصبحت تشكل تراثا أدبيا واجتماعيا ودينيا، وتدل على مقدار الإيمان بعقيدة الإسلام وشريعته، وعلى مقدار التضحية التي كان يتحملها الحجاج الراغبين بلهفة وشوق لامتثال ما فرضه الله عليهم من أداء فريضة الحج، وهم يدركون ما سيكابدون من محن ومشقة وأتعاب. لقد كان الحجاج يتزودون لهذه الرحلة الطويلة الدينية الإيمانية بالمال والطعام والماء والشمع وزيت الإضاءة وبكل ما يستطيعون حمله مما تحتاج إليه الرحلة إلى الحج، امثالاً لقوله تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) سورة البقرة: الآية 137. ويتزودون قبل ذلك وبعده، بالإيمان القوي بالله تعالى. ينظر: عبد القادر العافية، رحلة الحج ولقاء الشيوخ، التيجيني نموذجاً، نشر مشترك بين مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص 21.

- أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال، سمع من أبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عبد الله بن محمد بن الناضور، وأبي القاسم عبد الرحمن بن حمد الليدي وغيرهم... رحل إلى المشرق فسمع بمكة من أبي الحسين بن صخر وأبي بكر بن علي المطوعي وأبي ذر عبد الله أحمد الهروي، وكان من أهل العلم بالفروع والأصول، وكتب الحديث بمكة ومصر والقيروان، وله كتاب في الفقه على مذهب مالك بن أنس، توفي بأغمات من أرض المغرب الأقصى سنة 485هـ/1092م⁽¹⁾.

- عبد الرحمن بن دينار، يُكْتَبُ أبا زيد، كانت له رحلتان، استوطن في إحداهما المدينة المنورة، وهو الذي أدخل الكتب المعروفة بالمدينة إلى المغرب، سمعها منه أخوه عيسى، ثم خرج بها عيسى فعرضها على ابن القاسم فزّد فيها أشياء من رأيه، كان عبد الرحمن من الحفاظ المتقدمين والخيار الصالحين، ويُذكر أنّ بني دينار أسرة مشهورة بالعلم، توفي سنة 227هـ/842م⁽²⁾.

- مكّي بن أبي طالب القيرواني، المتوفى سنة 437هـ/1045م، والمولود بالقيروان سنة 354هـ/965م، توجه إلى مصر في سن الثالثة عشرة فتابع دراسته خصوصا في الرياضيات، كما درس القراءات وغيرها، وعاد إلى القيروان سنة 374هـ/984م، واستأنف دراسته بعد ذلك بمصر سنة 378هـ/988م، حيث لازم دروس عبد المنعم بن غلبون الحلبي نزيل مصر، وعاد إلى القيروان في السنة التالية، وتردد مرة أخرى بين مصر والقيروان وتوجه إلى مكة للدراسة والحج أكثر من مرة، ومن شيوخه بمكة: أحمد بن فراس العبقسي، ومحمد العجيفي،

(1) - الدباغ: معالم الإيمان، ج3، ص 198.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 243.

وابن رزيق البغدادي، وأحمد بن إبراهيم المزوزي. ولما كانت سنة 393هـ/1003م، إستقر بصفة نهائية بالأندلس، فهو لم ينقطع عن حضور حلقات الدرس على ما يظهر إلا عند بلوغه الأربعين⁽¹⁾.

- ربيع بن القطان، المتوفى سنة 334هـ/945م، وهو قريشي من بني نوفل، من شيوخه: أبوالعرب، وأبو بكر بن اللباد بالقيروان، فتصدر للتدريس بجامعة بعد أن أتممت معارفه من علوم الظاهر والباطن، وأصبح في الزهد نموذجاً يُتدى به في عصره، وكان من أوائل الذين اشتغلوا في المغرب المسلم بالأحوال والمقامات⁽²⁾. إلى جانب معاصره أبي مالك الدباغ، الذي كان مع ذلك دونه في هذا المجال، وكان يقرض الشعر، وقد دون القليل من مقولاته وشعره، ونسبت إليه كرامات، وكان يشتغل ببيع القطن مع قيامه بالتدريس، وحتى بكتابة الرقائق وقرض الشعر، مع سعة إطلاعه في الحديث واللغة والوثائق، ومن تلاميذه: أبو القاسم بن شلبون، وحسن بن فتحون، وعبد الله بن يوسف الجبي⁽³⁾.

- أبو محمد عبد المجيد بن أبي الدنيا الصدي، المتوفى بعد سنة 680هـ/1281م، اعتبره الغبريني أحد المشايخ الأجلة بمحاضرة إفريقية، رحل إلى المشرق وحج ولقي الكثير من العلماء الذين انتفع بهم وتكوّن على أيديهم، كان له إطلاع واسع في علم الفقه وأصوله على طريقة

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج2، ص 39.

(2) الأحوال: الغيبة والحضور والصحو والسكر والوجد والهجوم والغلبات والفناء والبقاء، كلها من أحوال القلوب المتحققة بالذكر والتعظيم لله. المقامات: مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك. والمقام معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يعلم فيه من المجاهدات الرياضيات والعبادات. ينظر: عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، المرجع السابق، ص: 11، 247-248.

(3) إبراهيم حركات: المصدر السابق، ج3، ص 87.

الأقدمين، جلس للتدريس في إفريقية خاصة الفقه وأصوله، وله عقيدة في علم الكلام، وكان الطلبة يحفظونها ويقرؤونها عليه، وكان مُقدما للفتية بحاضرة إفريقية، وصلت فتاويه إلى بجاية⁽¹⁾.

- ومن الذين تكوّنوا بمكة من أهل المغرب، الحافظ عطية بن سعيد الأندلسي القفصي، المتوفى سنة 408هـ/1017م، أخذ القرآن عن جماعة ورحل وكتب الحديث، طاف بلاد المشرق ودخل مكة، وانتظم ضمن حلقات الدروس يتلقى العلم على أبرز علماء وشيوخ المدينة من المحدثين. قُرى عليه صحيح البخاري من قبل الحافظ المقيد أبي العباس أحمد بن الحسين الرازي، وكان الأخير إذا قرأ، ربما توقف في قراءته، فكان عطية يبتدئ فيقول: هذا فلان ابن فلان، روى فلان بن فلان، ويذكر بلده ومولده وما حضره من ذكره، فكان من حوله يتعجبون من ذلك. كما كان عطية صوفيا يحب الأسفار والسياحة، خاصة إلى بلاد المشرق، و ألف كتابا في (تجويز السماع)، فكان كثير من المغاربة يتحامونه من أجل ذلك، وله كتاب (حديث المعفر)⁽²⁾.

- الحافظ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد أبو الطيب الفاسي، المولود سنة 775هـ/1373م، وأجاز له أبو بكر بن المحب، وإبراهيم بن السلار بسبب تفوقه ونبوغه، مما

⁽¹⁾ الغريبي: المصدر السابق، ص: 122-123.

⁽²⁾ الضبي: المصدر السابق، ص: 380-381، و السيوطي: المصدر السابق، ص 422.

جعلته يقرئ الحديث بمكة ويُدرّس ويفتي، وصنف كتباً منها (تاريخ مكة)، وولي قضاء المالكية بها، مات سنة 832هـ/1428م⁽¹⁾.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد الخياط الزاهد الواعظ، ويُعرف بابن ثمر، لقي بمكة أبا يعقوب النهرجوزي، ولقي الدينوي، وابن الكاتب، وابن حابان. يورد الإمام الدباغ عنه، أنه كان ذا تقشف وعبادة متصوفاً تصوفاً مشوباً بالتقوى رد الكثير من الخلق الضالين إلى طريق الهداية بفضل عذوبة ألفاظه ورقة قلبه، توفي سنة 386هـ/966م⁽²⁾.

المؤثرات العربية المصرية في بلاد المغرب:

انتقلت المؤثرات العربية المصرية إلى بلاد المغرب والأندلس بواسطة الجنود والرحالة والفقهاء والمغنيين والمغنيات والمهنيين وسواهم. ومن المعروف أنه وُجد بتلك البلاد الكثير من المصريين الذين وصلوا إلى المغرب بقيادة عمرو بن العاص، الذي اضطلع بفتح برقة ثم طرابلس، بعد قتال عسكري شديد مع الروم البيزنطيين سنتي (22-23هـ/643-644م). كما وصل الكثير من المصريين إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر، كما أنّ القائد كلثوم بن عياض القشيري، قد قاد من مصر في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الأندلس وإفريقية ثلاثة (03) آلاف مقاتل لمقاتلة البربر، ثم أتبعهم بثلاثين ألف من أهل الشام وأعداد أخرى تبعتهم فيما بعد⁽³⁾.

(1) السيوطي: المصدر السابق، ص 550.

(2) الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص 109.

(3) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1410هـ/1989م، ص 36، وحسان حلاق: المرجع السابق، ص 305.

ومن بين المؤرخين المصريين، الذين اهتموا بأخبار المغرب، المؤرخ المصري عبد الرحمن ابن الحكم (187-257هـ/803-871م)، الذي وضع كتاباً بعنوان (فتوح إفريقيا والأندلس)، وهو أقدم كتاب وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس⁽¹⁾.

أما فيما يختص بالناحية الدينية والفقهية، فقد ساد في مصر المذهب المالكي بعد أن انتقل من المدينة والعراق، والبعض من الفقهاء نقله معه إلى المغرب والأندلس. بالرغم من أن الإمام الليث بن سعد أبو الحارث المتوفي سنة 175هـ/791م، كان مصرياً من بلدة قلقشيدة، من أعمال القليوبية، وكان يعيش في مصر، غير أن المصريين فضلوا "مالك" عليه، فقد علق على ذلك الإمام الشافعي بقوله: "الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به". غير أن المغاربة والأندلسيين الذين درسوا في مصر على يد الإمام الليث بن سعد، قد نقلوا مذهبه إلى الأندلس، حيث ظلت بعض تعاليمه وأحكامه معمولاً بها إلى جانب المذهب المالكي، حتى أواخر الحكم الإسلامي في الأندلس. كما انتقل إلى الأندلس أيضاً مذهب الإمام الشافعي بواسطة الفقيه بقي بن مخلد⁽²⁾ في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني.

(1) للإطلاع على المزيد من التفاصيل ينظر: عبد الرحمن بن عبد الحكم. فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964.

(2) بقي بن مخلد، أبو عبد الرحمن، اختلفت الروايات في تحديد سنة وفاته، مات بين 176هـ/792م و173هـ/789م، رحل إلى المشرق، فروى عن الأئمة وأعلام السنة، منهم الإمام أحمد بن حنبل وعبد الله بن شيبه، كتب المصنفات الكبار، خاصة كتابه في التفسير، ومصنفه الهام في الحديث. رجع إلى الأندلس فملاها علماً جما حسب رواية الضبي. روى عنه الكثير من المغاربة كمحمد بن القاسم الكتامي، وعلي بن أبي شيبه الأندلسي وعبد الله بن يونس المرادي، وكان الأخير مختصاً به مكثراً عنه، وعنه انتشرت كتبه الكبار. ينظر: الضبي، المصدر السابق، ص: 209-210.

ولكن لم يُقدر له الإنتشار كثيرا، بسبب معارضة المالكية وبعض الأمراء لأحكامه⁽¹⁾.

غير أنّ التأثير الجدير بالذكر، هو ذلك المتعلق بالتكوين العلمي الذي تلقاه المغاربة في الديار المصرية، خاصة في الحواضر العلمية كالقاهرة والأسكندرية، والمدارس العلمية الكبيرة التي اشتهرت بها مصر. وتُقدم لنا المصادر التاريخية جوانب مضيئة في هذا المجال، ومن أبرز المغاربة الذين استفادوا من علمه هناك، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- الرحالة المغربي البلوي، أقام بمصر أثناء رحلته المشهورة، وسجل لنا المدارس والمعابد والمساجد ودور العلم المشهورة التي زارها، واستفاد من علمائها علما وتكوينا وإجازة⁽²⁾.

- محمد بن أحمد بن مفرّج، المولود سنة 305هـ/917م، رحل إلى المشرق سنة 337هـ/948م، وتكونت شخصيته العلمية من خلال الشيوخ الذين اتصل بهم، واستفاد منهم، وأجازوه في مكة والمدينة وبلاد الشام. ودخل بعد ذلك مصر أثناء رجوعه إلى بلاد الأندلس، فسمع بالأسكندرية من أبي القاسم العلاف وأبي العباس العطار وغيرهما، وعدّد

(1) حسان حلاق: المرجع السابق، ص: 308-309.

(2) يورد البلوي بكثير من الإعجاب، أنّ المدرسة التي كانت بمخاء جامع بن طولون الشهير، كانت متقنة الصنعة تتميز باتساعها وارتفاعها، قرأ بها وبالمسجد المذكور كتب الحديث النبوي على يد تقي الدين بن أبي الدارس الأسدي المولود، سنة 642هـ/1244م، منها الأربعين حديثا البلدانية للحافظ أبي طاهر السلفي، كما قرأ القرآن الكريم على يد أبي الحيان النحوي الغرناطي - الذي وصفه بشيخ الشيوخ إمام الأئمة- بالقراءات السبع، وقرأ عليه أيضا جميع ثلاثيات الإمام البخاري وجميع قصيدته اللامية التي سماها (عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي)، وصحّح بقراءته عليه، بعض تأليفه المسمى (إرتشاق الضرب من لسان العرب) في النحو، وجميع المقدمة في النحو التي سماها (الشدرة)، وأجازه أثناء ذهابه إجازة تامة، كما لقي بمصر أحد أكابر المتصوفة بها، وهو أبو العباس أحمد ابن يوسف القرشي الحجازي، وسمع من لفظه جملة وافره من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكتاب مسلم بن الحجاج، وكتاب (الشفاء) للقاضي عياض. كما لقي أيضا أبا القاسم ابن عبد الله بن أبي القاسم الشافعي، وصفه: الشيخ الخطيب العالم، وسمع عنه المرويات المختلفة لتعلّم الحديث، خاصة للحافظ السلفي. ينظر: البلوي، الرحلة، ج1، ص 226، وج2، ص 21 وما بعدها.

الشيوخ الذين لقيهم ابن مفرج، وروى عنهم في جميع الأمصار التي دخلها، مع من كتب عنه بالأندلس مائتا شيخ⁽¹⁾. كان حافظا للحديث، عالما به، بصيرا بالرجال، صحيح النقل، سمع منه الناس كثيرا وكوّن تلاميذ كثر من شتى أصناف العلوم، خاصة علم الحديث، توفي سنة 380هـ/990م⁽²⁾.

نستنتج من المعطيات التي عرضناها في هذا الفصل أن المشرق الإسلامي أحدث تأثيرا جذريا في بلاد المغرب، خاصة على مستوى العقيدة، لقد شكل اعتناق المغاربة للدين الجديد -الإسلام- طريقا جديدة أثرت على الكثير من مناحي حياتهم، فقد شعر المغاربة أنهم جزء فعال من الأمة الإسلامية، لا يتميزون إلا بالتقوى، فأقبلوا على تعلم مبادئ الدين الجديد و أصوله، بل تشجع البعض منهم على الرحلة إلى المشرق، و أخذ العلوم الدينية من منبعها. واستقطبت الحواضر المغربية الكتب و المصنفات المشرقية، و تمّ الإقبال عليها في حلقات الدين واستفادوا منها.

⁽¹⁾ ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد: تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ج2، مكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص: 85-86.

⁽²⁾ المصدر نفسه: ص 87.

الفصل الثاني:

المؤثرات العلمية المغربية في المشرق

رحلة المغاربة وتأثيراتهم في بلاد المشرق

إذا كان القرن الأول الهجري هو عصر الفتوح و التوعية الدينية، فإن القرن الثاني و ما بعده، يفتح الباب على مصراعيه للرحلة العلمية⁽¹⁾، التي كانت تأكيداً للهوية الإسلامية للمتعلمين، واختراقاً لعالم أرحب من المعرفة و الإشباع الثقافي، عندما يكون موطن الرحلة هو المشرق الذي نبعت منه قبل غيره، عيون المعرفة الإسلامية . و بأقطار المشرق عموماً، نجد المغاربة في أكثرية الساحقة يتمتعون بسمعة طيبة، و يحظون بثقة أهل البلد الذي يحلون به و يعيشون بين أهله، و تفيض كتب التراجم التي يرد فيها ذكر المغاربة بالثناء على مؤهلاتهم و إشعاعهم، مع حرص هؤلاء على احترام تقاليدهم الدينية و تعاملهم بحسن الخلق، و هذه من الصفات السائدة لدى معظمهم⁽²⁾.

و تبدو الرحلة العلمية إلى المشرق في حدود القرنين الخامس و السادس مغامرة مادية مجهدة في وقت لم تكن تتوفر فيه مآو خاصة بالطلاب، و حتى الرباطات داخل المدن لم تكن قد انتشرت انتشارها في المراحل اللاحقة، و لذلك كان على الطلاب أن يجدوا مسجداً يقبل مبيتهم أو فندقاً يتعاون عدد منهم على تحمل نفقات إيجار غرفة به. و قد كانت ظاهرة الرفقة بين

(¹) كان من الأسباب الرئيسية لرحلة المغاربة إلى بلاد المشرق طلب العلم، وهو غاية رغبته فيها المدونة الإسلامية، قال الله تعالى: "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (سورة المجادلة، الآية 11). و لو لم يكن العلم أشرف شئ في الحياة لما طلب الله جلّ جلاله من رسوله أن يسأل المزيد منه في قوله: "و قُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا" (سورة طه، الآية 114). و قال رسول الله (ص)، في حديث أخرجه ابن ماجه و أحمد: "من خرج من بيته ابتغاء العلم وضعت الملائكة أجنحتها له رضا بما يصنع". ينظر البستي، أبو حاتم محمد: روضة العقلاء نزهة الفضلاء، تحقيق خليل مأمون شيخه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م، ص25، و أبو بكر جابر الجزائري: العلم و العلماء، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، [ب.ت.] ص17.

(²) ينظر مثلاً، ابن الجزري: تاريخه ج3، ص658، والصفدي: أعيان العصر، ج3، ص154 وإبراهيم حركات، المرجع السابق ج1 ص121.

الطلاب المغاربة مألوفة في الرحلات، خصوصا في الأجيال الأولى، و يبدو الطلاب هنا كزملائهم في كل زمان و مكان: الفقراء و متوسطو الحال، مستعدون لكل التضحيات من أجل الدراسة، وبالتالي من أجل ضمان مستقبلهم المادي، و لو أن هذا الموضوع يظل طموحا دينا . و في الطلاب من يتحدى المعوقات البدنية، مثل فقد البصر أو التقدم في السن، فيترحل دارسا في هذا القطر، ثم في غيره، و قد يكون مستواه في النهاية أفضل من مستوى أقرانه أو بعضهم⁽¹⁾.

و تسعفنا المصادر بالمعلومات التي تقدم لنا صورة عن عدد من الطلاب المغاربة الأساتذة والمهتمين بالثقافة و الفكر الذين توجهوا إلى المشرق، من خلال العملية الكبرى و هي التواصل بين المغرب و المشرق.

- موسى بن معاوية الصّمّادحي، المتوفي سنة 226هـ / 841 م، رحل للدراسة من القيروان إلى المشرق 189هـ/805م، درس حسب رواية أبي العرب، بالمدينة والكوفة والبصرة كان عالما بالحديث يتميز بالأمانة العلمية، عاد إلى إفريقية بعد ذلك، ونشر علما كبيرا، خاصة في علم الحديث، وكوّن العديد من الطلبة، كأبي بكر محمد بن محمد وغيره⁽²⁾.

- أسد بن الفرات بن سنان من موالي بني سليم من قيس، قيل أصله من خرسان، درس على مالك بالمدينة، كما درس بالعراق ومصر حيث أكمل الأسدية، وهي ما دونه من مسائل فقهية

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج1، ص 121. 122.

(2) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، المصدر السابق، ص 106، 107.

كان قد تلقاها عن العراقيين، وعنه تلقاها تلميذه سحنون بن سعيد التنوخي، قبل أن يرحل بها إلى ابن القاسم⁽¹⁾.

- محمد بن أبي المنظور عبد الله بن حسان، أصله من الأندلس وبها ولد من جزيرة طريف، رحل إلى المشرق ودرس على يد كثيرين، استوطن القيروان، وكانت له حسب القاضي عياض، العلم والصيانة مع جلالة السن، كلفه بنو عبيد بخطة القضاء تسكيناً لنفوس أهل السنة بالقيروان، وكان شرطه حين تولاها أن لا يأخذ لهم صلة، و لا يركب لهم دابة، و لا يقبل شهادة من قاربهم، ولا يركن راقبهم، فأجابوه الى ذلك، و كان صلباً في أحكامه القضائية، سالكا طريق العدل في أمره، كوّن العديد من الطلبة أبرزهم: أبو جعفر النصري، و ابن التبان، وابن نظيف، وعبد الله ابن أبي القاسم، توفي و هو كبير السن سنة 337هـ/ 948 م⁽²⁾.

- خالد بن سعيد القرطبي، يكنى: أبا القاسم، سمع من سعيد بن عثمان الأعناقى، وطاهر ابن عبد العزيز، و عبد الله بن أبي الوليد، ومحمد بن عمر بن لبابة و غيرهم من أهل قرطبة. كما سمع من محمد بن إبراهيم بن حيون الحجازي، و محمد بن فطيس الألبيري، و سمع الشبلي و غيرهم الكثير. ذكره ابن الفرضي، أنه كان إماماً في الحديث حافظاً له، بصيراً بعلمه عالماً بطرقه، مقدماً على أهل وقته في ذلك⁽³⁾.

(1) عمر الجيدي: المرجع السابق، ص 175

(2) القاضي عياض: المصدر السابق ج 2، ص 43-44.

(3) ابن الفرضي: المصدر السابق ج 1، ص 128. 129.

وجدير بالذكر، أنه كان من الدارسين بالمشرق في هذه الفترة، طلاب من أعمار مختلفة، كان بينهم عدد من الموالي. وظل عدد من الأمازيغ محدودا و أكثرهم من الإباضية. و الثقافة المطلوبة في الغالب تمس الحديث و الفقه و القراءات، و لكنها قد تتجاوزها إلى معارف أخرى، ومن الواضح أن الدارسين بالمشرق يعود بعضهم و قد تأثر بأفكار قد تخالف توجه بيئته المعتادة، ففي هذه المرحلة ظهر الإعتزال، و كان له تأثيره على المجتمع في بلاد المغرب، خصوصا بإفريقية و تاهرت، و هناك من كانوا يحبذون المذهب الشافعي، و من التزموا في التدريس طريقة التناظر و الحوار، التي عرفت في العديد من حلقات الدرس بالمشرق في هذه المرحلة، على أن هناك من ذهبوا لاكتساب آليات الثقافة الأدبية أو اللغوية، مثل عبد الرحمن الهواري و بكر بن حماد التاهرتي⁽¹⁾.

و خلال فترة القرنين الرابع و الخامس الهجريين، ظلت مصر و الحجاز و العراق، خصوصا بغداد و البصرة و الكوفة، أهم الجهات التي استثارت بالدارسين و الراغبين في استكمال ثقافتهم و إثرائها، و ابتداءً من القرن الرابع بالذات، بدأ الطلاب من المغرب الأقصى يتكاثرون لاسيما من سبتة و فاس، فالأمويون، خلال حكمهم للمغرب في هذه المرحلة، عملوا بشكل مباشر و غير مباشر، على نشر الثقافة الاسلامية، و بدأت تبرز الحاجة الملحة إلى المزيد من الإطارات المؤهلة، كما أن الزناتيين قاموا بجهد ملحوظ في تركيز الوجه الاسلامي للحضارة المحلية.

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج1، ص123

شهد القرن الخامس، و بالتالي نصفه الأخير، ترسيما مطلقا للمذهب المالكي لعموم بلاد المغرب لأول مرة، و على يد الأنظمة الصنهاجية: (زيريون، حماديون، مرابطون)، وهذا فيما عدا الجيوب الإباضية القليلة، و لما كانت هذه الأنظمة قد تبنت المذهب المالكي بشكل مباشر، فقد أصبح للفقهاء نفوذ بالغ على الصعيدين السياسي و الشعبي، و من ثم أصبحت الثقافة في بلاد المغرب الإسلامي بوجه عام، تخضع لإطار مرسوم على الطلاب، فضلا عن سائر المثقفين أن يأخذوه بعين الاعتبار، حتى إن تابعوا تكوينهم خارج منطقة بلاد المغرب⁽¹⁾. و من بين الذين رحلوا إلى المشرق من عموم المغرب:

سعيد بن يخلف المزاتي أبو نوح، المولود سنة 350 هـ / 961 م، الإباضي المذهب، كان علما من أعلام مزاتة، كان كثير الأسفار بين مراكز أهل الدعوة في المشرق و المغرب، و ذكر أنه وصل تادملت في السودان الغربي، و أدى فريضة الحج، اعتبر في كثير من المصادر التي أوردت ترجمته، أنه كان شيخ العلم و الورع، ذا سعة في العلم و المال، لا يضر من السائل، و لا يعي من أجوبة المسائل، رحيب الصدر، كوّن حلقة علم كونت الكثير من الطلبة والعلماء، توفي عام 400 هـ / 1009 م⁽²⁾

- ربيع القطان أبو سليمان، المولود سنة 288 هـ / 901 م، تابع دراسته بمصر و مكة، كان أدبيا نحويا على وجه الخصوص في بداية إشعاعه العلمي، ثم مال إلى حياة الزهد بعد ذلك،

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج1، ص 124. 126

(2) الشماخي: المصدر السابق، ص 345. 346، و محمد بن موسى بابا عمي و آخرون، معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق ج2، ص 412

لذلك وصفه القاضي عياض بأنه «من الفقهاء المعدودين و العباد المجتهدين و النساك، أهل الورع و الدين»، و لما عاد الى إفريقية استكتب، فألف الخطب و الرسائل، و حاك الشعر خاصة في الرقائق، و كان من أساتذته في مصر أبو عبد الله الحمري و أبو محمد بن رشيد، و بمكة من ابن شاذان الجلاب، و أبو محمد بن يزيد المقرئ و غيرهم. إن هذا التكوين العلمي لربيع القطان دفعه للتصدي للتدريس، حيث تكونت حوله حلقة شبه دائمة بجامع القيروان و بقي هذا دأبه إلى أن قتل على يد العبيديين الشيعة في حصار المهديّة، سنة 334 هـ / 945-946 م⁽¹⁾.

- حكم بن محمد بن هشام القرشي المقرئ، من أهل القيروان، قرأ القرآن بالقيروان، رحل إلى مصر و هو ابن سبع عشرة سنة، فدخل مصر و هي متوافرة من رجالها العلماء ، فجالسهم و استفاد منهم، خاصة القراء، ثم حجّ و دخل العراق، فقرأ بها على جماعة من أصحاب القراءات، و جلس بها إلى جماعة من العباد، مثل أبي عمر الزاهد و غيره. عاد إلى الأندلس على عهد الحكم المستنصر، ثم استأذنه في الجواز إلى القيروان فأذن له⁽²⁾.

- كان حكم بن محمد يقرأ القرآن، و يروي الحديث إلى أن توفي بالأندلس سنة 370 هـ / 980 م⁽³⁾.

⁽¹⁾ (القاضي عياض: المصدر السابق ج2، ص 34. 35.

⁽²⁾ (ابن الفرضي: المصدر السابق ج1، ص 120.

⁽³⁾ (المصدر نفسه: نفس الصفحة.

- عيسى بن سعادة السجلماسي، اعتبره عياض من مشاهير المغرب، كان فقيها محدثا، تتلمذ في بداية عهده العلمي ببلده و القيروان، ثم سافر إلى الأندلس و مصر و حصل زادا علميا معتبرا، جعله مقربا من أكابر علماء إفريقية، كأبي الحسن القابسي، و أبي الحسن الإمام، والدباغ . كان له إشعاع كبير في الديار المصرية، و عرف بالحافظ العجيب، و توفي بها سنة 355 هـ / 966 م⁽¹⁾ .

- خلف بن قاسم بن محمد الأزدي، المولود سنة 325 هـ / 937 م، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق سنة 345هـ-956 م، فتردد هناك نحو خمس عشرة، و سمع بمصر من جماعة المحدثين بها، منهم: حمزة بن محمد الكنايني، و أبو محمد بن الورد، و أبو العباس الرازي، و سمع في كور الشام من جماعة منهم ابن أبي الخصيب، بالزملة، و أبي ميمون القاضي بعسقلان، و أبو عبدالله السّراج، و الفضل بن عبيد الله الهاشمي ببيت المقدس، و سمع بدمشق من أبي الميمون بن راشد، صاحب أبي زرعة، و ابن أبي العقب و غيرهما، و سمع بمكة من أبي الحسن الطوسي، و أبي الحسن الخزاعي، و أبي بكر الآجري . و بلغ عدد شيوخه الذين لقيهم وكتب عنهم مائتين و ستة و ثلاثين شيخا⁽²⁾ .

(1) القاضي عياض: المصدر السابق ج2، ص173

(2) ابن الفرضي: المصدر السابق ج2، ص134

كان خلف بن القاسم، حافظاً للحديث، عالماً بطرقه منسوباً إلى فهمه، و ألف كتباً حسناً في الزهد، و خرّج من حديث الأئمة، حديث مالك بن أنس، وسبعة بن الحجاج، توفي سنة 393 هـ - 1003 م⁽¹⁾.

- أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الفاسي، المتوفي سنة 357 هـ / 968 م، سمع من شيوخه في بلده، و من إفريقية من أبي بكر بن اللّباد، اعتبره ابن القاضي من حفاظ المغرب المعدودين من أهل الفضل و الدين و الأمانة، حجّ و درس بالأسكندرية، و تميز في الفقه المالكي، وهو من رفقاء أبي محمد الأصيلي في الدراسة بالمشرق . و لما وصل إلى القيروان، اطلع الناس من حفظه على جوانب كبيرة، حتى كان يقال ليس في وقته أحفظ منه⁽²⁾.

- محمد بن عيسى بن زوبع السبتي، أصله من بصرّة المغرب، و كانت له ثقافة متينة في الفقه والحديث، و كانت له إلى المشرق رحلة حصّل فيها زاداً يسيراً في تخصصه⁽³⁾.

- الحسن بن عبد الله الأجدابي، المتوفي سنة 432 هـ / 1040 - 1041 م، عاش شطراً من القرن الرابع و شطراً من الخامس، رحل إلى مصر و الحجاز، ثم عاد إلى القيروان، فاشتهر كواحد من فقهاء البارزين، و رحل أيضاً، أخوه الحسن، و صار له إشعاع بإفريقية⁽⁴⁾.

- القاضي ابن العربي، محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي، فقيه حافظ عالم متفنن أصولي محدث مشهور، وصفه الضبي بأنه أديب رائق الشعر. رحل الى المشرق بعد الخمسمائة، وأقام

⁽¹⁾ ابن الفرضي: المصدر السابق ج 2، ص 134 . 135.

⁽²⁾ ابن القاضي: المصدر السابق، ج 1، ص 194-195.

⁽³⁾ ابن بشكوال: الصلة ج 2، ص 207.

⁽⁴⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 126.

بالعراق مدة و بالشام و مصر، و تفقه هناك. روى عن أبي بكر بن الوليد الفهري، و أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، و الشريف أبي الفوارس طراد بن محمد الزيني و غيرهم، عاد إلى بلاد المغرب، و أشاع بعلمه في الأندلس و المغرب، و صنف إنتاجا نظريا معتبرا، منها كتاب " أحكام القرآن " في ستة أسفار و كتاب " التلخيص في مسائل الخلاف " " ملجئة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين " و كتاب " القيس في شرح موطأ مالك بن أنس " . و في قضاء إشبيلية سنة 512 هـ / 1118 م، ثم انتقل إلى قرطبة و حدّث بها. عرف عن ابن العربي تضلعه في الفصاحة و الخطابة، و عرف عنه إستدلّاله لأي حديث أو درس بالآية القرآنية « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » .⁽¹⁾ توفي قرب مدينة فاس، سنة 543 هـ / 1148 م⁽²⁾ .

تؤكد هذه اللائحة، أهمية مصر في هذه الحقبة بالنسبة للمغاربة، خصوصا الأسكندرية، لأنها في طريق البقاع المقدّسة، و لوجود مؤثرات فاطمية بالقاهرة ابتداءً من النصف الثاني من القرن الرابع. و قليل من الدارسين توجهوا إلى العراق، حيث الأفكار و التيارات المتضاربة على تعددها، لا تغري أغلبية المغاربة، الذين احتاجوا إلى عدة قرون لتقبل علم المنطق، و لم يقبلوا من الفكر الفلسفي و الجدلي إلا هامشا محدودا في الزمن و المكان و الأشخاص و الإنتاج⁽³⁾ .

⁽¹⁾ سورة النحل : الآية رقم 98

⁽²⁾ (الضي: المصدر السابق، ص 80 و ما بعدها

⁽³⁾ (إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 125

و خلال فترة القرنين السادس و السابع، تنتشر المدارس في بلاد المشرق بعد نهاية العصر الفاطمي، و اتجاه أنظمة الحكم الجديدة، إلى نشر المذاهب السنية، و قصد الطلاب المغاربة من مختلف ميولاتهم الثقافية و العلمية هذه البلاد، و بينهم من نالوا مراكز رفيعة دينية و إدارية، و من الوافدين على المشرق:

- عتيق بن علي الصنهاجي المكناسي، درس بفاس ثم بمكة و بغداد و القاهرة و الأسكندرية، ثقافته خصبة، خصوصا في الفقه و الأدب، وكانت الخلافات الفقهية من أهم عناصر تكوينه⁽¹⁾.

- محمد بن إبراهيم المهري، بجائي، رحل إلى المشرق و لقي جماعة وافرة من حملة الحديث، ولي قضاء بجاية بعد منصرفه من رحلته العلمية، و أورد ابن بشكوال بخصوصه، أنه كان عالم وقته علما و كامالا وتفننا، يتحقق بعلم الكلام و أصول الفقه، حتى شهر بالأصولي، و اعتنى بإصلاح "المستصفي في أصول الفقه"، وهو كتاب معروف لأبي حامد الغزالي، و له عليه تقييد مفيد، امتحن بقرطبة سنة 593 هـ / 1197 م، هو و أبو الوليد بن رشد⁽²⁾، من أجل نظرهما في علوم الأوائل، توفي ببجاية سنة 612هـ / 1215 م.

(1) إبراهيم حركات: المرجع نفسه: ص 128.

(2) الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ولد بقرطبة سنة 520 هـ / 1126 م، قرنه الخليفة الموحي، أبو يوسف، الملقب بالمنصور، فزادت مكانته في الدولة رفعة، مما أثار حفيظة خصومه الفقهاء، الذين كانوا يريدون الإطاحة بطبقة الفلاسفة، حتى يستعيدوا مكانتهم التي كانت لهم أيام المرابطين، و لقد نجح خصومه في الكيد له لدى الخليفة بنفيه، و أمر بإحراق كتبه. لقد كان ابن رشد عبقريا في طرحه لقضايا الثقافة في وقته، لقد إنطلق من تصوره المنهجي الجديد للعلاقة بين الدين و الفلسفة من مبدأ أساسي، و هو الفصل بين عالم الغيب و عالم الشهادة فصلا حذريا، أساسه أن لكل منهما طبيعته الخاصة التي تختلف جوهريا عن طبيعة الآخر، لقد كان ابن رشد يلح على ضرورة قراءة القضايا الدينية داخل الدين =

- أبو الحسن علي بن عتيق الأنصاري القرطبي، ولد سنة 523هـ / 1129 م، أخذ القراءات عن أبي القاسم بن الفرس، و أبي العباس بن زرقون، و روى عن أبي محمد الرشاطي، و أبي القاسم بن بقي، و أبي بكر بن العربي، رحل حاجا فأدى الفريضة، و سمع بالأسكندرية، من أبي طاهر السلفي. و حسب ابن القاضي، فإن شيوخ أبي الحسن ينيفون على مئة و خمسين، أكثرهم أعلام مشاهير ألقى دروبا بفاس و بجاية و الأسكندرية، كان له بصر بالحديث والقراءات، و شارك في علم الطب و نظم الشعر، و له تواليف في الطب و الأصول، توفي سنة 598 هـ / 1201 م⁽¹⁾.

- محمد بن أبي القاسم التونسي، المولود سنة 639 هـ / 1241 م، و هو من المغاربة الذين تركوا بصماتهم العلمية الواضحة بالمشرق، خاصة بمصر، حيث تتلمذ بها في بداية مشواره مع

=القضايا الفلسفية داخل الفلسفة. من تأليفه في الطب كتاب "الكليات"، و قصد أن يجمع فيه الأصول الكلية، و له من رد على "تحافت الفلاسفة" للغزالي، سماه "تحافت التهافت"، و رسالة في التوفيق بين الحكمة و الشريعة سماها "فصل المقال فيما بين الشريعة و الحكمة من الإتصال"، و رسالة في نقد براهين المتكلمين و المتصوفة سماها "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة"، و مقالة في المقابلة بين آراء أرسطو و آراء الفارابي. أما كتبه في الفقه، فالمعروف منها كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، و ترجم أكثر مؤلفاته الطبية و الفلسفية إلى اللاتينية و العبرية، و ضاعت الكثير منها و بقيت ترجماتها ينظر: موسى الموسوي: من الكندي إلى ابن رشد، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثالثة، 1982، ص 212، وعزيز سو ر ي ا ل عطية: العلاقات بين الشرق و الغرب...تجارية، ثقافية، صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1972، ص 209، و محجوب بن ميلاد: ابن رشد و مكانته في تاريخ الفكر الإسلامي، ضمن أعمال مؤتمر ابن رشد في ذكره المتوية لوفاته، من 03 إلى 08 ذو الحجة 1393 هـ / 4-9 نوفمبر 1978، الجزء الثاني، نشر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، و المنظمة العربية للثقافة و العلوم، 1983، ص 191، و محمد عابد الجابري: المدرسة الفلسفية في المغرب و الأندلس... مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد، ضمن أعمال ندوة ابن رشد و مدرسته في الغرب الإسلامي، المنظم من قبل كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر التوزيع، وبيروت، الطبعة الأولى 1401 هـ / 1981 م، ص 132. 133، و عباس محمود العقاد، نوابغ الفكر العربي.. ابن رشد، دار المعارف، القاهرة [ب.ت.]، ص 27. 28. 29.

(¹) ابن القاضي: المصدر السابق ج2، ص 482 . 483.

العلم، و كان من أبرز أساتذته هناك، أبو المحاسن يوسف بن محمود الدمشقي اليعموري المعروف بالحافظ، و قاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي. ذكر الداودي، أنه ولي نيابة الحكم بالحسينية بالقاهرة مدّة، و تولى قضاء الأسكندرية سنة 707 هـ / 1307 م⁽¹⁾. كما شهد له ابن فرحون، بأنه كان إماما مفتيا مفسرا بارعا في فنونه، أصوليا عالما ذا سكون و عفة، له كتاب " مختصر التفريغ"، توفي محمد بن أبي القاسم، بالقاهرة سنة 715 هـ / 1315 م⁽²⁾.

و من المغاربة، الذين كان لهم إشعاعا مذكورا في بلاد الشام، علم الدين أبو محمد المرسي اللّورقي، المقرئ الأصولي، المولود سنة 575 هـ / 1179 م. تلقى تكوينه القاعدي في ميدان العلم بالأندلس، ثم رحل إلى مصر فتوسعت معارفه في ميدان علم القراءات، إحتك بعلماء التخصص في بلاد المشرق، كأبي الجود غياث بن فارس بمصر، و التاج زيد الكندي بدمشق، و أبي محمد بن الأخضر ببغداد، و حسب رواية المقرئ، فإن علم الدين كان بارعا في شتى. فبالإضافة إلى القراءات، أبدى تفوقا في العربية و علم الكلام و الفلسفة، هذا التنوع جعله يفرض نفسه كمقرئ بارز في بلاد الشام، حيث أقرأ بدمشق و درّس، و شرح العديد من المتون المعروفة في النحو، توفي سنة 611 هـ / 1214 م⁽³⁾.

(1) الداودي: المصدر السابق، ص 455.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 411.

(3) المقرئ: النفع، ج2، ص50.

- كما يمكن أن نضيف اسما آخر، كان له التأثير الكبير في بلاد المشرق، و هو أبو دحية الكلبي، أبو الخطاب، المولود سنة 547 هـ / 1152 م، كان من كبار المحدثين و الحفاظ الثقات، ارتحل إلى المشرق في عهد الدولة الأيوبية، التي كانت تحكم مصر و الشام. قرّبه حكامها لما أدركوا تقدمه في علم الحديث على الكثير من علمائهم، و بنوا له مدرسة يدرس بها بالقاهرة، و قد روى بالمغرب و مصر و الشام و العراق و خراسان، حتى وفاته سنة 633 هـ / 1253 م⁽¹⁾.

- و في ميدان العلوم العربية، يشخص اسمٌ بارزٌ، كان لإنتاجه النظري تأثيرا في المغرب والمشرق، و هو ابن مالك محمد بن عبد الله الطائي الجياني، ولد سنة 600 هـ / 1203 م، عاش ابن مالك معظم حياته في بلاد المشرق، إذ لم يعد إلى الأندلس منذ أن رحل عنها، وقد تتلمذ على يد علماء المشرق⁽²⁾، سمع بحلب. و حسب رواية ابن شاكر، فإن تضلعه في النحو والتصريف كان فيهما مجرا لا يشق لجّه، و أقام بدمشق مدة من الزمان عكف فيها على التأليف و التدريس، و تخرج على يديه جماعة كبيرة، صنف كتاب "تسهيل الفوائد" و كتاب "سبك المنظوم و فك المختوم" و كتاب "الكافية الشافية" و "إكمال الإعلام بمثلث الكلام" و "عدّة اللافظ و عمدة الحافظ" و "و إعراب مشكل البخاري". إن هذه الغزارة في التأليف، قيمتها العلمية الكبيرة، هي التي جعلت ابن مالك يفرض نفسه و يلقي الترحيب

⁽¹⁾ المقري: المصدر السابق، ص 99 و ما بعدها.

⁽²⁾ يحيى حفيظة: إسهامات نخاة المغرب و الأندلس في تأصيل الدرس النحوي خلال القرنين السادس و السابع الهجريين، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ص 129.

و الثناء من العلماء المشاركة و المهتمين بالعلم و كذا رجال الحكم و السياسة ، فقد كان إذا التقى بقاضي قضاة دمشق شمس الدين بن خلكان يشيِّعه هذا الأخير إلى بيته تعظيماً له، توفي ابن مالك سنة 672 هـ / 1273 م⁽¹⁾. قال عنه الذهبي "تصدّر لإقراء العربية، و صرف همته إلى اتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، و حاز قصب السبق و أربى على المتقدمين . و كان إماماً في القراءات و عللها، و أمّا اللغة، فكان إليه المنتهى في الإكتار من نقل غريبها و الإطلاع على حوشيتها، و أما النحو و التصريف، فكان فيهما بجرّاً لا يجارى، و حبراً لا يبارى، و أما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة و النحو، فكان الأئمة الأعلام يتحیرون فيه، و يتعجبون منه أين يأتي بها⁽²⁾ .

و في هذا الفن أيضاً، يبرز اسم أبي موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي من أهل سوس في المغرب الأقصى. درس بسوس قبل أن يتلقى على كبير الشيوخ سبته ابن عبید الله الحجري الأندلسي، كما درس بمصر خصوصاً على عبد الله بن برّي، المتوفي سنة 581هـ/1186م، وهو من كبار علماء العربية، و عنه تلقى شرح جمل الزجاجي⁽³⁾.

(1) حاجي خليفة المصدر السابق، ج1، ص 338. 339، و ابن شاکر الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص 407. 408.
(2) السيوطي جلال الدين : بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، ج1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، صيدا، [ب.ت.]، ص130.

(3) كتاب "الجمل" في النحو، للشيخ ابن القاسم عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجي النحوي، المتوفي سنة 339هـ/950م، اعتبره حاجي خليفة كتاباً مفيداً جداً لم يشتغل به أحداً إلا انتفع به، و يقال أنه ألفه بمكة المكرمة، كما يقال أنه كان إذا فرغ = من باب طاف أسبوعاً و دعا الله أن يغفر له و أن ينتفع به قارئه. وضعت على هذا الكتاب شروح عدة من قبل المغاربة، أبرزها شرح أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي المتوفي سنة 521 هـ / 1127 م، و منها شرح طاهر بن أحمد النحوي، المتوفي سنة 545 هـ / 1062 م، و شرح محمد بن علي الشامي الغرناطي، المتوفي سنة 815 هـ / 1412 م. ينظر حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1، ص 473. 474.

و في رجوعه اشتغل بالتدريس في المرية بالأندلس، و كان بين تلامذته الشلوبيين⁽¹⁾. و ابن حوط الله و ابن معطي، ثم تابع مهمته هذه بمراكش، حيث تولّى خطابتها أيضا من مؤلفاته: المقدمة المعروفة بالجزولية. التي خلدت اسمه، و هي نفسها شرح لجمل الزجاجي، أي أنها من بين عشرات الشروح الأخرى للجمل، لكنها صياغة جديدة للنحو بتعليلات و رموز و حدود، بمرت الدارسين على دقة فهمها و عسر الاستفادة منها⁽²⁾. و قد اعترف المشاركة للجزولي بهذه العبقرية، إذ اعتبره ابن خلكان، إماما في علم النحو، كثير الاطلاع على دقائقه و غريبه و شاذّه، و سُجّل للجزولي، أن مقدمته أتى فيها بالعجائب، و هي في غاية الإيجاز مع الإشتغال على شيء كثير من النحو و لم يُسبق إلى مثلها. مما حدا بالكثير، إلى الاعتناء بها مغربا و مشرقا. توفي الجزولي حوالي سنة 610 هـ / 1213 م⁽³⁾.

و في ميدان الفقه، برز من المؤثرين المغاربة في الديار المصرية، أبو العباس القيسي المالكي، المعروف بابن القسطلاني، نسبة لقسيطة من إقليم إفريقية، كان من أعيان الفقهاء المالكية، أقرأ الأصول على الفقيه أبي منصور المالكي، و المذهب على خاله، القاضي الحسن بن أبي بكر بن الحسن القسطلاني، و درّس في موضعه بعد وفاته. و صحب الشيخ الزاهد أبا عبد الله القرشي،

(1) عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، المعروف بالشلوبيين، المولود سنة 562 هـ / 1166 م، كان إماما في علم العربية حسب رواية ابن الزبير، روى في بداية مشواره العلمي عن الحافظ أبي بكر بن الجدي، و أبي عبد الله بن زرقون. شرح الكراسة المنسوبة إلى أستاذه الجزولي، أقرأ النحو و علوم العربية نحو 60 سنة، كوّن تلامذة كثر من المغرب و الأندلس. توفي الشلوبيين سنة 645 هـ / 1247 م. ينظر ابن الزبير: صلة الصلة، المصدر السابق، ص 200، و ابن فرحون: الدياج، المصدر السابق، ص 285.

(2) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 173.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 488.

و اختص بخدمته و دوّن كلامه. و ولي أبو العباس القيسي التدريس بمدرسة المالكية بمصر، كنتيجة حتمية لتفوقه العلمي، خاصة في مجال الفقه، بالإضافة إلى تكوينه على يد علماء بارزين كالعالم

النحوي ابن برّي في مصر، و يونس القاسمي بمكة، التي توفي بها سنة 636 هـ / 1238 م⁽¹⁾.

و من المغاربة الذين أثروا علميا في الديار المصرية، أبو أحمد بن أبي بكر بن مافر بن أبي بكر المالكي، الشهير بابن زيتون، المولود سنة 621 هـ / 1224 م، كان قاضيا للجماعة بتونس، تلقى تكويننا قاعديا بمدينة تونس، على يد أبي عبد الله الشوبسي، و أبي القاسم بن المرّوس وغيرهما⁽²⁾.

و رحل الى بلاد المشرق رحلتين: الأولى في سنة 648 هـ / 1250 م اتصل بعلماء مصر البارزين وقتذاك، و أخذ عنهم كسلطان العلماء العز بن عبد السلام، المتوفي سنة 660 هـ/1262م، و فخر الدين البندهي. و أدى فريضة الحج، عاد بعدها إلى تونس الخضرة بعلم كبير و رواية واسعة، ثم رحل ثانية سنة 656 هـ / 1258 م، فأقام بالقاهرة يدرس بمدارسها، ثم حجّ و رجع إلى تونس، إشتغل بالقضاء و التدريس، و إنتفع الناس به، كان حسب رواية ابن فرحون، إماما عالما ذا فضل و دين و خلق⁽³⁾.

(1) ابن فرحون : المصدر السابق، ص 130.

(2) المصدر نفسه: ص 163.

(3) ابن فرحون :المصدر السابق، ص 164.

و ينقل صاحب كتاب نيل "الإبتهاج" رواية عن التيجيبي صاحب الرحلة، أن ابن زيتون كان عالما بارعا محدثا حافظا متقنا عارفا بالحديث، قيما على أنواعه ضابطا ثقة . توفي سنة 730هـ / 1329 م. 1330 م⁽¹⁾.

و في ميدان الجغرافيا، يظهر الجغرافي و الرحالة ابن سعيد المغربي، و هو علي بن موسى ابن عبد الملك بن سعيد بن خلف الغرناطي، المولود سنة 610 هـ / 1213 م، و المتوفي سنة 685 هـ / 1286 م⁽²⁾، لم يتح لمصنّف عربي آخر، قبل ابن سعيد أو بعده، القيام بدور الشاهد الثقافي، الموسوعي المستقصي على التفاعل و التجاذب و الجدل بين المشرق و المغرب، كما أتيح لهذا المؤرخ الناقد، و الرحالة الجغرافي الأندلسي النشأة التونسي الإقامة، المشرقي السياحة العلمية، شاما و مصر، عراقا و حجازا⁽³⁾.

كان ابن سعيد موسوعيا في إنتاجه الفكري، نستنتج ذلك من المؤلفات الكثيرة التي ألفها، وسجلتها لنا الكتب التي ترجمت له، منها "المرقصات و المطربات" و "المقتطف" و "الطالع السعيد في تاريخ بن سعيد"، و الكتابان البارزان "المغرب" و "المشرق"⁽⁴⁾ في الواقع أنه ليس من

⁽¹⁾ أحمد بابا: الديباج، المصدر السابق، ص362.

⁽²⁾ ابن فرحون: المصدر السابق، ص 301. 302.

⁽³⁾ محمد جابر الأنصاري: التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، المرجع السابق، ص 5.

⁽⁴⁾ العنوان الكامل للكتاب الأول المحتوي على كتابي "المشرق في حلى المشرق" و كتابي "المغرب في حلى المغرب" يرتبط الكتاب الثاني بأسرة بني سعيد، التي وضعت نواة الكتاب، عندما ألف عبد الملك بن سعيد المتوفي سنة 562 هـ / 1166 م، كتاب "المسهب في غرائب المغرب" سنة 530 هـ / 1135 م زمن المرابطين، و أسهم ابن سعيد بدوره في إثراء المؤلف. و عندما يقال كتاب "المغرب"، فإن التراث العلمي لأسرة بني سعيد معني بذلك و إذا كان ابن سعيد قد أتم كتاب المغرب، وكان خاتمة مؤلفاته، فإنه أيضا كان الخاتمة الطبيعية و المصب الجامع لذلك التراث العلمي الخصب المتنوع. فالتأمل لتراث الأسرة يرى أن تلك الإتجاهات الثلاثة من أدب و تاريخ و جغرافية كانت تبرز منفردة بين حين و آخر، فالحجاري كاتب

المبالغة أن يقال أن كتاب " المغرب " كان مدرسة ابن سعيد الكبرى، و إن هذا الكتاب أساسا هو الذي حدّد له حدود علمه و اتجاهاته . يقول ابن سعيد محمدا علاقتة بهذا الكتاب، مبينا دوره فيه و في توأمه كتاب "المشرق" : " كان والدي، قد جمع المغرب في حلى المغرب، و المشرق في حلى المشرق. و جلّ جهدي في تكميل هذين الكتابين على ما رسم لي " . أما ما رسمه والده، فتبين من حديثه السابق للملك الناصر، هذا الحديث الذي اتضح منه، إتجاه ابن سعيد نحو الجغرافيا والتاريخ باعتبارهما رافدين يصبّان في مجرى اهتمامه الأدبي الأوسع⁽¹⁾ .

لذلك، عندما رحل ابن سعيد إلى المشرق، كان حاملاً زاداً ضخماً من تراث الأندلس الفكري، فلا غرابة أن أقبل الناس على ابن سعيد إقبالاً عظيماً . وطار اسمه كل مطار، و كان هو نفسه رجلاً ذكياً نشيطاً مقبلاً على العمل، فأصبح خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري، معلماً من أعلام المجتمع و الثقافة في بلاد المشرق، كله خاصة بمصر و الشام، و ذاع له الصيت العظيم⁽²⁾ .

و لعل سر شهرة ابن سعيد بالأدب، فترجع إلى أنه وفد إلى المشرق في عصر غلب على المثقفين فيه طابع الأدب، و الرغبة في تسجيل كل بيت من الشعر يرد ذكره مخافة أن يضيع،

عبدالمملك بن سعيد، وضع جذور الإهتمام بالجغرافيا بطريقة تأليفه لكتاب المسهب، و الشاعر أبو جعفر بن سعيد، عمّ والد ابن سعيد، مثلّ الإتجاه الأدبي الخالص، و حاول أن يطبع كتاب المغرب بطابعه. ثم جاء موسى والد ابن سعيد نفسه، فمثلّ الإتجاه التاريخي العلمي، حتى أن ولده و صفه بأنه أعلم بني سعيد بالتاريخ، و عندما جاء ابن سعيد و ناطت به الظروف إخراج الكتاب بصيغته النهائية، جمع بين الإتجاهات الثلاثة في شخصيته العلمية . ينظر: محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 150 . 151.

(¹) المرجع نفسه: ص 150.

(²) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، مدريد، الطبعة الثانية، 1986، ص 464.

وهو اهتمام غلب على الناس بعد سقوط بغداد في أيدي التتار، و ضياع ألوف الكتب أثناء هذه الكارثة الكبيرة، فاتجه همّ الناس إلى استرجاع ما فات، و استنقاذ ما أمكن إنقاذه من حطام السفين الغارق، و لهذا فإننا نرى في عالم العرب كله، ابتداءً من القرن السابع الهجري اهتماما بالتسجيل و الجمع، و لما كان حرص المسلمين على الحفاظ على هذا التراث يبدو في أحلى صورته في المحافظة على اللغة، لغة القرآن الكريم، فقد اهتم الناس أكثر ما اهتموا بالشعر و النثر، فكثرت مجموعة المختارات من أواخر القرن السادس الهجري و طلبها الناس بكل سبيل⁽¹⁾.

و يذكر، أن الفرصة لم تسنح لابن سعيد لإخراج المغرب و إتمام المشرق، إلا بعد أن تعرف على صديق جديد، و هو كمال الدين بن عمر بن أبي جرادة، المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب، فقد وفد هذا الأخير على القاهرة رسولاً من الناصر الأيوبي صاحب حلب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب⁽²⁾، و هناك عرف ابن سعيد و ما عنده من علم و فضل فدعاه الى الرحلة إلى حلب و الدخول في خدمة صاحبها، فذهب إلى هناك، فبقى ثلاث سنوات من 644 إلى 646 هـ / 1246 - 1249 م، ربما كانت أهدأ أيام حياته و أوفرها إنتاجاً، فقد أتمّ إخراج المغرب، و ربما جزء من المشرق. و يبدو أنه لم يطمئن بعد ذلك للمقام في حلب، فاتجه إلى

(1) المرجع نفسه: نفس الصفحة .

(2) السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، المولود سنة 603 هـ / 1206 م، المتوفي مجاهداً في مواجهة الفرنج سنة 647 هـ / 1249 م ذكر ابن واصل، أنه كان حسن العقيدة جميل الطوية مع الميل إلى مطالعة الكتب و العلوم = و محبته لأهل الفضل و الدين، يجري عليهم الأعطيات و يحسن إليهم ينظر ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المصدر السابق، ص 82 و ما بعدها.

دمشق، و هناك دخل في خدمة السلطان المعظم توران شاه⁽¹⁾ لم يطل به المقام هناك أكثر من سنة، فرحل سنة 648 هـ / 1251 م، و مرّ بطريقه بأرمينية، ثم غادر بغداد إلى الحجاز، ثم كرّ راجعا إلى تونس سنة 652 هـ / 1254 م، حيث نزل عند صديقه أبي عباس أحمد التغارشي، صاحب الموسوعة المعروفة⁽²⁾.

يظهر إذن، أن ابن سعيد عاش حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث و التجارب و الأسفار و العمل، و هو دون شك، من أعظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق، و من أبعدهم أثراً فيه، فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده، متمثلة بيت يميني قديم . انتقل آل هذا البيت إلى الأندلس، و أقاموا هناك مجدا سياسيا، ثم توفر الأخيرون من رجاله، على ميراث كتاب، هو من مفاخر الأندلس، بفضل ما يحمل من تراث قرائح أهله، ثم عاد آخر أولئك الرجال إلى المشرق طاويا أعلام المجد السياسي و ناشرا صفحات المجد الفكري في تونس و في عواصم الشرق : القاهرة و دمشق و حلب، أتمّ الرجل عمل آبائه، و ختم تاريخهم أجمل ختام بفضل ما أوتي من الذكاء و النشاط و طرافة الشخصية، و ما حرص عليه من الدعوة العريضة لوطنه الأندلس و أهله، فأما دعوته للأندلس، فقد اتجهت نحو وصف الأرض و الجو و المدن، وما

(1) توران شاه بن أيوب بن شاذي الملقب بشمس الدولة و هو أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي، توفي سنة 576 هـ 1180 م بـشـغـر الأـسـكـنـدريـة، نقل إلى دمشق و دفن بها، استعمله أخوه لإحتواء حركات التمرد، حيث نجح في احتواء ثورة عبدالنبي بن مهدي في اليمن، ينظر ابن خلكان، المصدر السابق ج1، ص 306. 307.

(2) عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب مقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، 1416 هـ / 1995 م، ص 489، و حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 473 . 474.

إلى ذلك، فأمدنا بمادة جغرافية صرفة من الطراز الأول، و أما دعواه لأهله، فاتجهت إلى بيان إمتيازهم الفكري. فأمدتنا بمادة أدبية ذات قيمة لا تقدر⁽¹⁾.

و أكيد الظن، أن ابن سعيد جال في غربي إفريقيا، و رأى مصب نهر السنغال، أو لعله نقل ما كتبه في هذا الصدد عن الرحالة ابن فاطمة⁽²⁾، الذي قام برحلة بحرية جنوبي مراكش، و غرقت السفينة التي كان فيها عند الرأس الأخضر (=جنوبي المستعمرة الإسبانية السابقة التي تعرف باسم ساحل الذهب)، بعد أن توغل عند الأوربيين حينذاك.

و على العموم، فإن تميّز ابن سعيد، كان في مصنفاته العلمية في الميدان الجغرافي، و التي تبدو للباحث جلية، خلال كتابه الكبير في هذا المجال و هو " الجغرافيا في الأقاليم السبعة"⁽³⁾ وإلى المختصرين عنه، و هما " وصف الكون " و " بسط الأرض في الطول و العرض " و من الواضح أنّ هذا الرجل الفذّ سار بتيار التأليف الجغرافي العلمي في الطريق الجاد متابعا لتقليد الرازي، والبكري، و الإدريسي، و من إليهم من المنهجين الأصوليين من أهل الأندلس، محافظا على جوهر العلم الجغرافي من أن ينحدر في الطريق السهل الفسيح، و كتابه في الجغرافية، إنما هو في

(1) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 475.

(2) يعد ابن فاطمة - بدلالة ما نقل ابن سعيد عنه - من أحسن أصحاب الكتب من رحالة العرب و المسلمين، و من الأسف أننا لا نعرف عن هذا الرجل أو كتابه شيئا على الإطلاق، حتى اسمه لا نعرفه إلا منقوصا. ابن فاطمة فيما يبدو من أهل السودان الغربي، و ربما كان أهله مما يعرف اليوم بالسنغال، أو ما يليها جنوبا، و ربما كان من أهل غانة الإسلامية، فإن نسبة الناس إلى أمهاتهم كانت شائعة في هذه النواحي، خاصة، و لدينا أسماء مثل ابن الصحراوية و ابن غانية و ابن عائشة و ابن فتو بنت يوسف بن تاشفين، و كلها شبيهة باسم ابن فاطمة، و يستدل من الإشارات التاريخية الواردة في كتابه، أنه كان سابقا على ابن سعيد بقليل، أي أنه من أهل القرن السادس الهجري، ينظر حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 507.

(3) لقد قام المرحوم، الأستاذ اسماعيل العربي بتحقيقه بعنوان " الجغرافيا"، و صدر عن ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر سنة 1982، و قد بذل جهدا كبيرا في تحقيق هذا الكتاب، سواء على مستوى النص، أو على مستوى الهوامش لتوضيح ما غمض من النص، كما ذيل تحقيقه بملاحق توضيحية ذات فائدة علمية لا تنكر.

الحقيقة، ابتكار في التأليف الموجز المركز الغزير المادة، القائم على التفكير السليم و الحساب الدقيق و التصور الواضح⁽¹⁾.

غير أن أهمية ابن سعيد، في نهاية المطاف، ستبقى في إصراره العنيد المتواصل على العمل الثقافي، رغم الإنهيارات السياسية الكبرى في عصره رغم كونه أحد ضحاياها⁽²⁾.

لقد أصّر الرجل، على مواصلة رسالته الثقافية، و وجد في انتمائه الأعمق الى "دار الإسلام" و حضارته - مشرقا و مغربا- ما يعوضه عن ضياع داره و موطنه، و كانت رحلاته المشرقية المتتابعة، رمزا لذلك التفاعل العميق و الوحدة المتصلة في دار الإسلام و العروبة⁽³⁾.

و في فترة القرن السابع الهجري تستقبل دمشق شخصية أندلسية عالية الثقافة و المستوى، الذي يعتبر صاحبهما نموذجا فريدا و متميزا، من حيث التأثير العلمي، و اكتسابه لإعتراف أهل المدينة بقدرته و جدارته، هو محمد بن أحمد، أبو بكر جمال الدين الوائلي، البكري الشافعي ولد بشريس بالأندلس سنة 601 هـ / 1205 م، و تلقى علومه في كل من مصر و الشام وأربل⁽⁴⁾، و بغداد، فأحاط بعلوم شتى، كما هي الحال بالنسبة للغالبية العظمى من رجال هذه الفئة، لكنه

⁽¹⁾ أنظر مقدمة تحقيق اسماعيل العربي لكتاب ابن سعيد المذكور سابقا ص 50 و ما بعدها، و حسين مؤنس: المرجع السابق ص 517.

⁽²⁾ لقد كان ابن سعيد سليل الأرسطراطية الأندلسية، فهو ينتمي إلى أسرة حاكمة توارثت المجد و الشهرة، غير أن الصراعات السياسية في الأندلس، جعلت النصارى ينجحون في الاستيلاء على العديد من المدن الأندلسية الهامة، بعد معركة العقاب، التي انهزم فيها الموحدون أمام النصارى سنة 609 هـ / 1212 م، و التي تعتبر العد التنازلي لضياع الأندلس، و عاش ابن سعيد في هذا الجو القلق، الذي طغى على أشعاره و كتاباته.

⁽³⁾ محمد جابر الأنصاري: المرجع السابق، ص 298.

⁽⁴⁾ أربل مدينة محدودة ضمن أعمال مدينة الموصل على مسيرة يومين منها، كان سكانها على عهد ياقوت الحموي أكراد استعربوا. و هي مدينة كبيرة عامرة بالبناء كما وصفها، كثيرة الغلات الفلاحية غنية بالمياه، ينظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج 1 ص 137. 138.

امتاز عنهم، بالتفوق في كل فرع درّسه، ففي مجال علم النحو، استطاع أن يتقن فنونه جميعها. وتبحر في المذهب المالكي، إلى درجة اعتبر فيها أحد العارفين البارزين بهذا المذهب⁽¹⁾.

و من جهة أخرى، فقد كان متضلّعا في معرفة الأدب و معانيه و بديعه و مضامينه، و كان له باع طويل في معرفة علم الحديث، يحفظ رجاله و أحكامه، و يتكلم على صحيحه و حسنه و ضعيفه، و هكذا فقد أجمع رجال علماء عصره على الإعتراف له بالفضل في مجال علوم عديدة، و هذا ما حدا بالملك الناصر يوسف بن أيوب (570 - 589 هـ / 1174 - 1193 م)، لأن يقربه إلى مجلسه الخاص و نصبه للتدريس بالمدرسة الصالحية بدمشق، فكان يحترمه و يجله كثيرا، حتى لم يتمكن معه من إخفاء مشاعر الإجلال و الإحترام التي يكنها له. و كان يقول "و ما جعلناه شيخا في هذا المكان إلا لنخدمه لا ليخدمنا". و لم يقتصر في هذا المكان فحسب، إنما كان له وجود في أماكن أخرى مشهورة على صعيد العلم، فقد مارس التدريس في العديد من مدارس دمشق، و خاصة الجامع الأموي الكبير، فهو بذلك واحد من قلائل من رجال هذه الفئة حازوا هذه المكانة، و قد انتفع به عدد من الطلاب و رجال العلم خلال الفترة التي أمضاها بدمشق، و التي انتهت بوفاته سنة 685 هـ / 1286 م ودفن بها⁽²⁾.

ابن جبير

يعتبر ابن جبير، أحد أبرز الرحالة الأندلسيين، الذين قدموا إلى بلاد الشام، خلال القرن السادس الهجري / 12 م، مقدما نموذج الرحالة المفكر، الذي شكّل مظهرها مشرقاً من مظاهر

(1) علي أحمد: الأندلسيون في بلاد الشام، المرجع السابق، ص 178.

(2) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2، ص132 و علي أحمد، المرجع السابق، ص178-179.

التواصل العلمي و الحضاري بين المغرب الاسلامي و مشرقه، من خلال المعطيات العلمية النفيسة، التي تضمنها كتابه حول الرحلة إلى المشرق، تناول فيها العديد من الجوانب السياسية، و الحربية، و الاجتماعية، و الاقتصادية و العقائدية، في حياة بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، و في بعض الأحيان، نجده ينفرد بإيراد إشارات لا نجد لها نظيرا في رحلات الرحالة المسلمين⁽¹⁾ الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، و من ثم تحتل رحلته مكانة خاصة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات خاصة بالرحلة الإسلامية إلى هناك⁽²⁾.

يرتفع نسب محمد بن أحمد بن جبير الكناني إلى أسرة عربية عريقة، فقد دخل أسلافه الأندلس في القرن الثاني الهجري، مع القائد الشهير بلح بن بشر، بن عياض القشيري، و كان

(1) فن الرحلة قديم في الأدب العربي، عبر من خلاله و من قلبه الأديب العربي عما أحس به و هو يجوب الآفاق مكتشفا أو متعلما، و اتجه إلى التعبير عن ذلك تارة بالشعر و أخرى بالنثر، و رغم أن جل ما دونه الأدب العربي من رحلات لم يصلنا، إما لأنه ضاع، أو لأننا لم نلتمس طريقنا إليه بعد، فان ما اطلعنا عليه من هذه الرحلات، يعطي صورة واضحة على قدم هذه الرحلات و تنوع إتجاهاتها و طرقها و إختلاف أهدافها و غنى مضامينها. إلا أن هذا الفن يرقى إلى القمة في الإبداع، و يزداد اتساعا و خصوبة في الغرب الإسلامي عند الأندلسيين و المغاربة، بما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ و زيارة الأماكن المقدسة و جولاتهم من أجل الإطلاع و البحث. و لعل الذي ساعد على تنمية هذا الإهتمام و رعى هذه الرغبة في الرحلة عند المغاربة، هو الموقع الجغرافي للمغرب، يبعده عن الشرق و الحجاز من جهة، و إطلاله على القارة الأوروبية من جهة ثانية، و لهذا انتظمت رحلات المغاربة للأقطار المختلفة شرقا و غربا، بلادا إسلامية و غير إسلامية، و إن كنا وجدنا أن الحجاز يستقطب أكثر المغاربة و يستهويهم و يجذبهم نحوه، فلقد أورد ابن خلدون في المقدمة، أن رحلة المغاربة " كانت غالبا إلى الحجاز"، لأن المدينة المنورة وبتذات كانت دار علم. و هناك ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل و هي أن بعض المغاربة لا يكتفون برحلة واحدة إلى المشرق عامة و إلى الحجاز خاصة، و لكنهم بمجرد ما يصلون إلى بلدهم يسرعون إلى العودة من جديد، فهذا ابن جابر الوادي أشي يعرف بصاحب الرحلتين، و هذا ابن جبير قام برحلات ثلاث، و ابن بطوطة قضى جزءا كبيرا من حياته في الرحلة و التنقل، ينظر ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 449، و حسن الشاهدي = أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، مطبعة عكاظ، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية، يناير 2002، ص 47. 48. 49، كما تضمن كتاب "الرحالة المسلمون في العصور الوسطى" للدكتور زكي محمد حسن أهم الرحلات و أصحابها.

(2) محمد مؤنس عوض: الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995، ص 283.

اسم ابن جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته، فقد حمّله الكثيرون قبله، و هو من الأسرة على ما يبدو من بلنسية⁽¹⁾، التي ولد بها الرحالة ابن جبير عام 540 هـ / 1145 م، و قد اهتم والده بتربيته، فدرس العلوم الدينية و اللغوية، و ظهرت موهبته الأدبية فقرض الشعر، و لمع اسمه، و من ثم اتخذه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن، رفيقا له و جعله أحد كتاب ديوانه⁽²⁾.

و يذكر، أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر، و كافأه على ذلك بأن أعطاه سبعة كؤوس مليئة بالدنانير، و قد عقد ابن جبير العزم على أن يقوم بالحجّ إلى بيت الله الحرام من أجل التكفير عن ذلك الإثم الكبير، و من هنا نبتت في ذهنه فكرة الإرتحال إلى المشرق⁽³⁾. فإذا برغبته لطلب العلم تتجدد، فيمضي يسمع على الشيوخ فيما يمر به من بلدان، و إذا هو يتكشف عن رجل دقيق الملاحظة، صائب النظر، مشغوف بتسجيل ما يرى في أسلوب سهل صادق يبعث على الثقة، و إذا به نتيجة لذلك كله، يخلف لنا وثيقة من أجمل و أصدق ما خلفه الرحالة العرب، يصل بها دفعة واحدة إلى قرابة القمة التي وصل إليها فن تدوين الرحلات في تاريخنا الفكري⁽⁴⁾.

قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق، إذ أنه غادر غرناطة في عام 578 هـ / 1183 في رحلته الأولى، ثم قام برحلة ثانية، إذ أنه علم بانتصار المسلمين على الصليبيين عام 583 هـ /

(1) أغناطيوس كرانسكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات جامعة الدول العربية، [ب.ت.ص] ص 299.

(2) محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص 285.

(3) المرجع نفسه: نفس الصفحة.

(4) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 429.

1187 م، فقرر الذهاب مرة أخرى إلى الشرق من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية، بعد أن تم تحريرها من قبضة الغزاة الصليبيين، فارتحل إلى هناك عام 585هـ / 1189 م، و عاد إلى بلاده في عام 587هـ / 1191م، أما الرحلة الثالثة فكانت عام 614هـ / 1217 م، و أقام بمكة المكرمة فترة من الزمن ثم رجع إلى الإسكندرية، و أقام بها إلى أن أدركته منيته هناك سنة 616 هـ أو 617 هـ / 1219 أو 1220م⁽¹⁾.

و يمكن القول، أن هناك ناحية هامة تلفت إنتباه القارئ لرحلة ابن جبير، و هي اعتماده في المقام الأول على المشاهدة و الملاحظة، فكان لا يكاد يسمع عن شيء غريب إلا أسرع لرؤيته، ولا يتصل به طرف من خبر، حتى يبادر إلى استقصاء تفصيله، و لا يترك أثرا أو مشهدا أو إجتماعا إلا ذهب إليه، ثم هو حريص بعد ذلك على أن يدوّن كل ما يرى و يسمع على أدق صورة و أوفاهما.⁽²⁾ و يورد بعض المفردات الدالة على ذلك مثل " هذا ما شاهدناه " و " عايناه " و " و هذا ما حققناه "⁽³⁾.

أقام ابن جبير في دمشق، قرابة السبعين يوما من عام 580هـ / 1184م، أي قريبا من المدة التي قضاها في الحجاز، و ستّ مرّات و نصف، قدر المدة التي قضاها في بغداد، و ليس مرد هذه الإقامة الطويلة إلى مجرد البحث عن وسيلة من دمشق إلى عكا، على طريق كانت إذ ذاك تحت سلطة الصليبيين، بل مرده في الحقيقة إلى هذا الأُنس الذي كان الأندلسيون يجدونه في عاصمة

⁽¹⁾ محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص 284.

⁽²⁾ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 433.

⁽³⁾ ينظر رحلة ابن جبير: المصدر السابق.

الشام المشاهدة في البيئة الطبيعية و أخلاق الناس و رابطة الأموية، و هذا الأُنس مصداق ما يقوله الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية، و لهذا لا نكاد نجد رحالة أو حاجا أندلسيا إلا يطيل المقام و الكلام في دمشق و غيرها من مدن الشام⁽¹⁾.

فها هو ابن سعيد المغربي يبدي شعورا غامرا بالألفة و القبول في الديار الشامية، هو الذي جعله يعتبر حلب مقام غرامه و قبلة أشواقه، و يحن إليها هذا الحنين القوي: -من الخفيف-

حَادِي الْعَيْسِ ! كَمْ تَنْبِيحُ الْمَطَايَا

سُقُّ فُرُوجِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي سِيَاقِ

حَلْبٍ إِتَّهَا مُسْتَقَرُّ غَرَامِي

و مَرَامِي، وَ قِبْلَةُ الْأَشْوَاقِ

كَمْ بِهَا مَرْتَعٌ لَطْرَفٍ وَ قَلْبٍ

فِيهِ يُسْقَى الْمُئِي بِكَأْسِ الدَّهَاقِ

و الشعور ذاته هو الذي وُلد هذه الأبيات الجميلة في دمشق الشام:

تلك الجنة التي يمكن أن يجد فيها الغريب وطنه: -من مجزوء الكامل-

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّةٌ يُبْنِي بِهَا الْوَطَنُ الْغَرِيبُ

أَنْظُرْ بَعِينَكَ هَلْ تَرَى إِلَّا مُحِبًّا أَوْ حَبِيبًا

أَرْضٌ نَخَلْتُ مِمَّنْ يُنْقَصُ أَوْ يُرَاقَبُ أَوْ يَعِيبُ⁽¹⁾.

(1) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 432.

و بالعودة إلى ابن جبير، يلاحظ أن مقدار المشاهدة و الملاحظة تتفوق بشكل واضح في رحلته، لاسيما عن بلاد الشام، و هو لا ينقل عن رحالة آخرين، أو يقدم نصوصا للسابقين، وإنما يقدم رؤيته الشخصية الخاصة به، و من هنا كانت القيمة المتزايدة لرحلته. زد على ذلك أنه دخل مناطق الصليبيين، و تناول أوضاع المسلمين الخاضعين لسيطرتهم، و تحدث عن العلاقات السلمية بين الجانبين، و كل ذلك من خلال رؤية ناقدة، و ملاحظة واعية، و بأسلوب أدبي رفيع المستوى، على نحو ندرك معه أن الأدب و الجغرافيا و التاريخ اجتمعوا سويا، بتوافق فذ في رحلة ذلك الرحالة الأندلسي المتمكن من أدوات الرحالة بجدارة⁽²⁾.

فمن أبرز الأمثلة على يقظته و حرصه على أن يعلم - و يسجل - دائما أين هو و في أي اتجاه يسير قوله: " فكان مقامنا بجماة إلى عشيّ يوم السبت المذكور، ثم رحلنا منها، و أسرينا الليل كله، و أجزنا في نصفه. هذا النهر العصبي المذكور، على جسر كبير معقود من الحجارة، وعليه مدينة رستن التي حرّبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فوصلنا إلى مدينة حمص مع شروق الشمس من يوم الأحد الموفى عشرين لربيع الأول، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل"⁽³⁾.

و قد اكتسب ابن جبير من طول ملاحظاته لجري السفن و تسيير الربانة لها، فهما يستوقف النظر لشؤون السفن و الرياح و الأنواء، و حديثه حافل بما يدل على ذلك الفهم، و هو يستعمل فيه المصطلح الدارج كما سمعه دون محاولة للترجمة أو التعريب، مما يعطي كلامه في ذلك الموضوع

⁽¹⁾ محمد جابر الأنصاري: المرجع السابق، ص 270.

⁽²⁾ محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص 286.

⁽³⁾ ابن جبير: الرحلة، ص 181.

قيمة خاصة.⁽¹⁾ ، و من أمثلة ذلك كلامه عن مهاب الريح قوله قبيل إقلاعه من ميناء عكا في طريق العودة: " و في مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب، و ذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلي الربيع و الخريف، و السفر لا يكون إلا فيهما، و التجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين، و السفر في الفصل الربيعي من شهر أبريل، و فيه تتحرك الريح الشرقية. و تطول مدتها إلى آخر شهر مايه، و أكثر و أقل بحسب ما يقضي الله تعالى به. و السفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر، و فيه تتحرك الريح الشرقية، و مدتها أقصر من المدة الربيعية، و إنما هي عندهم خلسة من الزمان، قد تكون خمسة عشر يوما و أكثر و أقل، و ما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف، و الريح الغربية أكثرها دواما، فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية و إلى بلاد الروم، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق، فسبحان المبدع في حكمته، المعجز في قدرته، لا إله سواه"⁽²⁾.

أما أوصافه الجغرافية فهي غاية في الدقة و الصدق و الفائدة، فهو لا يصل إلى بلد إلا أعطى عنه صورة دقيقة في كلمات مختصرة تضم عصارة الموضوع، فمن أمثلة ذلك قوله يصف المدينة المنورة: " و للمدينة المنورة أربعة أبواب، و هي تحت سورين، في كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، و يعرف باسمه، باب الحديد، و يليه باب الشريعة، ثم باب القبلة و هو مغلق، ثم باب البقيع، و قد تقدم ذكره، و قبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة، تلقى الخندق الشهير ذكره، الذي صنع النبي صلى الله عليه و سلم عند تحزب الأحزاب، و بينه

(1) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 440.

(2) ابن جبير: المصدر السابق، ص 216. 217.

وبين المدينة عن يمين الطريق، العين المنسوبة للنبي صلى الله عليه و سلم، و عليها حلق عظيم مستطيل. و منبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل، و تحته سقايتان مستطيلتان باستطاعة الحلق، و قد ضرب بين كل سقاية و بين الحوض المذكور بجدار، فحصل الحوض محققا بجدارين، و هو يمد السقايتين المذكورتين، و يهبط إليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجا " و واصل ابن جبير وصفه" و على شفير الخندق المذكور، حصن يعرف بحصن الغراب، وهو حرب، قيل أن عمر رضي الله عنه بناه لغراب المدينة، و أمامه لجهة الغرب على البعد بئر رومة، التي اشترى عثمان رضي الله عنه بعشرين ألفا، و في طريق أحد، مسجد علي رضي الله عنه، و مسجد سلمان رضي الله عنه، و مسجد الفتح الذي أنزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح " و للمدينة المكرمة سقاية ثالثة، داخل باب الحديد، يهبط إليها على أدراج، وماؤها معين، و هي بمقربة من الحرم الكريم، و يقبل على هذا الحرم المكرم إمام دار الهجرة، مالك ابن أنس رضي الله عنه، و يطيف بالحرم كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش"⁽¹⁾.

و تقدم لنا رحلة ابن جبير في ثناياها، معطيات تاريخية على جانب كبير من الأهمية، تتعلق بتلاحم أبناء الأمة الإسلامية مشرقها و مغربها في الدفاع عن الأراضي المقدسة في بلاد الشام، ولاحظ أن أعداد المغاربة ضمن الجيوش الإسلامية التي تحارب الصليبيين كانت ملحوظة.

و كان أن يحدث وقوع بعض من هؤلاء المجاهدين المغاربة في أسر النصارى، لكن السلطة الإسلامية في بلاد الشام كانت تتعاون مع رعاياها المحسنين في تقديم الفدية لافتكاك أسرى

(1) ابن جبير: الرحلة، ص 145. 146.

المسلمين المغاربة، و هو يشير إليها بفقرة واضحة سجلها في كتابه: " و من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة لهذه البلاد الشامية الإفريقية، أن كل ما يخرج من ماله وصية من المسلمين، بهذه الجهات الشامية و سواها، إنما يعينها في افتكاك المغاربة، خاصة لبعدهم عن بلادهم، و أنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز و جل فهم الغرباء المنقطعين عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين و الخواتين من النساء و أهل اليسار و الثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل"⁽¹⁾.

و يقدم لنا الرحالة ابن جبير في هذا الباب، مواقف الحاكم الأيوبي نور الدين⁽²⁾، الذي أنفق من ماله الخاص اثني عشر ألف دينار في فداء الأسرى المغاربة، كما ساهم في هذا المسعى الناس المياسير ماديًا، و يورد نصا حول ذلك: " و قيّض لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار، وكبرائهم و أغنيائهم المنغمسين في الثراء، أحدهما يعرف بنصر بن قوام، و الثاني بأبي الدرّ ياقوت، مولى العطفاني، و تجارتهما كلها بهذا الساحل الإفريقي، و لاذكر فيه لسواهما، و لهما أمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة و واردة ببضائعها، و شأنها في الغنى كبير، و قدرها عند أمراء المسلمين و الإفريقيين خطير، و قد نصبهما الله عزو جل لافتكاك الأسرى المغريين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بذلك، لما قد أشتهر من أمانتهما و ثقتهما و بذلها

(1) المصدر نفسه:ص 214.

(2) (يلقب بالملك العادل نور الدين، أبو الحارث أرسلان شاه، المتوفي سنة 607 هـ / 1210 م، كان حاكما للموصل، وصفه ابن خلكان بأنه كان ملكا شهما عارفا بالأمر، كان شغوفًا بالعلم و العلماء، بنى مدرسة الشافعية بالموصل، قل أن يوجد مدرسة في حسنهما، ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق ج1، ص 193.

أموالهما، و يبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين، و الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين" (1).

و من أمثلة الدقة و التحديد الجغرافي، وصف ابن جبير للطريق من مكة إلى المدينة و منها إلى الكوفة، و الجزء الأول من هذا الطريق (=إلى المدينة)، موصوف بضبط لا نجده عند رحالة آخر، فهو يتحدث عن كل منزل من المنازل و يصفه وصفا موجزا، مع ذكر ما فيه من موارد الماء، و قد يبدو للمتتبع سير قافلته من مكة إلى بطن مر، إلى عسفان، إلى خليص، إلى بدر، إلى الصفراء، إلى الروحاء، إلى البيداء، إلى مسجد الخليفة، إلى وادي العقيق، إلى المدينة المنورة، إنه ربما رجع إلى البكري فيما أتى به من أوصاف هذه المواضع (2)، ثم يتبين أنّ الرجل يكتب من عند نفسه دون اعتماد على أحد، لأن هناك أخطاء في الأبعاد و ترتيب في الأماكن وقع فيها البكري - إذ أنه كان يصف هذه النواحي و هو في حجرته معتمدا على كتبه- أما ابن جبير، فقد قطع هذا الطريق بنفسه، قطعه واعيا متيقظا لكل شيء، و من هنا فمن العسير أن يدخل عليه الوهم في ذلك، و لا بد إذن، لمن يريد أن يؤلف في جغرافية شبه الجزيرة العربية، أو جغرافيتها التاريخية من أن يرجع إلى ابن جبير (3).

(1) ابن جبير: الرحلة ص 214. 215.

(2) حول وصف البكري لمكة و المدينة ينظر كتابه: معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع، تحقيق جمال طلبة، المجلد الأول، ص 75، و الجزء الثاني من المجلد الأول، ص 245، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ/ 1998م.

(3) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 446.

أما ملاحظاته التي تدخل في نطاق التاريخ، فرمما كانت خير ما أتى به شاهد عيان ممن كتبوا عن الحروب الصليبية⁽¹⁾، و من محاسن الصدق أن رحلته الأولى - وهي التي وصفها و دوّنها- وقعت في فترة حاسمة مشرقة من تاريخنا، فقد كان السلطان إذ ذاك صلاح الدين الأيوبي، و كان يستجمع قواه و يتأهب لاستعادة بيت المقدس، و كسر ظهر القوة الصليبية في الشام، و قد أعطانا ابن جبير صورة صحيحة محايدة لذلك البطل الإسلامي الأكبر، تعتبر من وثائق التاريخ. وجدير بالتقدير أن ابن جبير لم يغادر شخصية ذات أهمية مرمّها في طريقه إلاّ وفاها حقها من الوصف و الكلام، و لم تفته في مجتمعات الناس من ظاهرة ذات قيمة إلاّ أثبتها سواء أكان ذلك في مصر أو الحجاز أو العراق أو الشام⁽²⁾.

و في المحصلة فإن الرحالة المغربي ابن جبير، دوّن تفاصيل رحلته لبلاد المشرق بدقة كبيرة، مركزا على المكان و الزمان و أبعادهما الجغرافية و العمرانية و الإنسانية، فلم يكن مجرد رحالة عادي

(1) تتفق آراء أهل العصور الوسطى، على أن الحروب الصليبية، كانت حملات عسكرية نظمها مسيحيو الغرب، و بخاصة النورمانديون و الفرنسيون، تحت قيادة باباوات، و ذلك لإسترداد الأماكن المقدسة من المسلمين، و قد استبسل المسلمون في الدفاع عن تلك البقاع ضد تلك الهجمة الصليبية الحاقدة، فقد تمكن صلاح الدين الأيوبي من أن ينتصر عليهم في معركة حطين الشهيرة سنة 583هـ/1187م، و فسّر المؤرخون هذا الإنتصار بكثرة المسلمين و إرتفاع روحهم المعنوية و حسن تنظيمهم لقواتهم، على العكس من الصليبيين، الذين تفرقوا و تناحروا و ضعفت قواتهم، و سادتهم حالة من الفوضى. و وصف المؤرخون الغربيون و الشرقيون خلق صلاح الدين و نبه أثناء فتح بيت المقدس، و توزيع المئوّن على المرضى و كبار السن و المحتاجين من الفرنجة، و إكرامه النساء، و الرأفة بالأطفال، و أن جنوده كانوا من الشهامة و المروءة بمكان، و لم تحدث حوادث الإعتداء التي تقع في مثل هذه الظروف على أيدي الجنود المنتصرين، و التي قام بها الفرنجة من قبل في المدن العربية الإسلامية التي دخلوها و ارتكبوا فيها فضائع المجازر و الحرق و السلب و الهدم. ينظر: مفيد الزبيدي: تاريخ الحروب الصليبية، دار أسامة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن 2011، ص 136. 137، و مجموعة مؤلفين: القدس، دراسات في التاريخ و السياسة، مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2010، ص 16 و ما بعدها. و عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق و الغرب، المرجع السابق، ص 08.

(2) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 451.

يسجل بسطحية ما يراه، بل كان متميزا من حيث تركيزه على الأحداث و الأمكنة و تفاعلاتها مقدما مادة تاريخية نادرة للأماكن التي زارها، استفاد منها اللاحقون من المسلمين و غير المسلمين. و من ناحية أخرى، فقد هيمن الحج بكل ما يحمله من قدسية على المحطات الرئيسية في الرحلة، و قد وصفها وصفا مفعما، حول تفاعل الحجاج مع قدسية المكان، كما أن ابن جبير، ظل طيلة الرحلة متمسكا بهويته الإسلامية، و بانتمائها إلى الفضاء الجغرافي الغربي منها، و هو الغرب الإسلامي.

و من جانب آخر، فإن رحلات المغاربة للمشرق انتجت في عصر الموحدين، فنا جديدا في الأدب الجغرافي، هو أدب الرحلات، الذي بدأ مع ابن جبير و صاحب الاستبصار، و بلغ الذروة في العصر المريني مع ابن بطوطة و العبدري و البلوي، وقد تعددت أهداف الرحلة – كما أشرنا- فجمعت الدين و العلم و التجارة⁽¹⁾.

(1) عز الدين عمر أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1403 هـ/ 1983 م، ص 42.

محمد بن آجروم الصنهاجي

أقبل الأمازيغ في بلاد المغرب على الدراسات النحوية و اللغوية، ما حصل بالمشرق من إقبال الفرس و غير العرب على هذه الدراسات، مع فارق أن الأمازيغ بدأوا كل شيء من الصفر، بينما أعاجم المشرق لا سيما الفرس، كانوا مهئين بفكرهم العلمي و رصيدهم الثقافي الضخم، فتعمقوا في المجال اللغوي، و لو أنهم مع العرب رواد في النحو كبار، بينما شدت الصورة الخارجية للفظ العربي و موقعه داخل الجملة، و ارتباط هذه بغيرها من الجمل، اهتمام الأمازيغ فتميزوا في النحو، و حاولوا تبسيطه بما أمكنهم من الوسائل، كنظم المتون، و اختصار القواعد و تبسيط الشروح، ففاقوا في ذلك إخوانهم المشاركة الذين بعد مضي حقبة التعمق و سير أغوار العربية، تحول أكثرهم إلى التبسيط و الرجوع إلى ما عند المغريين. لكن ليس كل عمل لغوي أو نحوي بالمغرب هو نتاج الأمازيغ وحدهم، فهناك ذوو الأصول العربية و الأندلسية أيضا⁽¹⁾.

و على كل، فإن الكثير من المغاربة الذين اجتهدوا في البحوث النحوية، سجلوا إضافات نوعية في المشرق و المغرب، و تركوا سجلات نحوية تليق بمقام النحو العربي، فمن بلاد المغرب خرجت الألفية والآجرومية و الجزولية، فضلا عن الآراء النحوية، التي كان لها صدى في المشرق الإسلامي⁽²⁾.

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج1، ص 153. 154.

(2) عبد العزيز بن هنية: المدرسة المغربية في النحو العربي- متن الآجرومية عينة- مذكرة ماجستير في الأدب العربي، مخطوطة، كلية الآداب و العلوم الانسانية، جامعة ورقلة، إشراف. د. العيد جلوي، 2008. 2009، ص 04.

و يعتبر ابن آجروم، صاحب متن الآجرومية في النحو، من أبرز النحاة المغاربة الذين لقي جهدهم الثناء و التقدير في بلاد المشرق، و سجلت لنا المتون المشرقية اعترافها بمجهوده البارز. وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الشهير بابن آجروم، نعته ابن القاضي في "الجدوة" بالأستاذ النحوي، صاحب مقدمة النحو، ولد عام 672 هـ / 1273 م، في السنة التي توفي فيها ابن مالك صاحب الألفية في النحو، كان من أهل مدينة فاس يسكن بعدوة الأندلس فيها⁽¹⁾.

و آجروم بفتح الهمزة الممدودة و ضم الجيم و الدال المشددة، و معناه - حسب ابن عماد الحنبلي - الفقير الصوفي، و ذكر أن المتن الذي ألفه في النحو و هي الآجرومية ذائعة مشهورة، مشهود لها بالنفع في المغرب و المشرق.⁽²⁾ و بالنسبة للباحثين المتأخرين فإن "المقدمة الأجرومية" هي أشهر من أن تعرف، تعول عليها المدارس في التعليم حتى الآن⁽³⁾.

و الآجرومية، هي مجموع قواعد نحوية، كتبها ابن آجروم بمكة المكرمة تسهيلا على المبتدئين، و قد ظل الطلاب أجيالا طويلة ينتظرون مثل هذا المختصر ليكون مدخلا لمن شاء التوسع في مرحلة لاحقة، و كان على الدارس أن يتجه رأسا إلى كتب العربية الموسعة و المعقدة من غير تدرج في غالب الأحيان. ثم إن المنهاج الذي اتبعه ابن آجروم، استنتاجي يضع القاعدة أولا،

⁽¹⁾ ابن القاضي: الجدوة ج1، ص 221

⁽²⁾ ابن عماد الحنبلي: المصدر السابق ج6، ص 62.

⁽³⁾ جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج2، دار الفكر، بيروت، 1433. 1432 هـ / 2011 م، ص 165

ثم يتبعها أو يحللها بأمثلة. وركز قبل كل شيء على العوامل المؤثرة في حركة آخر الكلمة أو في صورتها، كالمرفوعات و المنصوبات و الأفعال الخمسة، و لا يلتفت إلى القواعد التي تتغير بها بنية الكلمة بصرف النظر عن موقعها، مثل جموع التكسير و التصغير، و بالتالي فقد اتجه أساسا إلى جانب الإعراب، مما يؤكد أنه كان يشعر بضرورة ملححة للأخذ بيد المتعلمين و تيسير النحو عليهم، و انقاذهم من عناء المصادر التي تختطف من حياتهم وقتا طويلا حتى و لو لم تكن لهم رغبة في التخصص في العربية⁽¹⁾.

عرض المقدمة الآجرومية

تضمن متن الآجرومية عدة أبواب في النحو.

- تمهيد في تعريف الكلام، و هو - حسبه - اللفظ المركب المفيد بالوضع، و أقسامه ثلاثة: اسم، و فعل، و حرف جاء لمعنى⁽²⁾.
- باب الإعراب: و هو تغيير أواخر الكلام، لاختلاف العوامل الداخلة عليها، لفظا أو تقديرا، و أقسامه أربعة: رفع، و نصب، و خفض، و جزم. و للأسماء من ذلك، الرفع و النصب و الخفض، و لا جزم فيها. و للأفعال من ذلك الرفع، و النصب و الجزم، و لا خفض فيها⁽³⁾.

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج1، ص 175.

(2) ابن آجروم الصنهاجي: متن الآجرومية، تحقيق حاييف النّبهان، دار الظاهرية للنشر و التوزيع، الكويت، الطبعة الثانية، 1432 هـ / 2011 م، ص 41.

(3) المصدر نفسه: ص 45. 46.

- باب في معرفة علامات الإعراب: و فيه إشارة أن للرفع أربع علامات: الضمة، و الواو، والألف، و النون⁽¹⁾.
- و فصل في المعربات: و يتضمن قسمين: قسم يعرب بالحركات، و قسم يعرب بالحروف⁽²⁾.
- باب الأفعال و هي ثلاثة: ماضي و مضارع، و أمر. نحو: ضرب، و يضرب، و اضرب، فالماضي مفتوح الآخر أبدا، و الأمر مجزوم أبدا، و المضارع ما كان في أوله إحدى الزوائد الأربع، يجمعها مثل: أنيئتُ و هو مرفوع أبدا، حتى يدخل عليه ناصب أو جازم⁽³⁾.
- باب مرفوعات الأسماء: و هي سبعة: الفاعل، و المفعول الذي لم يسم فاعله، و المبتدأ، و خبره، و اسم كان و أخواتها، و خبر إن و أخواتها، و التابع للمرفوع، و هو أربعة أشياء: النعت، و العطف، و التوكيد، و البدل⁽⁴⁾.
- باب الفاعل: و هو الإسم المرفوع المذكور قبله فِعْلُهُ، وهو على قسمين: ظاهر، و مضمّر، فالظاهر، نحو قولك. قام زيد، و يقوم زيد، و قام الزيدان، و يقوم الزيدان، و قام الزيدون، و قام أخوك، و يقوم أخوك، و المضمّر اثنا عشر، نحو قولك: ضربت، و ضربنا، و ضربت، و ضربتما، و ضربتُم، و ضربتُن، و ضربتُ، و ضربا، و ضربتُ، و ضربتُن⁽⁵⁾.

(1) ابن آجروم: المصدر السابق، ص 49.

(2) المصدر نفسه: ص 54.

(3) المصدر نفسه: ص 59.

(4) المصدر نفسه: ص 63.

(5) المصدر نفسه: ص 64. 65.

- باب المفعول الذي لم يسم فاعله: و ذكر ابن آجرّوم، أنه هو الإسم المرفوع الذي لم يذكر معه فاعله، فإنّ كان الفعل ماضياً: ضمّ أوّله، و فتح ما قبل آخره⁽¹⁾.

- باب المبتدأ أو الخبر:

المبتدأ: هو الإسم المرفوع العاري عن العوامل اللفظية، و الخبر: هو الاسم المرفوع المسند إليه

- باب النعت:

النعت تابع للمنعوت في رفعه و نصبه و خفضه، و تعريفه و تنكيره، كأن تقول: قام زيدٌ

العاقل، و رأيت زيداً العاقل، و مررتُ بزيد العاقل⁽²⁾.

- باب العطف: و حروف العطف عشرة: و هي الواو، و الفاء، و ثمّ، و أو، و أم، و إمّا،

وبل، و لا، و لكن، و حتى في بعض المواضع⁽³⁾.

- باب التوكيد:

التوكيد تابع للمؤكّد في رفعه و نصبه و خفضه، و تعريفه⁽⁴⁾

- باب البدل:

إذا أُبدلَ إسم من إسم، أو فعلٌ من فعل، تبعه في جميع إعرابه، و هو على أربعة أقسام: بدل

الشيء من الشيء، و بدل البعض من الكل، و بدل الإشتمال، و بدل الغلط⁽⁵⁾.

(1) ابن آجرّوم: المصدر السابق، ص 65.

(2) المصدر نفسه: ص 73.

(3) المصدر نفسه: ص 75.

(4) المصدر نفسه: ص 76.

(5) المصدر نفسه: ص 78.

- باب منصوبات الأسماء:

- وهي خمسة عشر: المفعول به، و المصدر، و ظرف الزمان، و ظرف المكان، و الحال،
والتمييز، و المستثنى، و إسم لا، و المنادى، و المفعول من أجله، و المفعول معه، و خبر كان
و أخواتها، و إسم إن و أخواتها، و التابع للمنصوب، و هو أربعة أشياء: النعت، و العطف،
و التوكيد، و البدل⁽¹⁾.

- باب المفعول به:

و هو الإسم المنصوب الذي يقع به الفعل، نحو: ضربتُ زيدا، و ركبتُ الفرسَ، و هو
قسمان: ظاهرٌ، و مُضمَرٌ⁽²⁾.

- باب المصدر:

المصدر: هو الإسم المنصوب الذي يجيء ثالثا في تصريف الفعل، نحو: ضرب يضرب ضربا:
و هو قسمان: لفظي و معنوي⁽³⁾

- باب ظرف الزمان و ظرف المكان:

ظرف الزمان: هو إسم الزمان المنصوب بتقدير "في" نحو: اليوم، الليلة، وغدوةً و بكرهً،

وصباحاً و مساءً.... الخ

(1) ابن آجروم : المصدر السابق، ص 81 . 82.

(2) المصدر نفسه: ص 83.

(3) المصدر نفسه: ص 85.

و ظرف المكان: هو إسم المكان المنصوب بتقدير " في " نحو : أمام، خلف، و قدّام، ووراء، و فوق، و تحت، و عند... الخ⁽¹⁾.

- باب الحال:

الحال: هو الإسم المنصوب المفسّر لما انبهم من الهيئات.

نحو : جاء زيدٌ ركبًا، و ركبْتُ الفرسَ مُسرِّجًا، و لقيت عبد الله ركبًا، وما أشبه ذلك⁽²⁾.

- باب التمييز:

التمييز: هو الإسم المنصوب المفسّر لما انبهم من الذوات، نحو: تصبب زيدٌ عرقًا، و طاب محمدٌ نفسًا، و اشتريت عشرين غلامًا، و زيدٌ أكرمٌ منك أباً و أجملٌ منك وجهًا⁽³⁾.

- باب الإستثناء:

و حروف الإستثناء ثمانية و هي، إلا، و غيرُ، و سوى، و سُوى، و سواءً، و خلا، و عدا، و حاشا⁽⁴⁾.

- باب " لا ":

و يورد أن " لا "، تنصبُ النكرات بغير تنوين، إذا باشرت النكرة. و لم تتكرّر " لا "

نحو: لا رجلٌ في الدار، فإنّ لم تباشرها و جب الرفع، وَ وَجِبَ تكرارُ " لا " نحو: لا في الدار

رجلٌ و لا امرأةً، و إن تكرّرت، جاز إعمالها و إلغاؤها، نحو: لا رجلٌ في الدار⁽¹⁾.

(1) ابن آجروم: المصدر السابق، ص 87.

(2) المصدر نفسه: ص 88.

(3) المصدر نفسه: ص 89.

(4) المصدر نفسه: ص 90.

- باب المنادى:

المنادى، خمسة أنواع: المفرد العَلْمُ، و النكرة المقصودة، و النكرة غير المقصودة، و المضاف، و المشبه بالمضاف (2).

- باب المفعول من أجله:

و هو الإسم المنصوب الذي يذكر بياناً لسبب و قوع الفعل، نحو: قام زيدٌ إجلالاً لعمرو، و قصدتك إبتغاءً معروفك (3).

- باب المفعول معه:

و هو الإسم المنصوب الذي يذكر لبيان مَنْ فُعِلَ معه الفعل، نحو: جاء الأميرُ و الجيش، و استوى الماءُ و الخشبة (4).

- باب مخفوضات الأسماء:

و هي ثلاثة، مخفضٌ بالحرف، مخفوضٌ بالإضافة، و تابع للمخفوض (5).

إن هذا المتن الذي ألفه ابن آجروم في النحو، كان الطلبة و الدارسون يتناقشونه بين

يديه، لأنه أفنى قسماً كبيراً من حياته العلمية في الإشتغال بتدريس النحو في مدينة فاس، لذلك

(1) ابن آجروم: المصدر السابق، ص 92 . 93.

(2) المصدر نفسه: ص 94.

(3) المصدر نفسه: ص 95.

(4) المصدر نفسه: ص 96.

(5) المصدر نفسه: ص 99.

فإن التلاميذ الذين كونهم ابن آجروم كانوا أكثر، لاسيما من أهل فاس، إضافة إلى الطلبة الذين يرتحلون إليها من هؤلاء:

- ابنه أبو محمد عبد الله بن محمد

- محمد بن علي بن عمر الغساني النحوي

- القاضي أبو عبد الله محمد إبراهيم الخضرمي (1).

و كان نجاح هذا المتن باهرا و سريعا، بدليل عشرات الشروح التي وضعت لها مشرقا و مغربا. فقد شرحها من المشاركة، حسن بن حسين الطولوني المولود سنة 836 هـ / 1432 م، و يزيد عبد الرحمن بن علي المكودي النحوي، المتوفي سنة 808 هـ / 1405، و هي من أبرز و أشهر الشروح التي وضعت للمقدمة الآجرومية، و شرحها أحمد بن محمد بن سلام المولود سنة 847 هـ / 1443، م شرحين أحدهما سماه " النخبة العربية في حل ألفاظ الآجرومية"، و الآخر سماه "الجواهر المضيئة في حل ألفاظ الآجرومية"، و شرحها الشيخ شمس الدين أبو العزم محمد بن محمد الحلاوي المقدسي، المتوفي سنة 883 هـ / 1478 م. و من الشروح المشهورة التي وضعها المغاربة، الجواهر السنّية في شروح الآجرومية للشيخ الفقيه النحوي أبي محمد عبد الله المدعو عبيد بن الشيخ أبي الفضل محمد بن عبيد الله الفاسي (2).

(1) ينظر المقدمة التي وضعها محقق متن الأرومية، الأستاذ حاييف النبهان، المصدر السابق، ص 13. 14.

(2) حاجي خليفة: المرجع السابق، ج2، ص 642 . 643.

لقد كانت الآجرومية - بحق - علامة فاصلة في التأثير العلمي للمغاربة في المشرق، و هي إن كشفت عن شيء، فإنما تكشف عن الذكاء المغاربي، و إسهاماته المتميزة في إثراء العلوم العربية الإسلامية، و يمكن إختصار قيمتها من هذين البيتين الشعريين: -من الرجز-

مَنْظُومَةٌ رَائِقَةٌ الْأَلْفَاظِ فَكُنْ لِمَا حَوَتْهُ ذَا اسْتِحْفَازِ

جَعَلَهَا اللَّهُ لِكُلِّ مُبْتَدِي دَائِمَةً النَّفْعِ بِحُبِّ أَحْمَدِ⁽¹⁾.

الأفكار الصوفية عند أبي الحسن الشاذلي و أثرها في مصر الإسلامية

يعتبر أبو الحسن الشاذلي (593 - 656 هـ / 1197 - 1258 م) مؤسس أهم الطرق⁽²⁾ الصوفية، و أكثرها تأثيرا في العالم الإسلامي، ذلك أن تعاليمها و مبادئها التي أرساها هذا الصوفي الفذ، قامت على الوضوح في الأهداف و المقاصد، و البساطة في الأفكار، خاصة تلك المرتبطة بالصوفي و الفقير، و الشريعة، الأنبياء، ثم مسألة التعامل مع الدنيا و مادياتها، و أفكار في التعامل مع الآخرين.

(¹) محمد بن أب القلاوي الشنقيطي: فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية، شرح، أحمد بن عمر الحازمي، مكتبة الأسد، مكة المكرمة [ب. ت]، ص 644.

(²) الطريقه - حسب الصوفية- هي الطريق الموصل إلى الله تعالى، كما أن الشريعة طريق موصل إلى الجنة، و هي أخص من الشريعة لاشتمالها على أحكام الشريعة من الأعمال الصالحة البدنية و الإنتهاء عن المحارم و المكارن العامة، و على أحكام خاصة من الأعمال القلبية و الرياضات و العقائد المختصة بالسالكين إلى الله تعالى. ينظر عبد المنعم الحفني: معجم مصطلحات الصوفية، المرجع السابق، ص 168.

التعريف بالشيخ أبي الحسن الشاذلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي، أبو الحسن الشاذلي، بالشين و الذال المعجمتين و بينهما ألف، و في الآخر لام، و شاذلة قرية بإفريقية⁽¹⁾. و يحيط الغموض بفترة دراسة أبي الحسن الشاذلي و تنقلاته من أجلها، و هي عموما غير مضبوطة بتواريخ محددة، و لكن بفضل سياق بعض الأحداث و ربط ما تفرق منها، نجد أن دراسته و لقاءاته العلمية و الصوفية شملت المغرب و إفريقية و العراق و الحجاز⁽²⁾. فبالمغرب كان من شيوخه محمد ابن علي بن حرزهم، و على ذلك فهو بالعرف الصوفي، تلميذ أبي الحسن علي بن حرزهم بالواسطة، أي محمد نجل هذا الصوفي الرائد، كما أخذ عن عبد السلام بن مشيش ابتداءً من سنة 618 هـ / 1221 م. أو خلال السنة التي تلتها، و لم يكن اتصاله بابن مشيش، إلا بعد رجوعه من رحلته إلى المشرق، و من المرجح أن أهم فترة قضاهها الشاذلي في الدراسة العامة، كانت بعد إنتقاله إلى تونس، حيث لقي عددا من المشايخ، و لكنه تأثر خصوصا بأبي سعيد خليفة الباجي، دفين تونس، و أحد وجوه الصوفية البارزين بها، حيث يورد عنه " لما دخلت تونس في ابتداء أمري، قصدت من فيها من المشايخ، و كان عندي شيء أحب أن أعرضه على من يبين لي

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، المصدر السابق ج14، ص 387.

(2) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج3، ص 138.

ما فيه، فلم يكن فيهم من شرح لي حالا، حتى وردت على الصالح أبي سعيد الباجي، فأخبرني رجالي قبل أن أبعده، و تكلم على سري، فعلمت أنه ولي الله فلازمته، فانتفعت به كثيرا⁽¹⁾.

و حيث أن الشاذلي قضى وقتا من حياته في الإحتلاء بشاذلة، و أن دوره كصوفي ناضج التكوين في علمي الظاهر و الباطن، لم يكن لتسعه قرية شاذلة الصغيرة، فقد انتقل إلى مدينة تونس ليشيع من أفكاره و معارفه، و علل هو ذلك بأمر ربّاني، كما نقل عنه ابن الصباغ " قيل لي: يا علي إهبط إلى الناس تنتفع بك، فقلت: يا رب، أقلني من الناس، فلا طاقة لي بمخالطتهم، فقيل لي، إنزل فقد أصبحناك السلامة و رفعنا عنك الملامة"⁽²⁾، و بذلك دخل الشاذلي في طور جديد من حياته، فقد تخلّى عن بدائية المعاش و بداوة المحيط الإجتماعي، ليتفرغ للإشعاع الصوفي في إعتدال معاشه و وفرة من مردييه، الذين يكثر المثقفون منهم و المستنيرون، و حيث أن الشاذلي كان فصيح اللسان كثير الخطرات، و الأفكار الصوفية التي تتردد على لسانه بيسر مع تنوعها وتعددتها، فإن ذلك جلب إليه المزيد من الأنصار بتونس، كما أن بفضل كراماته و مكاشفاته، جلب إليه أفرادا من مختلف الشرائح الإجتماعية، و هذا ما أزعج على الخصوص قاضي الجماعة ابن البراء التنوخي، و جملة من الفقهاء الذين التفوا حوله⁽³⁾، و شرعوا في تأليب حكام تونس عليه، باتهامه بالزندقة و المروق عن الدين، و ما كان من الشاذلي إلا أن غادر تونس مضطرا إلى مصر، و استقر قريبا من الأسكندرية في مغارة من مغارات شواطئها، و بدأ ينشط و ينشر في

(1) ابن الصباغ الحميري: درة الأسرار و تحفة الأبرار في أقوال و أفعال و مقامات و نسب و كرامات و أذكار و دعوات سيدي أبي الحسن الشاذلي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، [ب.ت.]، ص 24.

(2) المصدر نفسه: ص 27.

(3) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 139

مذهبه بين الناس هناك، و لكن يبدو أنه لم يجد من يستمع إليه، فغادر الأسكندرية إلى القاهرة، حيث استطاع أن يفرض نفسه كعالم كبير من علماء الإسلام، و حاز إعجاب الكثير من علمائها⁽¹⁾.

الأفكار الصوفية عند الشاذلي

إن الأفكار الصوفية التي طرحها أبو الحسن الشاذلي على طلبته و مريديه، تتلخص غاياتها البعيدة في التربية الروحية التي تقوم على تهذيب النفس و تقويم السلوكات الأخلاقية للصوفي، وتوضيح مقولات في التّعالى الصوفي و الشريعة، ثم التعامل مع الدنيا، و يمكننا تمييز هذه الأفكار في الآتي:

أ- تقوى الله تعالى في السرّ و العلانية: و هو مرتكز أساسي تقوم عليه التربية الروحية عند أبي الحسن الشاذلي، و يقدّم لنا علي الكوهن مقولات للشيخ، دالة على ذلك، منها على سبيل المثال - لا الحصر - :

- "إيّاك و الوقوع في المعصية المرة بعد المرة، فإن من تعدى حدود الله فهو الظالم، و الظالم لا يكون إماما، و من ترك المعاصي و صبر على ما ابتلاه الله، و أيقن بوعد الله و وعيده، فهو الإمام و إن قلت أتباعه".

- "أصدق الأقوال عند الله قول " لا إله إلا الله"، و أدل الأعمال على محبّته تعالى، بغض الدّنيا و اليأس من أهلها على الموافقة".

(1) عتّار هلال : الطرق الصوفية و نشر الإسلام و الثقافة العربية في غرب إفريقيا السّماء، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 104.

- "كل حسنة لا تثمر نورا أو علما في الوقت، فلا تعد لها أجرا، و كل سيئة أثمرت خوفا من الله تعالى و رجوعا إليه فلا تعد إليه وزنا" (1). و من مظاهر الإخلاص في العمل عند المرید الطائع - حسب الشاذلي- قوله: " من النفاق التظاهر بفعل السنة، و الله يعلم منه غير ذلك، و من الشرك بالله إتخاذ الأولياء و الشفعاء دون الله "، مستشهدا بالآية القرآنية: « مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » (2).

ب- إتباع السنة في الأقوال و الأفعال:

لقد كان الشاذلي حريصا في توجيه أتباعه و مريديه، على ضرورة التقيد بنهج القرآن الكريم و السنة النبوية في سلوكهم و معاملاتهم، لقد كان يدرك بذكائه الثاقب و حدسه الصادق، أن التربية الصوفية التي يؤسس لها، تلقى من المعاندين و المشككين في كل مكان، خاصة من قبل الفقهاء النصيين، الذين يفهمون الشريعة من القشور دون الغوص في كنهها و أعماقها، لقد كان الكثير من هؤلاء يصدر تهما قاسية على القوم السالكين للطريق، و كانت هذه الشكوك والمضايقات تشمل إصدار فتاوى بالتكفير و الخروج عن الملة، و قد عان الشيخ نفسه منها، و ما خروجه من بلاد إفريقية إلى مصر، إلا بسبب تلك الأحكام التكفيرية، التي كان يلاقي بها المتهم القتل، لذلك حرص على إرساء طريقته و تربيته الصوفية على الكتاب و السنة، و هو القائل لمريديه و أتباعه " إذا عارض كشفك الكتاب و السنة، فتمسك بالكتاب و السنّة، و دع

(1) ابن علي الكوهن : طبقات الشاذلية الكبرى، تحقيق مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1426 هـ / 2005، ص 25 و ما بعدها .

(2) سورة السجدة، الآية 04، المصدر نفسه: ص 35.

الكشف، و قل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة بالكتاب و السنّة و لم يضمنها لي في جانب الكشف و لا الإلهام و لا المشاهدة، إلا بعد عرضه على الكتاب و السنّة⁽¹⁾. و كان يقول إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة، فلا تعبأن به⁽²⁾.

و لم يكن الشاذلي المبتكر الأول في هذا الباب، فالإمام الجنيد⁽³⁾، و هو شيخ الطائفة، قال لرجل ذكر المعرفة، فقال: " أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر و التقوى إلى الله تعالى"، فقال الجنيد "إن هذا القول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، و هذه عندي عظيمة، والذي يسرق و يزني أحسن حالا من الذين يقول هذا، و أن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله إليه رجعوا فيها، و لو بقيت ألف عام لم أنقص من البر ذرة"، بهذه المقولة يضع الشيخ الجنيد أهم أسس علم التّصوف، فلا باطن بدون ظاهر، و لا حقيقة بدون شريعة، بل الظاهر و الشريعة أولاً و قبل كل شيء، ثم الباطن و الحقيقة⁽⁴⁾. هذه المسلّمة في بناء التّصوف على الشريعة، يؤكدها القطب أبو زيد البسطامي⁽⁵⁾ بقوله: " لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع

(1) ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص35.

(2) المصدر نفسه: ص 25.

(3) أبو القاسم الجنيد القواريري، كان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له القواريري، أصله من نهاوند، و مولده و منشؤه بالعراق، توفي سنة 297 هـ / 910م، تفقه على أبي ثور، و كان يفتي في حلقاته، و صحب السّري السقطي، و الحارث المحاسبي، و محمد بن القصاب البغدادي، و غيرهم. تجمع العديد من المصادر على أنه كان شيخ وقته و فريد عصره في التّصوف، و كلامه في الحقيقة مدّون مشهور، و هو مرجع كبير في هذا العلم، ينظر السلمي: المصدر السابق، ص 129-130، و ابن خلكان، المصدر السابق ج1، ص 373-374.

(4) محمد جلال شرق: دراسات في التّصوف الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1404 هـ / 1984م، ص 242

(5) أبو زيد البسطامي، طيفور بن عيسى بن آدم، المتوفى في حدود سنة 300 هـ / 912 م، الزاهد المشهور، كان مجوسيا ثم اعتنق الإسلام، تنسب إليه المقولة الشهيرة في الوجد " سبحاني ما أعظم شأنني"، ينظر الصغدي، الوافي بالوفيات ج 11، ص 331. 332.

في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونهم عند الأمر و النهي و حفظ الحدود و أداء الشريعة" (1).

ج- التعامل مع الدنيا:

ليس للماديات الدنيوية نصيب يستحق الذكر في كل مقولات الشاذلي تقريبا، و هو ليس فريدا في هذا، فكل الصوفية يبنون مبادئهم على الزهد في الدنيا و شهواتها، و لكن يبقى هذا نظريا أكثر منه واقعا، فالشاذلي حتى و لو كان زاهدا في حياته العامة، فقد كان يتدخل لدى المسؤولين لقضاء مصالح قاصديه، و ربما فعل ذلك بمبادرة منه. (2) ثم يوضح ضرورة الاعتدال في سلوك المرید " ليس هذا الطريق بالرهبانية"، و يستدل بمقولة لشيخه عبد السلام بن مشيش، وتتضمن الدعوة إلى الجمع بين ضروريات الدنيا من طعام و ملبس و مركب و زواج و سكن، و متطلبات الآخرة من عبادة و توحيد و كف للأذى و سخاء في سبيل الخير، و لا يتعارض هذا مع وجود فئة واسعة من الزهاد كانوا معرضين عن الماديات طائعين مختارين، و لكن في فكر الشاذلي تطغى الإستهانة بالماديات، لأن كل الناس مؤمنون و ملحدون، يعلمون أن الحياة بمتعتها و أكدارها لها بدء و نهاية. و على هذا الأساس يضع الشاذلي الماديات في أدنى درجة، حتى و لو ساند فكرة الأخذ بشيء من ثمارها، حيث إنه يرتبط باستمرار بالكتاب و السنة، و هما حتى مع احتقار الماديات الدنيوية، يوجهان الناس إلى الأخذ بنصيب منها دون إسراف (3).

(1) الصفدي: المصدر السابق: ص 331.

(2) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج3، ص 151.

(3) المرجع نفسه: نفس الصفحة.

د- التعامل مع الناس:

رسم الشاذلي صورة للفقير المتكسب على نحو يوفق بين متطلبات الدين و الدنيا، فرأى أنه

ذلك الذي التزم بأربعة آداب:

- مجانبة الظلمة، و هي تدل على الخوف

- إثارة أهل الآخرة، و تدل على محبة الله

- مواساة أهل الفاقة، و تدل على الرجاء في رحمة الله

- مواظبة الصلوات الخمس في الجماعة، و تدل على الشوق إلى الله.⁽¹⁾

و يضع جماعة المؤمنين في المقام الأول، ثم عامة المسلمين، ثم الفاسقين، و يقول: إنزم جماعة

المؤمنين و لو كانوا عصاة فاسقين، و كل من طعام فسقة المسلمين، و لا تأكل من طعام رهبان

المشركين⁽²⁾.

و يبقى التعامل الإجتماعي محصورا أصلا عند الشاذلي، في فئة الصفوة المؤمنة، أما غيرها

فللضرورة، لأن المهم أن لا يفتن المؤمن عن دينه، و لذلك يقول: إذا جالست العلماء لا تحدثهم

إلا بالعلوم المنقولة و الروايات الصحيحة، إما تفيدهم و إما تستفيد منهم، و ذلك غاية الريح

منه، و إذا جالست العباد و الزهاد، فأجلس معهم على بساط الزهد و العبادة، و حل لهم ما

(¹) ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 164 و ما بعدها.

(²) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج3، ص 152.

استمرؤوه، و سهّل عليهم ما استوعروه، و ذوقهم من المعرفة ما لم يذوقوه، و إذا جالست الصادقين، ففارق ما تعلم، تظفر بالعلم الممكنون⁽¹⁾.

و يظهر مما تقدم أن الفلسفة الصوفية لدى الشاذلي، كانت تتم بالوضوح في الرؤية، والواقعية في الطرح و الممارسة، في إطار التمسك بالشرعية (= الكتاب و السنة)، و من الطبيعي أن فكرا بهذه المواصفات، يلقي الرواج و الإنتشار و يكون التلاميذ و المريدين و يؤثر في العلماء.

أثرها في مصر الإسلامية

توفي الشاذلي سنة 656 هـ / 1258 م بصحراء عيذاب⁽²⁾ قاصدا الحج، تاركا الكثير من التلاميذ الذين تأثروا به كثيرا، أولا كعالم كبير، و ثانيا كمفكر أصيل ترك بصماته على الميدانين الفكري و الثقافي بين معاصريه، و نشروا أفكاره و عرّفوا بصاحبها بين العلماء و رجال العصر في المغرب و المشرق⁽³⁾.

و لقد كانت مصر أكثر البلدان تأثرا بالأفكار الصوفية للشاذلي، فيها درّس و كوّن تلاميذ و مريدين كثر، كما أن السلطة السياسية مدّت له يد العون، و كوّنت عنه أذى الفقهاء التّصيين، بل إن الكثير من أعلام العلم بمصر تحلّقوا حول دروسه كابن الحاجب، و العز بن عبد السلام،

⁽¹⁾ ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 24.

⁽²⁾ عيذاب بالفتح ثم السكون، قال ياقوت: بلدة صغيرة على البحر الأحمر، بما مرسى للمراكب التي تقدم من عدن إلى صعيد مصر، و يذكر الحميري أن الماء العذب يجلب إليها على مسيرة يوم. ينظر ياقوت الحموي، المصدر السابق ج4، ص 171، و الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984، ص 423.

⁽³⁾ هلال عمّار: المرجع السابق، ص 105.

وابن دقيق العيد، و ابن عصفور، فكانوا يحضرون ميعاده أثناء التدريس من القاهرة، و يمشون بين يديه إذا خرج احتراماً و إجلالاً له⁽¹⁾.

غير أن تربيته الصوفية، كان لها تأثير في شخصيتين بارزتين بمصر هما : أبو العباس المرسي و ابن عطاء الله السكندري.

المرسي أبو العباس الأنصاري، الأشعري معتقداً، يذكر لنا الصفدي في ترجمته له أنه " وارث شيخه الشاذلي"⁽²⁾، أما ابن علي الكوهن، فيشير أنه " لم يرث علم الشاذلي غيره، و هو أجل من أخذ عنه الطريق"⁽³⁾، و كان أبو العباس المرسي أكثر أقطاب الطريقة بعد شيخه أبي الحسن، الذي هو أستاذه الرئيسي في علمي الظاهر و الباطن، و استقر بالأسكندرية كأستاذه، و كان من جملة الشهود بها، و كان لسكانها اعتقاد كبير في عقيدته. اشتغل بتدريس عدة علوم، انطلاقاً من مؤلفات معينة، "كالتهذيب" للبرادعي، و "رسالة" ابن أبي زيد القيرواني، في الفقه، و كتاب "الإرشاد" للجويني، في الأصول، أما في التصوف، فكان يقوم على تدريس كتاب "الإحياء" للغزالي، و "قوت القلوب" لأبي طالب المكي، و نوادر الحكم للترمذي، و هي نفس المؤلفات التي كان يفضلها الشاذلي في التصوف، و كان المرسي كثير التعظيم لشيخه، الذي عاش معه بمصر لسنوات طويلة، تربى على يديه، و لقّنه علوم الظاهر و الباطن، و كان أبو العباس المرسي مطيعاً لشيخه، ذلك لأن الشيخ ضروري للمريد،

(1) ابن علي الكوهن : المصدر السابق، ص 140 و ما بعدها.

(2) الصفدي: المصدر السابق ج5، ص 104.

(3) ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 61.

ليس فقط كمرشد و معلم، بل أيضا كقائد تجب طاعته بشكل مطلق، طاعة ظاهرة بالجوارح و طاعة باطنة بالقلب⁽¹⁾.

و كان المرسي لا يتحدث إلا في العقل الأكبر و الإسم الأعظم و شعبه الأربع، والأسماء و الحروف و دوائر الأولياء، و مقامات الموقنين و الأخلال و المقرّبين من العرش وعلوم الأسرار، و إمداد الأذكار، و يوم المقادير، و شأن القبضة و رجال القبضة، و ما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع العباد⁽²⁾.

و من آرائه، أن تسليك فقيه واحد خير من تسليك ألف عامي، و يقصد بذلك ما للفقهاء الذي يجمع بين الظاهر و الباطن من تأثير و إشعاع، مع التزامه الإطار السني⁽³⁾.

و كباقي الصوفية، تميز فكر المرسي بالتّعالّي، ما ينم عن اعتداد بالذات، أو عن تفوق، حيث كان يمسك بلحيته و يقول: لو علم علماء العراق و الشام ما تحت هذه الشّعرات، لأتوها و لو سعيا على وجوههم⁽⁴⁾.

توفي أبو العباس المرسي بالأسكندرية سنة 686هـ / 1281 م، حيث ضريحه، بعد أن أعطى دفعا قويا لتعاليم شيخه و أفكاره، و كوّن هو أيضا تلاميذ و مرّدين، سيضطلعون بمهمة إرساء تعاليم الطريقة الشاذلية.

(1) محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، فبراير 2006، ص 449.

(2) ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 62.

(3) إبراهيم حركات: المرجع السابق ج3، ص 161.

(4) ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 62.

- ابن عطاء الله السكندري، و اسمه الكامل، أبو العباس أبو الفضل بن أبي عبد الله بن أبي محمد الخدامي السكندري. كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير و حديث و نحو و أصول وفقه و غير ذلك، و له تأليف عديدة، منها " التنوير في إسقاط التدبير " و " الحكم " و "لطائف المنن" ⁽¹⁾ و قال عنه ابن علي الكوهن " كان متكلماً على طريق أهل التصوف واعظاً، انتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه، و قد شهد له شيخه أبو العباس المرسي بالتقديم قائلاً- ناصحاً له- " الزم، فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتياً في المذهبين " يقصد مذهب أهل الشريعة، و مذهب أهل الحقيقة ⁽²⁾.

نشأ ابن عطاء الله في مدينة الأسكندرية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، و يمكننا أن نتميز في حياته العلمية ثلاثة أطوار:

الطور الأول: نشأ فيه ابن عطاء الله طالباً للعلوم الشرعية، من تفسير و حديث و فقه و أصول، و العلوم العربية، من نحو و لغة و بيان، و كان ينكر فيه على الصوفية إنكاراً شديداً تعصبا لعلوم الفقهاء.

الطور الثاني: صحب فيه أبا العباس المرسي، و تصوف على طريقة الشاذلي، بعد أن زال إنكاره و تعصبه لأهل علم الظاهر، و لم ينقطع في هذا الطور عن طلب العلوم الشرعية، بعد

⁽¹⁾ ابن فرحون: الديباج، ص 131.

⁽²⁾ ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 95.

معرفته أن صحبة الصوفية لا تعني التجرد و ترك الاشتغال بالعلم، أو بأي دنيوي يقصد به وجه الله تعالى⁽¹⁾.

الطور الثالث: يبدأ بارتحاله من الأسكندرية ليقيم في القاهرة، و ينتهي هذا الطور بوفاة ابن عطاء الله سنة 709 هـ / 1309 م، و هذا طور نضوجه و اكتماله من الناحيتين الفقهية و الصوفية، و الإفادة فيهما عن طريق التدريس و الوعظ⁽²⁾.

و من أشهر المؤلفات التي أنجزها ابن عطاء الله، و كان لها تأثيرها العلمي و الفكري، "كتاب الحكم" الذي انكب عليها كثير من العلماء شرحا و تحقيقا، قال عنه صاحب كتاب "طبقات الشاذلية"، "هي أفضل ما صنف في علم التوحيد، و أجل ما اعتمده بالتفهم و التحفظ كل سالك و مريد، ذات عبارات رائقة، و معان حسنة فائقة، قصد فيها إيضاح طريق العارفين و الموحدين، و إبانة منهاج السالكين و المتجردين"⁽³⁾.

كان من الطبيعي، في سياق الواقع الذي عاشه ابن عطاء الله، أن يصبح وارث علم أبي العباس المرسي الذي توفي سنة 686 هـ / 1287م، و القائم على طريقته، و الدعوة لها من بعده، و كان قبل وفاة المرسي أهلا لتدريس الفقه بمدينة الأسكندرية إلى القاهرة، ليقيم فيها وليشتغل بالتدريس و الوعظ، فتولى التدريس في أكبر الجامعات الإسلامية في ذلك العصر، و هي جامع الأزهر الشريف، و من هنا كثرت شهادات العلماء له بالفضل و التقدم، من ذلك شهادة

(1) عبد المجيد الشرنوبلي: شرح الحكم العطائية، ضبطه عبد الفتاح البيزم، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة العاشرة 1427 هـ / 2006 م، ص 17.

(2) المرجع نفسه: نفس الصفحة.

(3) ابن علي الكوهن: المصدر السابق، ص 95.

منقولة عن الإمام الذهبي، الذي قال " كان ابن عطاء الله يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروّح النفس، و يمزج كلام القوم بآثار السلف و فنون العلم، و كانت له جلاله عجيبة، و وقع في النفوس، و مشاركة في الفضائل"⁽¹⁾.

يتضح من المعطيات المذكورة، أن أبا الحسن الشاذلي المغربي، وضع تعاليم صوفية عميقة في معناها، بسيطة في وسائل شرحها و ايضاحها، أساسها الشريعة، بعيدا عن التشدد و الغلو، و تمكن نتيجة ذلك من أن ينشر أفكاره و يجد الأتباع و الطلبة الذين يشيعونها و يدافعون عنها بكل ثبات و قناعة، و كانت أرض المشرق عامة و مصر خصوصا الأرض التي احتضنت تلك الأفكار، و صاحبها، مما أثمر عن بروز أعلام في التصوف، حملوا لواءها في مصر الاسلامية، و عليه فإن الشاذلي، هو مثال المفكر المغربي الذي أشاع بفكره في بلاد المشرق مجسدا روح التواصل بين الأمة الاسلامية مشرقها و مغربها.

يقول البوصيري الصنهاجي في قصيدة، يثني فيها على فضل هؤلاء -من الكامل-

إِنَّ الْإِمَامَ الشَّاذِلِي طَرِيقُهُ فِي الْقَضَلِ وَاضِحَةٌ لغير المهتمدي

قَطُبُ الزَّمَانِ وَ عَوْنُهُ وَ إِمَامُهُ عَيْنُ الْوُجُودِ لِسَانُ الْمَوْجِزِ

وَ رَأَيْتَ أَرْضًا فِي الْفَلَا مُحَضَّرَةً مُخْضَلَّةً مِنْهَا بِقَاعِ الْفَرْفَرِ

وَ الْمَرْءُ فِي مِيزَانِهِ أَتْبَاعُهُ فَاقْرُرْ إِذَا قَرَّرَ النَّبِيُّ مُحَمَّدِ

شَرْفًا مَدْرَسَةً رَسَتْ فَأَسَاسُهَا بَعْلَى أَبِي الْعَبَّاسِ فَوْقَ الْفَرْفَرِ

(1) عبد المجيد الشرنوبلي: المرجع السابق، ص 20.

سَاحَتْ رِجَالٌ فِي الْقَفَارِ وَ إِنَّهُ لَيْسِيخُ فِي الْمَلَكُوتِ طَرْفَةً مَشْهَدٌ⁽¹⁾

محي الدين بن عربي

هو أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي، المعروف بابن سراقه و يلقب بمحي الدين، ويعرف بابن عربي، من ولد عبد الله بن حاتم، أخي عدي بن حاتم الطائي الشهير بكرمه، المولود سنة 560هـ / 1165 م، وصفه الغبريني بالشيخ الجليل، الحافظ، المتصوف، المحقق⁽²⁾.

قرأ القرآن، على أبي بكر بن خلف بإشبيلية بالسبع، و أخذ عن أبي القاسم الشراط القرطبي، و سمع على ابن زرقون، و أبي محمد عبد الحق الاشبيلي الأزدي، و غير واحد من أهل المشرق و المغرب، و انتقل من مرسية، و كانت حاضرة شرق الأندلس، إلى إشبيلية سنة 568هـ/ 1172 م، و أقام بها حتى سنة 598هـ / 1201 م، ثم ارتحل إلى المشرق، و لم يذكر المقري مروره ببجاية و اقامته بها مدّة كما ذكره الغبريني، و أجازته جماعة منهم الحافظ السلفي، و ابن عساكر، و أبو الفرج ابن الجوزي. و دخل مصر و أقام بالحجاز مدّة و دخل بغداد و الموصل و بلاد الروم، ثم رجع إلى دمشق، و أقام بها إلى أن توفي بها سنة 638 هـ / 1240 و دفن بجبل قاسيون⁽³⁾.

⁽¹⁾ (البوصيري الصنهاجي: القصيدة الدالية في مدح أبي الحسن الشاذلي و أبي العباس المرسي، مخطوط بالخزانة العامة

بالرباط، رقم $\frac{1722}{10}$ ، الرقم الترتيبي 3869، الرباط، المملكة المغربية، الورقة 91-92.

⁽²⁾ (الغبريني: المصدر السابق، ص 158.

⁽³⁾ (انظر الهامش رقم 2، من الصفحة 159، الذي وضعه محقق كتاب عنوان الدراية.

و يضيف ابن الأبار على ذلك، و يقدم معلومات حول المترجم، فيقول أنه أخذ عن مشيخة بلده، و مال إلى الأدب و كتب لبعض الولاة، ثم رحل إلى المشرق حاجا، فأدى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، و سمع الحديث من أبي القاسم الخرساني و غيره، و سمع صحيح مسلم من أبي الحسن، بن أبي نصر سنة 606 هـ / 1209 م، و كان يحدّث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي و يقول بها، و برع في علم التّصوف، و له في ذلك تآليف جليلة كثيرة، لقيه جماعة من العلماء المتعبّدين و أخذوا عنه⁽¹⁾.

كان ابن عربي من أسرة نبيلة غنية، و افرقة التقوى. و هو يذكر عن أبويه أخبارا تدل على شدّة التقوى، و كان له خالان سلكا طريق الزهد، أحدهما يحيى بن يغان الذي تخلّى عن منصب حكومي هام في تلمسان، و لزم خدمة عابد، فرض عليه أن يكسب قوته من الإحتطاب في الجبال، و بيع الحطب في الطرقات، أما خاله الثاني، فهو أبو مسلم الخولاني، الذي كان يقضي الليل في مجاهدات شديدة، و يضرب نفسه بقسوة حتى لا ينام⁽²⁾.

و لانعلم على وجه الدقة متى كان تحول ابن عربي هذا، لكن المؤكد أن ذلك لا بد من أن يكون قد وقع قبل عام 580 هـ / 1184 م، إذ في هذا التاريخ، كما صرح هو بنفسه دخل حياة الصوفية، وهو في سن الحادية و العشرين، و تعلّم ابن عربي الإتصال بأرواح الموتى من شيخ شهير بكراماته، هو أبو الحاج يوسف السبريلي (= من شبربل شرقي إشبيلية)، و كان من كراماته

(1) ابن الأبار: التكملة، المجلد 4، المصدر السابق، ص 126.

(2) آسين بلاتيوس: ابن عربي، حياته و مذهبه، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، 1979، ص 06.

المشي على الماء،" و في نفس الوقت كان يقصد جماعات الشيوخ الآخرين، مثل يوسف الكومي، و قد أشاد ابن عزي بعلمه إشادة كبيرة، فقال كان شيخنا أبو يعقوب يوسف بن خلف الكومي يقول : بيننا و بين الحق المطلوب ،عقبة كؤود ،و نحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة، فلانزال نعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرطنا على ما وراءها من هناك لم نرجع، فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه⁽¹⁾ .

و تلقى ابن عربي عن شيخين متخصصين في عملية محاسبة الضمير يوميا من عمليات الكمال الروحي ،و هما: أبو عبد الله بن المجاهد ،و أبو عبد الله بن قيسوم بأشبيلية، و لكن طريقهم كانت مقصورة على المحاسبة على الأفعال و الأقوال: فأضاف إليها ابن عربي المحاسبة على الخواطر و أتم ابن عربي تكوينه الصوفي تحت إشراف مجموعة من الشيوخ الذين عرفوا بالزهد والكرامات⁽²⁾ ، خاصة في إشبيلية و ما حولها، و كان يقضي أياما كثيرة في مسجد الزبيدي بصحبة أبي يحيى الصنهاجي الضرير صاحب الكرامات، الذي علمه أن يتقبل بالصبر اضطهاد العامة، بل و التّعرض بهذا الإضطهاد عن قصد مخفيا الولاية، سكن تحت مظاهر التحلل في العادات⁽³⁾ .

(1) آسين بلاتيسوس: المرجع السابق، ص15.

(2) تعرف بعض متون التّصوّف الكرامة، بأنها أمر مخصوص بالأولياء، كما المعجزة مخصوصة بالأنبياء .و حسبهم، فإن ظهور الكرامات على الأولياء جائز، و الدليل على جوازه، أنه أمر موهوم في العقل لا يؤدّي حصوله إلى رفع أصل من الأصول، و الفرق بين المعجزات و الكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهار معجزاتهم، و الوليّ يجب عليه ستر كرامته و إخفاؤها . و ليست الكرامات للأولياء إلا تأديبا لنفوسهم و تهديبا لها، و أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق النفس بخلق محمود، ينظر، القشيري أبو القاسم: الرسالة، تحقيق معروف مصطفى رزّيق، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1432هـ-2011م، ص 353 و ما بعدها، و عبد المنعم الحفني: معجم مصطلحات الصوفية، المرجع السابق، ص 223-224.

(3) آسين بلاتيسوس: المرجع السابق، ص 24 .25.

و يبدو أن ابن عربي، قد أدرك و استوعب الصبر كقيمة أخلاقية و نفسية، تشكل حاجزا معنويا واقيا أمام أذى و اضطهاد الوسط الإجتماعي، و دفع الإكراهات و الإذايات من جانب الفقهاء النّصيين، لذلك فهو يؤكد على أهمية هذه القيمة للعارف في كتابه " مواقع النجوم " حيث يورد «فما يعطى لأهل البلاد مقامات، إلا بالصبر عليه و الرضى به، كل حسب مشربه، والصبر و الرضى من جملة أعمال الأحوال المشروعة لنا، المأمور بها شرعا، كما قال تعالى: " وَأَصْبِرْ و مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللّهِ " ⁽¹⁾، و ما يكون الصبر إلّا على بلاء و مشقة . و أصل السعادة الجامعة، موافقتنا الحق تعالى، فيما أمر به، و ينهى عنه شرعا، و موافقته توحيداً في باطنه ببقاء الأغيار، و تلك الموافقة عناية من الله ببعض عبادِهِ» ⁽²⁾.

و علمه يوسف الأستجي القيمة الصوفية للصدقة، و كان يوسف هذا من الأميين المنقطعين إلى الله، المنوّرة بصائرهم. و علمه أبو عبد الله الشرفي الخلوة في الظلام، حتى يتجنب كل داعٍ إلى تشتيت الخاطر، و أبو عبد الله كان صاحب خلوة، بقي نحواً من خمسين سنة ما أسرج له سراج في بيته. و من ناحية أخرى تعلم الفائدة في حياة التجول بالنسبة إلى الصوفي، من معاشرته لصالح البربري، و كان من الصوفية السياح، أقام أربعين سنة في مسجد أبي عامر الرطندالي بإشبيلية بعد أن ظل يتجول طوال أربعين سنة أخرى، كذلك كان من شيوخ ابن عربي في الطريق

⁽¹⁾ سورة النحل، الآية 127.

⁽²⁾ محي الدين بن عربي: مواقع النجوم و مطالع الأسرار و العلوم، المكتبة العصرية، بيروت، 1429 هـ / 2008م، ص 50.

عجوزان صالحتان هما : ياسمين، و هي صوفية من مرشانة الزيتون، و فاطمة القرطبية، و كانت في التسعين ذات أطوال⁽¹⁾.

و بعد أن تحددت ملامح شخصية ابن عربي الصوفية، اتجه إلى حياة السياحة، ذلك أن السفر الروحي و ما يرتبط به من اغتراب لدى أهل الصوفية يمثل عتبة إلى المحبة الإلهية، التي تتعلق بها همّة الصوفي و تؤثرها عمّا سواها، إلى درجة تصوير معها جوهرها، تتحدّد به ماهية الوجود الذاتي للصوفي، الذي تستوي عنده المعرفة و المحبة فتصبحان أمراً واحداً⁽²⁾.

إن إدراك حقيقة الألوهية على هذا المعنى، يدفع بالمتصوف إلى نوع من "الغربة"، التي تتكامل مع السياحة و تتجلى عبر ذلك السفر الروحي إلى العوالم العلوية، فتكون عندها "الغربة" حنيناً إلى العودة إلى الأصل، و رغبة في الإحتراق بنار الحب الأكبر، التي هي شرط حصول برد اليقين، وهو ما يبينه ابن عربي، عندما يشير إلى أن الغربة عند أهل التصوف يطلقونها و يريدون بها، مفارقة الوطن في طلب المقصود، و يطلقونها في اغتراب الحال، فهم يطلبون بالغربة وجود قلوبهم مع الله⁽³⁾.

و لهذا لم تكن العبادة عند أهل الصوفية بدافع "الخوف" من العقاب أو "الطمع" في الثواب، بقدر ما كان مبناهما الحب الأكبر، حب الله، ذلك أن في محبته سعادة، و بمحبته تنكشف

(1) آسين بلاتيسوس: المرجع السابق، ص 26.

(2) محمد الكحلاوي: الفكر الصوفي في إفريقيا و الغرب الإسلامي، ق 9 هـ / 15م، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص 38.

(3) المرجع نفسه: ص 40.

الحجب للمحب و تتجلى الحقائق للعارف العاشق.⁽¹⁾ إن التجربة الصوفية باعتبارها فناءً في الله وبقاء به، بإمكانها "أن ترتفع بالعارف الصوفي إلى مستوى من التلقي المباشر للمعرفة عن الله، على خلاف العلوم الأخرى التي تؤخذ نقلاً أو بالإسناد عن الأموات"⁽²⁾.

و بفضل أسفاره، طارت شهرته بوصفه صوفياً بين البلدان القريبة من إشبيلية، و سرعان ما لجأ إليه الشيوخ و زاروه ليسألوه الرأي في المشاكل الصوفية، فرحل إليه في إشبيلية عالم من "قبرفيق" (= و هي قرية قريبة من رندة) ، كان رغم تصوفه معتزلياً، قدم للتحدث مع ابن عربي، و لما عرف هذا أنه يقول بآراء الاعتزال اعتبره مبتدعاً، فقصده إلى "هدية"، فغادر إشبيلية متجهاً إلى قبرفيق، و دخل في جدال معه يوماً تلو يوم في مدرسة و بحضور كثير من أتباعه و تلاميذه، حتى كلال، سعيه بالنجاح، فرجع الشيخ و تلاميذه عن معتقداتهم⁽³⁾.

يبدو أن روح ابن عربي القلقة لم تقتنع بحدود بلاده الضيقة، فارتحل عنها إلى إفريقية قبل سنة 590 هـ / 1193 م، و كان هدفه الرئيسي، أن يلتقي بالشيخ الإشبيلي الكبير أبي مدين، الذي أقام مدرسة صوفية في مدينة بجاية منذ عدة سنوات⁽⁴⁾، و لكن ليس من المؤكد مع ذلك أنه لقيه هناك، لأن مترجمي حياة ابن عربي يذكرون عنه، أنه دخل بجاية سنة 597 هـ / 1200 م، و في هذا التاريخ كان أبو مدين قد توفي من قبل، و من ناحية أخرى، كان ابن عربي في تونس سنة

(1) محمد الكحلوي: المرجع السابق، ص 40.

(2) محمد الكحلوي: المرجع نفسه، ص 41.

(3) آسين بلاتوس؛ المرجع السابق، ص 33.

(4) يورد الغبريني أن الشيخ محي الدين بن عربي كان متأثراً بالشيخ أبي مدين شعيب. و ذكر حسب رواية ابن عربي، أن أبا مدين لم يمت حتى تقطّب بثلاث ساعات، و القطبية للعارف هي منتهى مناله و غاية آماله، ينظر: الغبريني، المصدر السابق، ص 56.

590هـ / 1193م، فمن الممكن إذن أن يكون ابن عربي قد مرّ قبل ذلك ببجاية، و أمكنه إذن أن يلتقي أبا مدين فيها⁽¹⁾.

و لابد أن إقامة ابن عربي في بجاية كانت غير طويلة، لأننا سنجد في سنة 590 هـ/ 1193 في تونس، و كان من بين أغراضه من زيارتها أن يلتقي بشيخ صوفي كبير، هو أبو محمد عبد العزيز، الذي سيزوره ابن عربي بعد ذلك بثماني سنوات، و في نفس السنة، أي سنة 590هـ/ 1193 م، غادر تونس عازما على السير بجذاء الشاطئ حتى بلغ إشبيلية، و في السنة التالية، سنة 591 هـ/ 1194م، عاد إلى اجتياز العدة، متجها إلى فاس لأول مرة فيما يبدو، و عكف على الدراسات و المجاهدة هناك، و كان يفضل المسجد الأزهر و بستان ابن حيون، فكان يمضي في المسجد الأزهر الساعات الطوال في الصلاة و في حضور درس الشيخ، ابن عبد الكريم التميمي الفاسي إمام المسجد، و كان بستان ابن حيون هو المكان المختار لتجمع تلاميذه الذين بدأوا يتكاثرون حوله لسماع المحاضرات الصوفية التي كان ابن عربي يلقيها⁽²⁾.

و بعد تجوال حثيث بين المدن المغربية و الأندلسية، اتجهت رغبة ابن عربي إلى السفر إلى المشرق، ابتغاء أن يجد هناك مجالا أنسب لأفكاره، و أقل تعرضا لتأثير الفقهاء الذين قضوا بدسائسهم على شيخه أبي مدين، فمرّ بالأسكندرية و القاهرة، و في سنة 598 هـ/ 1201 م، بلغ الغاية من رحلته، إذ بلغ مكة، و سرعان ما ذاع صيته في البقعة المقدسة، و بدأ الصالحون والعلماء يتوددون إليه، و من بين هؤلاء أسرة الإمام الموكل مقام النبي إبراهيم عليه السلام، و اسمه

(1) آسين بلاتبوس: المرجع السابق، ص 35.

(2) المرجع نفسه: ص 37 و مابعداها.

أبو شجاع زاهد بن رستم بن أبي الرجا الأصفهاني، الذي انعقدت بينه و بين ابن عربي مودة وثيقة، و من ذلك التاريخ، سنة 598 هـ / 1201 م، و نشاطه في الكتابة عجيب، بفضل الهدوء النسبي الذي طرأ على حياته التي كانت قلقة حتى ذلك الحين، و بفضل سمو تصوفه الذي وجد جواً ملائماً في ذلك البلد الأمين مكة، ففي السنة التالية 599 هـ / 1202 م، كتب "مشكاة الأنوار فيما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم من الأخبار"، و فيه جمع أربعين حديثاً بأسانيدھا المتصلة، و في الطائف، قرب مكة، كتب " حلية الأبدال"، بناءً على رجاء من أصحابه في الطريق، و في سنة 600 هـ / 1203 م، بدأت مرحلة جديدة للأسفار، إذ نراه في السنة التالية 601 هـ / 1204 م يمر ببغداد دون أن يقيم بها غير اثني عشر يوماً، استأنف بعدها السفر قاصداً الموصل، و لا بد أن الذي أغرى ابن عربي بالتوجه إلى الموصل، هو الرغبة في زيارة، علي بن عبد الله بن جامع، و كان صوفياً مشهوراً، فقصده ابن عربي ابتغاء الانتفاع بعلومه⁽¹⁾.

بعد هذا التراكم العرفاني، الذي حصّله ابن عربي، و امتداد أخباره و شهرته في المغرب والمشرق، طرح فكرة عرفانية تلخص فلسفته الصوفية و هي وحدة الوجود⁽²⁾ يقدم لنا الجابري خلاصة مركزة عن مذهبه⁽³⁾ فيقول: نقلا عن كتاب الفتوحات لابن عربي:

(1) آسين بلاتيوس: المرجع السابق، ص 59 - 62.

(2) Emile Dermenghem : vies des saints musulmans, Paris ;p 284

(3) هذا و يورد فؤاد سزكين أن أبا زيد البسطامي، المتوفي سنة 261 هـ / 875 م، تتسم صوفيته بوحدة الوجود، و هذا يعني - حسب فكرته- أن ابن عربي ليس هو أول من نظّر لوحدة الوجود في التصوف الإسلامي، ينظر فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الرابع، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1403 هـ / 1983 م، ص 152 .

«الباب السادس - من الفصل الأول- في معرفة بدء الخلق الروحاني و من أول موجود فيه، و مم

وجد، و فيم وجد، و على أي مثال وجد، و لِمَ وُجد، و ما غايته، و معرفة أفلاك العالم

الأكبر و الأصغر»، و يوضح فكرته أكثر في الحوار التالي:

« بدأ الخلق: الهباء

و أول موجود فيه: الحقيقة المحمدية الرحمانية أولاً، و لا أين يحصرها لعدم التخيّر

- و ممّ وجد؟

- في الهباء

- و على أي مثال وجد

- الصورة المعلومة في نفس الحق

- ولمّ وُجد؟

- لإظهار الحقائق الإلهية

- و ما غايته؟

- التخليص من المزحة، فيعرف كل عالم من منشئه، من غير امتزاج، فغايته إظهار حقائقه

ومعرفة أفلاك الأكبر من العالم، و هو ما هذا الإنسان في إصطلاح الجماعة. و العالم

الأصغر، يعني الإنسان روح العالم، و معرفة علته و سببه و أفلاك مقاماته و حركاته و تفصيل طبقاته»⁽¹⁾.

و يحاول ابن خلدون، تقديم شرحه لفكرة وحدة الوجود عند ابن عربي: « و القوة الجامعة لكل من غير تفصيل، هي القوة الإلهية التي انبثقت في جميع الموجودات كلية و جزئية، و جمعتهما و أحاطت بها من كل وجه، لا من جهة الظهور و لا من جهة الخفاء و لا من جهة الصورة و لا من جهة المادة، فالكل واحد و هو نفس الذات الإلهية»⁽²⁾.

يظهر إذن، أن الربط بين حقيقة الحقائق الكلية و الغيب المطلق⁽³⁾ من جهة، و الربط بينها وبين النسب من جهة أخرى، يؤكد أن حقيقة الحقائق تتوحد بالأسماء الإلهية التي في مجموعها الألوهة. و من هذه الزاوية تتوحد بالألوهية، و تنسب إلى الحق و تصحّ عليه، كما تنسب إلى العالم و تصحّ عليه⁽⁴⁾.

و عليه فإن حقيقة الله و الوجود من خلال مذهب ابن عربي، يتلخص بأنه نوع من التصوف مبني على أساس، أنه لا وجود إلا وجود الله، و ما ذلك التعدد المرئي في المخلوقات في العالم، إلا ضرب من الوهم في حقيقته، تفر فيه العقول البشرية، التي عجزت عن امتلاك القدرة على تمثيل

⁽¹⁾ محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي... دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987، ص 360.

⁽²⁾ ابن خلدون: المقدمة، ص 472.

⁽³⁾ يقدم لنا ابن عربي شروحا ضافية لمصطلحات الصوفية كالغيب و المقام و الفتح و الخال و غيرها، ينظر، محي الدين ابن عربي: مقتبسات من شرح ألفاظ الصوفية، مخطوط بالخزانة الحسنية، تحت رقم 14124، الرباط، المملكة المغربية، الورقة رقم 401 و ما بعدها.

⁽⁴⁾ نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل... دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، 2003، ص 73.

هذه الحقيقة، التي هي سر الوجود الواحد، و وجود الممكنات في رأيه عين وجود الله، و ما ذلك التعدد إلاّ وليد الحواس و العقل الإنساني القاصر، الذي يقف عاجزا عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء، التي إذا نظر إليها من حيث ذاتها، قيل هي الحق، و إذا نظر إليها من حيث صفاتها قيل هي الخلق⁽¹⁾.

ف"الواحد" في نظر ابن عربي أحب أن يرى نفسه في صورة غريبة، يتجلى فيها و يرى نفسه من خلالها بالمعنى الحرفي لكلمة "أحببت"، التي يفسّرها بالعشق، و لما يتجلى الله في صورة كافة الموجودات، تظهر "الوحدة المطلقة" في الكثرة و الترقّم، و هو ما يصطلح عليه ابن عربي بـ "الواحدية"، و عند التجلي الوجودي، الفيض المقدس، يخلق الله العالم، إذ يظهر المطلق نفسه في صور مختلف الموجودات المحسوسة، و هو الإنتقال بالأعيان الثابتة و بالأشياء الممكنة الموجودة بالقوة إلى حالة الوجود المتحقّق بالفعل⁽²⁾.

لكن الفكر الصوفي لابن عربي بقدر ما لقي من الإعجاب و التشجيع⁽³⁾ فإنه لقي أيضا معارضة و نقدا في بلاد الشام، خاصة من قبل الفقيه الحنبلي تقي الدين ابن تيمية الذي انتقد

⁽¹⁾ علي أحمد: الأندلسيون في بلاد الشام، المرجع السابق، ص 136. 137.

⁽²⁾ محمد الكحلوي: المرجع السابق، ص 132.

⁽³⁾ تجدر الإشارة إلى أن إشعاع ابن عربي العرفاني استمر في دمشق، حيث كان يعطي الإجازات العلمية، فقد أجاز السلطان المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل أبي بكر أيوب و أولاده، و تلك الإجازة كتبها بنفسه سنة 632هـ/1234م، أي قبل ست سنوات من وفاقه، ينظر، نور الهدى الشريف الكتاني: الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، مخطوطة، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف أ.د. محمد بن شريفة، السنة الجامعية 2000-2001م، ص 67.

نظرية وحدة الوجود عند ابن عربي. ⁽¹⁾ و قد طال النقد كتابه " الفصوص" ⁽²⁾ و اعتبره زنديقا كافرا.

كما هاجم البقاعي، إبراهيم بن عمر المتوفي سنة 885هـ / 1480م، ابن عربي في كتابه: "مصراع التصوف"، أو "تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، و تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإتحاد"، خاصة فكره. المتعلق بوحدة الوجود، حيث يورد «وذلك أن عنده أن وجود الكائنات هو الله، فإذا الكل هو الله، لا غير، فلا نبي و لا رسول، و لا مرسل، و لا مرسل إليه»، ثم يواصل سيل النقد الموجه لابن عربي في فصل سمّاه: "إيمانه بأن الله إنسان كبير"، موردا: «ثم قال ابن عربي في فص حكمة إلهية في كلمة آدمية، لما شاء الحق سبحانه من حيث أسماءه الحسنى أن يرى أعنائها، و إن شئت قلت أن يرى عينه في كون جامع.... ثم قال، فكان آدم، عين جلاء

⁽¹⁾ (إن بعض الدراسات الفلسفية و الصوفية المعاصرة ترى أن نقد ابن تيمية قد انصبّ أساسا على " فصوص الحكم" دون كتاب "الفتوحات"، و كانت استشهاده به غير دقيقة، بل تتميز بالتعظيم و السطحية. إن اختيار ابن تيمية " للفصوص" هدفا للنقد يمنحه فائدتين: إختصار هذا العمل، ممّا يسهّل مهمة النّقد، و خاصية الإيجاز لكثير من الصّيغ المعيّنة على المحجوم، كل هذه العناصر قد تمكّن الدّارس من استنتاج أن ابن تيمية، إذا لم يكن في الواقع غير نزيه في انتقاداته، فانه لم يفهم جيدا ابن عربي كما أراد ابن عربي أن يفسّر فكره. ينظر عبد الجليل سليم: الدلالة المنهجية لنقد ابن تيمية لابن عربي، ضمن: ابن عربي في أفق ما بعد الحداثة، تنسيق محمد المصباحي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003، ص 213.

⁽²⁾ كتاب " فصوص الحكم" لحي الدين بن عربي، لقي اهتماما من قبل أهل العلم، تجسد ذلك من خلال الشروح المختلفة التي وضعت عليه، أبرزها شرح حيدر بن علي العلوي الحسيني الأملي في مجلدين و سمّاه " نص الفصوص في شرح الفصوص"، و فرغ منه في بغداد سنة 782 هـ / 1380م، و شرحه شهاب الدين أحمد بن يوسف الحصكفي الحلبي الشافعي، المتوفي سنة 895هـ / 1489م، و شرحه ركن الدين مسعود الإسترابادي، ثم الشيرازي المتوفي سنة 946هـ / 1539 م و سمّاه " تجليات عرائس النصوص في منصّات حكم الفصوص ". ينظر حاجي خليفة، كشف الظنون ج4، ص 133. 134.

تلك المرأة و روح تلك الصورة، و كانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة، التي هي صورة العالم المعبر عنه في اصطلاح القوم بالإنسان الكبير»⁽¹⁾.

يظهر مما تقدم، أن الصوفي محي الدين بن عربي، اجتهد في تقديم نظرية متكاملة في التصوف، تقوم على فكرة وحدة الوجود مستندا إلى شواهد من القرآن الكريم و سيرة الصحابة. وبدا مفكراً فذاً من خلال عمق فكره و كفاءته الروحية و استعداده الفطري، و قد احتضن أفكاره الصوفية في بلاد المشرق و المغرب قسم هام من المشتغلين بالفكر و العلوم، غير أن قسماً من الفقهاء قدح في أفكاره و كذبته و كفره مخرجاً إياه من الملة .

لكن يبقى في النهاية، أن ابن عربي، كان صوفياً صاحب أفكار عميقة أثارت اهتمام الناس في كافة الأصقاع، كوضوحها و تكاملها و ارتكازها على المدونة الإسلامية (= القرآن الكريم، سيرة الرسول (ص)، و الصحابة)، و لاتزال أفكاره حتى الآن محل دراسة و بحوث في العالم الغربي على وجه الخصوص.

نستخلص من حصاد هذا الفصل، أن المغاربة لم يكتفوا بدور التلميذ للأستاذ أمام المشرق، بل قام طلاب العلم المغاربة بالرحلة إلى بلاد المشرق، و اتصلوا بأعلام العلم هناك، و تزودوا بالعلم و المعرفة لكنهم لم يكتفوا بهذا فقط، بل كانت لهم إسهاماتهم وإضافاتهم الخاصة بهم، وأثروا العلوم الدينية و اللغوية و العرفانية، و افتكوا اعتراف المشاركة بجدارتهم الفكرية و مؤهلاتهم

(1) البقاعي إبراهيم بن عمر: مصرع التصوف، أو تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي و تحذير العباد من أهل العناد، الناشر، عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ص 38، مأخوذ من الموقع الإلكتروني الخاص بمكتبة المدينة الرقمية: <http://www.naqamixa.org>

العلمية. تجسّد ذلك من خلال كتب التراجم التي ألفها المشاركة، التي سجّلت بكل وضوح النبوغ المغربي في حقول العلم و المعرفة .

الباب الثالث:

إسهامات علماء المغرب في بلاد الشام

- الفصل الأول: علماء المغرب في علوم اللغة والشعر
- الفصل الثاني: علماء المغرب في العلوم الدينية و القضاء

الفصل الأول:

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

أسباب استقطاب بلاد الشام للأطر العلمية المغربية:

منذ نهايات القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، ظهر نزوع لدى بعض الفئات من مجتمع الغرب الإسلامي، إلى ترك بلادهم و التوجه إلى أقطار عربية إسلامية، كان من ضمنها بلاد الشام، التي ظل يقصدها المغاربة طيلة الفترة المتبقية من العصور الوسطى، خاصة الشغوفين بالعلم منهم، الذين حظوا بإحترام و تقدير كبيرين على المستويين الشعبي و الرسمي، إذ أسندت إليهم أعلى المناصب الدينية والأدبية، بعد أن تحولوا من تلامذة متلقين إلى أساتذة مشاركين عن جدارة و إستحقاق، و برزت مكانتهم أكثر سواء من خلال المدارس التي ترأسوها أو درّسوا بها كقراء و محدثين و فقهاء، يقصدهم الطلاب من شتى الأقطار للأخذ عنهم، أو من خلال مؤلفاتهم العلمية التي صنفوها في شتى حقول المعرفة، فأسهموا بذلك في بناء صرح النهضة العلمية التي عرفها المشرق عامة، و بلاد الشام خاصة، في عهد الدولتين الأيوبيه والمملوكية⁽¹⁾.

-وجدير بالملاحظة، أن عوامل الإستقطاب كانت متعددة، الطبيعية و السياسية و الإقتصادية والفكرية و النفسية. فبلاد الشام تميزت بملاءمتها للمغاربة من الناحية الطبيعية و الإقتصادية، التي تجسدت بتوفير فرص العيش، إضافة إلى المعاملة الحسنة التي تميز بها الشاميون عن غيرهم من أهل المشرق⁽²⁾. و يظهر ذلك واضحا إذا أجرينا مقارنة مع مصر، من خلال ما كتبه ابن سعيد المغربي، عن الفسطاط و القاهرة في أثناء زيارته لهما سنة 640هـ / 1223م، نقلاً عن المقري في نفتح الطيب بقوله: "وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول، إلا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفةهم بمعاناة البحر

(1) خلفات مفتاح: المرجع السابق، ص 419.

(2) علي أحمد: المرجع السابق، ص 43

و قد عمّ ذلك من يعرف معاناة البحر منهم و من لا يعرف ، و هم في القدوم عليها بين حالين: إن كان المغربي غنيا طوبل بالزكاة، و ضيّقت عليه السّعة، و إن كان مجردا فقيرا حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول"⁽¹⁾ . و عن القاهرة يقول: " هواؤها رديء...و أيضا مرمد العين فيها كثير، و المعاش فيها متعذرة نزره، لاسيما أصناف الفضلاء و جوامك المدارس قليلة كدره، و أكثر ما يتعيّش بها اليهود النصرى في كتابة الطب و الخراج"⁽²⁾ بينما في المدن الشامية ، و خاصة دمشق ، كانت تتوفر بها ظروف العيش للغرباء، و هو ما سجله الرحالة ابن جبير بقوله: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد - يقصد دمشق- و يتعرّب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثرة: فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، و هو أكبر الأعوان و أهمها، فإذا كانت الهمة، فقد وجد السبيل إلى الإجتهد، و لا عذر لمقتصر إلا من يدين بالعجز و التسويف"⁽³⁾ .

- الرحلة إلى الأماكن المقدسة بالشام، فقد عرف عن المغاربة أنهم كانوا يقصدون كلا من دمشق والقدس مع أنهما ليسا في طريق الحج من المغرب، و لعل الأسباب التي تفسر ميل أهل العلم المغاربة إلى زيارة هذه الأماكن تتمثل في إثنين: أولهما مكانة القدس في نفوس المغاربة باعتبارها أولى القبلتين، و مدفن الكثير من الأنبياء، فزيارتها لا تقل عن زيارة الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية. لذا خصّها أهل الحكم المغاربة بالبعثات، بالإضافة إلى أن السفارات التي كانت تحمل هذه المصاحف و الهدايا و الأوقاف، تتيح

(¹) المقري التلمساني: نفع الطيب، مج2، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة السادسة، 1433هـ / 2012م، ص348.

(²) المصدر نفسه: ص 350.

(³) ابن جبير: الرحلة، ص 200.

فرصا للكثير من الرحالة المغاربة كي يسيروا مع الركب و في حمايته إلى القدس الشريف، بل إن منهم من كان يقطن و يجاور بجانبه، حتى أصبح لهم حي هناك لا زال يدعى حي المغاربة⁽¹⁾.

و من الأحاديث التي تجعل القدس عامل جذب للمغاربة للمرور بالقدس و الإقامة فيها أمداء، حيث يأخذون العلم الشرعي، ما ينص على فضل الصلاة في المسجد الأقصى، كحديث النبي (ص) الذي يقول: «لا تشد الرحال، إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، و المسجد الأقصى و مسجدي هذا»⁽²⁾، و مثل هذه المشقة التي يتحملها القادم إلى الأقصى، يمكن أن تنسى من خلال الأمل باكتساب الثواب والمغفرة من جراء الصلاة فيه⁽³⁾.

و أما العامل الثاني، فيتجلى فيما كان يقصّه العائدون المغاربة من الشرق من أحاديث عن تمثال النعل النبوية التي كانت بدار الحديث الأشرفية بدمشق، من ذلك تلك الأبيات التي قالها الوادي آشي التونسي عن دار الأشرفية، رأى فيها تكثال نعل رسول الله (ص)، فقبّله و قال :- من الكامل -

دَارُ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ لِي الشُّفَا	فِيهَا رَأَتْ عَيْنَايَ نَعْلَ الْمُصْطَفَى
و لَثْمَتُهُ حَتَّى قَبِعْتُ وَ قُلْتُ يَا	نَفْسِي إِنْ عَمِي أَكْفَاكَ ؟ قَالَتْ لِي كَفَى
لِكَ يَا دِمَشْقُ عَلَى الْبِلَادِ فَضْلَةٌ	أَيَّامُكَ الْأَعْيَادُ لَأَزْمَهَا الصَّفَا
وَلَكُمْ يَجِيرُونَ جَرَزَتْ وَ لَمْ أَقِفِ	لِيلا و برح هَوَايَ فِيهَا مَا اخْتَفَى ⁽⁴⁾

(1) حسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 71 .72.

(2) حديث رواه أبو سعيد الخدري، ينظر: صحيح البخاري، ص 246.

(3) علي أحمد: المرجع السابق، ص 48.

(4) محمد بن عزوز: المحدثون المغاربة في دمشق، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م،

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

فأصبح لها اعتبار عند المغاربة، و احتلت حيزا من فكرهم و أحاسيسهم و عواطفهم فرويت أهم أشعار كثيرة في هذا الموضوع.

و نتيجة لنظرة التقديس لها، فقد كان أهل دمشق يستشفعون بهذه النعل النبوية عند نزول المعضلات، فلا عجب إذا وجدنا المغربي يتشوق إلى رؤيتها و يقتحم الصعاب، و يتحمل المشاق من أجل هذا الهدف، فيرحل إلى دمشق بقصد دار الحديث الأشرفية، و لكي يبقى قريبا منها ليتردد عليها باستمرار، فإنه يطيل الإقامة و يؤثر الجوار في دمشق أو في المدن الشامية الأخرى⁽¹⁾.

-الرحلة الجهادية: و هي تدخل ضمن الرحلات التي كان الباعث الديني هو المحرك لها و الدافع إليها، رحلتهم إلى الجهاد في سبيل الله، و تصبح واجبا دينيا تشتد إليه الحاجة و يفرضه الوضع الأمني حينما ينال العدو من المسلمين أو يهدد المقدسات و المصالح العليا للأمة الإسلامية⁽²⁾.

فقد سيطرت فكرة جهاد الفرنج(= الصليبيين) على المشرق الإسلامي طول القرنين السادس والسابع الهجريين، إلا أن مقاومة العلماء في هذه الفترة لم تكن هي الأولى من نوعها ضد الغزو الخارجي، بل سبقها مقاومتهم للبنزطيين عندما هددوا المشرق الإسلامي في القرن الرابع الهجري، و من الأمثلة، مقاومة الإمام القفال الشاشي المتوفى سنة 365هـ / 975م، و قيادته جمعا من المتطوعين من خرسان عام 355هـ / 966م، و المسمى بعام النضير، قاصدين الري و مطالبين بجيش لمعاونتهم على جهاد الروم،

(1) حسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 72.

(2) حسن الشاهدي: المرجع نفسه، ص 75.

كما برزت مقاومته من خلال قصيدته التي يرّد فيها على ملك الروم و يحرض فيها على الجهاد، و أضيف لذلك كله بأنه كان أحد المشاركين في الجهاد ضد الروم⁽¹⁾.

بدأ الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وتحديدًا في عام 490هـ/ 1096م، حيث كانت الشام مسرحًا لذلك الصراع الذي امتدّ ليشمل مصر عام 562هـ/ 1166م، و قد بدأت مقاومة هذا الغزو منذ اللحظات الأولى له، سواء كان ذلك على الصعيد الرسمي أو غير الرسمي، و لكنها بشكل متقطع، و حقق المسلمون فيها نصرا هاما على الفرنجة بمصر⁽²⁾.

كانت فئة علماء الدين الأكثر تأثيرًا، لما للدّين من أثره في المجتمع و وقعه في النفس، فكان الحرك الأقوى للجهاد ضد الصليبيين، سواء كان شعورًا بالواجب الديني، أم تقربًا من السلطة و خدمة لها، و قد تعددت وسائل الجهاد و صوره في الإسلام، فتراوحت بين الجهاد بالمال و النفس و بين الجهاد باللسان، إذ قد يسبق، جهاد السيف لأنه يدخل إلى أعماق النفس البشرية، و يتصل إتصالًا مباشرًا بالإيمان، بمعنى أهميته في تحريض الهمم و شحنها لمجابهة العدو⁽³⁾.

و حسب ابن جبير، فإن السلاطين الأيوبيين قدّروا للمغاربة حرصهم و تفانيهم في الجهاد معهم ضد الفرنجة، تجلّى ذلك بتخفيف المكوس على التجار المغاربة " و أكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، و لا

(1) لؤي البواعنة: دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي (490-648هـ / 1097-1250م)، دار البازوري للنشر، عمان، الأردن [ب. ت]، ص 128.

(2) أبو شامة المقدسي: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية، ج2، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، [ب. ت]، ص 7. 8. 9.

(3) لؤي البواعنة: المرجع السابق، ص 128. 129.

اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين... فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو"⁽¹⁾.

أكثر من هذا، فإن التعاطف و التضامن مع المغاربة كان على الصعيد الشعبي، خاصة المغاربة الذين يقعون أسرى بيد النصارى، فإنهم وجدوا ممن يفديهم بالمال لقاء حريتهم، تُجسد ذلك شهادة ابن جبير " و من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفريقية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية و سواها، إنما يعينها في إفتكك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم ... فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين و الخواتين من النساء، و أهل اليسار و الثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل"⁽²⁾.

- العوامل السياسية:

بدأت العوامل السياسية في بلاد الشام، تسير لصالح المقيمين المغاربة منذ انحسار حكم الفاطميين فيها، و ذلك في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، و خاصة في المدن التي لم تقع تحت سيطرة الصليبيين، كدمشق و حلب و غيرها، و قد تبلورت الملامح الأولى لهذه العوامل في ظل حكم البوريين في مدينة دمشق، الذي استمر حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري، و في ظل حكم الزنكيين قبل ظهور نور الدين الشهيد على المسرح السياسي، في تلك المناطق التي شملت مدن المنطقة الوسطى، الشمالية، و الشمالية الشرقية من بلاد الشام، و مجموع الحكام الذين تعاقبوا على حكم الشام في هذه الفترة، مثلوا السلطة الشرعية، التي يجب أن تكون، حسب نظرة و مفهوم المغاربة

(1) ابن جبير: الرحلة، ص 210.

(2) المصدر نفسه: ص 214.

لشرعية السلطة في تلك الفترة من الزمن، الأمر الذي جعلهم يقصدون الشام و يستقرون فيها دون حرج ولا خوف، فوجدوا فيها بيئة صالحة، تشبه إلى حد كبير تلك البيئة التي عاشوا فيها، و التي تشدد على التمسك بالسنة و الشرع، و عدم اللجوء إلى الجدل في الدين⁽¹⁾ ، و تراث المالكية زاحر فيما يتعلق بنبذ الفرقة و الخلاف، التي يرون أن منبتها الأول هو الجدل و السجالات، فالفقيه سحنون بن سعيد التنوخي، كان يلاحق كما يسميهم ، أولئك الذين يفسدون على الناس دينهم و أخلاقهم من دعاة البدع والضلالات و الإنحراف، فقد كان يحرم على الخوارج من إباضية و صفرية، و على المعتزلة أيضا، عقد الحلقات في المساجد و في الأندية العامة للمناقشة، و المناظرة، حرصا منه على حماية عقيدة الشيبية والعوام من الزيغ و الإنحراف⁽²⁾ . و مما يعكس هذه الصورة في دمشق ما أورده المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي في حوادث سنة 543هـ / 1149م بقوله: " و في رجب من هذه السنة أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة و الرسم، فبدأ من إختلافهم في أقوالهم و أعراضهم و الخوض فيما لا حاجة إليه من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال ، و إبطال الوعظ لما يتوجب معه من الفساد و طمع سفهاء الأوغاد"⁽³⁾ .

و سوف تتمنن المعاملة الحسنة بين المغاربة و أهل الحكم في بلاد الشام أثناء حكم الزنكيين والأيوبيين و من بعدهم الماليك، و تبدأ هذه المرحلة من سنة 549هـ / 1155م، حيث غدت الظروف أكثر إيجابية و وضوحاً. ففي الوقت الذي كانت فيه بلاد المغرب و الأندلس تعاني من اضطرابات حادة

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 55

(2) سعدي أبو حبيب: سحنون مشكاة نور و علم و حق ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1401هـ / 1981م، ص 66

(3) ينظر: تاريخ ابن القلانسي في [www. Al- mostafa com](http://www.Al-mostafa.com)

ومؤلة، كانت بلاد الشام قد قطعت شوطا كبيرا على طريق الوحدة و الوئام، الأمر الذي ساعد المهاجرين المغاربة على إيجاد المأوى البديل، حيث حدثت تطورات عظيمة الأهمية على الصعيدين السياسي والمذهبي، كانت في مجموعها لصالحهم، فقد استطاع نور الدين زنكي، أن يوحد و يؤلف ما بين المدن الشامية بعد أن عانت من الفرقة زمنا طويلا، كما استطاع في الوقت نفسه كسب و ضمان ولاء مصر بواسطة أنصاره من الأيوبيين، يحدوه في ذلك، الحرص الشديد على إبقاء هذه الوحدة قائمة في سبيل غاية شريفة و نبيلة، تتجلى بالوقوف في وجه أشرس هجمة تعرضت لها بلاد الشام، والتي كان أبطالها هذه المرة الصليبيون⁽¹⁾.

و كما كان نور الدين حريصا على استمرار و بقاء عناصر الوحدة السياسية قائمة، فإنه كان حريصا أيضا على إقامة و بناء صرح وحدة مذهبية، تكون عاملا داعما للحفاظ على عناصر الوحدة السياسية، و لكي تتحقق الغاية الأخيرة فإنه ركز على تشييد المدارس و دور الحديث، لتكون وسيلة لتعليم و تجديد علوم السنة، التي أصابها الركود لفترة طويلة نتيجة خضوع بلاد الشام لحكم الفاطميين، فقد أورد ابن خلكان عنه، أنه " بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق و حلب و حماة و حمص و بعلبك، و بنى بمدينة الموصل الجامع النوري، و رتب له ما يكفيه، و بحماه الجامع الذي على نهر العاصي، و جامع الرها و جامع منبج ، و بيمارستان دمشق، و دار الحديث بها أيضا، و له من المناقب و المآثر و المفاخر ما يستغرق الوصف"⁽²⁾.

في هذا الجو وجد المغاربة أعظم المغريات التي تلائم عقيدتهم المذهبية، خاصة و أنهم مالكيون في أغلبهم، كما أن حكام الشام وجدوا في العنصر البشري، خاصة العلماء منهم، القادم من الغرب

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 56.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص 185. و أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص 105.

الإسلامي أداة مثلى لتطبيق سياستهم، فهم مالكية عاشوا في جوّ تسوده الوحدة المذهبية، حاربوا الشيعة و تصدّوا لأفكارهم عندما أسست الدولة العبيدية الشيعية ببلادهم، و من ناحية أخرى فإن حركة الجهاد، تدعو لإسلام سلفي على صورته في صدر الإسلام دون بدع و دون جدل، فطبق نور الدين هذا بشكل فعلى⁽¹⁾. إذ يقول أبو شامة: " و حكى أن إنسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والتّسك و قد كثر أتباعه ، أظهر شيئا من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره و أركبه حمارا، و أمر بصفعه، فطيف به البلاد جميعه و نودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه من دمشق ، فقصد حرّان، و أقام بها إلى أن مات"⁽²⁾.

ومثل هذا الإتجاه، كان بالنسبة للمغاربة طبيعيا و عاديا جدا، لكونهم من أتباع مذهب مالك، الذي ينهى عن الجدل في شؤون الدين⁽³⁾. و هكذا فإن التوافق بين السلطة السياسية في الشام، و بين المغاربة على صعيد الأفكار المذهبية، و التي غدت مكّمة للأهداف السياسية، جعلت من نور الدين زنكي، يقدم كل التسهيلات للقادمين من الأندلس و المغرب، فأحسن وفادتهم، و أنزلهم أحسن المنازل. وفضلهم في كثير من الأحيان على السكان الأصليين، فكان بحق الرائد الأول في هذا المضمار على صعيد الشام، فقد عمل بكل الوسائل و الطرق على استجلاب المغاربة و الأندلسيين إلى ديار حكمه، و قدم

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 58.

(2) أبو شامة: المصدر السابق، ص 108.

(3) من القرائن الدالة على ذلك، أن مالكا كان أبعد الناس من مذاهب المتكلمين و ألزمهم لسنة السالفين من الصحابة و التابعين.

قال سفيان بن عيينة: سأل رجل مالكا فقال: على العرش استوى، فكيف استوى يا أبا عبد الله؟ فسكت مالكا مليا حتى علاه الرخضاء، و ما رأينا مالكا وجد من شيء وجدته من مقالته، و جعل الناس ينتظرون ما يأمر به ثم سُري عنه، فقال: الإستواء منه معلوم، و الكيف منه غير معقول، و السؤال عن هذا بدعة و الإيمان به واجب و إني لأضنك ضالا أخرجوه عني". ينظر: القاضي عياض، المدارك، ج1، ص 87.

لهم خدمات جليلة في جميع الميادين و على مختلف الصعد⁽¹⁾. و لقد سجل لنا ابن جبير هذا الإهتمام الكبير للأمير نور الدين تجاه المغاربة بقوله: " و من مناقب نور الدين، رحمه الله تعالى، أنه كان عيّن للمغاربة، الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة، منها طاحونتان، و سبع بساتين، وأرض بيضاء، و حمام، و دكانان بالعطارين، و أخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه - و هو أبو الحسن علي بن سردال الجياني، المعروف بالأسود - أن هذا الوقف المغربي يغل، إذا كان النظر فيه جيدا، خمسمائة دينار في العام... و هيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز و جلّ يسكنونها"⁽²⁾.

و من جانب آخر، لم تقتصر مساعدات نور الدين على المساعدات الجماعية، بل تعدت هذا الأسلوب الجماعي إلى أسلوب المساعدة الفردية. نذكر منها على سبيل المثال، تلك التي قدّمها لأسرة عبدالله بن محمد الأشيري، بعد وفاته سنة 561هـ / 1166م، و هذا المذكور كان قد استقر ببلاد الشام، ذهب بعدها مع أسرته لتأدية فريضة الحج، و لفقره الشديد و قلة ما في يده، أضطر أن يترك أسرته في المدينة المنورة و عاد إلى الشام، حيث استطاع أن يقابل نور الدين زنكي، و طلب منه العون للتغلب على ظروفه الصعبة، لكنه توفي فجأة، في الوقت الذي كانت فيه عائلته ما تزال في الحجاز، فبادر نور الدين بإرسال مساعدة مالية لأسرته إلى الحجاز، و خيّرهما في الإقامة ما بين حلب و دمشق، فاختارت حلب⁽³⁾.

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 58.

(2) ابن جبير: الرحلة، ص 199.

(3) علي أحمد: المرجع السابق، ص 59.

أما من الناحية العلمية، فقد كان للسياسة التعليمية، التي اتبعتها نور الدين زنكي و بعده الحكام الأيوبيون و المماليك، و بالتالي المنشآت التعليمية كالمدارس و دور الحديث و الخوانق و الزوايا و المساجد و دور القرآن و غير ذلك من هذا القبيل، أثره الهام في استقطاب المغاربة من العلماء و الصوفية و الزاهدين، فعلى صعيد السياسة التعليمية، كان لنور الدين زنكي الفضل الأكبر في رسم قواعدها و أسسها العامة في الشام، و ذلك من أجل إحياء علوم السنة ، التي توقفت بعض الشيء في عهد الفاطميين، فقد قام المذكور بالتركيز على إنشاء المدارس، حيث أسست لتعليم القرآن و السنة و الحديث، و كانت المدرسة في ذلك العصر، تشكل في الوقت نفسه مسجدا و مركزا للصلاة، بالإضافة إلى كونها مكانا لتدريس العلوم الدينية العالية المستوى، و كانوا يعطون الأولوية لتمارين الذاكرة و الحفظ غيبا. وكانت المدرسة تهيئ المرشحين لتولي المناصب و الوظائف المدنية و الدينية و القضائية، بالإضافة إلى أنها كانت تدرّب الوعاظ، الذين يرسلون إلى المناطق لمحاربة التأثيرات الشيعية، و كان التطور في بناء المدارس يؤدي دائما إلى الطلب المتزايد لجلب العلماء، الذين سيقومون بمهمة التدريس، و هذا ما أدى إلى وجود فرص لا بأس بها للمغاربة القادمين إلى الشام، على اعتبار أنهم يؤدون مثل هذا الإتجاه في السياسة التعليمية، التي تركز على إحياء علوم السنة، و ذلك بسبب العداء الذي يكنه هؤلاء للشيعية و خاصة منهم الفاطميين. ولكن يجب أن لا يفهم، أن المدارس كانت غير موجودة في الفترة التي سبقت حكم نور الدين في الشام، حيث وجدت في كل من حلب و دمشق عدة مدارس و زوايا⁽¹⁾.

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 63. 64.

و قد اتبع الحكام الأيوبيون من بعد نور الدين هذه السنّة في تشجيع العلم و العلماء، فقد عني صلاح الدين بأمر الثقافة و نشرها في أرجاء بلاده، حيث كان كلما سمع بعالم ممتاز زين له المجيء إلى بلاده، و حقق له جميع رغباته، و كان يغدق على المدرسين، و يوسع الرزق على القائمين شؤون الثقافة حتى صارت أرزاق أرباب العمام إقطاعا و راتبا، تتجاوز مئتي ألف دينار، و ربما كانت ثلاثمائة ألف دينار⁽¹⁾.

و فيما يبدو أن كثرة الجالية المغربية بالقدس الشريف دفعت بالأيوبيين و من بعدهم المماليك (648-784هـ / 1250-1352م) إلى وقف العديد من المؤسسات الدينية و الثقافية على هذه الفئة، إذ كان بمدينة دمشق وحدها، ستون مؤسسة، ما بين مدرسة و زاوية و خانقاه، تردّد عليها لفيف من الطلبة المغاربة في شتى حقول المعرفة⁽²⁾.

كما أبدى المماليك اهتماما بارزا في تقريب العلماء و الإهتمام بالغرباء و إحاطتهم بكل معاني التكريم و التبجيل، و من القرائن الدالة على ذلك أن الأمير تنكز الناصري نائب الشام، بنى مدرسة وأوقفها على المالكية سنة 729هـ / 1328م⁽³⁾. و يفيدنا الرحالة البلوي أن هذا الحاكم شمل حلمه المغاربة أيضا، عندما وقف على مسجد بالقدس كان مخصصا فقط للمغاربة المالكية⁽⁴⁾.

(1) أحمد الأوتاني: المرجع السابق، ص 378.

(2) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 446.

(3) المرجع نفسه: ص 447.

(4) البلوي: تاج المفرق، المصدر السابق، ج 1، ص 248.

و يقدم لنا ابن شداد صورة واضحة عن المدارس و دور العلم و الزوايا في بلاد الشام و التي عدت بالمئات⁽¹⁾، و هذا إن كشف عن شيء، فإنما يكشف أن سوق العلم عندهم كان نافعا، فشكلت بذلك عامل جذب و استقطاب للعلماء و الطلاب المغاربة، لا سيما و أنهم وجدوا بها كل مظاهر التكريم من قبل السلاطين و الأمراء، و حسن المعاشرة من الأهالي، الأمر الذي دفع بهم إلى الإستقرار في هذا القطر من العالم الإسلامي⁽²⁾.

العلماء المغاربة في بلاد الشام

أولاً: في مجال الدراسات اللغوية و النحوية:

لقد برز العديد من العلماء المغاربة في مجال الدراسات اللغوية و النحوية في حواضر بلاد الشام المختلفة، و هذا من خلال استقطابهم للعديد من الطلبة في حلقات الدروس و مجالس العلم، بل إن الكثير من علماء المشرق سجّلوا لنا - بإعجاب - تفوق هؤلاء المغاربة. يضاف إلى هذا أن بعض رجال الحكم في بلاد المشرق عامة، و بلاد الشام على وجه الخصوص، اهتموا بالتفوق المغربي من خلال تقريبهم لبعض العلماء إلى مجالسهم الخاصة و مشاورتهم، و إجراء المنح و الأعطيات عليهم، لحفظ كرامتهم و تخبئهم حياة العوز و الحاجة.

و من هؤلاء المبرزين في حقل العلوم اللغوية و النحوية:

(1) ابن شداد عز الدين أبو عبد الله: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، ج1، القسم الأول، نشر و تحقيق دومينيك

سورويل، دمشق 1953، ص 123 ما بعدها

(2) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 448

ابن عبد المعطي يحيى بن عبد النور الزواوي:

هو يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي⁽¹⁾، المغربي الحنفي النحوي، المولود سنة 564 هـ/ 1168 – 1169م، حسب العديد من المصادر التي ترجمت له، و لم يعين من ترجم له البلدة التي ولد بها، و لكن يمكن القول، أنه قد ولد بظاهر بجاية حيث كانت تسكن قبيلته. و يدعم هذا الرأي و يقوّيه، أنه قد تتلمذ على العالم الجزولي، الذي أقام بمدينة بجاية حيث عمل هناك، و التف الناس حوله ينهلون علمه⁽²⁾.

أما ابن معطي في صباه، فلم يذكر عنه شيء، إذ أغفله المؤرخون، و كأنهم نسوه أو تناسوه، فلم يفتنوا إليه إلا بعد أن أظهر براعته و علمه، فقد شارك في العديد من العلوم من تأليف و تصنيف و شرح، حيث لفت الأنظار إليه، و اهتم الناس به، و أصبحوا يتابعون أخباره. و إذا ألقينا نظرة على المكتبة العلمية التي تركها تعطينا صورة عن هذا العالم الذي كرسّ صباه على العلم و التعليم، و كفاه فخرا أنه ألف ألفيته المشهورة، و هو لم يتجاوز بعد الحادية و الثلاثين من عمره، و هذه السن المبكرة أوصلته إلى فهم علوم النحو و إتقانها و التأليف فيها شعراً⁽³⁾.

(¹) زواوة، قبيلة بربرية كبيرة بالمغرب الأوسط، و يشير صاحب كتاب "مفاخر البربر" أنّ إسم زواوة، و هو تخفيف للإسم البربري زواو بن سمحان بن يحيى، الذي أخذت منه إسم القبيلة " زواوة" و ينسبون - حسب ابن خلدون - إلى البربر البرانس و مواطنها بنواحي بجاية ما بين مواطن كناسة و صنهاجة، ينظر: كاتب مجهول: مفاخر البربر، ص 167 و ابن خلدون العبر ج6 ص 152 وما بعدها، و مفتاح خلفات، المرجع السابق، ص 51 و بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية، أدوارها، مواطنها، و أعيانها ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص 225. 226. 227.

(²) ابن خلكان: المصدر السابق. ج6، ص 197 و السيوطي: البغية، المصدر السابق، ج2، ص 344.

(³) عبد العزيز بن جمعة الموصلي: شرح ألفية ابن معطي، ج1، تحقيق و دراسة علي موسى الشوملي، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007، ص 11. 12.

عاش ابن معطي فترة صباه - كما أشرنا- في بلاد المغرب، حيث ولد و تلقى العلم و أبدع فيه، وعاش في فترة كانت دولة الموحدين تبذل قصارى جهدها في توحيد بلاد المغرب، و حيث الدّعوة الجديدة إلى تحديد المفاهيم الإسلامية⁽¹⁾، و إكساب المسلمين روح القوة و المنعة في الدفاع عن أنفسهم و عن أرضهم، كي تكون لهم دولة مستقلة، تطبق الشريعة، و كان صاحب الرؤية و الدعوة هو مؤسس دولة الموحدين، المهدي بن تومرت، و مع الدعوة السياسية القوية، و ما رافقها من استعدادات عسكرية لتثبيت أركان الدولة، رافقها أيضا الإهتمام بالآداب و الفكر و الثقافة، فازدهرت علوم العربية من نحو و لغة وعروض و بيان و تاريخ و سير⁽²⁾.

و شهدت دولة الموحدين علماء أفذاذاً، و عباقرة كباراً في علوم العربية، كابن الجزولي ت 607هـ- 1210م، و الشلوبين (ت.645هـ-1247م) و غيرهما.

و أصبح كل عالم من هؤلاء، مدرسة قائمة بذاتها، فانتشرت المدارس النحوية هنا و هناك، فهذه مدرسة فاس و هذه مدرسة سبتة، و هذه مدرسة طنجة و هذه مدرسة إشبيلية و غيرها⁽³⁾.

نشأت فكرة نظم المسائل اللغوية و النحوية، فأنشأ العلامة ابن المناصف أرجوزته المسماة بالمذهبية. حيث نظمها بمراكش سنة 620هـ / 1223م، ثم قام ابن معطي و هو الرائد الحقيقي في هذا المجال،

(1) كان فضل الموحدين على المعارف عظيماً، فإنهم حافظوا على ما اختاروه منها إلى حدّ كبير و شجّعوها كما شجعوا كثيراً من العلوم التي لم تكن رائجة أو كان محظوراً رواجها في العهد المرابطي، و طبعوا كل ذلك طابعهم الخاص، و إن تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم بلغ مبلغاً عظيماً، و كان تشجيعاً مادياً و أدبياً تفننوا فيه ما شاءت لهم همهم الكبيرة أن يتفتنوا، ينظر: محمد المنوني: حضارة الموحدين، المرجع السابق، ص 14.

(2) عبد العزيز بن جمعة الموصلي: المصدر السابق، ج1، ص 12.

(3) المصدر نفسه: نفس الصفحة.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

فنظم ألفيته المعروفة، كما نظم في العروض و القراءات. في هذا الجو العلمي نشأ ابن معطي، و خطر على فكره أن يرحل إلى الشرق، فقد أعجب المغاربة بالمشرق إعجاباً شديداً، حتى أن العلماء المغاربة قد قلّدوا المشاركة في أشياء كثيرة⁽¹⁾.

و جاء إلى دمشق، حيث الدولة الأيوبية التي اهتمت بالأدب و الأدباء اهتمامها بإعداد الجيوش والدفاع عن أرض الإسلام و المسلمين. جاء ابن معطي إلى هذا الجو الجديد، حيث يعيش الناس أحلى لحظات العمر بانتصارات صلاح الدين الأيوبي، و سحقه للصليبيين الغزاة، الذي غير وجه التاريخ في المنطقة بانتصاراته، و مكن لنشاط فكري ظهرت نتائجه، بما أنتجت من كتب و نفايس قيّمة، أثرت بها المكتبة العربية في كل فن⁽²⁾.

و قد نشأ ابن معطي في عصر أنجب علماء كثر في تخصصه منهم :

عبد الله بن بري المصري النحوي اللغوي المتوفى سنة 599هـ / 1202م⁽³⁾، و أبو اليمن الكندي، الإمام تاج الدين النحوي اللغوي المقرئ المحدث الحافظ، المتوفى سنة 613هـ / 1216م⁽⁴⁾، و ابن الرّماح علي بن عبد الصمد النحوي المقرئ المتوفى سنة 633هـ / 1235م⁽⁵⁾، و ابن الحَبّاز علي الشيخ شمس الدين الإربلي الموصلية النحوي الضهير المتوفى سنة 637هـ / 1239م⁽⁶⁾، والسخّاوي أبو الحسن

(1) عبد العزيز بن جمعة الموصلية: المصدر السابق، ج1، ص 12.

(2) المصدر نفسه: نفس الصفحة.

(3) السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص 34.

(4) المصدر نفسه: ج2، ص 570.

(5) المصدر نفسه: ج2، ص 175.

(6) المصدر نفسه: ج1، ص 304.

علي بن محمد كان اماما في النحو و اللغة و التفسير، المتوفى سنة 643 هـ / 1245م (1) ، و ابن الحاجب جمال الدين أبو عمرو صاحب الكافية في النحو، المتوفى سنة 646هـ / 1248 م (2).

رحلاته و إشعاعه العلمي:

رحلات العلماء في الغالب تكون لسببين ، إما طلبا للرزق و إيجاد لقمة العيش، و إما طلبا للعلم، ويبدو أن رحلات ابن معطي هنا من النوع الأول، إذ لو كان طلبا للعلم، فهو متوفر في بلده، حيث أتقن علوم عصره حتى وصل إلى رتبة عالية، فأصبح عالما مبدعا، و جو علمي كهذا لا يتركه إلى سواه، خاصة و أنه عندما وصل إلى دمشق جلس للتعليم حيث التف حوله الطلاب ينهلون من علمه، يدرسه الأديب و النحو و علوم اللغة (3). و هناك شاهد آخر يقوي سعيه للرحلة من أجل تحسين وضعه المادي والإجتماعي، و هو أبياته الشعرية التي تصوّر أعماق نفسه و حقيقته كما يراها هو، حيث قال بعد أن منح لقب زين الدين:- من البسيط-

قالوا تَلَقَّبَ زَيْنَ الدِّينِ فَهُوَ لَهُ نَعْتُ جَمِيلٌ بِهِ قَدْ زَيْنَ الأَمْنَا

فَقَلْتُ لَا تَعْدُوهُ إِنَّ ذَا لِقَبِّ وَقَفَ عَلَى كُلِّ بَحْسٍ وَ الدَّلِيلُ أَنَا (4).

إنسان يعيش في راحة و سعادة، و يجد لقمة العيش، لا يقول مثل هذه الأبيات، وما أظنه قائلاً: إن لقمة خبز يسدّ بها رمقه أفضل من ألقاب الدنيا قاطبة . هذا الجو من ضيق ذات اليد، جعله يغادر بلده طلبا لحياة أفضل، و جاء إلى دمشق، و استقبله سلطانها استقبال عالم لعالم، فقد كان الملك عيسى

(1) السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص 192.

(2) المصدر نفسه: ج2، ص 134.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق، ج6، ص 197.

(4) السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص 344.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

ابن محمد الأيوبي المتوفى عام 624 هـ/1227 م، سلطان الشام عالماً من العلماء، محبا للعلم مكرماً للعلماء، عالماً بالفقه الحنفي و بعلوم اللغة العربية، حيث عرف قدره و وضعه في مكانه المناسب، و أكرم وفادته و أبعده عنه غائلة الجوع و العوز، فولّاه النظر في مصالح المساجد، فاستراحت نفسه، و جلس في المساجد يقرئ الناس الأدب و اللغة، ثم توفي الملك المعظم عيسى فتولى الملك الكامل الحكم في العام 624 هـ / 1227 م، فاتصل ابن معطي بالملك الكامل، و كان هذا الملك كسابقه محبا للعلم و للأدب و للأدباء⁽¹⁾.

و مما يروى عن الملك الكامل الأيوبي، أن حضر مجلسه جماعة من العلماء في دمشق، فسألهم الملك الكامل و كان عالماً، قال: زيدٌ دُهبٌ به، فهل يجوز في زيد النَّصب ؟ فقالوا لا.

فقال ابن معطي: يجوز النصب على أن يكون المرتفع ب " دُهبٌ " و هو الذهب، و على هذا فموضوع الجار و المجرور الذي هو " به " النَّصب في يجيء من باب زيدٌ مَرَرْتُ به، إذ يجوز في زيد النَّصب كذلك ها هنا، فاستحسن الملك الكامل جوابه و طلب منه السفر معه إلى مصر، فسافر، و لم يحدّ المؤرخون له وقت سفره إلى القاهرة، و لكنه على الأرجح بعد سنة 624 هـ / 1227 م بقليل. و قرر له الملك راتباً على أن يقرئ الناس الأدب بالجامع العتيق بمصر، و هو جامع عمرو بن العاص، و بدأ ابن معطي بعمله، حيث جلس لتدريس الأدب و النحو، و لكن القدر عاجله، و لم يمهله طويلاً⁽²⁾.

⁽¹⁾ (عبد العزيز بن جمعة الموصلبي: المصدر السابق، ج1، ص 15

⁽²⁾ (عبد العزيز بن جمعة الموصلبي: المصدر السابق: ص 16.

وفاته:

يكاد المؤرخون لترجمة حياته أن يجزموا بأن وفاته كانت سنة 628هـ / 1230 - 1231م ، كابن العماد الحنبلي، إلى أن وفاة ابن معطي في ذي القعدة سنة 628 هـ ، حيث قال: و مات في ذي القعدة سنة 628 هـ بمصر و قبره قريب من تربة الإمام الشافعي⁽¹⁾ .

و لكن رواية أبي الشامة، المؤرخ، هي الأقرب إلى الصواب، لأنه حضر جنازته بمصر، الذي ذهب إلى القول: " و فيها أي سنة 628 هـ في مستهل ذي الحجة توفي الزين النحوي يحيى ابن معط الزواوي رحمه الله بالقاهرة، و صلى عليه بجنب القلعة عند سوق الدّواب ، و حضر الصلاة عليه السلطان الكامل ابن العادل، و دفن بالقرافة في طريق قبة الشافعي رحمه الله ،على يسار المار إليها على صافة الطريق، محاذيا لقبر أبي إبراهيم المزني رحمه الله، حضرت دفنه و الصلاة عليه، و كان آية في حفظ كلام النحويين⁽²⁾ .

شيوخه:

تفيدنا كتب التراجم أن ابن معطي، قد تكوّن في اختصاص علم النحو، على يد ثلاثة من العلماء، كان لهم الأثر البارز في تكوين شخصيته العلمية و هم الجزولي، و التاج الكندي، و ابن عساكر و هذه لمحة عن حياتهم:

⁽¹⁾ ابن عماد الحنبلي: الشذرات، ج5، ص129 .

⁽²⁾ أبو شامة: المذيل، المصدر السابق، ج2، ص23.

الجزولي:

أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي من أهل سوس المغربية، المتوفى حوالي 607 هـ / 1210 م، عالم القراءات و العربية. درس بسوس قبل أن يتلقى على كبير شيوخ سبتة، ابن عبيد الله الحجري الأندلسي⁽¹⁾. ثم رحل إلى مصر و هناك تبلورت شخصيته العلمية على يد علماء كبار أبرزهم عبد الله بن برّي⁽²⁾، و عنه تلقى شرح جمل الزجّاجي النحوي المشهور المتوفى سنة 637 هـ / 1239 م، و لما عاد تصدّر لإقراء العربية بالمرية و غيرها، و أخذ عنه العربية جماعة منهم الشلوبيين و ابن معطي، قال عنه ابن الأبار: "كان إماما في العربية لا يُشق غباره، مع جودة التفهيم و حسن العبارة"⁽³⁾.

ثم تابع مهمته هذه بمراكش، حيث تولى خطابتها أيضا، من مؤلفاته: المقدمة المعروفة بالجزولية، والأماي في النحو، و شرح أصول ابن السراج الأندلسي في النحو. غير أن الذي خلّد اسم عيسى ابن عبدالعزيز الجزولي، هو مقدمته التي هي نفسها شرح لجمل الزجّاجي، أي أنها من بين عشرات الشروح الأخرى للجمل، لكنها صياغة جديدة للنحو بتعليلات و رموز و حدود بمرت الدارسين على دقة فهمها و عسر الإستفادة منها، و أطلق عليها أيضا اسم القانون، لقد أبان الجزولي عن خصوصيته في النحو من خلال محاضراته التي اجتذبت العشرات، بل المئات من الطلاب الذين حملوا فيما بعد مشعل العربية أو كان لهم باع فيها⁽⁴⁾، و منهم صاحبنا ابن معطي الزواوي.

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج1، ص 173.

(2) السيوطي: المصدر السابق، ج 2، ص 236.

(3) ابن الأبار: التكملة، ج5، ص 139.

(4) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 173

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

و ابتداءً من القرن السابع، أي مباشرة بعد وفاة صاحب (القانون)، استأثر هذا المصنّف باهتمام دوائر الدراسات العربية شرقاً و مغرباً، و نجد من بين الذين درسوا المقدمة، كلا من العالم الغبريني، والوادي أشي و المجاري، و من شراحها غير صاحبها: يحيى بن راجل ، و أبو إسحاق العطار محمد بن علي، و ابن عصفور، و كتب محمد بن الحسن القلعي دراسة نقدية حولها باسم: " حديق العيون في تنقيح القانون" (1) .

ابن عساكر:

هو قاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله أبو محمد بن عساكر، محدث من أهل دمشق، زار مصر، وأخذ عن علمائها، و هو ابن صاحب التاريخ الكبير، و له كتب كثيرة منها: فضل المدينة، الجامع المستبقي في فضائل الأقصى، الجهاد، مجالس الإملاء . له طلاب كثيرون، و منهم ابن معطي صاحب الألفية، و لد سنة 528 هـ / 1134 م، توفي سنة 600 هـ / 1203 م (2) .

زيد بن الحسن:

أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي، الملقب تاج الدين البغدادي ثم الدمشقي النحوي ، اللّغوي المقرئ المحدث. و لد ببغداد سنة 520 هـ / 1126 م، توفي بدمشق سنة 597 هـ / 1200 – 1201 م (3) .

قرأ العربية على أبي محمد سبط أبي منصور الخياط، و ابن الشعري، و ابن الخشاب ، و اللغة على، موهوب الجواليقي، و سمع الحديث من أبي بكر بن عبد الباقي، و قدم دمشق، و نال الحشمة الوافرة

(1) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 174.

(2) عبد العزيز بن جمعة الموصلبي: المصدر السابق، ص 18.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، المصدر السابق، ج4، ص 273 . 274.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

والتقدم، و ازدحم عليه الطلبة. و كان حنبلياً فصار حنفيًا، و تقدم في مذهب أبي حنيفة، و أفتى و درس و صنف، و أقرأ القراءات و النحو و اللغة و الشعر، و كان صحيح السَّماع، ثقة في النقل ، ظريفًا في العشرة، طيب المزاج، و آخر من روى عنه بالإجازة، و كان ابن معطي ممن استفادوا منه⁽¹⁾.

كانت له خزانة كتب كبيرة في جامع بني أمية، و له تعليقات على ديوان المتنبي، و أخرى على خطب ابن نُباته، و كتاب " ننف اللحية من ابن دحية" ، ردّ فيه على ابن دحية الكلبي في كتابه الذي سمّاه " الصارم الهندي في الرد على الكندي" ، و كتاب في الفرق بين قول القائل: " طَلَّقْتُكَ إِنْ دَخَلْتَ الدَّارَ، و بين إِنْ دَخَلْتَ الدَّارَ طَلَّقْتُكَ" ، ألفه جواباً لسؤال و رد عليه⁽²⁾.

استوطن حلب مدّة، و كان يبتاع الخليج، و يسافر به إلى بلاد الروم و يعود إليها، ثم انتقل إلى دمشق، و صحب الأمير عز الدين قُروخ شاه بن شاهان شاه، و هو ابن أخي السلطان صلاح الدين، و اختص به و تقدم عنده، و سافر في صحبته إلى الديار المصرية، و اقتنى من خزائنها الكتب النفيسة ، و عاد إلى دمشق و استوطنها.

و من شعر الشيخ تاج الدين، و قد طعن في السن:- **من الطويل-**

أرى المرءَ يَهْوَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتُهُ و فِي طُولِهَا إِزْهَاقُ دُلِّ و إِزْهَاقُ

تَمْنِيْتُ فِي عَصْرِ الشَّيْبَةِ أَنِّي أَعْمُرُ و الْأَعْمَارُ لَا شَكَّ أَرْزَاقُ

فَلَمَّا أَتَانِي مَا تَمْنَيْتُ سَاعِي من العُمُرِ مَا قَدْ كُنْتُ أَهْوَى وَ أَشْتَأُقُ⁽³⁾.

⁽¹⁾ السيوطي: المصدر السابق، ج1، ص 570 . 571.

⁽²⁾ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 274 . 275.

⁽³⁾ ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 340 . 341.

عاصر ابن معطي الكثير من العلماء في المشرق و المغرب، لذلك فقد كانت الفترة الزمنية التي عاشها فترة علم و ثقافة و نشاط، فانتشرت المدارس و كثر الطلاب و تجمّع العلماء هنا و هناك، ينتقلون من مكان إلى آخر، يناقشون و يتعلمون و يُعلمون. و إن إلقاء نظرة متفحّصة للعلماء الذين عاشوا الفترة المذكورة، و لما أنتجوه من كتب تعطينا صورة عنهم، و قد عاش ابن معطي في فترة زمنية اشتهر فيها العديد من العلماء⁽¹⁾ و منهم:

في المغرب الإسلامي:

أحمد بن مضاء:

عبد الرحمن بن محمد بن سعيد، من أهل قرطبة، كان قاضيا للجماعة، سمع ببلده من جماعة منهم، أبو عبد الله بن أصبغ، و عرض عليه الموطأ، و أبو جعفر بن عبد العزيز، و ابن عمه أبو بكر، و أبو القاسم بن رضي، و أخذ عنه القراءات. و أخذ العربية و الأدب عن أبي بكر بن سمجون، و أبي العباس بن خصيب⁽²⁾. و رحل إلى إشبيلية، فأخذ بها عن أبي الحسن شريح قراءة نافع و ابن كثير، و لازم أبا القاسم بن الرماك لتعليم العربية، و سمع من أبي بكر بن العربي، بعد سماعه منه بقرطبة، و مال إلى علم العربية، وله فيها تقدم - حسب ابن القاضي - و كان له اعتناء بكتاب سيبويه، و له في النحو كتاب سمّاه " تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان"، و ألف كتاب " المشرق" في النحو و الرد على النحويين. كما كان أديبا

(1) عبد العزيز بن جمعة الموصلي: المصدر السابق، ص 19-20.

(2) ابن الأبار: التكملة، المصدر السابق، ج 1، ص 65.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

له حظ من الكتابة و الشعر، مشاركا في فنون شتى⁽¹⁾. ولد سنة 513هـ / 1119 م بقرطبة، و مات بإشبيلية سنة 592هـ / 1196م⁽²⁾.

ابن عصفور:

هو علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الإشبيلي الحضرمي، و كنيته أبو الحسن، يعرف بابن عصفور، و لد بإشبيلية سنة 597 هـ / 1200م ، و بها نشأ و تعلم . و نشأته بإشبيلية قد هيأت له فرصة ملائمة لتلقي علوم العصر و معارفه المتنوعة على أيدي علماء أفاضل، تجاوزت شهرتهم موطنهم في الأندلس وامتدت إلى أطراف بعيدة من العالم الإسلامي، تتلمذ على اثنين من شيوخه الذين أخذ عنهم وهما: - أبو علي الشلوبين المتوفى سنة 645هـ / 1247م ، و أبو الحسن الدبّاح المتوفى سنة 646هـ / 1248م . اطلع على علوم العربية و آدابها من نحو و صرف، و ترك عددا من المصنّفات في شروحه لأشعار الجاهلية و الإسلام⁽³⁾.

غير أن أهم كتب ابن عصفور، هو "الممتع"، و هو من أشهر كتب التصريف في الأندلس، و هو يقع في اثنين و ثلاثين بابا تضمنت عرضا لبيان الحروف الزوائد و أبنية الأسماء و الأفعال، و أبواب الإبدال والقلب و الحذف و النقل و الإدغام ، و ما قيس من الصحيح على صحيح مثله، و ما قيس من المعتل

⁽¹⁾ ابن القاضي: جذوة الإقتباس، ج 1، ص 142.

⁽²⁾ السيوطي، المصدر السابق، ج 1، ص 323.

⁽³⁾ عبد العزيز بن جمعة الموصلي: المصدر السابق، ص 20. 21.

على نظره من الصحيح. و قد لَحَّصه ابن حيان المتوفى سنة 745هـ / 1344م في كتاب سَمَّاه " المبدع الملخص من الممتع"، و قال عن كتاب ابن عصفور: "أحسن ما وضع في فن الصرف"(1).

الشلوبين:

هو أبو علي عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، المعروف بالشلوبيين، الأندلسي الإشبيلي النحوي، و الشلوبيين هي بلسان أهل الأندلس، الأشقر الأزرق العينين، ولد بإشبيلية سنة 562هـ / 1166-1167م(2).

تتفق المصادر على أنه كان إمام عصره في العربية بلا مدافع، ذا معرفة بنقد الشعر و غيره، بارعا في التعليم. أقرأ نحو ستين سنة، و علا صيته، و اشتهر ذكره، و قلما تأدب بالأندلس أحد من أهل وقته إلا و قرأ عليه، و استند و لو بواسطة إليه(3).

روى عن السهيلي، و ابن بشكوال و غيرهما، و أجاز له السلفي و غيره، و أخذ عنه ابن أبي الأحوص و ابن فرتون و غيرهم. صنّف شرحا على المقدمة الجزولية شرحين كبيرا و صغيرا، و له كتاب في النحو سَمَّاه " التوطئة"(4).

(1) محمد حسن عبد العزيز: مصادر البحث اللغوي في الأصوات و الصرف و النحو و المعجم و فقه اللغة، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ / 2009م، ص 83.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 452، السيوطي: المصدر السابق، ج2، ص 224. 225.

(3) السيوطي: المصدر السابق، ص 225.

(4) ابن خلكان: المصدر السابق، ص 452.

قال عنه تلميذه أبو سعيد المغربي، المتوفى سنة 685هـ / 1286 م و" كان مع إمامته في النحو مقرئاً لمصنفات الأدب الجلييلة، قائماً بمعرفتها و ضبطها و روايتها". توفي بإشبيلية أواخر سنة 645هـ / 1247م⁽¹⁾.

في المشرق الإسلامي:

علي بن عبد الصمد الرماح:

هو علي بن عبد الصمد بن محمد بن مفرّج أبو الحسن، المعروف بابن الرماح النحوي، المقرئ الشافعي، قال السيوطي - نقلاً عن الذهبي - من أعيان النحاة و أكابر القراء، قرأ العربية على يحيى ابن عبد الله النحوي، و القراءات على أبي الجيوش بن عساكر بن علي، و غياث بن فارس اللّخمي، وسمع من أبي طاهر السلفي و غيره. أجاد مهمة تدريس النحو و القراءات، و كوّن تلاميذ كثر، و كان حسن السّمت، جيد الإقراء، روى عنه الزكي المنذري. ولد بالقاهرة سنة 557هـ / 1162م، و مات بها سنة 633 هـ / 1235 م⁽²⁾.

عثمان البلطي:

عثمان بن عيسى البلطي النحوي، و بلط اسم لمدينة فوق الموصل⁽³⁾. كان عالماً، إماماً نحويًا لغويًا إخباريًا، مؤرخًا شاعرًا عروضيًا. أقام بدمشق فترة قصيرة من الزمن، ثم انتقل إلى مصر، فحظى بها، ورتّب

⁽¹⁾ عبد العزيز بن جمعة الموصلّي: المصدر السابق، ص 22.

⁽²⁾ السيوطي: المصدر السابق، ج 2، ص 175.

⁽³⁾ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 485.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

له صلاح الدين الأيوبي على جامع مصر جاريا ، يقرئ به النحو و القرآن، و كان أخذ النحو عن أبي نزار و سعيد بن الدهان⁽¹⁾ .

و من تصانيفه الكثيرة: العروض الكبيرة في ثلاثمائة ورقة، كتاب العروض الصغير ، كتاب العظات المورقات، كتاب النير في العربية، كتاب أخبار المتنبي ، كتاب المستزاد على المستجد من فعلات الأجواد ، كتاب علم أشكال الحظ، كتاب التصحيف و التحريف، كتاب تعليل العبادات، و له موشحة عملها في القاضي الفاضل بديعة مليحة، سلك فيها طريقة المغاربة ، و حافظ فيها على أحرف العين و الذال والضاء⁽²⁾ .

عبد الله بن برّي:

أبو محمد المصري، عرف بابن برّي النحوي اللّغوي الأديب⁽³⁾. مولده بمصر سنة 499هـ / 1105م و بها نشأ ، أخذ علم العربية عن أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريي النحوي، المتوفى سنة 550هـ / 1155م ، و أبي طالب عبد الجبار بن محمد بن علي المعافري القرطبي المتوفى سنة 566هـ / 1170م وغيرهما، و سمع الحديث عن أبي صادق المريي و أبي عبد الله الرّازي⁽⁴⁾. قال عنه ياقوت الحموي " شاع ذكره و اشتهر، و لم يكن في الدّيار المصرية مثله"⁽⁵⁾. اطلع على أكثر كلام العرب، وله على كتاب " الصحاح" للجوهري المتوفى سنة 239هـ / 853م ، حواش فائقة أبدع فيها بشهادة الكثير من علماء

⁽¹⁾ (السيوطي : المصدر السابق، ج2، ص 136.

⁽²⁾ (المصدر نفسه: نفس الصفحة، و عبد العزيز بن جمعة الموصلبي: المصدر السابق، ص24.

⁽³⁾ (ياقوت الحموي: معجم الشعراء، ج4، ص 365.

⁽⁴⁾ (ابن خلكان: المصدر السابق ج3، ص 108.

⁽⁵⁾ (ياقوت الحموي: معجم الشعراء، ج4، ص 365.

الإختصاص، و هي دالة - كما أورد ابن خلكان - على سعة علمه و غزارة مادته و عظم اطلاعه. وصحبه خلق كثير اشتغلوا عليه و انتفعوا به، و له حواشي على " درة الغواص في أوهام الخواص" للحريري، و له جزء لطيف في أغاليط الفقهاء، وله الرد على أبي محمد بن الخشاب، في الكتاب الذي بين فيه غلط ابن الحريري في المقامات. توفي ابن برّي، بمصر في شهر شوال سنة 582هـ / 1186م⁽¹⁾.

مؤلفاته:

تفيدنا المصادر التي ترجمت لابن معطي، أن الرجل ترك إنتاجا غزيرا في علم النحو و الشعر، و يكفيه فخرا أنه أول من قدّم إطارا متكاملا في علم النحو في إطار منظوم عرف بالألفية. و على العموم فإن هذا الإنتاج يكشف عن أصالة فكره و عمق رؤاه و جرأته في طرح أفكاره التي يعتقد أنها صحيحة و تصمد أمام النقد، لقيامها على مرتكزات عقلية سليمة، و قد ذكر المؤرخون المؤلفات التالية:

- الألفية في النحو⁽²⁾، أتمها سنة 595هـ / 1198-1199 م، و هي أشهر ما ألف ابن معطي، و نظرا لعبقريته المتميزة التي أبان عنها في الألفية، فقد لاقته اهتماما كبيرا من الدارسين في المشرق والمغرب، و شكلت مادة أساسية في حلقات دروس النحو في المدارس و المعاهد و الجوامع الكبرى التي كان يعطي بها الدروس و الشروح المختلفة.

كما اهتم بها الباحثون من ناحية الشروح التي وضعت عليها، خاصة في المشرق عامة، و بلاد الشام خاصة، كشرح محمد بن يعقوب الدمشقي، المتوفى سنة 718هـ / 1318 م، و شرح شمس الدين أحمد بن الحسين بن الخباز الأريلي المتوفى سنة 637هـ / 1239 سمّاه " الغرة المخفية في شرح الدرّة

⁽¹⁾ ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 109.

⁽²⁾ ابن خلكان : ج6 ، ص 197 و السيوطي، البغية ، ج2، ص 344.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

الألفية"، و شرح الشيخ زين الدين عمر بن مظهر بن الوردى المتوفى سنة 749هـ / 1348م و سَمَاه "ضوء الدرر"، و شرح عبد المطلب بن المرتضى الجزري، المتوفى سنة 735هـ / 1334م ، و شرح الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الحنفي، ألفه في شهرين، سنة 741هـ / 1340م سَمَاه "الصدفة الملية بالدرة الألفية"، و شرح الشيخ محمد بن جابر الأعمى، المتوفى سنة 780هـ / 1378م في ثماني مجلدات، و شرح شهاب الدين أحمد بن محمد القدسي الحنبلي، المتوفى سنة 728هـ / 1327-1328م ، و شرح أبي عبد الله محمد بن الناس الحموي، و شرح عبد العزيز بن جمعة بن زيد النحوي، المعروف بالقوَّاص الموصلي⁽¹⁾.

و يعتبر ابن معطي الرائد في استعمال لفظ "الألفية" في أشعاره، فقد أطلق على ألفيته هذه

التسمية حيث قال:

نَحْوِيَّةُ أَشْعَارُهُمُ الْمَرْوِيَّةُ هَذَا تَمَامُ الدَّرَةِ الْأَلْفِيَّةِ

تبعه بعد ذلك ابن مالك حيث قال:

و تَقْتَفِي رِضًا بِغَيْرِ سَخَطٍ فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطٍ

و تبعه بعد ذلك الناس، فقد استعملها أيضا زين الدين أبو التقى شعبان محمد بن داود بن علي

المصري، المتوفى سنة 828هـ / 1424م ، حيث ألف ألفية في النحو سَمَاهَا "كفاية الغلام في إعراب الكلام"⁽²⁾.

و إلى جانب تفرد ابن معطي بالتسمية بالألفية و سبق غيره و تقليدهم له، فقد تفرد بشيء آخر،

حيث اعتاد الناس أن ينظم الشاعر قصيدته أو أرجوزته على بحر واحد ، إلا أن ابن معطي قد خرج على

(1) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج1، ص 176.

(2) عبد العزيز جمعة الموصلي: المصدر السابق، ص 60.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

هذه القاعدة، و نظم ألفيةً على بحرين ، هما الرجز و السّريع. و مع أن عددا من المشتغلين بالنحو والأدب قد أثنوا على مقدرة ابن المعطي الفنية في توفيقه بين البحرين الرجز و السريع، و اعتبروه دليلا على مقدرته الفنية العالية، حيث أن التقارب كبير جدا بين الرجز و السريع، حتى لا يميّزه إلا من أوتي أذنا موسيقية مرهفة، إلا أن نظمه على هذه الطريقة كان من العقبات التي أثرت على انتشار و اشتهاه ألفية ابن معطي . فالبحر السريع من أثقل البحور الشعرية ، لما يدخله من زحافات و علل . و لا يعرف سببا مقنعا لابن معطي، لنظمه قصيدة على بحرين مختلفين⁽¹⁾ .

و قد تضمن متن الألفية⁽²⁾، ركائز و تفصيلات النحو العربي، و هي مرتبة ، حسب شروح

عبدالعزیز بن جمعة الموصلي ، المتوفى سنة 696هـ – 1296م، كالاتي:

- علامات الفعل.

- علامات الحرف.

- باب إعراب الأسماء.

- باب المثني.

- باب الجموع.

- باب الأفعال.

- باب حروف الجر.

⁽¹⁾ عبد العزیز جمعة الموصلي :المصدر السابق، ص 61.

⁽²⁾ من بين الشروحات الهامة التي تدرس بالجامعات المتخصصة في اللغة العربية و أدائها ، هناك شرح للألفية للشيخ أبي الفداء زيان ابن فائد الزواوي بعنوان : القبس النحوي في شرح نظم الزواوي ، تحقيق الحسن مرداس السباعي، دار الكلم الطيب ،دمشق ،الطبعة الأولى 1425هـ - 2004م.

- باب الممنوع من الصرف.
- باب تعدي الأفعال و لزومها.
- باب المنصوبات.
- باب ظرف الزمان و المكان.
- باب الحال .
- باب ما لم يسم فاعله.
- باب النكرة و المعرفة.
- الضمائر.
- الأسماء الموصولة.
- أسماء الإشارة.
- المعرف بلام التعريف.
- باب الإضافة.
- باب التوابع.
- النعت.
- التوكيد.
- العطف (1).

(1) توجد هذه التفصيلات في الجزء الأول من كتاب " شرح ألفية ابن معطي.

- باب المبتدأ و الخبر.
- باب النواسخ.
- باب التعجّب.
- باب المصادر (المشتقات) .
- باب إسم الفاعل.
- باب المنادى.
- الإختصاص.
- باب الإنكار .
- باب الأعداد.
- باب معاني الأدوات.
- باب أبنية الثلاثي و الرباعي و الخماسي.
- باب جمع التكسير.
- باب التصغير.
- باب المذكر و المؤنث.
- باب التّسبئة.
- باب المقصور و الممدود.
- باب الإمالة.

- باب أبنية المصادر.

- باب التصريف.

- باب الإبدال.

- باب الإدغام.

- الضرورات الشعرية (1).

و من خلال عرضنا للأبواب المختلفة التي عالجها ابن معطي وفق مخطط عام، نستطيع أن نتبين أن هذه الأبواب أصول أساسية في الدرس النحوي، و تبدو هذه الأبواب متناسقة مترابطة منهجية، إذ ترى أن أول ما يقدمه، إنما هو الأصل على الفرع، فالأسماء تتصدر العرض لأنها الأصل في الكلام، ثم يكون الفرع بعدها من الأفعال و الحروف ، و علامات الإعراب أصل في العربية، فهي تحتل الصدارة قبل علامات البناء، و لأن الجمع المذكر السالم محمول على المثني، فإن المثني يعرض قبله ليكون المسير واضحا في بيان ظواهر الجمع، ثم إن جمع المذكر السالم يسبق المؤنث السالم، لتمهد له طريق المعالجة و التوضيح، و قد سار ابن معطي على منهجية ذاتية في ترتيبه لأجزاء ألفيته، متأثرا بمن سبقوه من النحاة(2).

و ألف ابن معطي كتاب حواش على أصول ابن السراج(3) في النحو(1)، و كتاب الفصول في

(1) ينظر في تفصيلات هذه الأبواب في الجزء الثاني من نفس الكتاب.

(2) عبد الرحمان عبان: الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، دراسة في موضوعاته و بنيته - ابن معطي نموذجاً - مذكرة ماجستير في الأدب العربي، مرقونة، جامعة قاصدي مرباح. ورقلة، قسم اللغة العربية و آدابها، إشراف د. العيد جلولي 1427-1428 هـ / 2007-2008 م، ص 95.

(3) أصول ابن السراج في النحو، للشيخ أبي بكر محمد بن السري النحوي المتوفى سنة 361 هـ / 972 م، و هو كتاب مرجوع إليه عند إضطراب النقل و اختلاف الأقوال، و يبدو فضل ابن السراج عاليا في الأصول و الأحكام العامة التي استخلصها من المسائل النحوية، و قد أطلق عليه مختراع علم أصول النحو، و الكتاب موجز خال من الإستطراد، تجتمع موضوعاته المتشابهة محصورة في باب =

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

النحو أيضا⁽²⁾ ، و هو كتاب تعليمي، قال فيه ابن معطي في مقدمته: " أما بعد: فإن غرض المبتدئ الراغب في علم الإعراب حصرتة في خمسين فصلا ، تشتمل على خمسة أبواب" ، و قد شرح كتاب الفصول أكثر من شارح ، و منهم ابن إياز الذي إعتبره رغم إختصاره كثير المسائل ، عسيرا على المتناول، مشتمل على المباحث الغريبة، و النكت العجيبة، و الإحترازاات اللطيفة، و المقاصد الحسنة الشريفة⁽³⁾

- شرح أبيات سيويه، و هي نظم⁽⁴⁾ .

- شرح المقدمة الجزولية⁽⁵⁾ ، و هي مقدمة لشيخه الجزولي في علم النحو ، و أصلها كما أوردنا ضمن سياق هذا الفصل، حواش على جمل الزجاجي، علقها أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي، ثم أفردا في كتاب، فكانت عسيرة المنال لا يفهمها إلا كبار العلماء، و قد قام ابن معطي بشرحها ، و قد نقل هذا الشرح السيوطي في كتابه : الأشباه و النظائر⁽⁶⁾ .

- نظم كتاب الصحاح في اللغة للجوهري ، و لم يكمله بسبب وفاته، و نظم كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد ، و قصيدة في العروض، و قصيدة في القراءات السبع⁽⁷⁾ .

=واحد لا في أبواب متفرقة ، كما يبدو الحال في كتاب سيويه، مع دقة الأقسام، ينظر حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج1، ص 144، و محمد حسن عبد العزيز، مصادر البحث اللغوي، ص 154 . 155.

⁽¹⁾ (السيوطي: المصدر السابق، ج2 ص 344.

⁽²⁾ (ابن خلكان: المصدر السابق، ج 6، 197.

⁽³⁾ (عبد العزيز بن جمعة الموصلبي: المصدر السابق، ج1، ص 28.

⁽⁴⁾ (السيوطي: المصدر السابق، ص 344.

⁽⁵⁾ (المصدر نفسه: نفس الصفحة.

⁽⁶⁾ (عبد العزيز بن جمعة الموصلبي: المصدر السابق، ج1، ص 28.

⁽⁷⁾ (ياقوت الحموي :معجم الشعراء ، المصدر السابق ، ص 260، و عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض ، الطبعة الثالثة، 1403هـ / 1983م، بيروت ، ص 167 . 168.

- البديع في صناعة الشعر، و هو مخطوط يحمل اسم " البديع في علم البديع "، و تقع في تسع

ورقات ، و هي عبارة عن قصيدة مختلفة الأوزان، تبحث في علم البديع، و من أمثلة ذلك:

يقول ابن معطي في الجناس:

وَمِنَ الْجِنَاسِ تَوَافُقُ اللَّفْظَيْنِ لَا أَلْ

مَعْنَى كَقَوْلِ حَبِيبِ الْمُتَنَاهِي

مَا مَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ

يَحْيِي لَدَيْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (1)

هذا و جدير بالتذكير، أن العديد من العلماء عكفوا على شرح كتاب الفصول لابن معطي ، وهم:

- العلامة جمال الدين الحسين بن بدر بن إياز بن عبد الله، المتوفى سنة 681هـ / 1282م (2) .

- محمد بن أحمد بن الجليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، قاضي القضاة، المتوفى سنة 693هـ /

1294م (3) .

- إبراهيم بن موسى بن بلال الكركي الشافعي، المتوفى سنة 853هـ / 1449م (4) .

وغني عن البيان ، أن ابن معطي مارس مهنة تدريس النحو لسنين طويلة، و لم يسلك في تدريسه

الأسلوب السائد في عصره ، بأن كان له تلاميذ يلازمونه و يرعاهم، و كأني بأسلوبه في التدريس في

دمشق و فيما بعد بجامع عمرو بن العاص في القاهرة، يشابه إلى حد ما أسلوب المحاضرات في وقتنا

(1) عبد العزيز بن جمعة الموصلي: المصدر السابق، ص 26. 27.

(2) السيوطي : البغية، ج 1، ص 532.

(3) المصدر نفسه : ص 23. 24.

(4) عبد العزيز بن جمعة الموصلي: المصدر السابق، ص 31.

الحاضر، حيث كان يأتي لمكانه المعروف بالجامع ، ثم يبدأ محاضراته على جمع غفير من الناس، يتفرقون بعدها على أمل اللقاء في المحاضرة أو الدرس التالي و هكذا ، و لذا لم يذكر المؤرخون لحياته سوى عدد قليل من التلاميذ الذين تخصصوا في أخذ العلم عنه و هم:

- أبو بكر بن عمر بن علي بن سالم الإمام رضي الدين القسنطيني النحوي الشافعي، المولود سنة 607هـ / 1210م ، و نشأ بالقدس ، و أخذ العربية عن ابن معطي و ابن الحاجب، و كان من كبار أئمة العربية. سمع الحديث من ابن عوف الزهري و جماعة من العلماء المبرزين، و كان له معرفة تامة بالفقه و مشاركة في الحديث ، و حسب رواية السيوطي، فإن القسنطيني النحوي، كان انسانا صالحا خيرا دينا متواضعا ساكنا ناسكا، و أضرّ بآخر عمره ، توفي سنة 695هـ / 1295م (1) .

- ابن العطار: و هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن يوسف الأنصاري الأسكندري الكاتب، ذكر أنه تأدب على ابن معطي، توفي سنة 649هـ / 1251م (2) .

- تاج الدين الصرخدي : هو أبو محمد محمود بن عبيد بن حسين التميمي الصرخدي، الذي منحه ابن معطي إجازة إقراء، ذكرها الدكتور محمود محمد الطناحي بقوله: " هذا و قد رأيت أثناء بعثتي إلى تركيا صورة إجازة إقراء من ابن معطي لأحد العلماء و تدل على علمه و فضله" (3) .

و يذكر أن ابن مالك سبق أن درّس ألفية ابن معطي لطلابه، فاستفاد منها و تأثر بها ، و لذلك نرى آثاراً، عميقة في ألفيته، فقد قلّد ابن مالك ، ابن معطي في كثير من تراكيبه و ألفاظه و ألفاظ ألفيته، فكثيرا

(1) السيوطي : البغية، ج1، ص 470.

(2) عبد الرحمان عبان: المرجع السابق، ص 82.

(3) عبد الرحمان عبان: المرجع السابق، ص82.

ما كان يأخذ البيت أو الشطر، و في أحيان أخرى يأخذ المعنى ثم يعيد صياغته بأسلوبه الخاص و الأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها:

يقول ابن معطي في التوابع:

القول في توابع الكلم الأول نعتٌ و توكيدٌ و عطفٌ بدلٌ

و يقول ابن مالك:

يُتبع في الإعراب الإسم الأول نعتٌ و توكيدٌ و عطفٌ بدلٌ

و في باب العطف يقول ابن معطي:

وَالْعَطْفُ عَطْفَانِ بَيَانٌ وَ نَسَقٌ عَطْفُ الْبَيَانِ شِبْهُ نَعْتٍ قَدْ سَبَقَ

ويقول ابن مالك :

و العطفُ إمَّا ذو بيانٍ أو نسقٍ و الغرضُ الآنُ بيانُ ما سبقَ⁽¹⁾.

إن الدرة الألفية في علم العربية تقدم صورة عن شخصية ابن معطي، العالم المثقف، الذي حذق و أتقن علم النحو العربي، و قدمه للطلاب و المهتمين بصورة سهلة⁽²⁾، إذ ليس من اليسير صياغة القواعد النحوية في أبيات شعرية، و لا تتوفر هذه الموهبة، إلا لمن امتلك موهبة شعرية فائقة و درجة عالية من العلم، و هذه الدرجة هي التي سمحت له بمنح الاجازات للعلماء⁽³⁾.

(1) عبد الرحمن عبّان: المرجع السابق، ص 77.

(2) بدر الدين محمد بن محمد بن مالك: شرح على ألفية محمد بن عبد الله، الشهير بابن مالك، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 3723 (د، الورقة رقم 03).

(3) عبد الرحمن عبّان: المرجع السابق: ص 78.

و منظومته مع سهولة ألفاظها، مشحونة بالعلم و التراجم و التعريف بالشعراء، كما هو واضح في الألفية النحوية، و منظومة البديع في علم البديع، بالإضافة إلى جملة الآداب و القيم المتنوعة، أما العلم فقد اشتملتنا على مهمّات علمي النحو و الإعراب و التصريف و البلاغة و البديع، و أما الأدب فتتضمنه أمثلتها من الحكم الجامعة و الأحكام النافعة، فالمنظومات تجمع بين علوم متعدّدة، كالنحو و القرآن، و الحديث و الأمثال و الحكم، و التعريف بالشعراء و إنتاجهم⁽¹⁾.

و خلاصة القول، أن ابن معطي الزواوي، كان من كبار النحويين، حاز شهرة واسعة تضاهي شهرة سيبويه و الزجاجي و غيرهما، فقد قدّم من خلال مصنفاته المذكورة سابقا، خدمة حقيقية لمدرسة النحو العربي، و ذلك بتبسيط قواعده و أسسه، كما يعتبر صاحب منهج متقدم سلكه المهتمون بعد وفاته، و وصل تأثيره إلى مستوى دفع كبار المهتمين بشؤون النحو، أن انكبوا على شرح مؤلفاته و إختصارها.

كما أنه أبدع في مجال التدريس بدمشق الفيحاء، فالتحق بحلقاته الدّراسية، التي كان يعقدها جمع غفير من التلاميذ و الطلاب، و فيها لقي ابن معطي أقطابها من العلماء و كان محل إحترام الجميع. و من هناك انتقلت أخباره لتصل حاكم مصر، الملك الكامل، فاستدعاه إلى القاهرة لينتفع الناس بعلمه، و لينتفع هو بنصائحه و آرائه سياسيا و اجتماعيا، فغادر دمشق نحو القاهرة، جلس هناك للتدريس و الدّراسة في جامع الأزهر، عاكفا على الكتابة و التأليف، و لم يزل كذلك إلى أن توفي بها⁽²⁾.

(1) عبد الرحمن عبان: المرجع السابق: ص 89.

(2) عمّار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 241.

- محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجعفري التونسي، المعروف بابن القوبع، المولود سنة 664 هـ / 1265 م، و المتوفى سنة 738 هـ / 1337 م. قرأ النحو على يحيى بن الفرج بن زيتون، و الأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس.⁽¹⁾ قال عنه الصديقي: «لم أن له نظيراً في مجموعة، و إتقانه و تفننه واستحضاره و إطلاعه كل ما يعرفه يجيد فيه، من أصول و حديث و فقه و أدب و لغة و نحو و عروض و أسماء رجال و تاريخ و شعر يحفظه للعرب و المولدين و المتأخرين»⁽²⁾.

برع في النحو، و شد انتباه العلماء إليه، خاصة ابن القواس و أبي الفضائل بن عساكر⁽³⁾. و من الشواهد التي تؤكد تضلعه في علم النحو، ما ذكر الصفدي أن أحداً، جاء إليه يصحح عليه في " أمالي القالي⁽⁴⁾، فأخذ الشيخ ركن الدين يسابقه إلى ألفاظ الكتاب، فبهت الرجل، فقال له لي عشرون سنة ما كررت عليها، و كان إذا أنشده أحد شيئاً في أي معنى، كان أنشد فيه جملة للمتقدمين و المتأخرين، و كان يدرس في مدارس بالقاهرة، و يدرّس الطب بالبيمارستان المنصوري، و أجاز العديد من العلماء الذين ذاع صيتهم في تخصصات مختلفة⁽⁵⁾.

(1) الداودي: معجم المفسرين، المصدر السابق، ص 460.

(2) الصفدي: الوافي بالوفيات، المصدر السابق، ج 1، ص 192.

(3) الداودي: المصدر السابق، ص 460.

(4) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي اللغوي، جده من موالي عبد الملك بن مروان، كان أحفظ أهل زمانه للغة و الشعر و نحو البصريين، تتلمذ لابن دريد و نبطويه و غيرهما، و طاف البلاد و سافر إلى بغداد، حيث أقام بها 25 سنة، و أقام في الموصلزمننا، و سافر إلى الأندلس، فدخل قرطبة على زمن عبد الرحمن الناصر، و توفي فيها سنة 356 هـ / 967 م. و له عدة مؤلفات أكثرها في اللغة منها كتاب الأمالي، و كتاب البارح في اللغة. ينظر ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص 76 و جورجى زيدان: تاريخ و آداب اللغة العربية، ج 1، ص 336.

(5) الصفدي: المصدر السابق، ص 193.

- مجد الدين التونسي محمد بن القاسم:

المولود بتونس سنة 656هـ / 1258 م ، قدم القاهرة مع أبيه، فأخذ النحو و القراءات على شيوخها المعروفين⁽¹⁾ ، انتقل بعدها إلى دمشق التي، اتخذها مستقره الأخير، و يبدو أن مستواه العلمي حين وصلها لم يكن متبلورا، و خاصة في ميدان النحو، و دليل ذلك أنه أمضى سنين يدرس و يدرس ، فشاعت فضائله و اشتهر أمره ، حتى أصبح من المقصودين للاستفادة منه في مجال القراءات و النحو⁽²⁾. و يبدو أنه بلغ مستو علميا كبيرا ،تبدى ذلك من خلال أقوال بعض العلماء بدمشق، بحيث يورد الصفدي أن شمس الدين الأيكي ،عندما سأله أحدهم: أيهما أذكى الشيخ كمال الدين بن الزمكاني، أم الشيخ صدر الدين بن الوكيل ؟، فقال: ابن الزمكاني، و لكن هنا مغربي أذكى منهما يعني الشيخ مجد الدين. و كان نحوي عصره بدمشق⁽³⁾ .

و قد أهله مستواه الناضج، إلى تولي عدة مناصب هامة في مجال التدريس، خلال الفترة التي أمضاها بدمشق. كان في مقدمتها تدريس مادة النحو بالمدرسة الناصرية⁽⁴⁾ بكل جدارة، إضافة على عمله الذي اشتهر به أكثر كـنحوي مرموق، فانه تولى مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح⁽⁵⁾ ، و هو أول من تسلم

(1) المصدر نفسه :ج3، ص 194.

(2) علي أحمد: الأندلسيون في بلاد الشام ، المرجع السابق، ص 161.

(3) الصفدي: المصدر السابق، ص 195.

(4) المدرسة الناصرية : و هي من مدارس الشافعية بدمشق بسفح جبل قاسيون، ابتناها الملك الناصر يوسف بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب سنة 653هـ /1255م ، و أول من درس بها قاضي القضاة ،صدر الدين بن سني الدولة ، و من بعده ولده نجم الدين ،ثم =القاضي شمس الدين بن خلكان. ينظر عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ، ج1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ /1990م ، ص 350. 351.

(5) تربة أم صالح : كانت في سنة 648هـ /1250م وفقا للصالح أبي الجيش إسماعيل بن الملك العابد سيف الدين أبي بكر، و فيها المدرسة الصالحية المعروفة بدمشق. ينظر النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص 239 و ما بعدها.

منصبا في غير إختصاصه من هذه الفئة، و أيضا تسلّم الإقراء بالتربة الأشرفية⁽¹⁾ ، و بالرغم من شهرته هذه فإنه لم يعرف في مجال الكتابة و التأليف، و ربما يعود سبب ذلك إلى أن وقته كان ضيقا، بحيث لم يسمح له بالتأليف.⁽²⁾ امتحن و قتل على يد نائب الشام سيف الدين كزاي سنة 718هـ / 1318م⁽³⁾. و في دمشق أيضا، اشتهر أمر نحوي آخر، إلى درجة لُقّب بشيخ النحاة لمعرفته العميقة في علم النحو ، هو أحمد بن محمّد شهاب الدين أبي محمد العنابي، نسبة إلى مدينة عنابة في المغرب الأوسط، المتوفى بدمشق سنة 776هـ / 1374م.⁽⁴⁾ أورد عنه النعيمي، أنه كان شيخ النحاة بالمدرسة الناصرية بدمشق قصده الناس من كافة الجهات للأخذ عنه و انتفعوا به، و عظم قدره و اشتهر ذكره⁽⁵⁾. درس قليلا في بلاده قبل أن يتوجه إلى المشرق، التي كانت مصر أول محطاته فيه، و في مصر انكبّ على دراسة النحو، و تعمّق فيها على أثير الدين بن حيان الغرناطي، لينتقل بعدها إلى دمشق ، فكان أول تصرف قام به في هذه المدينة، أن تحوّل عن المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي حيث كان مثل هذا الإجراء ضروريا لمن يريد العمل في المدارس الشافعية ، حيث لا يقبل أي شخص إذ كان على غير هذا المذهب، لذلك فقد مارس العنابي بعد هذا الإجراء مهنة تعليم النحو كما أوردنا أعلاه ، كمدرس معتمد في مدرستين معروفتين في دمشق هما المدرسة الناصرية و الخانقاه الأندلسية ، التي كانت مقر سكنه و إقامته. أما في

(1) التربة الأشرفية : كانت في الأصل داراً لصارخ الدين قايماز بن عبد الله، النجمي المتوفى سنة 596هـ / 1199م، فاشتراها الملك الأشرف بن سوسي الأيوبي المتوفى سنة 635هـ / 1237م ، دفن بها و رتب فيها قراء. ينظر النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 224 و ما بعدها.

(2) علي أحمد: المرجع السابق، ص 162.

(3) الصفدي: المصدر السابق، ج3، ص 195.

(4) علي أحمد: المرجع السابق، ص 163.

(5) النعيمي : المصدر السابق، ج1، ص 357.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

مجال التأليف ، فلم يكن باعه طويلا، و كل ما قام به ، أنه قام بشرح كتاب التسهيل لابن مالك النحوي، و قد تخرج عليه تلامذة، كان لهم فيما بعد مكانة مرموقة في عدة ميادين، مثال هؤلاء، الفقيه والمحدث النحوي بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن مكتوم، المتوفى سنة 797هـ /1394م⁽¹⁾.

ثانيا: في مجال الشعر

يقال الشعر ديوان العرب و ذلك للأهمية التي أولاها العرب للشعر في الجاهلية و صدر الإسلام و ما بعدها من العصور الإسلامية ، و لا يزال حتى وقتنا يحتفظ بتلك الأهمية.

و هناك من يعتبر قرض الشعر علما قائما بذاته ، يبحث عن أحوال الكلمات الشعرية ، لا من حيث الوزن و القافية بل من حيث حسنها و قبحها من حيث أنها شعر، و حاصله تتبّع أحوال خاصة بالشعر من حيث الحسن و القبح و الجواز و الإمتناع و أمثالها. و غرضه تحصيل ملكة إيراد الشعر على تلك الأحوال الخاصة. و غايته الإحتراز عن الخطأ في ذلك الإيراد⁽²⁾.

و لقد برزت أسماء عديدة في ميدان الشعر من بلدان المغرب الإسلامي ، و ذاع صيتها بفعل الدواوين التي ألفوها أو القصائد التي ألّفوها، و سارت على الألسن في بلاد الشام خاصة، و المشرق الإسلامي بشكل عام. و من أهم هؤلاء الشعراء:

⁽¹⁾ علي أحمد: المرجع السابق، ص 164.

⁽²⁾ أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة، المصدر السابق، ص 162.

- عفيف الدين التلمساني:

هو عفيف الدين ، أبو الربيع، سليمان بن علي بن عبد الله بن يس، العابدي ، الكومي التلمساني، المعروف عند القدماء باسم العفيف التلمساني، من الشعراء الأدباء⁽¹⁾، و لانعرف عن العابدي ما يوضح لنا هذه ، و لعلها نسبة إلى روضة العباد في تلمسان، حيث يثوي فيها الصوفي الشهير أبو مدين شعيب ، و الكومي نسبة إلى كومية، و هي قبيلة صغيرة منازلها في ساحل البحر من تلمسان⁽²⁾ .

ولد العفيف سنة 610هـ / 1213 م ، كان يدعى العرفان و يتكلم على إصلاح القوم، و هو ما يعني أنه كان صوفيا، - حسب ابن شاکر - نقلا عن قطب الدين اليونيني ، كان حسن العشرة كريم الأخلاق، له حرمة و وجاهة، و قد خدم في عدّة جهات⁽³⁾ .

و في ربوع تلمسان نشأ العفيف ، و هناك تلقى علومه الأولى على ما يبدو ، العلوم الشرعية واللغوية ، و تلقى أيضا بذور التصوف و طريق الصوفية، ثم رحل عن بلاده و طاف في ديار المسلمين باحثا عن شيخه ، حتى لقيه في بلاد الروم، و كان هذا الشيخ هو تلميذ ابن عربي الأشهر : صدر الدين القونوي المتوفى سنة 672هـ / 1273م ، و كان هذا اللقاء تحولا مفصليا في مسار العفيف الروحي، فقد تعرف من خلال شيخه القونوي على عالم فسيح ، و هو عالم محي الدين بن عربي ، هذا الأخير المعروف بتعمقه الصوفي حتى اخترق الفقه و الفلسفة و علم الكلام، و غيرها من علوم هذه الحقبة، ليقدم في

(1) عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص 235.

(2) عمر موسى باشا : العروبة في شعر العفيف التلمساني ، مجلة الأصاله ، العدد 26، مرجع سابق ، 334.

(3) ابن شاکر: المصدر السابق ، ج2، ص72.

النهاية نمطا مميزا من التصوف الجارف الذي تجلت آفاقه في المؤلفات التي تركها ، و في اتجاهات مدرسته من بعده، و على هذا النحو ، عرف العفيف التلمساني تصوف ابن عربي (1) .

ثم قدم القاهرة بعد أن تقدمت به السن و نزل بخانقاه سعيد السعداء، و أقام عند صاحبها شمس الدين الآبلي، و قد ولد له الشاعر المشهور شمس محمد، المعروف بالشاب الطريف ، و كان إذ ذاك في العقد الخامس من عمره، و انتقل الشاعر إلى بلاد الروم و عمل فيها ، أربعين خلوة صوفية تدوم كل واحدة أربعين يوما ، يخرج من واحدة و يدخل في أخرى (2) .

و هكذا استمر في تطوافه و سلوكه الصوفي، الذي تجسّد في أشعاره التي لقيت رواجا كبيرا، حتى ألقى عصى الترحال في دمشق، و أزمع أمره على التمتع بحياة السعي ليكسب الرزق، و لاسيما أنه كان يتمتع بمؤهلات شخصية و ثقافية تجعله في عداد الذين يعتمد عليهم في بعض أمور الدولة، و لا غرابة إن رأيناه يصبح مباشر استفتاء الخزانة بدمشق، و هذا من أكبر المناصب و أهمها في عصر سلاطين المماليك. أقام الشاعر طوال حياته ، و عاش سعيدا في قصر " صنف " الذي يقع في رياض الصالحية في سفوح جبل قاسيون (3) حتى وفاته سنة 690 هـ / 1291 م (4) .

(1) ينظر المقدمة التي وضعها يوسف زيدان ، محقق ديوان عفيف الدين التلمساني، ج1، دار الشروق، القاهرة، ص 11.

(2) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص 334.

(3) جبل قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق، و فيه عدّة مغاور، و فيها آثار الأنبياء و في سفحه مقبرة أهل الصلاح . ينظر ، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج4 ، ص 295.

(4) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص 334.

في دمشق، نال التلمساني شهرة واسعة كشاعر كبير ، و واحد من أهم أهل الطريق الصوفي ، واعتقد الناس في علمه و فضله. حضر الأسعد بن السيد النصراني إلى دمشق بصحبة الملك المنصور ، فقال له يوماً: «يا عفيف الدين ، أريد منك أن تعمل لي أوراقاً بمصروف الخزانة و حاصلها» و طلبها منه مرّة و مرّة حتى قال له: "أراك كلّما اطلب منك الأوراق تقول لي نعم، و لا تأتي بما"، فغضب العفيف ، و قال له: «لمن تقول هذا الكلام يا خنزير، ما هذا إلا لعجز المسلمين ، و لو بصقوا عليك لأغرقوك» ، ثم شق ثيابه و قام يهيم بالدخول على السلطان، فقام الناس إلى الأسعد بن السيد و قالوا: «هذا ما هو كاتب ، و هذا الشيخ عفيف الدين التلمساني ، و هو معروف بالجلالة و الإكرام بين الناس، و متى دخل إلى السلطان آذاك»، فسألهم ردّه و قال له: " يا مولانا ما بقيت أطلب منك لا أوراقاً و لا غيرها "(1) .

و من الآراء المتضاربة حول شعر التلمساني، قول الدكتور عمر فروخ: أما شعره فسهل ينوء أحياناً بالضعف(2) ، أما ابن عماد المتحفظ على إتجاهه الصوفي، فإنه ينصف القيمة الإبداعية و الفنية لشعر التلمساني ، حيث أورد أن : «شعره، ففي الذروة العليا من حيث البلاغة»(3) ، أما ابن شاعر الكتبي فيقول، إن شعره جيّد للغاية(4) .

(1) ابن شاعر: المصدر السابق، ص 72 . 73 .

(2) يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 35 .

(3) ابن عماد الحنبلي : الشذرات ، ج5، ص 412 .

(4) ابن شاعر: المصدر السابق، ج2، ص 76 .

و من الأهمية بمكان القول، إن ديوان التلمساني في معظمه، يدور حول تلك الأفكار الصوفية التي ظهرت عند ابن عربي و ابن سبعين، و أتباعهم. لكننا هنا نودّ الوقوف عند أهم فكرتين في الديوان، إذ أوقف العفيف التلمساني أغلب أشعاره على تصويرهما، و هما: الوحدة و المحبة⁽¹⁾.

الوحدة:

يقدم التلمساني إشارات متكررة عن فكرة الوحدة بمفهومها الصوفي. و هذه الفكرة يشرحها القشيري، و هو مرجع كبير في التصوف:

«و معنى كونه سبحانه واحداً على لسان العلم قيل : هو الذي لا يصحّ في وصفه الوضع والرفع ، بخلاف قولك إنسان واحد ، لأنك تقول: إنسان بلا يد و لا رجل ، فيصحّ رفع شيء منه، و الحق سبحانه أحادي الذات بخلاف إسم الجملة.. و قال بعض أهل التحقيق: معنى أنه واحد نفي القسيم لذاته ، و نفي التشبيه عن حقّه و صفاته و نفي الشريك معه في أفعاله و مصنوعاته...»

و التوحيد ثلاثة: الأول: توحيد الحق للحق، و هو علمه بأنّه واحد، و الثاني توحيد الحق سبحانه للخلق، و هو حكمه سبحانه بأن العبد موحد و خلقه توحيد العبد . و الثالث: توحيد الخلق للحق سبحانه ، و هو علم العبد بأن الله عز و جل واحد ، و حكمه و إخباره عنه بأنه واحد، فهذه جملة في معنى التوحيد على شرط الإيجاز و التحديد⁽²⁾.

(1) يوسف زيدان: المرجع السابق، ص 35.

(2) القشيري: الرسالة، المصدر السابق، ص 298. 299.

يظهر أن فكرة الوحدة عند الصوفية، تقول إنه لا موجود على الحقيقة إلا الله تعالى، و إنه إذا

قرن وجود المخلوقات بالوجود الإلهي، تلاشى الوجود الخلقى تماما، و لم يبق إلا الله فقط⁽¹⁾.

و يبدو أن التوحيد عند الصوفية يجد مرتكزاته في القرآن الكريم، في قوله عز و جل ﴿وَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ

وَاحِدٌ﴾⁽²⁾، كما أن هناك حديثا يروى عن النبي (ص) يقول فيه: «بيننا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل

خيرا قط إلا التوحيد، فقال لأهله: إذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروا نصفي في البر، و نصفي في

البحر، في يوم ريح، ففعلوا، فقال الله عزّ و جلّ للريح: أدّي ما أخذت، فإذا هو بين يديه، فقال له: ما

حملك على ما صنعت؟ فقال استحياء منك، فغفر له»⁽³⁾.

لذلك فإن أشعار العفيف التلمساني، كانت عالما خاصا به، لا يحده مغرب و لا مشرق، المغرب

الذي أخرجته و أنشأه، و المشرق الذي أحبه و احتضنه. هذا العالم الباطني يمثل تجربة شعرية عميقة في

الشعر الديني، سلك سبيلها كثيرا من الشعراء المتصوفة المؤمنين بوحدة الوجود، تحدث عن هذه الحقيقة،

فتمثلها في كل شيء رآها في هذا الكون و تُشاهد في هذا الإنسان الذي هبطت إليه النفس من المحل

الأرفع، و شخّصها في الطبيعة على اختلاف صورها و ألوانها، و تمثلها في المرأة في الجمال المطلق والحسن

المبدع، و قد لعبت الخمرة الرمز، أكبر دور في هذا المجال، لأن اتخذ من نعت قدمها و سلطان جبروتها

⁽¹⁾ يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 35.

⁽²⁾ سورة البقرة: الآية 163.

⁽³⁾ البخاري محمد بن إسماعيل: صحيحه، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الحديث رواه أبو هريرة، في التوحيد، باب قوله تعالى "

يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ" رقم الحديث 7506، دار الإعتصام، القاهرة، دار الرشيد، الجزائر، [ب. ت]، ص 1490.

على العقل البشري سبيلا يوضح له الحقيقة المطلقة، التي كانت تشغله في كل غرض من أغراض شعره المذكورة⁽¹⁾.

وقف أمام هذه الطبيعة يجلو محاسنها، و يستجلي مكنوناتها، لينفذ منها إلى عالم آخر حجبتة عن أبصارنا أدران الدنيا و آثام النفس الإنسانية، و إلى طبيعة أخرى لا قبل لنا، لأننا عاجزون على رؤيتها و إدراكها . و لكن الشاعر الملهم هو القادر على استجلاء الغيب و الإفصاح عن مكنون الكون، من خلال مواجهده الصوفية⁽²⁾، كقوله: -من الطويل-

وَقَفْنَا عَلَى الْمَعْنَى قَدِيمًا فَمَا أَغْنَى * وَ لَا دَلَّتْ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى
وَ كَمْ فِيهِ أَمْسِينَا وَ بَتْنَا بَرِّعِهِ * حَيَارَى وَ أَصْبَحْنَا حَيَارَى كَمَا بَتْنَا
تَمَلَّنَا وَ مَلْنَا وَ الدُّمُوعُ مُدَامُنَا * وَ لَوْلَا الْتِصَابِي مَا تَمَلَّنَا وَ لَا مَلْنَا
فَلَمْ نَرَى لِلْعَيْدِ الْحِسَانِ بِهِمْ سَنَا * وَ هُمْ مِنْ بُدُورِ التَّمِّ فِي حُسْنِهَا أَسْنَى
نُسَائِلُ بَانَاتِ الْحِمَى عَنْ قُدُودِهِمْ * وَ لَا سِيَمَا فِي لَيْنِهَا الْبَاتِهِ الْعِنَا
وَ نَلْتَمُّ تُرْبَ الْأَرْضِ أَنْ قَدْ مَشَتْ بِهَا * سُلْمَى وَ لُبْنَى لَا سُلْمَى وَ لَا لُبْنَى
فَوَا أَسْفَا فِيهِ عَلَى يُوسُفَ الْحِمَى * وَ يَعْقُوبَهُ تَبْيِضُ أَعْيُنُهُ حُزْنَا
وَ لَيْسَ الشَّجِي مِثْلَ الْخَلِي لِأَجْلِ ذَا * بِهِ نَحْنُ نُحْنَا وَ الْحَمَامُ بِهِ عَنَى
يُنَادِي مُنَادِيَهُمْ وَ يَصْغِي إِلَى الصدى * فَيَسْأَلُنَا عَنْهُمْ بِمِثْلِ الَّذِي قُلْنَا⁽³⁾.

(1) عمر موسى باشا : المرجع السابق، ص 336.

(2) المرجع نفسه: نفس الصفحة.

(3) ابن شاعر: المصدر السابق، ص 73.

و له أيضا في تأكيد ايمانه بوحدة الوجود: - من البسيط -

شَهَدْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَ هِيَ وَاحِدَةٌ كَثِيرَةٌ ذَاتُ أَوْصَافٍ وَ أَسْمَاءِ

وَ نَحْنُ فَيْكَ شَهِدْنَا بَعْدُ كَثَرَتَنَا عَيْنًا بِهَا اتَّخَذَ الْمَرِيَّ وَ الرَّائِي

فَأَوَّلُ أَنْتَ وَ مِنْ قَبْلِ الظُّهُورِ لَنَا وَ آخِرُ أَنْتَ عِنْدَ النَّازِحِ النَّائِي

وَ بَاطِنُ فِي شُهُودِ الْعَيْنِ وَاحِدُهُ وَ ظَاهِرُ لَامْتِيَازَاتِ بِأَسْمَاءِ

أَنْتَ الْمَلْقَنُ سِرًّا أَلَا أَفْوَهُ بِهِ وَ أَنْتَ نُطْقِي وَ الْمُصْغِي لِنجَوَائِي (1).

و له أيضا شعر في نفس المعنى - من المنسرح-

قَدْ شَاهَدُوا مُطْلَقَ الْجَمَالِ بِلَا رَقِيبٍ غَيْرِيَّةٍ وَ لَأَحْجُبِ

فَأَوْلَعُوا بِالْقُدُودِ مَا يَسَّةً أَعْطَافُهَا وَ الْمَبَاسِمِ الشُّنْبِ

وَ أَفْتَتَنُوا بِالْعُيُونِ إِنْ رَمَقَتْ تَرْمِي قِسِيًّا بِأَسْنُهُمِ الْهَدْبِ

وَ أَسْلَمُوا فِي الْهَوَى أَرْمَتْهُمْ طَوْعًا لِحُكْمِ الْكَوَاعِبِ الْعُزْبِ

مَا فِي خَبَايَا غَرَامِ أَنْفُسِهِمْ شَائِبَةٌ مِنْ شَوَائِبِ الرَّيْبِ

قَدْ خَلِقَتْ لِلْجَمَالِ أَعْيُنُهُمْ وَ طَهَّرَتْ بِالْمَدَامِعِ الشَّرُوبِ

مَا لَأَحَظُوا رُبَّةَ تُقَيْدِهِمْ وَ هُمْ جَمِيعًا عُمَارَةَ الرُّنْبِ

خَطَفَ بِحَانَاتِهِمْ عَسَى قَبَسٌ مِنْ بَعْضِ كَاسَاتِهِمْ بِلَا لَهَبِ

تَصْرَفُ مِنْ صَرَفِهَا هُمُومَكَ أَوْ تُصْبِحُ فِي الْقَوْمِ مُلْحَقَ النَّسَبِ

(1) يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 68.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

وَ كُنْ طُنْفِيْلَتُهُمْ عَلَيَّ أَدَبٍ
فَمَا أَرَى شَافِعًا سِوَى الْأَدَبِ
وَ إِنْ تَدَانَيْتَ مِنْ سُرَادِيْهِمْ
فَاسْجُدْ لِعِزِّ الْجَمَالِ وَ اقْتَرَبْ
وَ غِبْ حَنَانِيْكَ فِي حُضُوْرِهِمْ
عَنْكَ فَمَنْ غَابَ عَنْهُ لَمْ يَغِبْ (1).

و له أيضا - من الطويل -:

وَ حَيْثُ الْكَمَالُ الطَّلُقُ وَ الْمَرْكَزُ الَّذِي
أَفَاضَتْهُ أَنْوَارُ الْعُيُوبِ عَلَيَّ الْوَرَى
فَأَحْبَبَ عَمَّا غَابَ بِالشَّاهِدِ الَّذِي
إِذَا نَظَرْتَ عَـيْنًا بِصِيْرْتِهِ إِلَى
تَرَى بَرَزَخَ الْبَحْرَيْنِ كَوْنًا مُكَوَّنًا
فَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا لِهَذَا بِحَقِّهِ
عَلَى يَدِ مَعْنَاهُ يَمُرُّ وَجُوبُهُ
فَيَقْبَلُ مِنْهُ قَائِلُ حُكْمٍ فَاعِلِ
وَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا التَّوَسُّطِ مُثَبِّتًا
فَهَذَا لَهُ مَعْنَى الْمَقَامِ مُعَيَّبٌ
إِذَا صَفَّتْ الْأَقْدَامُ مِنَّا وَ آمَنَا
مَضَى لَمْ يُعَقَّبْ دَانِيًّا مِنْ شُهُودِهِ
إِلَيْهِ انْتَهَى دَوْرُ الْمُحِيْطِ الْمُكْوَكِبِ
إِفَاضَةَ وَهَبِ خَارِجٍ عَنْ تَكْسِبِ
يُبْرَهِنُ بِالْإِعْجَازِ فِي كُلِّ مَطْلَبِ
حَقِيْقَتِهِ الْمُثَلَى فَأَحْسَنَ وَ أَطْيَبِ
وَ مَطْلَعُهُ فِي حِدَّةِ الْمُتَرْتِبِ
عَلَى نَسْبَةِ مَحْفُوظَةِ الْأُمَّمِ وَ الْأَبِ
لِإِمْكَانِهِ مَرَّ السَّحَابِ الْمُصَوَّبِ
بِمَضْمُونِ مِيرَاثِ الْكَمَالِ الْمُهَدَّبِ
عَلَى النَّاسِ حَقًّا أَوْ تُمِيْزُ مَنْصِبِ
وَ لَمْ يَكُنْ عَنْهَا أَهْلُهُ بِمُعَيَّبِ
صَلَاةَ شُهُودٍ لَا صَلَاةَ تَحْحُبِ
بِنَا وَ مَضَيْنَا خَلْفَهُ لَمْ نُعَقَّبِ

(1) يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 97. 98.

و تِلْكَ سَبِيلٌ قَدْ دَعَا بِبَصِيرَةٍ

لَهَا وَ دَعَوْنَا كُلَّ شَرْقٍ وَ مَغْرَبٍ

فَدَلِّكَ دَاعِي اللَّهِ بِالْمَنْهَجِ الَّذِي

بِهِ صُورَةُ التَّكْمِيلِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ (1)

المحبة:

الحب الإلهي عند الصوفية، هو جوهر العرفان ، لذلك فإن متون التصوف تفيض بالمعلومات حول

هذا الجانب، و هناك أبيات مشهورة تنسب للزاهدة المشهورة رابعة العدوية المتوفية سنة 135هـ /

752م: - من الرمل-

رَاحَتِي يَا إِخْوَتِي فِي خُلُوتِي

وَ حَيِّي دَائِمًا فِي حَضْرَتِي

لَمْ أَجِدْ لِي فِي هَوَاهُ عَوَضًا

وَ هَوَاهُ فِي الْبَرَايَا مِخْنَتِي

حَيْثُمَا كُنْتُ أَشَاهِدُ حُسْنَهُ

فَهُوَ مُحْرَابِي إِلَيْهِ قَبَلْتِي

يَا طَيِّبَ الْقَلْبِ يَا كُلَّ الْمُنَى

جُدْ بَوْصِلٍ مِنْكَ يَشْفِي مُهْجَتِي

يَا سُرُورِي وَ حَيَاتِي دَائِمًا

نَشَأَتِي مِنْكَ وَ أَيْضًا نَشُوتِي

قَدْ هَجَرْتُ الْخَلْقَ جَمْعًا أَرْتَجِي

مِنْكَ وَصَلًا فَهُوَ أَقْصَى مُنِيَّتِي (2)

و قال شيخ الطائفة الجنيد عن العبد المحب لربه: " عبد ذاهب عن نفسه متقبّل بذكر ربه، قائم

بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، و صفا شرهه من كأس وده، و انكشف له الجبار

(1) يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 112، و ما بعدها.

(2) شعيب بن سعد بن عبد الكافي الحرفيش: الروض الفائق في المواعظ و الرقائق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1425 هـ /

2005م، ص 186.

من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، و إن نطق فعن الله، و إن تحرك فبأمر الله، و إن سكن فمع الله، فهو بالله و لله و مع الله" (1).

و معلوم أن منظري التصوف، يسوقون أدلة من القرآن الكريم و الأحاديث النبوية، التي تدعم ما يذهبون إليه في حقل مشروعية التصوف، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ

دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه﴾ (2) وقوله أيضا : ﴿و الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (3).

و يظهر واضحا من خلال شعر العفيف التلمساني، أنه وفيّ لهذه المدرسة، و قد عبّر عن تلك المشاعر القوية من خلال القصائد الكثيرة التي تضمنها ديوانه في الوجد و المحبة، و التي كانت تلقى قبولا في دمشق و بلاد الشام، و تُردّد في مجالس الفقراء و الزهاد، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

قصيدة - من مخلع البسيط - :

وَاصِلَنِي هَجْرٌ مَنْ أَحَبُّ	فَلَمْ يَغِبْ لَأَ وَ لَا يَغِيبُ
فَلَوْ يَكُونُ السَّلْوُ حَيًّا	مَا مَاتَ مَنْ هَجَرَهُ الْمُحِبُّ
وَ رَحْمَتًا لِإِنْكَسَارِ جَفْنِ	لَا يَعْرِفُ الصَّخْوَ مِنْهُ هَدْبُ
جَارَ عَلَيْهِ الحُمَارُ حَتَّى	أَتْلَفَهُ وَ الحُمَارُ صَعْبُ
يَا عُصْنًا لَا يَمِيلُ نَحْوِي	وَ المِيلُ فِي العُصْنِ مُسْتَحِبُّ
صَيَّرْتَنِي كَالنَّسِيمِ سَقَمًا	لَمْ لَا تَمِيلُ إِذَا أَهْبُ

(1) القشيري: الرسالة، المصدر السابق، ص 327.

(2) سورة المائدة: الآية 54.

(3) سورة البقرة، الآية 165.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

أَحْكُمُ فَفِيكَ الْعَذَابُ عَذْبُ مَا بَعْدَ حُلُوِّ الْخِطَابِ خَطْبُ
لِي وَ لَهُ فِي هَوَاكَ فَارَ وَ دَمْعُ صَبَّ عَلَيْكَ صَبُّ
يَا سَائِلِي عَنْ شَذَا نَسِيمِ قَمِيصُهُ بِالْوَصَالِ رَطْبُ
ذَاكَ سَلَامِ الْحَبِيبِ وَافِي فِي عَهْدِهِ لِلثَّامِ قُرْبُ
إِذَا تَجَلَّى عَلَى النَّدَامَى فَهَوَ لَهُمْ خُضْرَةٌ وَ شُرْبُ
أَضْمَرَ عَذْرًا فَعَادَ عَذْرًا إِذَا رُفِعَتْ لِلْمُحِبِّ حُجْبُ (1)

و له قصيدة - من مجزوء الخفيف -

هَاكَ قَلْبِي فَسِرْ بِهِ لِلْحِمَى دُونَ سَرِيهِ
فَلَكُمْ فِي حَيَامِهِ مِنْ فَقِيدٍ لِقَلْبِهِ
وَ تَعَرَّضَ بِذِي النَّقَا لِلصَّبَا فِي مَهَبِّهِ
فَهُوَ نَشْرٌ مُعَطَّرٌ بِشَذَا نَشْرٍ غُرْبِهِ
وَ إِذَا مَا دَعَاكَ دَاعِي هَوَاهُمْ فَلَبَّهِ (2)

و له قصيدة - من الطويل -

غَرَامِي فِيكُمْ مَا أَلَدَّ وَ أَطْيَبَا وَ فِي حُبِّكُمْ أَهْلًا بَسْتَقِمِي وَ مَرْحَبَا
غَزَا لَكُمْ ذَاكَ الْمَصُونُ جَمَالُهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُبِّ قَلْبِي مَا صَبَا
تَجَلَّى عَلَى كُلِّ الْعُيُونِ فَعِنْدَمَا سَبَى حُسْنَهُ كُلَّ الْقُلُوبِ تَحُجُّبَا

(1) يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 99-100.

(2) يوسف زيدان: ديوان عفيف الدين، ص 110. 111.

أَحْبَابُنَا هَلْ عَابَدُ فِي حِمَاكُمْ أو يُقَاتِ وَصَلٍ كُلُّهَا زَمَنَ الصَّبَا

عَلَى حُبِّكُمْ اتَّفَقْتُ حَاصِلِ أَدْمُعِي وَ غَيْرِ وَ لَا كَمَ عَبْدُكُمْ مَا تَكْسِبَا

وَ حَاشَاكُمْ أَنْ تَبْعِدُوا عَنِّ جَنَابِكُمْ حَلِيفَ هَوَىِّ بِالرُّوحِ فِيكُمْ تَقْرَبَا

وَ أَنْ تَهْجُرُوا مَنْ وَاصَلَ السَّهْدُ جَفْنُهُ وَ هَدَّبَ فِيكُمْ عِشْقُهُ فَتَهَدَّبَا

وَ أَحْسَنْتُمْ تَأْدِيبَهُ بِصُدُودِكُمْ فَلَا تَهْجُرُوهُ بَعْدَ مَا قَدْ تَأَدَّبَا⁽¹⁾.

وله أيضا - من الطويل -

بِحُبِّكَ هَلْ لِي فِي لِقَائِكَ مَطْمَعٌ فَإِنِّي مِنْ كَرْبِ عَلَيْكَ إِلَى كَرْبِ

بِكُلِّ طَرِيقٍ لِي إِلَيْكَ مَسِيَّةٌ كَأَنِّي مَعَ الْأَيَّامِ بَعْدَكَ فِي حَرْبِ

بَكَيْتُ فَقَالُوا أَنْتَ بِالْحُبِّ بَائِحٌ صِمْتُ فَقَالُوا أَنْتَ خُلُوْ مِنْ الْحُبِّ

بَوَارِقُ لَاحَتْ لِلوِصَالِ فَتَمَّهَا فَيَا بَعْدَ بَعْدٍ قَدْ دَنَا زَمَنُ الْقُرْبِ

بَقِيَتْ وَ هَلْ يَبْقَى صَبٌّ بِهِ لَوْعَةٌ تُثْلِبُهُ الْأَشْوَاقُ جَنَبًا إِلَى جَنَبِ

بَلَعْتُ الْمُئِي مِمَّنْ أَحَبُّ بِحُبِّهِ وَ لَا بُدَّ لِلْمَرْئُوبِ مِنْ رَحْمَةِ الرَّبِّ⁽²⁾.

و يظهر من هذه القصائد أن شاعرنا، لا يبكي أطلاقا كما الأولون بوصفها رمزا للخراب و الفناء،

و إنما بوصفها رمزا للحيرة و القلق، إنها وقفة لمسألة الوجود عن حقيقته و كنهه : هل الوجود زمان أو

مكان ؟ هل الوجود جسم أو روح ؟ هل الوجود واحد متعدّد أو كل متحد ؟

⁽¹⁾ يوسف زيدان: المصدر السابق ص 119 . 120.

⁽²⁾ نفسه: ص 124 . 125.

إنّ الإجابة عن مثل هذه الأسئلة الوجودية، لا يمكن أن تكون حاسمة و لا قطعية، و قد عجز دوتها عقل العالم و منطق الفيلسوف، لكن الصوفي بحسه المتميّز وجد لها جوابا في "الحب"، إنه الحبّ الذي يغمر القلب، فتفيض إشعاعاته إلى الوجود كله⁽¹⁾.

و بذلك يتعرف الإنسان إلى ربّه، و هي غاية ما يسمو إليه الصوفي ، لقد أكد ذلك العفيف التلمساني في كتابه " الكشف و البيان في علم معرفة الإنسان"، بحيث اعتبر العلوم كثيرة متشعبة إلى ما لا نهاية له" و إنما أرفعها قدرا و أسناها رتبة هو علم المعرفة إلى معرفة البارئ جل جلاله بصفاته و أسمائه، إذ هو سيّد العلوم"⁽²⁾.

الشاب الظريف:

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني بن شمس الدين علي⁽³⁾، الشهير بالشاب الظريف، ولد بمصر سنة 661هـ / 1262-1263م⁽⁴⁾، و تحديداً بالقاهرة، لما كان والده صوفيا بخانقاه سعيد السعداء⁽⁵⁾، و يقال له ابن العفيف⁽⁶⁾، ثم انتقل مع أبيه إلى دمشق، و لم يذكر الذين ترجموا له شيئا

⁽¹⁾ عبد الحميد جريوي: تجليات التناسخ في شعر عفيف الدين التلمساني، مذكرة ماجستير، مرقونة، قسم اللغة العربية و أدائها، كلية

الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، إشراف د. عبد القادر داخعي، السنة الجامعية 2003/2004، ص 50

⁽²⁾ عفيف الدين التلمساني: الكشف و البيان في علم معرفة الإنسان، مخطوط، الورقة رقم 1، في مكتبة المصطفى الإلكترونية .

⁽³⁾ ابن شاعر الكتيبي: المصدر السابق، ج3، ص 373.

⁽⁴⁾ محمد الصالح الصديقي: أعلام من المغرب العربي، ج1، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 01.

⁽⁵⁾ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2، المصدر السابق، ص 218.

⁽⁶⁾ خير الدين الزركلي: الأعلام، ج6، دار العلم، بيروت، 2002، ص 150.

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

عن أسباب هذه الهجرة و تاريخها ، و كل ما ذكره من تاريخ حياته، أنه بقي مع والده بدمشق حتى وفاته

شباباً لم يتجاوز الثلاثين⁽¹⁾. تتلمذ الشاب الظريف على عدد من علماء عصره ، يأتي في مقدمتهم:

والده عفيف الدين التلمساني، و مما يؤكد تتلمذه على أبيه ، قوله من قصيدة يمدحه بها: -من الكامل-

يَا قَطْرَ عَمِّ دِمَشْقَ وَاخْصُصْ مَنْزِلًا فِي قَاسِيُونََ وَ حَلَّه بُنَيَات

فِيهِ الَّذِي كَشَفَ الْعَمَى عَنْ نَاطِرِي وَ جَلَا شُمُوسَ الْحَقِّ فِي مَرَاتِي

فِيهِ الْأَبُّ الْبَرُّ الشَّفِيقُ فَدَيْتُهُ مِنْ سَائِرِ الْأَسْوَاءِ وَ الْآفَاتِ⁽²⁾.

- ابن الأثير الحلبي (652 - 699 هـ / 1254 . 1299 م)⁽³⁾، و هو أبو الفداء إسماعيل ابن

أحمد بن سعيد، عماد الدين بن تاج الدين بن الأثير، عالم ، كاتب، أديب، حلبي الأصل ، شافعي

المذهب، ولي كتابة الدرج في الديار المصرية بعد أبيه مدة، ثم تركها تورعاً، و قتل بظاهر حمص في وقعة مع

التتار، و له مؤلفات عدة.

منزلته:

استفاد الشاب الظريف من ميراث والده الشعري و علو مكانته بدمشق ، فبرع في الشعر، وافتتن به

أهل عصره، و بخاصة أهل دمشق لقربه من أفهام العامة، و أذواقهم.⁽⁴⁾ قال الصفدي عنه: " شاعر مجيد

⁽¹⁾ شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني: ديوان شعره، تحقيق صلاح الدين الهواري، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

1424 هـ / 2004 م ، الترجمة التي وضعها المحقق للشاعر، ص 09.

⁽²⁾ المصدر نفسه: ص 11.

⁽³⁾ المصدر نفسه: نفس الصفحة.

⁽⁴⁾ محمد الصالح الصديق: المرجع السابق، ص 01.

مجيد بن شاعر مجيد⁽¹⁾ و قال ابن تغري بردي المتوفى سنة 874هـ / 1469م، كان شابا فاضلا ظريفا، و شعره في غاية الحسن و الجودة، و ديوان شعره مشهور بين الناس⁽²⁾.

و يورد ابن شاعر نصاً لابن فضل الله العمري، يتضمن رأي كاتب صاحب ذوق " نسيم سري، ونعيم جري، و طيف لا بل أخف موقعا من الكري، لم يأت إلا بما خفّ على القلوب، و بريء من العيوب، رقّ شعره فكاد أن يشرب، و دقّ فلا غرو للقصب أن ترقص، و الحمام أن يطرب، و لزم طريقه دخل فيها بلا استئذان، و ولج القلوب و لم يقرع باب الآذان.... و أكثر شعره، لا بل كلّه، رشيق الألفاظ، سهل على الحفاظ"⁽³⁾.

و ترك لنا الشاب الظريف ديوان شعر مشهور، لقي تفاعلا من قبل المهتمين في عصر الشاعر و في العصور التي تلت، و هذا إن كشف عن شيء فإنما يكشف عن القيمة الأدبية و الفنية لشعره. و في العقود الأخيرة ظهرت اجتهادات لباحثين مهتمين بالآثار الشعرية للشاب الظريف استدركت بعض القطع الشعرية التي كانت ضائعة و لم تضمن في ديوانه⁽⁴⁾.

(1) الصفدي: المصدر السابق، ج2، ص 218.

(2) ينظر، مقدمة ديوان الشاب الظريف، ص 17.

(3) ابن شاعر: المصدر السابق، ج3، ص 372. 373.

(4) ينظر، مقالة الأستاذ عباس هاني الجراح: ديوان الشاب الظريف، نظرات و مستدرک، مجلة الدّخائر، العددان 13 و 14، السنة

الرابعة 1423-1424هـ / 2003 م، بيروت.

توفي الشاب الظريف في دمشق سنة 688هـ / 1289م، و هو غض الشباب، لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، و قد رثاه والده عفيف الدين بأبيات تكشف عن لوعة فراق الوالد لابنه الوحيد -

من المنسرح-

مَاذَا عَنِ الْعَاسِلِينَ إِذْ قَرَّبَ أَلْ	أَمْلَاكُ مِنْهُ لَوْ أَنَّهُمْ بَعَدُوا
قَدْ حَمَلَتْ نَفْسُهُ الْعُلُومَ إِلَى أَلْ	فِرْدَوْسٍ وَ النَّعْشُ فَوْقَهُ الْحَسَدُ
أَبْكَيْتَ خَالًا يَكُ الضَّوَّاحِكُ مِنْ	قَبْلُ وَ مَا مِنْ صِفَاتِكَ النَّكْدُ
بِي كَبْرُ مَسْنِيٍّ وَ أُمِّكَ قَدْ	شَاخَتْ فَمِنْ أَيْنَ لِي تُرَى وَلَدٌ
وَهَبُهُ قَدْ كَانَ لِي فَمِثْلُكَ لَا	يُزَجِّي وَ أَيْنَ الزَّمَانُ وَ الْأَمْدُ
يَالَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ أَبَا لَكَ أَوْ	يَا لَيْتَ مَا كُنْتَ أَنْتَ لِي وَلَدٌ
لَوْ أَنَّ عَيْنِي مِنْكَ مَا رَأَيْتَا	مَا رَأْنَا مَا دَهَا هُمَا الرَّمْدُ
لَوْ أَنَّ أُذُنِي مِنْكَ مَا سَمِعَا	نُطْقًا لِمَا صَمَّتَا لِمَا أَحَدُ
لَوْ لَا احْتِمَالِيكَ بِالْيَدَيْنِ إِلَى	صَدْرِي لَمْ تَرْتَعِشْ عَلَيَّكَ يَدٌ ⁽¹⁾ .

ولقد تنوعت المضامين الشعرية لديوان الشاب الظريف من مدح و غزل و افتخار و غيرها، كما تكشف أشعاره عن أحواله الإجتماعية و النفسية و تعكس حالته العاطفية ، و تقلب أحواله المادية و معيشته ، و تنكر الأحباب و المقرّبين له في الأوقات التي يحتاجهم فيها بجانبه.

(1) الصفدي: المصدر السابق، ج2، ص 220 . 221.

و من تلك الألوان الشعرية قوله في مدح الرسول (ص): -من مجزوء الرجز-

هَذَا الَّذِي أَحْبَبُهُ قَاسِ عَلَيَّ قَلْبُهُ

نَامَ وَ لَمْ يَعْلَمْ بِمَا بَاتَ يُقَاسِي حُبَّهُ

وَ عَجَبًا كَمْ عَاجَ بِي دَلَالُهُ وَ عُجْبُهُ

أَهَاءَ لِمُضْنٍ وَآلِهِ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ ذَنْبُهُ

سَارَ بِهِ مَيْتِمًا مِنَ الْعَقِيقِ سُرْبُهُ

إِنْ لَاحَ بَرَقَ ظِلٌّ يَرِ جُو أَنْ يَلُوحَ قَلْبُهُ

أَوْ أَسْعَدَتْ أَوْ أَعْتَبَتْ سَعَادُهُ وَ عُتْبُهُ

قَدْ بَاتَ ظَمَانًا وَ مَا سِوَى الدُّمُوعِ شُرْبُهُ

مَا سَارَ وَهَنًا رَكْبُهُ إِلَّا وَ زَادَ كَرْبُهُ

فَمَنْ بَصَّبَ دَمْعِهِ يَفِيضُ وَجَدًا صَبَّهُ

يُحِبُّ مَنْ أَجَلَ الْحَيِّ بِ كُلِّ مَنْ يُحِبُّهُ

فَقَصْدُهُ مُحَمَّدٌ وَ آلِهِ وَ صَحْبِهِ⁽¹⁾.

و قال في مدح حسام الدين الحنفي الرازي ، قاضي القضاة ، المتوفى سنة 699 هـ / 1299م -من-

المنسرح-

أَضْحَى لَهُ فِي إِكْتِنَابِهِ سَبَبٌ بِمَيْسَمٍ فِي رُضَايِهِ شُنْبٌ

(1) الشاب الظريف: ديوانه، ص 57. 58.

قَلْبٌ كَمَا يُفْهَمُ السُّلُو جَرَى	فِيهِ كَمَا يُعْلَمُ الهَوَى لَهَبٌ
لَا يَدْعِي العَاشِقُونَ مَرْتَبِي	مَتَى تَسَاوَى التُّرَابُ وَ الدَّهَبُ
أَبْكِي إِذَا مَا شَكَّوْا وَ أَنْدُبُ إِنِ	بَكَوْا وَ أَقْضِي نَحْيِي إِذَا انْتَجَبُوا
فِيْمَنْ بِأَعْطَافِهِ وَ أَعْيْنِهِ	جُرَّ قَضِيْبٍ وَ جُرِّدَتْ قُضْبُ
مُنْتَقِمٌ بِالصَّادُودِ مُنْتَقِلٌ	عَنْ وَدِّهِ بِالْجَمَالِ مُنْتَقِبٌ
مُعْرَضٌ بِالْوَدَادِ مُعْتَرِضٌ	مُحْتَجِرٌ فِي العَرَامِ مُحْتَجِبٌ
يَا حَبْدًا دَارَهُ وَ إِنِ بَعُدَتْ	وَ حَبْدًا أَهْلَهُ وَ إِنِ غَضِبُوا
وَ حَبْدًا الشَّامِ إِنِ سَمَتْ بِحَسَا	م الدِّينِ مِنْهَا البِطَاحِ وَ الكُتُبِ
لَا أُحْتَشِي الحَادِثَاتِ وَ الحَسَنُ المِ	حَسِينُ لِي فِي جِنَابِهِ أَرْبُ
مَنْ مَعَشَرَ قَدْ سَمَوُا وَ قَدْ كُرُمُوا	فِعْلًا وَ طَابُوا أَصْلًا إِذَا انْتَسَبُوا
إِنِ أَظْلَمَ الدَّهْرُ ضَاءَ حُسْنِهِمْ	وَ إِنِ أَمَرَتْ أَيَّامَنَا عَدَبُوا
وَ إِنِ أَرَادُوا مَكَارِمًا بَلَعُوا	وَ إِنِ أَرَادُوا مَكَارِمًا عَلَبُوا
مَا إِنِ سَعَوْا فِي مَحَامِدِ رَفَعُوا	لَهَا بِنَاءً فَعَاقَهُمْ نَصَبٌ
قَوْمٌ يَشُقُّونَ كُلَّمَا شَعِبَ آلُ	خِطْبُ وَ مَنْ ذَا يَشُقُّ مَا شَعَبُوا
وَ تَسْتَقِرُّ العُيُونُ إِنِ نَزَلُوا	وَ تَسْتَقِرُّ القُلُوبُ إِنِ رَكَبُوا
وَ تَخْجَلُ السُّحْبُ مِنْ أَكْفِهِمْ	مِنْ أَجْلِ هَذَا تُبْدِي الحَيَا السُّحْبُ
إِنِ حَضَرُوا فِي مَجَالِسِ خَطَبُوا	وَ إِنِ نَأَوْا عَنْ مَجَالِسِ خَطَبُوا

يَا ضَا حِجًّا وَ الْحَيَاةَ عَابِسَةً وَ ثَابِتًا وَ الْجِيَالَ تَضْطَرِبُ

الدَّهْرُ دَوْحٌ وَ أَنْتَ فِيهِ قَضِيءٌ بُّ الْبَانِ عُصْنًا وَ غَيْرِكَ الْحَطَبُ

خُذْ مَدْحًا لَمْ أُرِدْ بِهَا مِنْحًا حَسْبِي أُنِّي إِلَيْكَ أَنْتَسِبُ⁽¹⁾.

و قال من قصيدة يمدح بها أهل حلب - من البسيط-

لَا غَرَوُ إِنْ هَزَّ عَطْفِي نَحْوَكَ الطَّرِبُ قَدْ قَامَ حُسْنُكَ عَنِّ غُدْرِي بِمَا يَجِبُ

مَا كَانَ عَهْدُكَ إِلَّا ضَوْءٌ بَارِقَةٌ لَاحَتْ لَنَا وَ طَوَتْ أَنْوَارَهَا الْحُجُبُ

تَمِيلُ عَنِّي مَلَالًا مَالَهُ سَبَبُ سِوَى إِعْتِرَافِي بِأُنِّي فِيكَ مُكْتَسِبُ

فَرَاعِنِي فِي وَدَادٍ كُنْتَ رَاعِيَهُ أُنِّي بَعُدْتُ وَ غَيْرِي مِنْكَ مُقْتَرِبُ

لِلْعَيْنَيْنِ عِنْدَكَ رَاحَاتٌ مُوَفَّرَةٌ وَ لِلْفُؤَادِ نَصِيبٌ كُلُّهُ نَصَبُ

فَإِنْ عَشِشْتَ فَهَذَا الْحُسْنَ لِي وَ طَرُّ وَ إِنْ سَلَوْتَ فَهَذَا الْهَجْرُ لِي سَبَبُ

لَكِنِّي لِي حُسْنٌ ظَنَّ أَنْ يُعِيدَكَ لِي ذَاكَ الْحَيَاءَ وَ ذَاكَ الْفَضْلُ وَ الْأَدَبُ

وَ بَيْنَنَا مِنْ عَاقَلَاتِ الْهَوَى ذِمَّةٌ وَ مِنْ رِضَاعَةِ أَخْلَاقِ الصَّبَا نَسَبُ

قِسْنِي وَ قَسًا مَنْطِقًا وَ هَوَى وَ أَنْصَفْ تَجِدْ رُتْبِي مِنْ دُونِهَا الرُّتْبُ

وَ لَا يُعْرَتُكَ مِنْ فُؤَادِي تَسْبِيهُمَا فَصُبْحُ عَزْمِي بَادٍ لَيْسَ يَحْتَجِبُ

كَمْ مَهْمَةٌ جُبْتُهُ وَ اللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ وَ وَجْهُ بَدْرِ الدَّجَى بِالْعَيْمِ مَنْتَقِبُ

أَقُولُ وَ الْبَارِقُ الْعُلُويُّ مُبْتَسِمٌ وَ الرِّيحُ مَعْتَلَّةٌ وَ الْغَيْثُ مُنْسَكِبُ

(1) الشاب الظريف: ديوانه، ص 42. 43. 44.

إذا سقى حلبٌ من مُزِنِ غَادِيَةِ أرضاً فحُصَّتْ بأَوْقَى قَطْرِهِ حَلْبُ
أَرْضٌ إِذَا قُلْتَ مَنْ سَكَّانُ أَرْبَعِهَا أَجَابَكَ الْأَشْرَفَانِ الْجَوْدُ وَ الْحَسْبُ
قَوْمٌ إِذَا زُرْتَهُمْ أَصْفَوَكَ وَدَّهَمُ كَأَمَّا لَكَ أُمَّ مِنْهُمْ وَ أَبٌ⁽¹⁾

و قال في مدح الرسول (ص)، في قصيدة - من البسيط -

أَرْضُ الْأَجْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَ مِنْ كُتْبِ سَقَاكَ مِنْهُمْ الْأَنْوَاءِ مِنْ كُتْبِ
وَ لَا عَدَتْ أَهْلَكَ النَّائِينَ مِنْ نَفْسِ ال صَبَا تَحِيَّةَ عَانِي الْقَلْبِ مُكْتَسِبِ
قَوْمٌ هُمْ الْعَرَبِ الْمَحْمِي جَارُهُمْ فَلَا رَعَى اللَّهُ إِلَّا أَوْجُهُ الْعَرَبِ
أَعَزُّ عِنْدِي مِنْ سَمْعِي وَ مِنْ بَصَرِي وَ مِنْ فُؤَادِي وَ مِنْ أَهْلِي وَ مِنْ نَشِي
لَهُمْ عَلَيَّ حُقُوقٌ مُذْ عَرَفْتُهُمْ كَأَنِّي بَيْنَ أُمَّ مِنْهُمْ وَ أَبِ
إِنْ كَانَ أَحْسَنُ مَا فِي الشَّعْرِ أَكْذَبُهُ فَحَسُنُ شِعْرِي فِيهِمْ غَيْرُ ذِي كَذِبِ
حَيَّاكَ يَا تُرْبَةُ الْهَادِي الشَّفِيعِ حِيَا بِمَنْطِقِ الرَّعْدِ بَادٍ مِنْ فَمِ الشُّحْبِ
يَا سَاكِنِي طَيِّبَةَ الْفَيْحَاءِ هَلْ زَمَنْ يُدْنِي الْمِحْبُ لَنَيْلِ السُّؤْلِ وَ الْأَرْبِ
صَمَمْتَ أَعْظَمَ مَنْ يُدْعَى بِأَعْظَمَ مَنْ يَسْعَى إِلَيْهِ أَخُو صَدَقَ فَلَمْ يَحِبْ
وَ حَزَّتْ أَفْصَحَ مَنْ يَهْدِي وَ أَوْضَحَ مَنْ يُبْدِي وَ أَرْجَحَ مَنْ يُعْزِي إِلَى نَسْبِ
تَحَدُوا النَّيَاقُ كِرَامٌ نَحْوَ تُرْبَتِهِ فَتَمَلَّأَ الْأَرْضُ مِنْ بُحْبٍ وَ مَنْ نُحْبِ
أَرْضٌ مَعَ اللَّهِ عَيْنُ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا فَإِنْ تَغَبَّ حَرَسَتْهَا أَعْيُنُ الشُّهُبِ

(1) الشاب الظريف: ديوانه، ص 47. 48

يَا خَيْرَ سَاعٍ يَبَاعُ لَا يُرَدُّ وَ يَا
 أَجَلَ دَاعٍ مُطَاعٍ طَاهِرِ الْحَسَبِ
 مَا كَانَ يَرْضَى لَكَ الرَّحْمَنُ مَنزِلَةَ
 يَا أَشْرَفَ الْخَلْقِ إِلَّا أَشْرَفُ الرُّتَبِ
 لِي مِنْ دُنُوبِي ذَنْبٌ وَافِرٌ فَعَسَى
 شَفَاعَةٌ مِنْكَ تُنَجِّنِي مِنَ اللَّهَبِ
 جَعَلْتُ حُبَّكَ لِي ذُخْرًا وَ مُعْتَمَدًا
 فَكَانَ لِي نَاطِرًا مِنْ نَاطِرِ النَّوَبِ
 إِلَيْكَ وَجَهْتُ آمَالِي فَلَا حُجْبَتَ
 عَنْ بَابِ جُودِكَ إِنْ الْمَوْتَ فِي الْحُجْبِ
 وَ قَدْ دَعَوْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مَكْرَمَةً
 حَاشَاكَ حَاشَاكَ أَنْ تُدْعَى فَلَمْ يُجِبْ (1).

و الشيء الذي يشد الإنتباه من خلال تفحص ديوانه، أنه كان عربيا في أغزاله كلها، و قد إتخذ من الغزل سبيلا لذكر العرب في عصره، الذي كان فيه الحكم فيه لسلطين المماليك، و التزم ذلك في سائر الأوصاف التي عرضها، و كان بذلك حقا ثورة شعرية عربية في عصر ساد فيه حكام أعاجم، و لا أظن شاعرا تحدث عن هذا الأمر، و التزم فيه هذا الإلتزام، من كان مثله (2).

فقد أحب الشاعر العرب كل الحب، فهو لم يختر في أغزاله غير المرأة العربية ، ذكر ليلي العامرية واحدا و ثلاثين مرة، و ذكر غلوة سبع مرات، و ذكر كلا من سعاد و أسماء و هند ثلاث مرات ، و أورد ذكر كل من أروى و عزة و رقية و لبنى و مي مرة واحدة (3).

(1) الشاب الظريف: ديوانه، ص 73 . 74 . 75

(2) عمر موسى باشا: المرجع السابق، 337

(3) عمر موسى باشا: المرجع السابق، 337.

هذه الظاهرة على جانب كبير من الأهمية، و هو أنه تغنى بالمرأة العربية في الوقت الذي كان

الشعراء يوغلون في وصف المرأة غير العربية، و لم يقتصر الأمر على ذكر المرأة ، و إنما وصف الشاعر لنا

حياة العرب و ارتحالهم و خيامهم و نيرانهم، من ذلك قوله: -من المنسرح-

أَفْدِي عَرَبًا حَلُومًا بِوَادِي الْجُرْعِ يَا وَحْشَةَ نَاطِرِي لَهُمْ فِي الرَّبْعِ

لَمَّا بَحَثُوا عِنْدِي فِي فِرْقَتِنَا أَشْتَأَقُ لَهُمْ مَسَايِلًا مِنْ دَمْعِي

و قال أيضا - من مجزوء الرمل -

إِنْ تَبَدُّوا أَوْ تَثْنُوا فَبُدُّورٍ فِي عُصُونِ

أَوْ رَنُومًا ظِي كِنَاسِ أَوْ سَطُومًا لَيْثَ عَرِينِ

مَرْجُوحًا الْوَصْلَ بِهَجْرٍ لِمَنَايَا وَ مَنُونِ

وَ لَكُمْ بِالْهَجْرِ أَجْرًا لَعْيُونِ مِنْ عَيْونِي

حُبُّهُمْ رُوحِي وَ رَاحِي وَ هُوَ دُنْيَايَ وَ دِينِي

أَنَا لَا أَسْمَعُ عَدْلًا فِيهِمْ إِنْ عَدَلُونِي

الْأَمَانِي خَبَرْتَنِي بِرِضَاهُمْ عَنْ يَقِينِ

إِنَّهُمْ عَرَبٌ كَرَامٌ فِي هَوَاهُمْ يَنْصَفُونِي

كَمْ أَضْلُونِي بِشَعْرِ وَ هَدُونِي بِجَبِينِ (1).

(1) الشاب الظريف : ديوانه ، ص 336. 337

أما في الغزل فقد ألف الشاب الظريف قصائد عديدة منها - من الطويل -

بِعَيْنَيْكَ هَذِي الْفَاتِرَاتِ الَّتِي تَسْبِي
يَهُونُ عَلَيَّ الْيَوْمَ قَتْلِي يَا حُبِّي
إِذَا مَا رَأَتْ عَيْنِي جَمَالَكَ مَقْبَلًا
و حَقَّكَ يَا رُوحِي سَكَرْتُ بِلَا شُرْبِ
وَ إِنْ هَزَّ عِطْفُكَ الصَّبَا مُتَابِلًا
أَضَاعَ الْهَوَى نُسْكَي وَ غِيَّبْتُ عَنْ لُبِّي
فَدَعْنِي وَ هَذَا الْخَدَّ أَعْصِرُ فِي فَمِي
عَنَاقِيدَ صُدْعَيْهِ وَ حَسْبِي بِهِ حَسْبِي
لَوْ أَنَّ بُحَارَ اللَّوْلُؤِ الرَّطْبِ شَاهَدُوا
نُنَايَاكَ مَا عُنُوا عَلَى اللَّوْلُؤِ الرَّطْبِ
أَيَا سَاقِي الْكَأْسِ الَّذِي زَادَ خَدُّهُ
عَلَيْهَا إِحْمَرَارًا عَدَّ بِالْكَأْسِ عَنْ صَحْبِي
وَ مَا ذَاكَ بِجَلَا بِالْمُدَامِ وَ إِنَّمَا
إِذَا لَجَّتْ لَمْ آمَنْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّلْبِ
وَ بِاللَّهِ قُلْ لِي أَيْهَا الظَّبِّي كَيْفَ قَدْ
تَعَلَّمْتَ صَيْدَ الْأُسْدِ فِي شَرِكِ الْهُدْبِ
وَ مَاذَا الَّذِي قَدْ بَعْتَ فَاسْتَرْهَنْتَ بِهِ
لَدَيْكَ الرَّبِّي رَهْنًا كَثِيرًا مِنَ الْكُتْبِ
فَخُذْ قِصَّةَ الشُّكُورَى مِنَ الْأَعْيُنِ الَّتِي
نَفَيْتَ لَدَيْدَ النَّوْمِ عَنْهَا بِلَا ذَنْبِ
وَ لَا تَعْتَبِرْ صَبَا تَهْتِكَ سِتْرَهُ
عَلَيْكَ فَهَتِكُ السِّتْرِ أَلِيقَ بِالصَّبِ (1)

و له أيضا في الغزل - من الكامل -

قَلْبِي بِحُبِّ سِوَاكُمْ لَا يَعْبَثُ
وَ فِي بَعِيرِ الْحُبِّ لَيْسَ يُحَدِّثُ
وَ حَيَاتِكُمْ لَا حُلْتُ عَنْكُمْ فِي الْهَوَى
وَ إِذَا حَلَفْتُ بِحَقِّكُمْ لَا أَحْنَتْ
يَا نَارِحِينَ وَ نَارِلِينَ بِمُهَجَّتِي
لَهُوَائِكُمْ سِحْرٌ بِقَلْبِي يَنْفُثُ

(1) المصدر نفسه: ص 93. 94

الفصل الأول

علماء المغرب في علوم اللغة والشعر

إِنْ لَمْ يَجُودُوا بِالْوِصَالِ فَعَلُّوا
بِالْوَعْدِ قَلْبِي ثُمَّ مِنْ بَعْدِ انْكَثُوا
لَا مَ الْعُدُولُ عَلَى هَوَاكُم جَاهِلًا
مَا طَابَ سَمْعِي بِالَّذِي يَتَحَدَّثُ
وَأَعَزُّهُ أُذُنِي لِلذِّدَّةِ ذِكْرِكُمْ
لَا الَّذِي بِالصَّدِّ فِيهِ يَبْحَثُ
أَنْتُمْ أَحِبَّائِي وَ أَنْتُمْ غَايَتِي
إِنْ شِئْتُمْ حَتُّوا الرِّكَابَ أَوْ الْبَثَا(1)

شعراء آخرون:

علي بن سعيد بن حمامة:

أبو الحسن الصنهاجي المغربي ، كان شيخا فيه فضل و أدب، و له معرفة بعلم العروض والقوافي، و عناية بتأليف الأشعار و جمعها و ترتيبها . نزل حماه و انقطع إلى سلطانه الملك المظفر تقي الدين أبي المناقب عمر بن تاهنشاه بن أيوب بن شادي الأيوبي، الذي حكم حماه بداية من سنة 574هـ / 1178 ، و جمع باسمه كتابا سماه " نفائس الأعلاق في مآثر العشاق"، و عمله مبثوبا عشرين باب، أودع فيه من بدائع الحكايات و نوادر الأشعار(2).

و وفد إلى البلاد الشامية في أيام الملك العادل نور الدين(3) فامتدحه بقصائد شتى، و مدح بعده الملك الناصر صلاح الدين بعدة قصائد.

أنشد أبو الحسن علي الصنهاجي، و قد رأى فاختة على شجرة نارنج و هي تغرد :-من الطويل-

(1) الشاب الظريف : ديوانه ص 106 . 107.

(2) محمد بن شريفة: المرجع السابق ، ص 61 . 62.

(3) الملك العادل نور الدين، أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سقر، وصفه ابن خلكان بأنه كان ملكا عادلا زاهدا ورعاً مستمسكاً بالشرعية، بنى المدارس بجميع بلاد الشام ولد سنة 511هـ / 1117م و توفي سنة 569هـ / 1173م بقلعة دمشق، ينظر ابن خلكان : المصدر السابق، ج5 ، ص 184 و مابعدها.

ولا بسة ثوبًا من الريش أدكنا ترؤفك مرأى في العُصون و مسكنا
 بنت في أعالي الدوح وكرا محصنا تفيأ أوزاقا لدانا و أعصنا
 أرنتنا بأفنان الأراكة قيصرًا و قد حل أعلى قبة الملك و السننا
 و أنشدت أحننا كسجع محارق إذا مس أوتارًا و غرد معلنا
 بكت طربًا لما بكيث صبابه و كم بين مسرور و من يشتكي الضنى
 و من شعره أيضاً: -من البسيط-

غنى الحمام على أعصانه طربًا فلم يدع مهجة إلا التظت هبًا
 هاجت لي الشوق في الأعصان صادحةً لا تعرف الوجد و الأشواق و الوصبا
 ما إن رأيت جهولاً قبل رؤيتها أصبى الحليم إلى أن بات مكتئبًا
 تبكي و ما فارقت إلما و لا وطنًا فكيف من فارق الألف معتربًا
 ما قاتل الله صداح الحمام إلى كم يالف النوح في أعصانه طربًا
 هاج الصبابه من أعنان كاظمة حتى استهلّت علينا باللوى سحبا⁽¹⁾.

يوسف بن محمد بن المثلثم:

هو يوسف بن محمد بن محمود بن عبيد الله بن محمد بن يوسف بن المثلثم، يرجع أصله إلى المثلثمين،
 و هو من بربر صنهاجة، جنوب بلاد المغرب، مولده بدمشق، و توفي بسُمَيْسَاط⁽²⁾ سنة

(1) محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 62. 63.

(2) سُمَيْسَاط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، و لها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن، و كان ملكها زمن ياقوت الحموي الملك الأفضل علي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدين، ذكرها المتنبي في قوله:

626هـ/1229م، قال عنه ابن الشعار الموصلي: "كان شابا ذكيا متوقدا له خط حسن و شعر مطبوع،

و كان بذئ اللسان خبيثه، كثير الهجو، أفحش شعراء زمانه هجوا ، و كانت له اليد البيضاء في الهجاء نظما و نثراً، و كانت فيه قحة و قلة حياء"(1).

له ديوان شعر مجموع، منها قصيدة يهجو قبيلة الملتمين، التي ينتمي إليها ببلاد المغرب، مطلعها - من

البيسط-

قالوا: حُدودُكَ أَقْيَالٌ مُلْتَمَةٌ لَا تَهْجُهُمْ قُلْتُ: هَجَوِي مَدْحَةٌ لَهُمْ

كَانُوا يُنَالُونَ مُرْدًا فَالْتَحَوْا فَخَشَنُوا أَنْ يَكْرَهُ الشَّعْرَ العُشَاقَ فَالْتَمُّوا (2).

و قال يهجو العماد النوريظ، قاضي البيرة، من أعمال بلاد الشام من قصيدة: - من السريع-

قُلْ لعماد الدين يَا قَاضِيَا يَحْكُمُ فِي البيرةِ بِالطَّبْعِ

يَحْكُمُ لِلسَّارِقِ مِنْ عِلْمِهِ بِالْحَصْبِ وَ الزَّائِي بِالْقَطْعِ

مَذْهَبُ ابْنِ إِدْرِيسٍ قَدْ أَصْبَحَتْ أَرْكَانُهُ هَادِمَةَ الرَّبْعِ

لَوْ أَنَّ لِلْمَذْهَبِ عَيْنًا بَكَتْ عَلَيَّ الَّذِي قَدْ تَمَّ بِالشَّرْعِ (3).

و كتب إلى صديق له في مدينة البيرة وصلته أخبار عنه بأنه مريض بالحمى، يدعى أبا علي بن

عبدالرحمن بن إبراهيم العطار، قصيدة مطلعها - من البيسط-

"ودون سُمِّيَ سَاطِطُ المَطَامِرِ وَ المَلَا وَ أودِيَّةٌ مَجْهولَةٌ" وَ هُوَ أَجَلٌ. ينظر ياقوت الحموي : مع البلدان، ج3، ص 258

(1) ابن الشعار الموصلي كمال الدين أبو البركات: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق كامل سليمان الجبوري، ج8، دار

الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2005م، ص 289

(2) المصدر نفسه: ص 290.

(3) ابن الشعار الموصلي: المصدر السابق، ص 191.

لَا تَحْسَبِ الْقَلْبَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكَ خَلِي

أَبَا عَلِيٍّ مَعَاذَ اللَّهِ لَا وَ عَلِي

وَ أَنْتَ تَعْلَمُ مَا عِنْدِي إِلَيْكَ كَمَا

قَلْبِي عَلِيمٌ بِمَا كَانَ عِنْدَكَ لِي

وَ قِيلَ شَكُّوَاكَ مِنْ حُمِّي وَ مَا فَهِمُوا

هَذَا حَرَارَةٌ فِكْرٍ مِنْكَ مُشْتَعِلٌ

وَ لَا تُرَى بَعْدَ هَذَا الْبُؤْسِ ثَانِيَةً

وَ زُبْمًا صَحَّتِ الْأَجْسَادُ بِالْعَلَلِ (1).

و كتب إليه مرّة ثانية، و قد أتى على عادته و لم يجده في الدّار، و كان في ظاهر البلد في

البستان، و كانت عادته إذا جاء من سميساط يقيم أياما كثيرة، و لاشك أنه اجتاز تلك المرّة مستعجلا ،

فقال - من مجزوء الكامل -

شَوْقِي إِلَيْكَ أَبَا عَلِيٍّ تَفْصِيلُهُ لَمْ يُجْمَلْ

مَا هَكَذَا عَوَّدَنِي مِنْ مِنَّةٍ وَ تَفْضُلٍ

أَيُّجُوزُ أَنْ أَمْضِي وَ لَمْ تَطْرُقْ بِرِجْلِكَ مَنْزِلِي

حَاشَاكَ أَنْ تُهْمَلَ مَوَدَّةٌ صَاحِبِ لَكَ أَوْلٍ (2).

(1) المصدر نفسه: ص 289.

(2) ابن الشعار الموصلبي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

عمر بن يوسف بن أبي بكر القفصي:

هو أبو حفص القفصي عمر بن يوسف بن أبي بكر المعروف بابن التبسي⁽¹⁾ المولود سنة 547هـ /1152م، أورد ابن الشعار عنه - نقلا عن قاضي حلب أبي القاسم عمر بن أبي جرادة ، كان شيخا حسنا دمث الأخلاق، طيب المحاضرة ، أقام بحلب سنين عدّة، و كان له معرفة بالحكمة و الهندسة، توجه إلى بلاد الروم بعد سنة 620هـ / 1223 م⁽²⁾ .

له قصيدة يشكو الزمان - من الطويل-

و قَائِلَةٌ مَالِي أَرَاكَ مَغِيرًا أَمِنْ فَرَطٍ وَجَدَ صَارَ لَوْتُكَ أَصْفَرًا
فَقُلْتُ كَلَيْتِي يَا هُنَيْدُهُ وَاعْلَمِي فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْجَلَامِدِ أَتَرَا
فَقَالَتْ: رِعَاكَ اللَّهُ هَلْ أَنْتَ مُخِيرٌ بِمَا هُوَ أَوْ مَا كَانَ قُدَمًا وَ مَا جَرَى
لَعَلَّ بَرَأِي يُحَدِّثُ اللَّهُ رَاحَةً فَإِنَّ الدَّيَّ أَبْلَى يُفَرِّجُ مَا تَرَى
فَقُلْتُ لَهَا: صَرَفُ الزَّمَانِ وَ جَوْرُهُ أَحَالَ عَلَى الْأَحْوَالِ حَالِي فَغَيْرًا
وَ شِئْتُ أَحْبَابِي وَ أَذْهَبَ تَرَوِي فَصِرْتُ فَقِيرًا بَعْدَمَا كُنْتُ مُوسِرًا
تَنَاءَتْ دِيَارِي وَ اضْمَحَلَّتْ أَجْبِي فَهَذَا الدَّيُّ أُهْدَى لِحِسْمِي التَّغْيِيرَا
فَدَمَعِي سَفُوحٌ وَ الهَوَى حَلٌّ فِي الحِشَا وَ قَلْبِي قَتِيلٌ الحَالَتَيْنِ مُعَقَّرَا
وَ لَا حَاكِمٌ يَقْضِي فِيحْكُمِ بَيْنَنَا وَ لَا مُسْعِدٌ تُلْفِي لِنَصْرِي مُيسِّرَا

(1) نسبة إلى "تبسة" من مدن أفريقية ، كما أورد ابن الشعار، و ليس "تنس" ، كما أشار إليها عمر بن شريفة في كتابه تراجم مغربية في مصادر مشرقية، و لعله سهو منه .

(2) ابن الشعار: المصدر السابق، ج4، ص 246.

فَمَنْ مَانِعِي مِنْ ظُلْمِ دَهْرِي وَجَوْرِهِ وَ لَمْ أَلْقَ إِلَّا مَنْ قَالَ : قَصْرًا
وَقَدْ حَارَ وَهْمِي مِنْ عَظِيمِ بَلِيَّتِي فَمَا حِيلَتِي فِيمَا سَمِعْتَ وَ مَا تَرَى (1).

عمر بن الحسين بن علي:

ابن محمد بن فروح بن خلف بن دحية الكلبي البلنسي الأصل، كانت ولادته - حسب رواية ابن
الشعار- سنة 544هـ / 1149م بأغامت من أعمال مراكش، و نشأ بسبته، و ولي القضاء ببر الأندلس
بمدينة دانية ثم رحل عنها إلى المشرق (2).

وصفه ابن خلكان بأنه كان من أعيان العلماء و مشاهير الفضلاء، متقنا لعلم الحديث النبوي وما
يتعلق به ، عارفا بالنحو و اللغة و أيام العرب و أشعارها (3)

خرج من بلاد المغرب، و حجّ و دخل بلاد العجم، و سمع بها صحيح مسلم، ثم عاد إلى بغداد،
و رحل إلى الشام، و قدم حلب و درس موطأ مالك بن أنس، ثم تردد بعد ذلك مرارا إلى حلب، و نال
خطوة بالديار المصرية عند حاكمها الملك الكامل (4) .

و كانت معظم الأشعار التي نظمها ابن دحية في مدح الملوك و رجال الحكم و المناصب، منها

قصيدة في مدح الملك مظفر الدين - من مجزء الرجز-

لَوْلَا الْوُشَاةُ وَ هُم أَعْدَاؤُنَا مَا وَهَمُوا
وَ قَاضَ دَمْعِي وَ هَمِّي بِالذَّمِّعَ لِمَا فَهَمُوا

(1) ابن الشعار: المصدر السابق، ص 248.

(2) المصدر نفسه : ج4، ص 195.

(3) ابن خلكان : المصدر السابق، ج3، 499.

(4) محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 79.

وخاطري مُضْطَرِبٌ و ناظري مُضْطَرَمٌ

يَكْتُبُ دَمْعِي كُلِّمَا لَهُ الْفُؤَادُ يَكْتُمُ

هل يَتَسَاوَى السَّاهِدُ زُونَ فِي الْهَوَى وَ النَّوْمِ

و منها - من الرجز -

يَا مُعْرَضًا عَن مُقْبِلٍ فِي الْحُبِّ لَا يُتِّهِمُ

سَلُوهُ مُنْفَصِلًا وَ صَبْرُهُ مُنْفَصِمٌ

إِنْ كُنْتَ لَا تُنْصَفُ فِي حُكْمِ الْهَوَى مِنْ تَظَلُّمٍ

فَاللَّهُ يَقْضِي بَيْنَنَا وَ الْمَلِكُ الْمَعْظَمُ

مَظْفَرِ الدِّينِ الَّذِي يُمْنَاهُ بَحْرٌ مُفْعَمٌ

مَلِكٌ عَمِيمٌ طَوْلُهُ وَ فِيهِ طَوْلُ عَمَمٌ

يَشْتَقِي الْمَوَارِي بُسْطِ أَهْ وَ الْمَوَالِي يَنْعَمُ

وَجُودُهُ وَجُودُهُ مَا مِنْهَا لِي عَدَمٌ

تَرَى قَوَائِي الشُّعْرَ فِي الْمَدْحِ لَهُ تَحْتَصِمُ

لَوْ لَمْ يَصِفْهُ وَاصِفٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ الشِّيْمُ

وَقَالَ عَنْهُ السَّيْفُ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْقَلَمُ (1).

(1) محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 199.

و له من قصيدة - من الطويل - يمدح فيها أحد السلاطين:

أَيُّهَا السُّلْطَانُ فَاسْمَعْ قَوْلَ مَنْ
قَوْلُهُ فِي كُلِّ خُطْبٍ يُتَّبَعُ
أُمَّةُ الزَّهْرَاءِ بِنْتُ الْمُصْطَفَى
و الَّذِي فِي النَّاسِ حَقًّا يَشْفَعُ
و أَبُوهُ مُشَبَّهٌ جَبْرِيلَ فِي
صُورَةٍ مِنْهُ عَالِيَهُ يَخْلَعُ
مَا رَجَحَتْ جِسْمَ الْمُعَالِي رُوحَهَا
حَبَّذَا الْجِسْمِ وَ رُوحَ الْجُمُعِ
أَنْتَ سُلْطَانُ الْوَرَى قَاطِبَةً
بِكَ يَسْمُو النَّاهِضُ الْمُضْطَلَعُ
كُلُّهُمْ مِنْ شُكْرٍ كَفَيْكَ عَدَا
فِي رِيَاضٍ مِنْ صِفَاتٍ تَرْتَعُ
فَلْيُزْخَرْفَ كُلَّ شَيْءٍ حَدَّثُوا
أَنْتَ أَنْتَ الدَّهْرُ لَا مَا أَسْمَعُوا
فَاقِبْ وَ اسْلَمْ فِي سُعُودِ مَاهَا
مَنْ أُفْوِلَ فِي بُجُومٍ تَطْلُعُ
دَائِمًا مَا تَعَالَتْ قَيْنَةٌ
فَرَعَ أَيْبِكَ وَسَطَ رَوْضٍ تَشْجَعُ⁽¹⁾.

عثمان بن أبي النوق

عثمان بن أبي النوق، فخر الدين المغربي، كان حيا سنة 723 هـ / 1323 م ، لما اجتمع به الصفدي بحلب، و أورد هذا الأخير معلومات هامة عن مؤهلاته العلمية ، فقد ذكر عن أبي النوق ، أن له البديهة التي يعجز عنها بعض الرجال، يكاد أنه لا يتكلم في جميع محاورته، إلا بالشعر الموزون، و النظم الذي يفرح به المخذون⁽²⁾.

(1) المرجع نفسه: ص 200 . 201.

(2) الصفدي: أعوان العصر، ج3، ص 154.

و يبدو أن الصفدي أراد امتحان قدرته الشعرية، لما اجتمع به الجامع الأموي بدمشق، و طلب منه أن ينشده أبياتا على البديهة، فأبهر أبو النوق الصفدي ببديهته الحاضرة، حيث أنشد أبياتا في غاية الجودة من حيث البيان و المعاني " فأنشدني في وقته في الحالة الراهنة أبياتا جملة، أتى بها سردا من أول وهلة، كأنما قد بينها لذلك، أو سهر فيها ليلة الحالك.... بحيث لو وصف في ذلك لما صدقت ، و لا ارتمى بي الظن إلى ذلك ، و لاحلقت ، فما كدت ، أقضي عجي منه، و وددت أني لم أنفصل عنه"(1). رأى أبو النوق مرة كتابا له فاتحة ذهب بين يدي أحد قضاة مدينة حلب ، فأنشد أبياتا أمام صاحب الكتاب ، يبغى إهداءه إياه بطريقة لبقة قائلا - من البسيط-

أَرَاكَ تَنْظُرُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ

و فِي أَوَائِلِهِ شَيْءٌ مِنَ الذَّهَبِ

لَوْ شِئْتَ تَصْرِفُ نَفْدًا مِنْ فَوَاتِحِهِ

صَرَفْتُ مِنْهُ دَنَانِيرًا بِلَا رَيْبِ

فوهبه الكتاب ، و أنشده - من البسيط-

خُذْهُ إِلَيْكَ بِمَا يَحْوِي مِنَ الذَّهَبِ

فَفِي نَدَى السُّحْبِ لَا يُخْشَى مِنَ اللَّهَبِ

و اضُمَّمُ يَدَيْكَ عَلَيْهِ لَا تُمَرِّقْهُ

(1) المصدر نفسه: نفس الصفحة.

فإنه ذَهَبٌ مِنْ مَعَدَنِ الْأَدَبِ⁽¹⁾.

و كتب إلى نفس الشخص، يطلب المساعدة المادية، لتدبير شؤون حياته في شهر رمضان، بأبيات

– من المتقارب –

وَ لَيْسَ مَعِيَ ذَهَبٌ حَاضِرٌ وَ لَا فِضَّةٌ، وَ عَلَيَّ الْكُلْفُ

وَ لِي مِنْكَ، وَ عَدُّ فَعَجَلٍ بِهِ فَمَنْ أَجَزَّ الْوَعْدَ حَازَ الشَّرْفُ

وَ دُمٌّ، وَ تَهَنُّ بِشَهْرِ الصِّيَا مِ بِوَجْهِ يَهْلُ، وَ كَفَّ تَكْفُ

فبعث إليه الشعر و النفقة ، و كتب إليه الجواب – من المتقارب –

مَسَحْتُ بِكُمِّي دُمُوعَ الْكُمَيْتِ

وَ قُلْتُ لَهُ قَدْ أَتَاكَ الْعَلْفُ

وَ وَايَ إِلَيْكَ جَدِيدَ الشَّعِيرِ

لَعَلَّ يُدَاوِي سِقَامَ الْعَجْفِ

وَ فِي كَمِّ سَائِقِهِ صُرَّةٌ

تَسُرُّ لِتَخْفِيفِ ثِقَلِ الْكَلْفِ

فَأَيَّاكَ تَحْسُبُهَا لِلْوَفَا

فَأَيُّ بُعْتُ بِهَا لِلْسَّلْفِ⁽²⁾

⁽¹⁾ (الصفدي: أعوان العصر، ص 155.

⁽²⁾ (الصفدي: أعوان العصر، نفس الصفحة.

و له من قصيدة في المدح - من الوافر -

إلى الجُرِّ الحَسِيبِ إلى عَلِيٍّ عَلاءَ الدينِ ذِي الحَسَبِ العَلِيِّ
إلى مَنْ جُوْدُهُ عَمَّ البَرَايَا وَ فَاقَ مَكَارِمًا لِكَرِيمِ طَيِّ
إلى مَنْ قَدْرُهُ فَاقَ البَرَايَا وَ زَادَ عُلاَّ عَلَى الأُفُقِ السَّمِيِّ (1).

علي بن عتيق:

علي بن عتيق بن عبد الرحمن بن علي بن أبي الحسن القابسي، المعروف بابن الصياد، ورد إلى مدينة صفد ببلاد الشام سنة 726هـ / 1326م، و كان شاعرا بليغا و أدبيا مقتدرا، حيث كان ينظم حلقات لتدريس الأدب بصفد يقرئ المقامات الحريرية (2) كاملة، و قطع من ديوان الشاعر الكبير أبي تمام المتوفى سنة 232هـ / 846م، و ديوان أبي الطيب المتنبي المتوفى سنة 354هـ / 965م (3).

و كان علي بن عتيق أستاذاً للصفدي، أخذ عنه علوماً شتى، و تأثر به أيما تأثر، يظهر ذلك من خلال ما أورده عنه " كان أحد الأسيخ الذين أخذت عنهم، و اقتنطت در الفوائد منهم، كان عالما بالعربية و المواد الأدبية، و كان له يد في الأصول فقها و ديناً، و حاصله في مذهب الإمام مالك متوفر، كأنه ليث و لجم منه عرينا، و أما التفسير فكان فيه علامة، و نهجه فيه واضح الإستقامة، و أما أسماء الرجال و السيرة النبوية فكان في ذلك قد بلغ الغاية، و أطل فيه على النهاية" (4).

(1) الصفدي: أعوان العصر، 293.

(2) نسبة إلى الحريري محمد بن عثمان صاحب المقامات التي ألّفها في خمسين رسالة، و لد الحريري سنة 446هـ / 1054م، و توفي سنة 516هـ / 1122م، ينظر ابن خلكان، ج 4، ص 63. 67.

(3) الصفدي: المصدر نفسه، ص 293.

(4) الصفدي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

و كان ينظم نظماً جيداً، من قصيدة مطلعها: -من البسيط-

مَا جَاءَكَ الْوَعْدُ إِلَّا كُنْتَ تُكْرِمُهُ و لَا أَتَيْتَكَ إِلَّا كُنْتَ مُنْحَرِفًا

كَذَلِكَ الْكَلْبُ لَا يَعْبا بِجَوْهَرَةٍ و من سَجِيئَتِهِ أَنْ يَأْلَفَ الْجَيْفَا

لكن يبدو أن الشاعر ابن عتيق، و رغم بضاعته الوفرة في العلم إلا أنّها لم تنعكس إيجاباً على واقعه الاجتماعي و المعيشي، لذلك عاد إلى بلاده فاس بخفي حنين، مؤثراً أرض بلاده التي كان فيها مبعجلاً، معبراً عن ذلك بالبيت الشعر الآتي - من الرمل-

إِنِّي مِنْ أَرْضِ فَاْسٍ كُنْتُ فِيهَا كَالْقَمَرِ (1).

أحمد بن يوسف التيفاشي:

أبو العباس التيفاشي القاضي، و تيفاش قرية من قرى قفصة، إحدى بلاد أفريقية، المتوفى سنة 651هـ / 1253م بالقاهرة(2). و كان شيخاً حسناً فاضلاً عارفاً بالأدب و علوم الأوائل، و له شعر حسن و نثر جيد و مصنفات حسنة في عدة فنون كثيرة الفائدة، له مصنفات عديدة منها " الدرّة الفائقة في محاسن الأفارقة" رحل إلى دمشق، و أحبّ المقام بها، و تقرب من الحكام الأيوبيين في الشام و مصر، خاصة الملك الكامل أبو المعالي محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، حيث رافقه في معظم تنقلاته من دمشق إلى حلب إلى آمد إلى الديار المصرية.

و لقي شعره القبول الحسن، فحرصت المصادر المشرقية على تسجيله.

(1) المصدر نفسه : نفس الصفحة

(2) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج6، ص 13

و له من قصيدة في المدح - من البسيط -

يَا طَيْبَ الْأَمَلِ وَ الْفَرْعِ الزَّكِيِّ كَمَا يَبْدُو جَنَّا ثَمْرٍ مِنْ أَطْيَبِ الشَّجَرِ
 وَ مِنْ خَلَائِقِهِ مِثْلَ النَّسِيمِ إِذَا يَهْفُو عَلَى الزَّهْرِ حَوْلَ النَّهْرِ فِي السَّحْرِ
 وَ مِنْ مُحْيَاةٍ وَ اللَّهِ الشَّهِيدِ إِذَا يَبْدُو إِلَى بَصْرِي أَجْبَى مِنَ الْقَمَرِ
 أَنْقَلْتَ ظَهْرِي بَرًّا أَقَوْمٍ بِهِ لَوْ كُنْتُ أَتْلُوهُ قُرْآنًا مَعَ الشُّورِ
 أَهْدَيْتَ لِي الْغَرْبَ مَجْمُوعًا بِعَالِمِهِ فِي قَابِ قَوْسَيْنِ بَيْنَ السَّمْعِ وَ الْبَصْرِ
 كَأَنِّي الْآنَ قَدْ شَاهَدْتُ أَجْمَعَهُ بِكُلِّ مَنْ فِيهِ مِنْ بَدْوٍ وَ مَنْ حَضَرَ
 نَعَمَ وَ لَأَقِيَّتْ أَهْلَ الْفَضْلِ كُلَّهُمْ فِي مُدَّتِي هَذِهِ وَ الْأَعْمُرِ الْأُخْرِ
 إِنْ كُنْتُ أَرْهَمُ فِي الصَّدْرِ مِنْ عُمْرِي فَقَدْ رَدَدْتُ عَلَيَّ الصَّدْرَ مِنْ عُمْرِي
 وَ كُنْتُ لِي وَاحِدًا فِيهِ جَمِيعُهُمْ مَا يَعَجُزُ اللَّهُ جَمْعَ الْخَلْقِ فِي بَشَرِ
 جُرَيْتٍ أَفْضَلَ مَا يُجْزَى بِهِ بَشَرٌ مَفِيدِ عُمْرٍ جَدِيدِ الْفَضْلِ مَبْتَكِرٍ (1).

و له من قصيدة في الزلزلة - من البسيط -

أَمَا تَرَى الْأَرْضَ فِي زَلْزَلِهَا عَجَبًا يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ كُلَّ تَقِي
 أَضْحَتِ كَوَالِدَةَ خَرْقَاءَ مُرْضِعَةً أَوْلَادَهَا دَرَّ ثَدْيٍ حَافِلٍ غَدَقِ
 قَدْ مَهَّدْتُمْ مِهَادًا غَيْرَ مُضْطَرَبٍ وَ أَفْرَشْتُمْ فِرَاشًا غَيْرَ مَا قَلِقِ
 حَتَّى إِذَا أَبْصَرْتَ بَعْضَ الَّذِي كَرِهْتَ مِمَّا يَشْتَقُّ مِنَ الْأَوْلَادِ فِي خُلُقِ

(1) محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 201

هَزَّتْ بهم مهدها شيئاً تنهنهم ثم استطاعتْ و آلَ الطَّبِيعِ للخُرْقِ

فَصَكَّتِ المهْدَ غَضِي فِيهَا لَا فِضَّةً بَعْضًا عَلَى بَعْضِهِمْ مِنْ شِدَّةِ النَّزِقِ (1).

يحيى بن محمد بن علي:

ابن مجاهد بن مجاهد بن عبد الرحمن بن سعيد بن خلف، أبو زكريا الخزرجي من أهل تلمسان،

نزل حلب و سكنها و أدب سلطانها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي (627-

659 هـ / 1230-1261 م) ، كان من أهل الأدب و الفضل، و يحفظ القرآن الكريم، و يقول الشعر

الحسن ، خاصة في المدح و الغزل (2).

و له من قصيدة في المدح -من الطويل-:

سُرُورِكَ مَا هَبَّ النَّسِيمُ يَدُومُ وَ عَزُّكَ مَمْدُودُ الرَّوَاقِ عَمِيمُ

وَ سَعْدُكَ ضَافٍ وَ الْمُؤَمَّلُ طَوْعُهُ وَ عَيْشُكَ صَافٍ وَ الزَّمَانُ خَدِيمُ

نَتَتْ نَحْوَكَ الشُّهُبُ الْجَوَارِي سُعُودَهَا وَ جَدُّكَ فِيهَا بِالثَّبَاتِ زَعِيمُ

وَ مَنْ كَانَتْ الْعَلِيَاءُ بَعْضُ خِلَالِهِ تُشِيرُ إِلَيْهِ بِالسُّعُودِ جُحُومُ

لَكَ الْحَيَّرُ مَا ذَرَتْ شَوَارِقُ أَوْ سَرَى نَسِيمُ صَبَاً قَدْ عَنَبَتْهُ عُيُومُ

يَمُرُّ عَلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ مُغَلَّسًا تَصْحُ بِهِ الْأَنْفَاسُ وَ هُوَ سَقِيمُ

وَ مَا طَرَبِي مِنْ سَاحِعٍ فَوْقَ أَيِّكَةٍ يُذَكِّرُنِي عَهْدَ الصَّبَا فَأَهِيمُ

فَتَى وَ شَحَّ الْعَلِيَاءُ فَاحْتَلَّ رَتْبَهُ حَوَاهَا لَهُ وَجْهٌ أَغْرَّ وَ سِيمُ

(1) الصفدي: الواقي بالوفيات، ج6، ص 14.

(2) محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 156.

عَلَا، فَعَلَا نَادِيهِ أَبْهَجُ مَيْسِمٍ وَ سَادَ فَشَادَ الْجَدَّ وَ هُوَ فَطِيمٌ
 إِذَا حَطَّ فِي طَرَسٍ أَقَرَّتْ لَزْهَرَةً وَ زُهْرٌ مَعَانِيهِ الْحِسَانِ فَهُومٌ
 إِلَيْهِ تَنَاهَى الْفَضْلُ وَ الْفَضْلُ لَمْ يَزَلْ لَهُ وَ عَلَيْهِ لِلتَّنَاءِ رُسُومٌ
 يَسُرُّ بِنُجْحِ الْحَاجِّ مِنْ كُلِّ قَاصِدٍ وَ يَرْتَاحُ لِلْعَافِينَ حَيْثُ يَقِيمُ
 لَهُ خُلُقٌ رَاقٍ أَرَقُّ شَمَائِلًا مِنْ الْمَاءِ إِذَا مَا صَفَّقَتْهُ نَسِيمٌ
 تُدَاوِي بِهِ مَرَضَى الْهُمُومِ لِأَنَّهُ إِذَا جَالَسَتْهُ الرُّوحُ فَهِيَ حَسُومٌ
 أَمْوَالِي خَلْنَا فِي مَعَالِيكَ غِبْطَةً بَأَنَّ مُعَالِيكَ الْغَيْبِيُّ ذَمِيمٌ
 تَهَنَّ بِهَا فِدَاءً، وَ طُلَّ وَ اسْمُ سَيِّدَا فَمَالِكِ بَيْنَ الْخَافِقِينَ قَسِيمٌ
 وَدُمْ مَا بَدَا نَجْمٌ، وَ أَيْنَعَ مَثْمَرٌ وَ مَا ضَاعَ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ شَمِيمٌ⁽¹⁾.

و له في الغزل - من الكامل -

وَ مُنَزَّهُ الْأَوْصَافِ عَنِ نُظْرَائِهِ سَلَبَ الْعُقُولِ بِحُسْنِهِ وَ بَهَائِهِ
 طَاوِي الْحَاشَا أَلْمِي كَأَنَّ جَفُونَهُ فِي الذَّبِّ عَنْهُ صِرْنٌ مِنْ رُقْبَائِهِ
 مَا رُمْتُ مِنْهُ نَظْرَةً إِلَّا انْتَنَى مِنْهَا الْفُؤَادُ مُضْرَجًا بِدِمَائِهِ
 بَيْنَ الْقُلُوبِ وَ بَيْنَهَا حَرْبٌ مَتَى يَزُتُّو، وَ مَا إِنْ هُنَّ مِنْ أَعْدَائِهِ
 لَنْ تَفْعَلَ الْبَيْضُ الرِّقَاقُ وَ لَا الْقَنَا كِفْعَالِهِ بِفُؤَادِ صَبِّ تَائِهِ
 يَزُونُ فِيكَلِمٍ، ثُمَّ يَجْبُرُ كَلِمَهُ بِرُؤُوهِ فَدَوَاؤُهُ مِنْ دَائِهِ⁽¹⁾.

(1) محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 157.

و له من قصيدة في البنفسج - من الكامل -

كلُّ الأزهارِ إنَّ حَسَنَ نَضَارَةً فَهَوَى فُوَادِي دُونَهُنَّ بِنَفْسِجٍ
أَهْوَاهُ دُونَ جَمِيعِهِنَّ لِأَنَّه يَحْكِي خُدُودًا، بِالْعِضَاضِ تُضْرَجُ

و له من قصيدة في الشمعة:

وَ بَاكِيَّةٍ لَمْ تَعْرِفِ الْحُزْنَ وَ الْأَسَى وَ لَأَشَدَّةَ الْأَهْوَالِ كَيْفَ مِرَاسُهَا
تَكَادُ بِأَنَّ تَقْضِي لِقَيْضِ دُمُوعِهَا وَ تَحْيَا إِذَا فِي الْحَيْنِ يَقْطَعُ رَأْسُهَا⁽²⁾.

نستنتج من حصاد هذا الفصل أن المغاربة في حقول علوم اللغة، و الشعر، فرضوا أنفسهم في بلاد الشام بكفاءاتهم العلمية و مؤهلاتهم الفكرية، و حازوا قصب السبق، كابن معطي الزواوي، الذي كان أوّل عالم لغة مسلم يكتب قواعد النحو في قصيدة، سميت "الألفية". و في ميدان الشعر استطاع المغاربة منافسة نظرائهم المشاركة، بل إن بعضهم وصل إلى ضمان مكان متقدم ضمن حلقة شعراء بلاط الملوك و أهل الحكم، و منهم من نسج علاقة شخصية معهم، كالشاعر و الأديب أحمد بن يوسف التيفاشي .

⁽¹⁾ محمد بن شريفة: المرجع السابق ص 157، 158.

⁽²⁾ المرجع نفسه : ص 158.

الفصل الثاني:

علماء المغرب في العلوم الدينية و القضاء

يعرف ابن خلدون علوم الحديث أنها: " النظر في الأساليب و معرفة ما يجب من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط، لأن العمل، إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله (ص)، فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن و هو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط"⁽¹⁾.

و دوّنت في هذا العلم كتب كثيرة، كصحيح البخاري⁽²⁾ و مسلم⁽³⁾، و أكثر منها مسند ابن حنبل، و بلغ مجموع أحاديثه نحو 60 ألفاً، و هذا التضخم يرجع فيه إلى سببين: الأول كثرة الوضع، فقد دخل في الحديث الكثير من حكم الأمم المختلفة، و اندسّ فيه بعض عقائد الأمم القديمة، و الثاني اجتهاد العلماء في الجمع، فقد كان علماء الحديث يرحلون إلى الجهات المختلفة، و يزاحمون التجار في الخانات⁽⁴⁾.

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 441.

(2) الجامع الصحيح، المشهور بصحيح البخاري، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري، المتوفى سنة 256هـ / 870م، و هو أول الكتب الستة في الحديث و أفضلها على المذهب المختار، فقد صحّ أن مسلماً كان ممن يستفيد منه، و يعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث، و هذا الترجيح هو المختار الذي قاله الجمهور. ينظر حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص 227.

(3) الجامع الصحيح للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الشافعي، المتوفى سنة 261هـ / 875م، والثاني من الكتب الستة و أحد الصحيحين اللذان هما أصح الكتب، قال الإمام النووي: " و قد انفرد مسلم بفائدة حسنة و هي كونه أسهل متناً، و لا من حيث أنه جعل لكل حديث موضعاً يليق به، جمع فيه طرقه التي ارتضاها، و أورد فيه أسانيده المتعددة، و ألفاظه المختلفة، فيسهل على الطالب النظر في وجوهه و استثمارها، و يحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه بخلاف البخاري". ينظر حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص 438، 439.

(4) أحمد أمين: ظهر الاسلام، ج2، المكتبة التوفيقية، القاهرة، [ب.ت] ص 42.

و بجانب جمع الحديث، نشأ حوله الكثير من العلوم، مثل علم الناسخ و المنسوخ من الأحاديث، فإذا رأى حديثاً يناقض حديثاً آخر، و عرف المتأخر منهما، دل ذلك على أن المتأخر ناسخ للمتقدم، ومثل علم الجرح و التعديل يذكرون فيه الصفات التي تلزم المحدث حتى يكون عدلاً، فإذا أنقصها أو نقص صفة منها، لم يحز صفة العدل، إلى غير ذلك من العلوم⁽¹⁾.

و في بلاد المغرب ازدهر علم الحديث، كعلم من العلوم الثقيلة، و لا نستغرب ذلك إذا علمنا أن كتاب الموطأ للإمام مالك الذي كان مذهبه سائداً في تلك البلاد، تضمن هذا الكتاب جوانب هامة من علم الحديث.

مع العلم أن صحيح مسلم - حسب رواية ابن خلدون- كثرت عناية علماء المغرب به، و انكبوا عليه، و أجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري⁽²⁾، و يؤكد ما ذهب إليه ابن خلدون، الفقيه ابن مرزوق صاحب كتاب المسند بقوله " فرجح الكثير من العلماء كتاب مسلم"⁽³⁾.

و زاد شغف الكثير من المغاربة المشتغلين بالعلوم الشرعية، خاصة بعلم الحديث للاستزادة والتعمق في هذا العلم، فعزمت همتهم على الرحلة إلى المشرق لتحقيق هذا المبتغى، و كانت بلاد الشام محطة أساسية في تلك الرحلات، و قد برزت العديد من أسماء المغاربة هناك، ليس فقط من حيث التعلم والتكوين، و إنما كمبدعين تأثروا و أثروا . تجسد ذلك من خلال اهتمام علماء البلاد بهم، و تكوينهم

(1) المرجع نفسه: نفس الصفحة.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 443.

(3) ابن مرزوق: المسند، ص 276.

لحلقات دروس علم الحديث خاصة بهم، جلبت الكثير من التلاميذ و الطلبة و المهتمين، و من أبرز تلك

الأسماء:

محمد بن جابر: أستاذ الإمام الذهبي

ابن محمد بن قاسم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حسّان القيسي، الوادي آشي الأصل،
التونسي المولد و النشأة، هكذا عرّفه تلميذه ابن فرحون المالكي، و المولود سنة 673هـ / 1274م،
والمتوفى سنة 749هـ / 1348م⁽¹⁾.

كان الوادي آشي كثير الرحلة و الأسفار للبلاد المشرقية و المغربية، و استكثر من الرواية، و نَقِبَ عن
المشايخ، و قيّد الكثير، حتى أصبح جماعة المغرب و راوية الوقت، قرأ القرآن على أبي جعفر بن الزيات
بفاس، ثم رحل إلى المشرق، و رحل إلى الحجاز مرتين، و جاور بالحرمين، و حدّث بهما، و سمع و أسمع⁽²⁾.
و لما بلغ طور الطلب بتجاوز المرحلة الأولى من التعلم في الكتاب، أخذ عن والده و روى عنه
عددا من الكتب الحديثية، و عن قاضي الجماعة ابن الغماز البلنسي نزيل تونس، و تلميذ أبي الربيع
سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، و غالب أسانيده في الرواية تتصل به، و لازم الوادي آشي ابن
الغماز طويلا، و روى عنه كثيرا⁽³⁾.

⁽¹⁾ ابن فرحون: الديباج، ص 401.

⁽²⁾ المصدر نفسه: نفس الصفحة.

⁽³⁾ محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 208.

رحل الوادي آشي مرتين إلى المشرق، و لذلك لُقّب بصاحب الرّحلتين. المرة الأولى في حدود سنة 720هـ / 1320م، و الثانية في حدود سنة 734هـ / 1333م، و في المرتين اعتنى عناية فائقة بالسّماع و الرواية عن أعلام القرن الثامن في الاسكندرية و القاهرة و الخليل و القدس و دمشق و مكة، و المدينة. ففي القاهرة التقى بالمحدّث المؤرخ، قطب الدين عبد الكريم الحلبي، و بالمحدّث المفسر المقرئ اللغوي الأديب، ابن حيان الأندلسي محمد بن يوسف، و بغيرهما. و بعد رجوعه من المشرق في المرة الثانية دخل المغرب الأوسط، و المغرب الأقصى، و الأندلس، و في هذه الأقطار أخذ عنه جماعة من أهلها⁽¹⁾.

و يبدو أن الوادي آشي، لم يكن ذا ناصية قوية في علم الفقه، يؤكّد ذلك ما قاله عنه تلميذه ابن فرحون: " و كان مقرئًا مجوّدًا له معرفة بالنحو و اللغة و الحديث و رجاله، و كان فقهه قليلًا"⁽²⁾.

و لم يتولّ الوادي آشي أية خطة من الخطط العلمية أو منصب من المناصب الإدارية، فكان يسمع الطلبة احتسابًا، و يحترف التجارة مثل والده، و لم يكن مال تجارته بالكثير على أنه مباين لأخلاق التجار المقلين، عرف بدمائة أخلاقه. قال عنه ابن فرحون: " كان عظيم الوقار و الأبهة، قويم السّمت"، و وصفه ابن الجزري بالثقة المشهور⁽³⁾.

أقام بدمشق مدة طويلة لطيب مناخها، و دماثة أخلاق أهلها، فقد وصف دمشق وصفًا يدل على افتتانه بجمالها الطبيعي، نقله تلميذه محمد بن محمد بن جزي الكلبي الأندلسي، مدون رحلة ابن بطوطة،

(1) المرجع نفسه: ص 209.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 401.

(3) ابن الجزري شمس الدين أبو الخير: غاية النهاية في طبقات القراء ج2، نشره ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1402هـ / 1982م، ص 106.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

ونصه: " و ذكرها شيخنا المحدث الرجال شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي، و لقد أحسن فيما وصف منها و أجاد، و تَوَقَّ الأنفس التّطلع إلى صورتها بما أفاد، هذا وإن لم تكن له بما إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، و لا وصف ذهبيات أصيلها، و قد حان من الشمس غروبها، و لا أزمان جفولها المنوعات، و لا أوقات شروقها المنبهات، و قد اختصر من قال: ألفتها كما تصف الألسن، و فيها ما تشتهيهِ الأنفس و تلذ الأعين" (1) .

و كانت دمشق في القرن الثامن من العواصم العلمية المرموقة فيها طائفة من مشاهير الأعلام ذوي المنزلة الممتازة و الشهرة الواسعة، و ناهيك بالحفاظ و المؤرخين الثلاثة، أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي، و الذهبي، و المزّي. و يبدو أن في رحلته الثانية حاز شهرة، و أصبح معروفا في الأوساط العلمية شرقا و غربا بسعة الرواية، و علو الأسانيد، فتسابق الكثيرون لسماع القرآن و الحديث منه، ثم استجازته فيما تلقوه عنه (2) .

مشيخة الوادي آشي في بلاد الشام

لقد حفل برنامج الوادي آشي بالشيوخ الذين أخذ عنهم ، سواء في حلقات الدروس التي كان ينظمها هؤلاء في المدارس و المساجد، أو في بيوتهم الخاصة، كما أثار في هذا البرنامج إلى ما كان بينه و بين بعض شيوخه من تدبير - و هو أن يتبادل العلمان المعرفة، بأن يدرس كل واحد منهما على الآخر، أو أن يجيز كل منهما الآخر - و هذه عيّنة من هؤلاء العلماء:

(1) محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 210 . 211.

(2) المرجع نفسه: ص 211.

و هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن صخر، الكنايني الحموي، المولود سنة 639هـ / 1241م، و المتوفى سنة 733هـ / 1333م، له مؤلفات عديدة منها: كتاب "المنهل الروي في علوم الحديث النبوي" و "تنفيح المناظرة في تصحيح المخابرة، و تجنيد الأجناد في وجهات أهل الجهاد"، و "مسند الأحشاد في آيات الجهاد"، و جزء في ما احتوت عليه فاتحة الكتاب، و "غرر البيان لمبهمات القرآن"، و مقدمة في النحو. إلى أن يقول حضرت مجلسه، و قرأت عليه و سمعته، و أجازني في إجازة عامة في ما يجوز أن يروى عنه⁽¹⁾.

عبد الله بن سرور المقدسي:

وصفه الوادي آشي، بالشيخ الفقيه المحدث الجليل، شرف الدين أبو محمد عبد الله بن الحسن ابن عبد الله بن الحافظ، العلامة عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، من أهل الصلاحية⁽²⁾، المولود سنة 646هـ / 1248م، و المتوفى سنة 732هـ / 1332م، قال سمعت عليه يسيرا في إجازة عامة متلفظا بها و كاتباً خطه⁽³⁾.

(1) الوادي آشي: برناجه ج1، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، منشورات كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، 1401هـ / 1981م، ص 47.

(2) المدرسة الصلاحية، بالقرب من البيمارستان النوري، ابتناها نور الدين بن الزنكي، و نسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين فاتح بيت المقدس. من أبرز مدرسيها عماد الدين بن أبي زهران الموصلية، و محي الدين خطيب جامع دمشق، ينظر النعيمي، المصدر السابق ج1، ص 251.

(3) الوادي آشي: برناجه، ص 53.

القاسم بن مظهر بن عساكر الدمشقي:

هو بهاء الدين أبو محمد القاسم بن مظفر بن محمود بن أحمد بن محمد بن الحسين بن هبة الله ابن عساكر الشافعي الدمشقي، المولود سنة 629هـ / 1231م .

أخذ عن جماعة، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن خليل بن عبد الله الآدمي الدمشقي، و أبو العباس أحمد بن الحسن بن الخضر القرشي، و القاضي أبو العباس أحمد بن خلف بن راجح، و أبو الفضل إسماعيل بن أحمد بن الحسين و غيرهم، و خرّجت له مشيختان: صغرى، خرّجها عنه علم الدين البرزالي، و كبرى، خرّجها له ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن طغريل الصيرفي، تحتوي على نحو ستمائة شيخ و شيخة⁽¹⁾. إلى أن يقول: قرأت عليه و سمعت و استفدت، و مما أنشد نيه لغيره، و لم يعينه يعتذر لي عن عدم زيارته، و كونه مقعدا هو المانع - شفاه الله تعالى - **من البسيط -**

إِنِّي وَ إِن بَعَدْتُ دَارِي لِمَقْتَرَبُ مِنْكُمْ بِمَحْضِ مُوَالَاتِي وَ إِخْلَاصِي

وَ رَبِّ دَانٍ وَ إِن طَالَتْ مُودَتُهُ أَشْهَى إِلَى الْقَلْبِ مِنْهُ النَّازِحُ الْقَاصِي.

و أنشدني بعد ذلك متمثلا لغيره و لم يعينه على جهة الاعتذار المذكور: **من البسيط -**

إِن قَصَّرْتُ بِي الْإِقْدَامَ أَقْدَامِي فَلْيُعْذَرَ السَّهْمُ إِن أَخْطَأَ بِهِ الرَّامِي

(1) الوادي آشي: برنامجه، ص 86، و شمس الدين الذهبي: معجم شيوخ الذهبي، تحقيق، روحية عبد الرحمن السوني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ / 1990م، ص 86. و تذكرة الحفاظ، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت [ب. ت]، ص 1328. 1329.

لو أمكن الدهر ما قضيتُ لي زمنا إلا بخدمة هذا المجلس السامي

و حين وداعي له بكى و أنشدني و لم يعين قائلاً:

يا طالباً للفراق مهلاً فحَيْلُهُ سَبَقُ عِتَاقُ

اصبر فطبعُ الزمان غدرٌ و آخرُ الصَّحْبَةِ الْفِرَاقُ⁽¹⁾.

علي بن إبراهيم بن داود بن العطار:

الفقيه الشافعي الدمشقي، المولود سنة 654هـ / 1256م، صاحب دار الحديث النورية التي بنيت

للحافظ أبي القاسم بن عساكر، و يعرف بالنووي الصغير لملازمته الإمام محي الدين النووي⁽²⁾.

أخذ عن جماعة، منهم: أبو العباس أحمد بن عبد الدايم، و أبي الفتوح نصر بن محمد بن عباس

الحنبلي، و أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي، و أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي

اليسر التنوخي، هؤلاء سمع منهم و أجازوه، و له سواهم جماعة، و من مسموعاته الكتب الستة، و جل

إعتماده في المنازلة و النظر عن الإمام محي الدين النووي، و أخذ عنه تواليفه، و يحكي عنه كثيرا . و ولي

مشيخة دار الحديث النورية⁽³⁾. درّس و أفتى و صنف أشياء مفيدة، قال عنه الإمام الذهبي، خرجت له

(¹) الوادي آشي: برناجه، ص 87، و محمد بن عزوز، المرجع السابق، ص 212. 213.

(²) الوادي آشي: برناجه، ص 91.

(³) دار الحديث النورية، بناها نور الدين، و هو الملك العادل أبو القاسم محمد بن سعيد زنكي بن آق سنقر، و وقف عليها و على

من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة، تولي مشيختها الحافظ الكبير ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن . النعيمي:

الدارس، المصدر السابق ج1، ص 74. 75.

معجما في مجلد، انتفعت به و أحسن إلي باستجازته لي كبار المشيخة، و له فضائل و تأله و أتباع. توفي ابن العطار سنة 724هـ/1324م⁽¹⁾.

قال الوادي آشي، قرأت عليه و تناولت منه، و أجازني متلفظا خاصا و عاما، و كان قبل هذا أجازني إجازة عامة مع جماعة من الطلبة⁽²⁾.

أبو بكر بن يوسف المزّي:

الشيخ الفقيه المقرئ، المحدث زين الدين أبو بكر بن يوسف بن أبي بكر بن محمود بن عثمان بن عبدة المزّي الشافعي الدمشقي، مولده تقريبا في سنة 646هـ / 1248م.

يورد الوادي آشي عنه، أنه أخذ عن جماعة يطول ذكرهم، منهم أبو إسحاق بن خليل، و أبو علي الواسطي، و أبو العباس أحمد بن أبي الخير بن الحدّاد، و أحمد بن شيبان بن تغلب الصالحي، و أبو العباس أحمد بن عبد الله بن المسلم الدمشقي، و أحمد بن عبد الدايم بن نعمة بن أحمد النابلسي المقدسي، و أبو علي الحسن بن محمد عبد الرحمن بن أبي الفهم بن عبد الرحمن البلداني، و أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي، و أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الإربلي وغيرهم.

إلى أن يقول الوادي آشي: سمعت عليه و أجازني إجازة عامة و خاصة بشروطها. توفي في سنة

726هـ / 1326م⁽¹⁾.

⁽¹⁾ الوادي آشي: برناجه، ص 91. 92، و ابن عماد: شذرات الذهب ج6، ص 63، محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 216

⁽²⁾ الوادي آشي: برناجه، ص 92.

أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري:

الشيخ المحدث الصوفي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن محمد الطبري، المدني مولدًا ، القدس منشا ، الشافعي مذهبا.

أخذ عن والده و أبي محمد الحسن بن علي بن الصيرفي اللخمي، و شرف الدين الدمياطي، و محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، و برهان الدين بن إبراهيم بن يحيى بن يوسف العسقلاني و أبي الحسن ابن البخاري و جماعة.

إلى أن يقول: قرأت عليه بيت المقدس - عمّره الله تعالى- و أجازني جميع ما يحمله و يرويه⁽²⁾.

محمود بن أبي بكر القرافي:

الشيخ المحدث الصالح اللغوي، صفي الدين محمود بن أبي بكر بن أبي بكر بن محمود الأرموني القرافي، من كبار الصوفية الذي سكن السمسماطية⁽³⁾، الخانقة الكبيرة بدمشق، و يقال ، أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه- مولده تقريبا في سنة 647هـ / 1249م.

⁽¹⁾ (الوادي آشي: برناجه، ص 93. 94.

⁽²⁾ (الوادي آشي: برناجه، ص 102.

⁽³⁾ (منسوبة إلى أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمى الحبشي السمسماطي ، من أكابر الرؤساء بدمشق، ينظر الهامش رقم 02 من الصفحة 217، محمد بن عزوز ، المحدثون المغاربة في دمشق.

طلب الحديث بنفسه، وقرأ وسمع كثيرا الكتب المطوّلة، من ذلك مسند أحمد، قرأه على المسلم ابن علان بسنده، وسمع على التّجيب عبد اللطيف الحرّاني و ناصر الدين المنيرّ و غيرهم، يؤثّر الإنقطاع وملازمة الأشغال، و لا سيما في لغة الحديث و الفحص عنه.

إلى أن يقول: سمعت عليه يسيرا و تناولت من يده، و أجازني إجازة عامة في كل ما تصحّ فيه الإجازة، توفي سنة 723هـ/1323م⁽¹⁾.

علماء استفادوا من الوادي آشي:

يوسف بن عبد الرحمن بن أبي الزهراء المزّي:

الشيخ المحدث الفقيه الحافظ الضابط المفيد جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن الزكي عبد الرحمن ابن يوسف بن عبد الملك بن أبي الزهراء المزّي، تقدم أهل زمانه في معرفة علم الحديث و ضبطه و معرفة رجاله، و له فيه التصانيف المفيدة " تهذيب الكمال في أسماء الرجال " و " الأطراف " ، و كل منهما في نحو خمسة عشر مجلدا، و يقول الوادي آشي: و نقلت منه خطه، أن مولده سنة 654هـ / 1256م⁽²⁾.

و أشياخه جماعة كبيرة، منهم أبو العباس أحمد بن سلامة بن إبراهيم بن سلامة، و أبو الفرج عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، و محي الدين عمر بن محمد بن أبي عصرون، و فخر الدين أبو الحسن بن البخاري، و أبو حامد محمد بن الصابوني، و أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز ابن الدّجاجية و القاسم بن أبي بكر بن القاسم بن غنية الإربلي و سواهم، و من النساء جماعة كفاطمة بنت

(1) الوادي آشي: برناجه، ص 93. 94.

(2) الوادي آشي: برناجه، ص 95. 96.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

الحافظ أبي القاسم علي بن أبي محمد بن أبي القاسم بن عساكر المؤرخ، و ست العرب بنت يحيى بن قايماز
أبي عبد الله الكندي، تروي عن سيدها الكندي، و شامية بنت الحسن بن محمد البكري، و زينب بنت
أحمد بن كامل بن عمر المقدسي، و سواهن.

إلى أن يقول: قرأت عليه، و سمعت و أجازني إجازة عامة بشروطها، و استجازني فأجزته، و أخذ عني
أحاديث في المرة الأولى و الثانية⁽¹⁾.

عتيق بن عبد الرحمن العمري:

الشيخ الفقيه المحدث الصوفي، تقي الدين أبو بكر عتيق بن عبد الرحمن بن أبي الفتح بن أبي الحسن
العمري المصري، مولده تقريبا في حدود سنة 560هـ / 1252م.

أخذ عن أبي عيسى عبد الله بن عبد الواحد بن علاق المصري عُرف بابن حجاج الرزاز، و أبي
العباس أحمد بن قاضي القضاة أبي الحسن علي بن يوسف الدمشقي بن البندار، و أبي البركات أحمد ابن
محمد بن أبي العزّ عبد العزيز، و أبي بكر محمد بن إسماعيل الأنماطي و قاضي القضاة أبي بكر محمد ابن
إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي، و غيرهم جماعة كبيرة.

يقول الوادي آشي: قرأت عليه و سمعت و أجازني إجازة عامة بشروطها، و أخذ عني هو أيضا ،
توفي سنة 722هـ / 1328م⁽²⁾.

(1) الوادي آشي: برناجه، ص 97.

(2) المصدر نفسه: ص 77. 78.

الشيخ الفقيه المحدّث الحافظ المفيد، قطب الدين أبو محمد عبد الكريم بن عبد النور بن منير ابن عبدالكريم، الحلبي، المعروف بابن أخت الشيخ نصر بن سلمان بن عمر المنبجي، مولده بجلب عام 664هـ / 1266م.

أخذ القراءات عن الشيوخ، فخر الدين أبي الطاهر إسماعيل المليجي بسنده، و الإمام صفى الدين خليل بن أبي بكر الصديق المراغي الحنبلي عن السخاوي بسنده، و الشيخ حسن بن هبة الله الواسطي، عن الكمال الضرير عن الشاطبي بسنده، و من شيوخه في الحديث جماعة كبيرة يزيدون على الألف بالسّماع بالديار المصرية و الشام و الحجاز و دمشق و غيرها، من أجلهم قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية شمس الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي و أبو الحسن علي بن المقدسي ابن البخاري، و أبو العباس أحمد بن طرفان و زينب بنت مكّي الحراني و أبو محمد عبد العزيز بن الصيقيل الحراني و جماعة سواهم.

و من جلة من أجازة، عبد الله بلجدي و شمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة، وأبو حامد محمد بن علي بن محمود بن الصابوني، و القاسم بن أبي بكر بن قاسم بن غنيمة الإربلي. و حدّث بصحيح مسلم بدمشق عن المؤيد الطوّسي و أكثر هذا بالسّماع على القاضي شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

إلى أن يقول: قرأت عليه وقرأ هو علي و انتفع كلّ منا بصاحبه، و أجازني إجازة عامة بشروطها و له تأليفان، أحدهما شرح البخاري يكون في نحو خمسة عشر سفراً، و الآخر تاريخ ديار مصر ، قال: إنّه يخرج في نحو خمسة و ثلاثين سفراً، نحافيه منحى ابن عساكر، و توفي سنة 735هـ / 1334م⁽¹⁾.

القاسم بن محمد البرزالي:

الشيخ المحدّث الجليل الحافظ الضابط علم الدّين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الأصل الدّمشقي.

ذكر لي أن شيوخه، نحو الثلاثة آلاف، منهم بالسّماع و الإجازة .رحل في طلب الحديث و أسمعته والده.

قرأت عليه يسيراً و سمعت بلفظه و أجازني إجازة عامة، و انتفعت به مدّة إقامتي بدمشق، أخذ عني و سمع قصيدتي⁽²⁾.

شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي:

الشيخ المحدّث الحافظ الضابط المقرئ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الدمشقي، مولده في عام 673هـ / 1274م. سمع سنة 692هـ / 1292م، مشيخة دمشق، و سنة

⁽¹⁾ (الوادي آشي: برنامج، ص 83. 84.

⁽²⁾ (المصدر نفسه: ص 100.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

ثلاث مشيخة بعلبك، و سنة خمس مشيخة مصر، و سمع بحلب و طرابلس و المساجد الثلاثة، و له نحو ستمائة شيخ، و ألف تاريخاً في نحو عشرين مجلداً، و له تأليف في الضعفاء، و له تأليف في القرّاء.

إلى أن يقول الوادي آشي، أخذت عنه يسيرا و أجازني إجازة عامة، و أخذ هو عني كثيرا، و أجزته كذلك⁽¹⁾.

ثم قيدت من خطه في الرحلة الثانية بدمشق، أن شيوخه أزيد من ألف نفس، و من أعلاهم بالإجازة، الإمام شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمرو جمال الدين يحيى بن أبي منصور الحرّاني و المعمر أحمد بن سلامة الحدّاد، و بالسماح الأبرقوهي و القوّاس و الدمياطي و عبد الحافظ بن بدران و سقر الحلبي و سواهم⁽²⁾.

الحافظ ابن رشيد السبتي

هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن إدريس، من أهل سبتة يعرف بابن رشيد، المولود بسبتة سنة 657هـ / 1259م، و المتوفى في فاس سنة 721هـ / 1321م⁽³⁾.

تلقى تكوينه العلمي القاعدي ببلده سبتة، التي كانت إذ ذاك تشهد فترة إزدهار علمي برعاية العزفيين، العلماء الرؤساء، فأتيح لابن رشيد الأخذ ببلده عن علماء كثيرين سبتيين أو وافدين على سبتة، هكذا درس بمسقط رأسه على أكثر من عشرين شيخا، منهم أبو الحسن بن الخضار الكتامي

⁽¹⁾ يؤكّد الذهبي روايته عن الوادي آشي، ينظر الذهبي: معجمه، ص 13.

⁽²⁾ المصدر نفسه: ص 100. 101.

⁽³⁾ ابن فرحون: المصدر السابق، ص 400. 401.

(ت680هـ / 1281م)، و أبو الحسن بن أبي ربيع (ت 688هـ / 1289م) ⁽¹⁾، و أبو إسحاق التلمساني (ت 690هـ / 1291م)، و مالك بن المرحّل (ت 699هـ / 1299م)، و أبو القاسم القيتوري (ت 704هـ / 1304م). فتخرج عليهم في العلوم المختلفة، كعلم القراءات و التفسير، و النحو و الحديث و الأدب ⁽²⁾. و لقد لخص الصفدي فترة دراسة ابن رشيد و طلبه العلم و الحديث قبل الرحلة بقوله: "أخذ العربية عن أبي الربيع و نظرائه، و اشتغل في صغره بالأدبيات و برع فيها، و روى البخاري عن عبد العزيز الغافقي قراءة من لفظه، و ارتحل إلى فاس و اشتغل بالمذهب و رجع سبته و تصدر لإقراء الفقه خاصة، و تأدب مع أشياخه أن يقرئ غيره، ثم إرتحل إلى تونس و إشتغل بالأصلين على ابن زيتون ⁽³⁾. و يبدو أن دراسته في فاس على يد المشايخ أفادته في علم الحديث الذي سيكون الإختصاص الذي برز فيه ⁽⁴⁾.

إلا أن ابن رشيد لم يكتف بما تلقاه على الشيوخ بالمغرب في كل من سبته و فاس، فلم يشبع نهمه العلمي إلا ما ملأ به عييته بما جمعه من معلومات و فوائد في رحلته الواسعة التي أخذ فيها عن جملة من

⁽¹⁾ (السيوطي: البغية ج1، ص 200.

⁽²⁾ (الحسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 143.

⁽³⁾ (الصفدي: الوافي بالوفيات ج3، ص 142.

⁽⁴⁾ (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج4، دار الجيل، بيروت، 1414هـ / 1993م، ص 111.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

المشايع و استفاد منهم، أبرزهم ابن دقيق العيد و ابن النحاس⁽¹⁾. و سمع بمكة و المدينة على رواة كثر، كأم الخير فاطمة البطائحي و أبي محمد عبد الرحيم بن الزجاج البغدادي و غيرهما⁽²⁾.

و لقد رافقه في هذه الرحلة المهمة، الأديب ذو الوزارتين ابن الحكيم اللخمي الرندي، المتوفى سنة 708هـ / 1308م، فسعد كل منهما بهذه الرفقة، إذ كان قصدهما واحداً، و مسعاهما متعاضداً، فترافقا في السفر، لذلك أفاد كل منهما صاحبه، فكان بينهما الإنسجام و التألف، و لذا حرصا معا على الإبقاء على هذه الصلة الودية، فانتقل ابن رشيد إلى غرناطة بناء على دعوة ابن الحكم و استجابة لرغبته، و الواقع أن كلا منهما كان يرتاح إلى الآخر لكونهما كانا على مستوى عال من الأدب و الكمال الخلفي و العلمي⁽³⁾.

مركزه العلمي:

أما بالنسبة لمكانته العلمية، فلقد اعترف له الكل بالسبق في الميدان العلمي، إذ أشاد بهذه الناحية كل من تحدث عنه أو ترجم له من رجال عصره، و العصور التالية⁽⁴⁾. يصفه الإمام الذهبي بأنه " عالم المغرب الحافظ العلامة"⁽⁵⁾، و هي شهادة لها قيمتها الكبيرة عندما تصدر من محدث مقدر و شهير في البلاد الإسلامية كالإمام الذهبي . و أثنى عليه صاحبه أبو الفضل محمد بن علي بن إبراهيم التجاني المتوفى

(1) الحسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 144.

(2) ابن رشيد السبتي: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة، ج5، تحقيق محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ / 1988م، ص 21 و ما بعدها.

(3) الحسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 144.

(4) المرجع نفسه: ص 146.

(5) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج6، ص 56.

سنة 718هـ / 1318م، فقال: " صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل أبو عبد الله بن رشيد حفظه الله " و يصفه في موضع آخر بقوله : " الفقيه الجليل الفاضل الكامل، نخبة الأصحاب، و شرف أرباب الآداب، محب الدين أبو عبد الله بن الشيخ الفاضل أبي علي عمر بن محمد بن رشيد سلمه الله "(1) .

و أما الحافظ ابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852هـ / 1448م ، فأورد فيه شهادة هامة طلب الحديث فمهر فيه "(2) و يقول عنه السيوطي: " كان فريد دهره عدالة و جلالة، و حفظا و أدباً، و سمته وهديا، كثير السماع، عالي الإسناد، صحيح النقل، تام العناية بصناعة الحديث، قيما عليها، بصيرا بها، محققا فيها، ذاكرا للرجال، فقيها، أصيل النظر، ذاكرا للتفسير، ريان من الأدب، حافظا للأخبار والتواريخ، مشاركا في الأصولين، عارفا بالقراءات، عظيم الوقار و السكينة، بارع الخط، حسن الخلق، كثير التواضع، رقيق الوجه، مبذول الجاه "(3) .

كما أثنى عليه لسان الدين بن الخطيب في كتابه " الإحاطة في أخبار غرناطة" بقوله " الخطيب المحدث المتبحر في علوم الرواية و الإسناد، كان رحمه الله فريد دهره عدالة و جلالة، و حفظا و أدبا، و سمته وهديا، واسع الأسمعة، عالي الإسناد ، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث، قيما عليها بصيرا بها، محققا فيها، ذاكرا فيها الرجال، جماعة للكتب، محافظا على الطريقة، مضطلعا بغيرها، من اللغة و العربية و العروض، فقيها، أصيل النظر ، ذاكرا للتفسير ، ريان من الأدب ، حافظا للأخبار

(1) محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 167.

(2) ابن حجر: المصدر السابق، ص 111.

(3) السيوطي: البغية، ج1، ص 199.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

التواريخ ، مشاركا في الأصلين، عارفا بالقراءات، عظيم الوقار و السكينة، بارع الخط، حسن الخلق، كثير التواضع (1).

وكلما ذكر ابن رشيد أو ترجم له، إلا و أثرت قضيته المذهبية، لأنه بسبب هذه المذهبية تعرّض للمشاكل و المضايقات، و حسب رواية ابن حجر، فقد اشتهر عن أبي رشيد أنه كان " على مذهب أهل الحديث في الصفات ... و كان يسكت لدعاء الإستفتاح و يسير البسملة" (2).

و من مظاهر تلك المضايقات، أن فقهاء غرناطة كتبوا عليه إشهادا، بأنه ليس مالكي المذهب (3).
إلا أن القاضي الذي كتب المحضرات من حينه، فوقع التحلي عن المتابعة، وهذا من لطف الله و عنايته بابن رشيد ، و إلا فكثير من المفكرين و أصحاب المذهب و الأراء و الاتجاهات الفكرية المناقضة، قد تعرضوا للملاحقة و الإضطهاد و الطعن في العقيدة و المبدأ بسبب ميولهم و مذاهبهم (4).

مؤلفاته:

لم يقتصر دوره العلمي على التدريس و شغل المناصب المختلفة كالقضاء و الإمامة و الخطابة، ولكنه إلى جانب ذلك دوّن و صنّف في العلوم المختلفة، مما أظهر مشاركته العلمية ، و تعدد إختصاصاته،

(1) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، تحقيق بوزيان الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر [ب. ت]، ص759.

(2) ابن حجر: المصدر السابق، ص 111.

(3) المصدر نفسه: نفس الصفحة.

(4) الحسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 147.

فتمكن من إقحام ميادين المعرفة و إرتياد حقول علمية متعددة، و هكذا كانت تأليفه موزعة بين العلوم العربية و الإسلامية، كالنحو و البلاغة و العروض و الحديث:

و من هذه التصانيف:

1. الصراط السّوي في اتصال سماع جامع الترمذي⁽¹⁾.
2. السنن الأبين في السند المعنعن⁽²⁾.
3. إحكام التأسيس في أحكام التجنيس⁽³⁾.
4. إفادة النصيح في مشهور رواة الصحيح⁽⁴⁾.
5. المحاكمة بين البخاري و مسلم⁽⁵⁾.
6. تلخيص القوانين في النحو⁽⁶⁾.
7. حكم الإستعارة⁽⁷⁾.
8. وصل القوادم بالخوافي في ذكر أمثلة القوافي⁽⁸⁾.

⁽¹⁾ (الصفدي: الوافي بالوفيات، ج3، ص 142.

⁽²⁾ (ابن القاضي: الجذوة، ج1، ص 290.

⁽³⁾ (المصدر نفسه: نفس الصفحة.

⁽⁴⁾ (الصفدي: الوافي بالوفيات، ج3، ص 142.

⁽⁵⁾ (ابن القاضي: المصدر السابق، ص 290.

⁽⁶⁾ (السيوطي: البغية، ج1، ص 200.

⁽⁷⁾ (الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص 142.

⁽⁸⁾ (ابن القاضي: الجذوة، ج1، ص 290.

9. ترجمان التراجم على أبواب البخاري⁽¹⁾.
10. حكم رؤية هلال شوال و رمضان⁽²⁾.
11. إيضاح المذاهب فيمن يطلق عليه اسم الصاحب⁽³⁾.
12. تقييد على كتاب سيبويه⁽⁴⁾.
13. تلخيص القوانين في النحو⁽⁵⁾.
14. الإضاءات و الإنارات في البديع⁽⁶⁾.
15. حكم الاستعارة⁽⁷⁾.
16. شرح التجنيس لحازم⁽⁸⁾.
17. كتاب في الرحلة سماه " ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة و طيبة"⁽⁹⁾.

⁽¹⁾ ابن حجر: الدرر، ج4، ص 112، ابن القاضي، درة الحجال، ج2، ص 97.

⁽²⁾ الصفدي: الوابي بالوفيات، ج3، ص 142.

⁽³⁾ السيوطي: البغية، ج1، ص 200.

⁽⁴⁾ ابن القاضي: الجذوة، ج1، ص 290.

⁽⁵⁾ الصفدي: الوابي بالوفيات، ج3، ص 142.

⁽⁶⁾ ابن القاضي: درة الحجال، ج2، ص 97.

⁽⁷⁾ السيوطي: البغية، ج1، ص 200.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه: نفس الصفحة.

⁽⁹⁾ ابن فرحون: الديقاج، ص 401.

و من المؤكد أن كتابه الأخير " الرحلة " كان معروفا على نطاق واسع في الأوساط العلمية، فلقد كانت مبنوثة في العواصم و المراكز العلمية شرقا و غربا في تلمسان و مكة و دمشق و غيرهم. يؤكد هذا ما ذكره كل من السيوطي و المقرئ و أبي سالم العياشي في القرن الحادي عشر هجري⁽¹⁾.

وواضح من خلال المصادر التي ترجمت لابن رشيد، خاصة المصادر المشرقية، أن الرجل كان ذا قامة طويلة و شهرة واسعة في ميدان العلوم، خاصة علم الحديث، و استفيد منه في بلاد الشام التي تكوّن بها، و أفاد، و أكيد أنه كوّن طلبة كثر خاصة في دمشق، لكن الأجزاء الضائعة من رحلته و هما الجزآن الأول و الرابع، تغطي فترة تكوينه و إشعاعه العلمي في بلاد الشام، و بالتالي حجت عنا من هذه الرحلة تفاصيل و مراحل هامة.

و كتابه " الإستدعاء الأخير "، الذي حمّله معه من رحلته و كتب التراجم و الطبقات... كل هذا يظهر لنا بأنه إلتقى بعلماء في كل من بعلبك و حرم الخليل و دمشق و القدس و نابلس، مما يتضمنه الجزء الرابع المفقود. تكفي الإشارة إلى أن منهم الشاعر و الأديب و الفقيه و المحدث و المتصوف و العالم، ممن هم على شاكلة أبي الثناء بن فهد الحلبي⁽²⁾، الذي لقيه ابن رشيد بدمشق فوصفه بالفقيه الإمام العلامة و الرئيس الفاضل، و لا شك أنه استفاد منه علماً و أدباً، و نقل عنه أشعارا و آراء نقدية و بلاغية، و من هؤلاء العلماء قاضي نابلس جمال الدين أبو عبد الله، الذي لقيه ابن رشيد بنابلس و سمع

(1) الحسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 153.

(2) محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، المولود سنة 644هـ/1246م، سمع من الرضى بن البرهان و جمال الدين بن مالك، و تفقه بابن الجاور، كان الحلبي آية في حسن النظم و الإنشاء و الكتابة، كان محبا لأهل الخير مواظبا على التلاوة و الأدعية و النوافل وقورا ساكنا، و قصائده كثيرة تدخل في ثلاث مجلدات و نثره في ثلاثين مجلدة، كان عارفا بأيام الناس و تراجمهم و معرفة خطوط الكتاب. توفي بدمشق سنة 725هـ/1325م. ينظر ابن عساكر: الدرر ج4، ص 324. 326، و ابن عماد: شذرات الذهب، ج6، ص69.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

عليه بلفظه ، و الشيخ الصالح الصوفي أخو الإمام شهاب الدين الحنبلي، لقيه بنابلس أيضا، و خطيب المسجد الأقصى قطب الدين أبو الذكاء، لقيه بالقدس الشريف و نور الدين أبو الحسن البديع، لقيه ابن رشيد بجرم الخليل و سمع عليه قصيدة الشاطبية⁽¹⁾ .

محدثون آخرون:

- عبد الله بن محمد بن عبد الله:

فخر الدين، أبو محمد المغربي المراكشي، المتوفى سنة 712هـ / 1312 م، قال عنه تلميذه الإمام الذهبي: " كان له مسجد و حلقة إلقاء و مدارس بدمشق، و كان ذا علم و دين و تواضع ". سمع كثيرا من الرشيد بن مسلمة، و النجم البلخي ، و التاج محمد بن الوزان، و الناصح الحبشي، و الناظم بن البانياسي، و الشهاب القوصي و الكمال محمد بن محمد هبة الله تميم⁽²⁾ .

- محمد بن أحمد بن محمد:

ابن عمران بن موسى، الفقيه المقرئ المجود النحوي، الحضرمي السبتي، قدم دمشق سنة 719هـ/1319م، و استمع من المطعم و ابن الشيرازي و جماعة. قال الذهبي: علقت عنه أشياء من التواريخ، و قد دخل إلى اليمن، و أقرأ به القراءات، و سافر من مصر سنة 721هـ / 1321م على بلاد التكرور إلى بلاد المغرب⁽³⁾ .

(1) حسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 156 . 157.

(2) الذهبي : معجمه، المصدر السابق، ص 267 . 268، و ابن حجر: الدرر، ج2، ص 297.

(3) الذهبي: معجمه، ص 462.

أبو بكر بن محمد القاسم:

المرسى ثم التونسي، نزيل دمشق ولد بتونس سنة 656هـ / 1258م، قدم مصر مع أبيه سنة بضع و سبعين، و قرأ القراءات على الشيخ الإمام حسن بن عبد الله الراشدي و شرح عليه " الشاطبية" و النحو. ثم قدم دمشق سنة 681هـ / 1282م، فأدرك الشيخ زين الزاوي، فحضر عنده و هو يقرئ، و سمع الحديث من الفخر بن البخاري و غيره. كان من أذكياء وقته، مع الديانة و النزاهة و الوقار، و السكون والسّمتم الحسن و الإنقباض عن الناس.

تخرج به جماعة كبيرة منهم الحافظ الذهبي⁽¹⁾.

أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري*، المتوفى بعلبك سنة 561هـ / 1166م، كان فقيها محدثا أديبا كبيرا، انتقل إلى المشرق و سكن حلب في عهد نور الدين محمد بن زنكي، قال عنه ياقوت الحموي " إمام أهل الحديث و الفقه و الأدب بجلب خاصة و بالشام عامة"، و كسب شهرة واسعة بسعة علمه و ثقافته، و تسابق الكتاب و الوزراء و الأعيان لمجالسه العلمية، و هو الأمر الذي دعا الوزير العباسي أبا المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة، وزير المقتضي و المستنجد، و طلبه من الملك العادل نور الدين بن زنكي، فسيّره إليه، و قرأ كتاب ابن هبيرة الذي صنّفه، و سمّاه " الإيضاح في شرح معالم الصحاح"⁽²⁾، مساهما بدفع الحركة الفكرية إلى الأمام هناك.

(1) محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 304.

*نسبة إلى مدينة آشير الحمادية جنوب جبال التيطري، التي بناها زيري بن مناد الصنهاجي.

(2) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 203، و يحيى بوعزيز: جهود الجزائر الفكرية، مجلة الأصاله، مرجع سابق، ص 301، 302.

محمد بن أحمد بن مرزوق التغمري: من أهل سبتة ، يكنى أبا عبد الله ، دخل الأندلس

و تحول منها بإشبيلية و بالجزيرة الخضراء و مالقة و المرية، و غيرها و لأبيه أبي العباس رواية عن أبي عبيد الله ، ورحل إلى المشرق ، خاصة بلاد الشام و أكثر من لقاء الشيوخ و سماع الحديث و كتب بخطه كثيرا ، وكان صاحب إتقان و ضبط في علم الحديث، و كان له تلاميذ كثير، كالحافظ أبي القاسم بن عساكر، و هبة الله بن علي البوصيري و غيرها، توفي في حدود سنة 596هـ / 1199م⁽¹⁾.

عبد الله بن سحنون بن يحيى بن حمزة أبو محمد القيرواني، قال ابن عساكر : كان محدثا ، حدّث

بدمشق، سمع من الخطيب البغدادي، و حدّث بمكة ثم استوطن بغداد و مات بها سنة 471هـ / 1078م⁽²⁾.

عثمان بن أبي بكر بن حمود بن أحمد الصدفي: يكنى أبا عمرو، و يعرف بالسفاسقي،

و أصله منها، و يعرف بابن الضابط. قدم الأندلس، و أسمع الناس بها بعد أن تجول بالمشرق، و أخذ عن علمائها ومحدثيها، روى عن أبي نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ المشهور، و هو أجل من لقيه من شيوخه ، و قال، صحبته بأصبهان، و كتبت عنه نحو مائة ألف حديث بخطه، و قال لم ألق مثله في العلم و العمل، و عن أبي عبد الله محمد بن علي الحافظ القسوي، و عن أبي الفضل مبارك بن علي الهراس، و بدمشق من كريمة بنت أحمد السرخسية.

⁽¹⁾ (ابن الأتار: التكملة لكتاب الصلة، المصدر السابق، ج4، ص 139.

⁽²⁾ (أبو القاسم بن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج7، دار المسيرة ، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ / 1979م، ص 434.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

كان حافظاً للحديث و طرقه، و أسماء رجاله و رواته، منسوباً إلى معرفته و فهمه. و كان يملئ الحديث من حفظه، و يتكلم على أسانيده و معانيه، و كان عارفاً باللغة و الإعراب، ذاكراً للغريب و الآداب ممن عني بالرواية، و اشتهر بالفهم و الدراية، توفي سنة 440هـ / 1048م⁽¹⁾.

عيسى بن هارون بن يوسف: أبو موسى المغربي الأغماتي، المتوفى سنة 533هـ / 1138م، تولى تدريس الحلقة المالكية بالجامع الأموي بدمشق مرتين، و كان عالماً بمذهب مالك و العرائض.

وسمع الحديث من الشيخ الفقيه، نصر الله بن محمد، و لزم الحضور عنده مدة طويلة، و كان في لسانه قصور، و فيه صلابة و تضيق على نفسه في المعيشة، يسكن في سفلى المنارة الشرقية. مات و دفن يوم الإثنين الثالث من شهر رمضان سنة ثلاث و خمسين و خمس مئة⁽²⁾.

أبو الخطاب السبتي:

و هو الشيخ مجد الدين أبو الخطاب محمد بن عيسى بن يحيى بن أحمد السبتي، المتوفى سنة 745هـ / 1344م. سمع من أبي عبد الله محمد بن ترحم " جامع " الترميذي بقراءة والده في سنة 689هـ / 1290م.

كان شيخاً دويرة حمد بدمشق، قدّم دروساً جمّة عند باب البريد⁽³⁾.

⁽¹⁾ ابن بشكوال: الصلة، المصدر السابق، ج2، ص 44. 45

⁽²⁾ ابن رافع تقي الدين السلمي: الوفيات، ج1، تحقيق، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1402هـ / 1982م، ص 491، و محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 334

⁽³⁾ محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 309.

الفقه لغة، العلم بالشيء و الفقه له، و الفقه في الأصل الفهم، و هو يعني بالأحكام الشرعية والفرعية من أدلتها التفصيلية بالإستدلال و معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب، و الخطر و الندب و الكراهية و الإباحة. و هي متلقاة من الكتاب و السنة، و نصّب الشارع معرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة، قيل له الفقه، و لما عظمت الأمصار و تمكن الإستنباط و كمل الفقه و أصبح صناعة و علماً، انقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي و القياس، و طريقة أهل الحديث، و كان الحديث قليلاً في أهل العراق، فاستكثروا من القياس و مهروا فيه، فلذلك قيل أهل الرأي، و مقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه و في أصحابه؛ أبو حنيفة، و إمام أهل الحجاز مالك بن أنس و الشافعي من بعده، ثم أنكر القياس طائفة من العلماء و أبطلوا به، و هم الظاهرية، و جعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص و الإجماع⁽¹⁾.

لقد كان للعلماء المغاربة اجتهاداتهم في حقل الفقه، منذ استقرار الفتح الإسلامي في بلاد المغرب و حتى القرون اللاحقة، و برزت أسماء شاعت في بلاد المغرب و الأندلس، بل إن هناك من طارت شهرته في الآفاق، إماً من حيث انتشار مؤلفاته في بلاد المشرق، أو من حيث فرض كفاءته العلمية في تلك البلاد، و افتكاك اعتراف العلماء المشاركة بجدارتهم العلمية و تفوقهم المعرفي و من هؤلاء على سبيل المثال:

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 445. 446، و نزيه شحادة: صفحات من الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م، ص 167، و سليمان ولد خسال: جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين (633هـ-922هـ) أطروحة دكتوراه، مخطوطة، في العلوم الإسلامية، تخصص أصول الفقه، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، إشراف د. علي عزوز، السنة الجامعية 1428-1429هـ/2007-2008م، ص 49.

الشيخان الفقيهان أبو زيد عبد الرحمن و أبو موسى عيسى ابنا الإمام الفقيه الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام⁽¹⁾ ، ذكرهما ابن فرحون، قال: أبو زيد شيخ المالكية بتلمسان العلامة.... أكبر الأخوين المشهورين بأولاد الإمام التنسي البرشكي، و هما فاضلا المغرب في وقتهما، و كانا خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني، تخرج بهما كثير من الفضلاء، لهما التصانيف المفيدة و العلوم النفسية⁽²⁾.

ارتفعت همتها للعلم من صغرهما، حيث رحلا من بلدهما تلمسان إلى تونس ، فأخذا بها عن أبي جماعة و ابن العطار و البطروني، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان ،على السلطان المريني أبو يعقوب، وهو محاصر لها ، و معهما زاد كبير من العلم، فأقاما بالجزائر يبتان العلم، ثم هلك يوسف بن يعقوب المريني و هو محاصر لتلمسان سنة 705هـ / 1305م ، فملك حفيده ملك المغرب الأقصى و تصالح مع سلاطين تلمسان، فعاد الأخوان، و اتصلا بأبي حمو الزياني صاحب تلمسان، فأقاما عنده على هدى أهل العلم و سننهم ، ثم مع ابنه أبي تاشفين، إلى أن ملك أبو الحسن المريني تلمسان سنة 737هـ / 1336م، فقرّبهما من مجلسه العلمي مع نخبة من علماء بلاد المغرب.⁽³⁾ فأدناهما و أشار بتكريمهما و رفعهما عن أهل طبقتهما، و أجمل مجلسه بهما و حضرا معه واقعة طريف، و عادا لبلدهما تلمسان، فتوفي أبو زيد وتبوا أبو موسى الكرامة، ثم صحبه إلى إفريقية سنة 748هـ / 1347م مكرما موقرا على المحل قريب المجلس،

(1) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ص 130.

(2) ابن فرحون: الدياج، ص 250.

(3) أحمد بابا: نيل الإبتهاج، ج2، 246. 247.

فلما استولى على إفريقية سرحه إلى بلده، فأقام يسيرا و مات في الطاعون الجارف سنة 749هـ / 1348م⁽¹⁾.

رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين و سبعمائة / 1320م، فلقيا علاء الدين القونوي ، وكان لا يضاهى في مقدرته العلمية، و لقيا أيضا الجلال القزويني صاحب التلخيص، و ناظرا الشيخ تقي الدين بن تيمية فظهرا عليه ، و كان ذلك من أسباب محنته و كانا يذهبان إلى الإجتهد في أمور الدين و ترك التقليد .

و قد قدمت المصادر التاريخية فيضا من المعلومات حول علو كعبهما في العلم، في المغرب و المشرق الإسلاميين، فقد أورد ابن خلدون أنهما " كانت لهما شهرة في أقطار المغرب"⁽²⁾ ، أما عن المشرق، فقد قال عنهما صاحب كتاب نظم الدر و العقبان، بعدما سافرا إلى المشرق بأنهما " حصلا علوما شتى نقلية و عقلية، و رأسا بدمشق، و كان لهما بالشام و الحجاز و مصر صيت عظيم"⁽³⁾ و يبدو أن هذه الشهادة التي أثبتتها صاحب نظم الدر قد نقلها من كتاب " نظم اللائي في سلوك الآمالي " لأبي عبد الله المقري الجد⁽⁴⁾ ، حيث تحدث عن شيخيه ابني الإمام، و أسهب في الحديث عن شهرتهما في بلاد المشرق، و مما

(1) المصدر نفسه: ص 247.

(2) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 464.

(3) التسنني: المصدر السابق، ص 139.

(4) هو محمد بن أحمد بن بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري، المتوفى سنة 759هـ / 1358م، وصفه ابن فرحون بالعبارة و الحفظ و الإضطلاع ، و كان قائما على العربية و الفقه و التفسير أتم القيام، و يحفظ الحديث و يتبحر بحفظ الأخبار و التواريخ و الآداب و يشارك مشاركة فاضلة في الأصلين، و الجدل و المنطق. ولد بتلمسان في عهد أبي حمو الأول، و نشأ بها ، و درس على علمائها أمثال الأخوين ابني الإمام ، و أبي موسى عمران المجدالي، و استفاد من عبد المهيمن الحضرمي في الحديث العربية، و من السطبي في الفقه و الفرائض ، و من الأبلي في التعاليم و غيرهم ، ثم رحل إلى بجاية و تونس ، ثم عاد إلى تلمسان، وأقام =

جاء فيه عنهما قوله: " و بحسبك مما طار لهذين الرجلين من الصيت في المشرق، أنّي لما حللت بيت المقدس... " ، وذكر المقرئ بعض الأسئلة الفقهية الخاصة بالمليقات المكانية للحج، التي طرحت عليه، وجوابه عنها ثم قال: " فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما فرغت أتاني آت من أهل المغرب، فقال لي: تعلم أن مكانك في نفوس أهل هذا البلد مكين، و قدرك عندهم رفيع، و أنا أعلم انقباضك عن ابني الإمام، فإن سئلت فانتسب إليهما، فقد سمعت منهما و أخذت عنهما، و لا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما، فتضع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما، و وارث علمهما، و أن لا أحد فوقهما"⁽¹⁾.

عيسى بن مسعود الزواوي: هو عيسى أبو الروح بن مسعود بن المنصور بن يحيى بن يونس بن يويّو بن عبد الله بن أبي حاج المنكلاقي الحميري الزواوي المالكي – هكذا ضبطه ابن فرحون في كتاب الديباج⁽²⁾ . ولد سنة 664هـ / 1246م⁽³⁾ . كان فقيها عالما متفنا في العلوم، تفقه ببجاية على أبي يوسف يعقوب الزواوي، قدم الأسكندرية و تفقه بها، ثم رحل إلى قابس فأقام بها مدّة، و ولي القضاء بها، ثم رحل إلى ثغر الأسكندرية، فأقام بها مدة يسيرة، ثم رحل إلى القاهرة، فأقام بها يشغل الناس في العلوم

بها مدة، ثم توجه إلى المشرق، فلقى بمصر أبا حيان النحوي و شمس الدين الأصبهاني، ثم قام بفريضة الحج سنة 744هـ / 1343م، ولقى بمكة أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزري، ثم رحل إلى الشام فلقى بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية، و بيت المقدس أبا عبد الله ابن ميثب، و شمس الدين بن سالم. ينظر ابن فرحون: الديباج، ص 382. 383، و الزركلي: الأعلام، ج7، ص 37، و عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان، مجلة الأصالة، مرجع سابق، ص 141. 142

(¹) عبد الجليل قربان: التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1432هـ / 2011م، ص 349.

(²) ابن فرحون: الديباج، المصدر السابق، ص 283.

(³) ابن حجر: الدرر، ج3، ص 210.

بالجامع الأزهر، وسمع كتب الحديث الستة - قديماً، وحدث عن شرف الدين الدمياطي، وولي نيابة القضاء بدمشق نحو سنتين، ثم رجع إلى الديار المصرية، فولي نيابة القضاء بها عن قاضي القضاة، زين الدين بن مخلوف المالكي. ثم من بعده عن قاضي القضاة تقي الدين الأصنائي المالكي ثم ولي تدريس المالكية، بمصر بزاوية المالكية و ترك ولاية الحكم، فأقبل على الإشتغال و التصنيف، فشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلداً، و سَمَّاه " إكمال الإكمال"، جمع فيه أقوال المازري، و القاضي عياض، و النووي، و أتى فيه بفوائد جلييلة من كلام ابن عبد البر، و الباجي و غيرهما، و شرح مختصر أبي عمرو بن الحاجب في الفقه وصل فيه إلى " كتاب الصيد" في سبع مجلدات، و اختصر جامع بن يونس شرح المدونة، و صنف في الوثائق و المناسك و في علم المساحة، و ردّ على تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق⁽¹⁾.

و كانت له اليد الطولى في علم الفقه و الأصول و العربية و الفرائض، و كان يحكى، أنه حفظ مختصر ابن الحاجب في الفروع في مدة ثلاثة أشهر و نصف، و حفظ موطأ مالك بن أنس و عرضه. و يذكر ابن حجر، أن عيسى بن مسعود المنجلاتي دخل دمشق سنة 707هـ / 1307م و درّس الفقه بالجامع الأموي⁽²⁾، و يبدو من العبارة التي أوردها ابن فرحون حول فقيهما" انتهت إليه رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية و الشامية"⁽³⁾، أن الرجل شاعت فضائله ببلاد الشام كله، لاسيما بعد أن انتهت إليه رئاسة الجامع الأموي في تدريس الفقه المالكي، مع العلم أنّ هذا الصرح العلمي لا يتصدر لتقديم حلقات الدرس به إلا العلماء من ذوي الكفاءة العلمية الكبيرة و المقدرّة الفكرية البارزة.

(1) ابن حجر: المصدر السابق، ص 210، وابن مخلوف: شجرة النور، ج 1، ص 538.

(2) ابن حجر: المصدر السابق، ص 211.

(3) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 283.

قراءة في إنتاجه الفقهي من خلال كتابه " مناقب الإمام مالك ":

أولى علماء المغرب الإسلامي عناية خاصة بالفقه و ذلك. لارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة.

و من هذا المنظور، عكفوا في دراستهم على المصادر الأساسية في الفقه المالكي، و هي الموطأ للإمام مالك بن أنس، مدونة سحنون بن سعيد التنوخي، الواضحة لعبد الملك بن حبيب (ت238هـ/813م)، و العتبية لبشير بن عبد الرحمن العتيبي (ت 298هـ/910م)، و الأسدية لأسد بن الفرات، و مختصر أبي زيد القيرواني، و التهذيب للبرادعي⁽¹⁾.

و سار المنكلاقي على نهج أسلافه في المذهب، و وضع مصنفاً في مناقب الإمام مالك⁽²⁾، استهله بالثناء على الكفاءة العلمية و الإستقامة الأخلاقية لمؤنس المذهب بقوله: «كان مالك إماماً و عالماً مرضياً و حافظاً لودعياً و ناقداً منتقياً، فنظر إلى الحاليين و سلك الطريقتين، بين تصحيح الرواية و تحقيق الدراية، و غاص على درر المعاني و استخراجها، و نَقَحَ أمهات أصوله و استنتجها، و أسس قواعد العلم وأحكامها، و ألف فوائده و نظمها، و جمع من أشتاته ما تفرَّق، و وصل من أواصله ما تمزق، و أظهر من عيوبه ما خفي، و بيّن من طرقه ما عمي، و صحح من سقيمه ما أمكن و أطرى من غليله ما تعيّن، و مهّد من قواعده ما توعر، و قيّد من شوارده ما تعسّر، و أسس أصوله، و ربّب فصوله، و أوضح

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 446 و ما بعدها، و مفتاح خلفات : المرجع السابق، ص 283.

(2) عيسى بن مسعود الزواوي: مناقب الإمام مالك، مطبعة بولاق، القاهرة [ب.ت] .

السبيل للسالكين، و فتح الباب للمؤلفين ، و اقتدى الناس به و اتبعوه، و استحسنا طريقه فسلكوه، ففاتهم بالتقدم و بفضل العالم على المتعلم، فصارت العلماء به أتباعا و الفضل له إجماعاً⁽¹⁾.

ثم ينتقل في فصل من كتابه إلى ذكر فضائل المدينة المنورة، المركز الذي أشع منه المذهب، و لكنه يشير أنها مدينة الرسول (ص)، فيقول: «لا خفاء و لا مرية عند أحد من العلماء و لا ينسب إلى الفضلاء، أن طيبة مدينة الرسول (ص)، مهبط الوحي و دار الهجرة و معدن الرسالة، و فيها ظهر الحق و انتصر و قام الدين و اشتهر، و منها فتحت البلاد و تواصلت الأمداد، بما تربة رسول الله (ص)، و فيها ذاته الكريمة و قبره الشريف عند الله، و قبرا صاحبيه الكريمين على الله، أبي بكر و عمر رضي الله عنهما، و فيها منبره و مسجده المؤسس على التقوى، و فيها أتربة أكثر أصحابه و الأخبار من عشيرته و أشياعه و الشهداء من المهاجرين الأولين و أنصار الدين و الإيمان من قبلهم، و فيها ظهر الحق ناصعا و الدين خالصا... و فيها كانت السنّة متواترة، يرويهما جيل عن جيل، و تنقلها جماعة عن جماعة و خلف عن سلف، و لم يكن ذلك في غيرها من سائر البلدان، و لم يزل بها الدين قائما و السنّة معلومة و العلماء متوافرين، إلى أن أنبت الله فيهم في أقرب عصر و أقرب مضواء بالمدينة، قبل تمام المائة سنة من الهجرة النبوية من أنفسهم، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني⁽²⁾، نشأ بينهم غلاما عاقلا حافظا ثبتا ضابطا متقنا بّرا تقيا، فتعلم منهم و جمع علومهم و حفظ آراءهم و عرف مذاهبهم و أحكم قواعدهم، و أخذ العلم عن نحو من مائة شيخ انتقاهم وارتضاهم جملة، فما لبث فيهم إلا و قد

(1) المصدر نفسه: ص 59.60، و أحمد حماني: عباقره من رجالنا، مجاله الأصالة، مرجع سابق، ص 252. 253.

(2) درج علماء المذهب المالكي على إبراز دور المدينة و علاقة ذلك بنشأة و تطور فكر الإمام مالك، ينظر في هذا الباب القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك ج 1، ص 17 و ما بعدها، و ابن فرحون: الديباج، ص 44 و ما بعدها.

تبين فضله و اشتهر علمه و نبل قدره، و عظمت منزلته وعرفت مكانته و ظهرت سيادته، فأقروا بفضله وأذعنوا لعلمه، فساد جميع أقرانه، و فاق أهل زمانه، و سمي: عالم المدينة و إمام دار الهجرة، و اشتهر خبره في الأمصار، و انتشر في سائر الأقطار، و ضربت إليه أكباد الإبل و ارتحل الناس إليه من كل مصر، و أتوه من كل قطر، فجلس لتدريس العلوم و هو ابن سبعة عشر سنة، و أشياخه متوافرون، فمتّع الله المسلمين بطول حياته، فعاش قريبا من تسعين سنة، و مكث يفتي الناس و يعلمهم نحو من سبعين سنة، و شهد له التابعون بالفقه و الحديث، و احتاج إليه معلمون وسألوه عن أمر دينهم»⁽¹⁾.

كما أفرد الفقيه المنكلاقي فصلا في فضل مدينة الإمام مالك، المدنية المنورة حيث أورد عنها:

«إنها معدن الرسالة و دار الخلافة و بها حطت الرفعة حالها و ألفت فحراتها و مدت أوطانها، و أزهدت فيها و أينعت و دامت بها و استقرت، و فيها كان بعد النبي، الصديق شيخ الإيمان و معدن التحقيق، ثم الخليفة الموفق للصواب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي مهّد سياسة الأمة و أقام بدعوة منهج السنة، و ملك سيفه ملك القياصرة و شتّت بجيشه شمل الأكاسرة، فدخل الناس في الدين أفواجا بعدما تلاطم الكفر أمواجاً، ثم تلاه الخليفة عثمان فسار بسيرته في العدل و الإحسان، و كان يقضي بحضرة الصحابة و يعدل في الأجانب و يحسن إلى القرابة... و قال سفيان بن عيينة: من أراد الإسناد و الحديث المعروف التي تسكن إليه القلوب فعليه، بحديث أهل المدينة، و قال يونس بن عبد الأعلى قال الشافعي: إذا وجدت متقدمي أهل المدينة على كل شيء فلا يدخل عليك شك أنّه الحق، و كل ما جاءك من غير ذلك فلا تلتفت إليه فإنك تقع في اللجج و تقع في البحار، و قال عبد الرحمن بن مهدي: السنة المتقدمة

(¹) ابن فرحون: الديباج، ص 61. 62.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

من سنّة أهل المدينة خير من الحديث، يعني حديث أهل العراق، و قال ابن وهب سمعت مالكا يقول: كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن و الفقه، و يكتب إلى أهل المدينة يسألهم عمّا مضى و أن يعلموه بما عندهم»⁽¹⁾.

ثم يعود للثناء على أهلية مالك العلمية: «قال مالك رضي الله عنه: فلا رجل كتبت عنه إلا كان يأتيني فيستفتيني، و اشتهرت عنه رواية العلم في الأقطار و نقل عنه إلى سائر الأمصار، فروى عنه أهل الحجاز و أهل اليمن و أهل العراق و خراسان و الشام و مصر و إفريقية و الأندلس، روى عنه الأئمة المشهورون و العلماء المذكورين: محمد بن شهاب الزهري إمام السنة، و ربيعة بن عقبة، هؤلاء كلهم أشياخه، و سفيان بن سعيد الثوري إمام أهل العراق و سفيان بن عُيَيْنَةَ عالم أهل مكة، و أمير المؤمنين هارون الرشيد العباسي. و مسلم بن خالد الزنجي.⁽²⁾ شيخ الشافعي، و الأوزاعي إمام أهل الشام، والليث بن سعد إمام أهل مصر، و محمد بن عبد الرحمن من أبي ذئب القرشي أحد علماء المدينة، و محمد ابن إدريس الشافعي، و أبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام»⁽³⁾.

و أورد المنكلاقي في فصل علاقة الإمام مالك برجال السلطة، وفيه إشارة واضحة إلى علو مكانته لديهم، بسبب علو كعبه في العلوم و ثباته على مواقفه. «و أما رفعة قدره مع الخلفاء و عظم منزلته عند الأمراء و رجوعهم إلى رأيه دون غيره من الآراء و تقديمهم له على من غيره، و نفوذ كلمته في العامة

(1) ابن فرحون: الديباج، ص88.

(2) كان مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة بعد ابن جريج. مات سنة 179هـ/795م، و قيل سنة 180هـ/796م، ينظر: أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970، ص71.

(3) عيسى بن مسعود: المصدر السابق، ص62.

وانقيادهم له بالطاعة وكمال سيادته عند الكافة.. فكانت الخلفاء تقتدي بعلمه⁽¹⁾، و الأمرء تستضيء برأيه، و العامة منقادة إلى قوله...نمي إلى أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين: إن العلماء يطعنون عليه - يقصد الإمام مالك- و يتكلمون فيه، فبعث إلى مالك ليلا فأتاه خائفا منه... قال مالك: فجعل يدني حتى جلست قريبا منه، ثم استدانني حتى مسّت ركبتي ركبته، فقال: ما هذا الذي يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء وأنتم أحق الناس بالطاعة و أعرفهم بما يلزم من حق الأئمة. فقال: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول في كتابه " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"⁽²⁾ ، فجرى بينهما كلام و مذاكرة، إلى أن ذكر له مالك: أنه لما بعث إليه ليلا و طلبه خاف منه القتل على نفسه، فقال أبو جعفر: حاشا الله يا أبا عبد الله أن أثلم ركنا للمسلمين، فإن لم أكن بالذي بنيتة لهم فلست بهادمه لهم ، فبينما هما في أثناء الكلام، خرج عليهما بعض أولاد المنصور، فلما رأى مالكا رجع كالفرع، فقال المنصور: أتدري لم فرع؟ قال مالك: قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: لأنه لم ير أحداً جلس مني هذا المجلس غيرك⁽³⁾ .

ثم أفرد المنكلاقي فصلا في تقوى الإمام مالك بقوله: " و أما تقواه لربه و معرفته بعظيم قدر نبيه وصحبه و آله و تعظيمه لشريعته و اتّباعه لسنته، و نصيحته لأمته، و إنفاذ همته و كمال مروءته و كمال

(1) تروي الروايات أن الخليفة العباسي هارون الرشيد كتب إلى الإمام مالك أن يأتيه فيحدثه، فقال مالك: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله فجلس و استند إلى الجدار: فقال مالك: يا أمير المؤمنين إن من إجلال رسول الله (ص) إجلال العلم، فجلس بين يديه مستويا، فحدثه. ينظر، محمد إبراهيم الخضاوي: مصطلحات الفقهاء و الأصوليين، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1430هـ/2009م، ص 75 .

(2) سورة الحجرات، الآية 6.

(3) عيسى بن مسعود: المصدر السابق، ص 74.

هيئته و وفور هيئته، فقد كان في ذلك غاية من التحفظ و في نهاية التيقظ، مبرزاً في ذلك بالتقدم معروفاً به و بالعلم و التوسم، فمن ذلك ما روى عن عبد العزيز بن الماجشون أنه قال، و قد ذكر مالك:

و الله ما علمناه إلا بصلاح و عفاف. قال أبو عبد الله بن الفرات: وضع مالك في الموطأ عشرة آلاف حديث، فلا زال ينقيها حتى صارت إلى ما هي عليه الآن. و قال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي (ص) يتغير لونه و يصفر حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقليل له في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم على ما ترون: لقد كنت أرى محمد بن المنكدر، و كان سيد القراء، لا يكاد يسأل عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه، و لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير الدعابة و التبسّم، فإذا ذكر عنده النبي (ص) أصفر، و ما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على طهارة، و لقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً و إما صامتاً و إما يقرأ القرآن⁽¹⁾.

و قال مالك رضي الله عنه: الفضاضة مكروهة لقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنْتَ فَضًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾⁽²⁾، و قال: ﴿فَقُولَا قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾⁽³⁾، و قال رضي الله عنه قال سعيد بن عباد: صلّ صلاة امرئ مودّع يظن أن لن تعود، و أظهر اليأس عما في أيدي الناس فإنه الغنى، و إياك و طلب الحاجات فإنه الفقر الحاضر، و قد علمت أنه لا بدّ لك من قول إياك و ما يتعذر منه... و قال رضي الله عنه: حق على من طلب العلم أن يكون له وقار و سكينه و خشية، و العلم حسن لمن رزق خيره، و هو قسم من الله فلا تُمكن الناس من نفسك، و إن من سعادة المرء أن يوفق

(1) المصدر نفسه: ص 81. 82.

(2) سورة آل عمران: الآية 159.

(3) سورة طه: الآية 44.

للخير، و إن من شقاوة المرء أن لا يزال يخطئ و يزل، و إهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يعطيه. و كان مالك رضي الله عنه يلبس الثياب العدنية الجياد و الخراسانية و المصرية المرتفعة، و يتطيّب بطيب جيد و يقول ، ما أحبّ لأحد أنعم الله عليه إلا أن يرى أثر نعمته عليه و خصوصا أهل العلم ينبغي لهم أن يظهروا مروآتهم في ثيابهم إجلالا للعلم⁽¹⁾.

و يورد في فصل أخير ، حرص الامام مالك على مصلحة الجماعة الإسلامية بقوله: «و أما حسن نظر هذا الإمام لهذه الأمة و سداد رأيه فيها و توسعه في تفتح أبواب المصالح لهم و شدة نصيبه في سدّ أبواب المفاسد عنهم و معرفته بأحوالهم و قوة خبرته بتصرفاتهم في معاملاتهم، فهو في ذلك على أوضح المناهج و أحسن ما يكون لهم من المخارج، و أقرب ما تصلح به أحوالهم و أشد ما تنضبط به أفعالهم وأوفق ما تقوم به سياستهم و أشد ما تمكن به حراستهم، و قد كنت نويت أني أذكر شيئا من ذلك وأنبه عليه و أعرف ببعضه و أشير إليه، ثم رأيت أن ذكر ذلك يستدعي بسطا و تطويلا و شرحا و تعديلا وتقرير أصول و تهذيب فصول و ردّا على المخالفين و احتجاجا على المناظرين، و نخرج عن غرضنا الذي أردناه بهذه العجالة و المعنى الذي لأجله و ضعنا هذه الرسالة، فاقنصرتنا على ذلك خوف الإستطالة، وتركتناه خشية الملامة، لكن من أراد ذلك بأدلته و اعتباره ببسط أسئلته فليتأمل مذهبه مع مذاهب مخالفيه و ليحقق نظره في بيان الحكم و معانيه.»⁽²⁾.

(1) المنكلاقي: المصدر السابق، ص 88.

(2) المنكلاقي: المصدر نفسه، ص 98.

يظهر مما تقدم، أن الفقيه المنكلاقي، كان وفيًا لحظ علماء المذهب المالكي، خاصة أولئك الذين ألفوا كتب التراجم و المناقب، فهو كان من الصنف الثاني، و رأى أن يؤلف هو أيضا - على خطى أسلافه في المذهب- كتابا في مناقب إمام المدينة، و واضح المذهب الذي انتسبت إليه الكثير من العلماء و الطلبة و المشتغلين بالعلم في أرجاء العالم الإسلامي، خاصة في بلاد الغرب الإسلامي، و ليؤكد بذلك أصالة انتسابه للمذهب في الجناح الغربي للعالم الإسلامي، الذين اعتزوا بإمامهم، فحافظوا على منهجه وآثروه و مجّده، فكانت كتابات و دروس الإمام سحنون التنوخي و ابن أبي زيد القيرواني و القاضي عياض السبتي و ابني الإمام و أبي عمران الفاسي و غيرهم، تعبر عن أصالة علماء انتسبوا لعالم فذ، كان قدوة لهم في سلوكه و أخلاقه و كفاءته العلمية و الفكرية.

فقهاء آخرون:

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد أبو القاسم النفطي⁽¹⁾، يعرف بابن الصائغ، سمع بالمغرب، الفقيه الحافظ أبا علي الحسين بن محمد الصديقي، و أبا عبد الله بن شيرين الفقيه، القاضي و غيرهما، ورحل إلى العراق، و سمع أبا الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني، و أبا بكر محمد بن طرخان. و يبدو أن النفطي نال سمعة جيدة ببلاد الشام دفعت الحافظ أبا القاسم الدمشقي للاتصال به، و أحازه النفطي جميع مسموعاته، و ذلك في شهر ربيع الأول سنة 518هـ / 1124م⁽²⁾.

(1) نسبة إلى نفطة، مدينة بأفريقية من أعمال الزاب الكبير.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 296.

عيسى بن أبي عيسى بن نزار بن بحير أبو موسى القابسي، الفقيه المالكي الحافظ، سمع بالمغرب

أبا عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابي، و أبا علي الحسن بن حمّول التونسي، و بمكة أبادم الهروي،

و ببيغداد أبا الحسن روح الحرّة العتيقي، و أبا القاسم بن أبي عثمان التنوخي، و أبا الحسين محمد بن عيسى

الحرّاني، و أبا محمد الجوهري و غيرهم.

و حدّث بدمشق، فروى عنه العزيز الكناني، و أبو بكر الخطيب و نصر المقدسي⁽¹⁾، و كان ثقة،

مات بمصر سنة 447هـ / 1055م⁽²⁾.

أبو الحجّاج يوسف بن دوناس الفندلاوي، نسبة إلى فندلاوة من قبائل إقليم فاس، قدم الشام

حاجا فسكن بانياس مدّة، و كان خطيبا بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، و درّس بها على مذهب

مالك، وحدث بالموطأ و كتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، و صفه ياقوت، بالصلاح و التعصب

للسنة. استشهد في رد هجوم صليبي على دمشق⁽³⁾ سنة 543هـ / 1148م، حيث كان قد نزلوا على

دمشق، وكان خرج فلقية الأمير المتولي لقتالهم ذلك اليوم قبل أن يتلاقوا، و قد لحقه مشقّه من المشي،

(1) الشيخ العلامة القدوة المحدث، مفتي الأنام، شيخ الشافعية بالشام، نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي، قال علماء التاريخ، كان

إماما علامة، مفتيا محدّثا، حافظا زاهدا متبتلاً ورعاً، كثير القدر علم النظر، ولد قبل سنة 410هـ / 1019م، و ارتحل إلى دمشق قبل

الثلاثين، فسمع صحيح البخاري من أبي الحسن بن السّمسار، صاحب الفقيه المروزي، و أبي الحسن محمد بن عوف المزني، لحقه أبو

حامد الغزالي، و تفقه به، و كان يتشغل في جامع دمشق في الزاوية الغربية الملقبة بالغزالية، ألف كتاب " الإنتخاب الدمشقي " في بضعة

عشر مجلدا، و له " التهذيب " في المذهب في عشرة أسفار، و له كتاب " الكافي " في المذهب، توفي سنة 490هـ / 1097م، ينظر

اليافعي أبي محمد عبد الله : مرآة الجنان و عبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج3، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب

العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م، ص 116 . 117، و محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 70 . 71

(2) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 290.

(3) لقد تجسد مجهود العلماء المسلمين في مجابهة الخطر الصليبي في بلاد الشام في مايلي: - التعليم الديني الذي اضطلعوا به و دوره في

التعبئة للجهاد - دورهم في ابراز فكرة الجهاد. - دور العلماء في العمليات العسكرية، - دورهم السياسي. ينظر: لؤي البواعنة: المرجع

السابق، و فيه شرح ضافي لهذه الأدوار .

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

فقال له: أيها الشيخ الإمام إرجع فأنت معذور للشيخوخة، فقال لا أرجع، نحن بعنا و اشتري منا، يورد

قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (1)

، فلما انسلخ النهار حتى حصل له ما تمنى من الشهادة (2)

أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون، شرف الدين القيسي القفصي التيفاشي،

المولود سنة 580هـ / 1184م، سمع ببلدة من أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن جعفر القوسي، و اشتغل

بالأدب و الفقه، و علوم الأوائل، و برع في ذلك كله، و قدم الديار المصرية و هو صغير، فقرأ بها و تفنن

على العلامة موقف عبد اللطيف أبي يوسف البغداددي، و رحل إلى دمشق ، و اشتغل بها على العلامة

تاج الدين الكندي، ثم رجع إلى بلاده و ولي قضاءها (3) ، ثم رجع بعد ذلك إلى ديار مصر و الشام،

ويبدو أن شخصيته العلمية أثناء رحلته الثانية كانت قد تبلورت، مما يرجع أنه أفاد و أفيد.

و بالإضافة إلى الفقه و الأدب، كان التيفاشي عالما بالحجارة الكريمة، حيث ألف في ذلك الفن

عدّة مصنفات منها " أزهار الأفكار في جواهر الأحجاز " و " الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر

الرؤساء " و " خواص الأحجار و منافعها " و له " فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الأبواب "

موسوعة كبيرة، إختصرها ابن منظور - صاحب لسان العرب - و سمى الجزء الأول منها " نثار الأزهار في

الليل و النهار " و " زهرة الأبواب فيما لا يوجد في كتاب " و " متعة الأسماع في علم السماع "، مات

التيفاشي قبل ابن جابر و رثاه و رثاه هذا الأخير، و قال أنه كان عارفا بالنحو، كثير التوليف في العربية

(1) سورة التوبة : الآية 11.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 277. 278.

(3) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 134.

وغيرها، من كتبه شرح " بديعية" رفيقه ابن جابر، ورسالة في السيرة و المولد النبوي، توفي التيفاشي بالديار المصرية سنة 651هـ / 1253م⁽¹⁾.

محمد بن عمران بن موسى بن عبد العزيز بن محمد بن حزم الشريف الحسني، يكنى أبا محمد ابن أبي عبد الله، و يعرف بالشريف الكركي، و يلقب بشرف الدين الإمام. ولد بفاس سنة 627هـ/ 1230م، و توفي سنة 689هـ / 1290م، العلامة المتفنن، ذو العلوم، وصفه ابن فرحون شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية و الشامية⁽²⁾، نظرا للتأثير الذي أحدثته حلقات دروسه بتلك الديار، خاصة في القاهرة، حيث درّس بالمدرسة الطبريسية، و أعاد بالمدرسة المجاورة لجامع عمرو بن العاص، و ولي قضاء الكرك، أما السيوطي فاعتبره إماما علامة، صاحب فنون، يفتي في المذهبين و يعرف الأصلين و النحو واللغة⁽³⁾.

و يذكر أن الفقيه محمد بن عمران قدم من المغرب فقيها بمذهب مالك، و صحب الشيخ عز الدين بن عبد السلام، و تفقه عليه في المذهب الشافعي، و تفقه في مذهب مالك على الشيخ الإمام أبي محمد صالح، فقيه المغرب في وقته، و اشتغل عليه الشهاب القرافي⁽⁴⁾.

عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الصنهاجي، يكنى أبا محمد، و يعرف بابن الأشيري، المتوفى سنة 561هـ/ 1166م، سمع من أبي الحسن بن موهب و أبي بكر بن العربي و أبي الحسن شريح بن محمد و أبي جعفر بن غزلون و أبي عبد الله بن أصعب المعروف بابن مناصف، و أبي الفضل بن عياض

(1) الزركلي: الأعلام، ج1، ص 273.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 416.

(3) السيوطي: البغية ج1، ص 203.

(4) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 416.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

، و أبي الوليد بن الدباغ و محمد بن عبد العزيز الزغبي في آخرين. قدم دمشق و أقام بها و حدث بالموطأ و غيره، له شرح في قصيدة المصري، ثم توجه إلى حلب و أسمع بها الحديث سنة 558. 559هـ/ 1163-1164م، و حج و جاور، و توفي بعد ذلك، و دفن بظاهر باب حمص شمالي بعلبك⁽¹⁾.

علي بن أبي نصر فاتح بن عبد الله، من أهل بجاية، و أبوه رومي و أسلم، و كان ذا وجهة و نباهة، يكنى الحسن، و لد سنة 566هـ/ 1170م، دخل الأندلس قبل التسعين و خمسمائة، و انتهى من غربها إلى مالقة و إشبيلية، ثم رحل نحو الستمائة، فسمع بمكة أبا محمد يونس بن يحيى الهاشمي، و سمع بيت المقدس أبا الحسين بن جبير، و بدمشق، أبا القاسم عبد الصمد بن محمد الحرساني، و أبا محمد عبد الله الواحد بن إسماعيل بن طاهر الدمياطي، و بالأسكندرية، أبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عتيق بن أحمد بن باقي، و لقي أبا الحسن، علي بن إسماعيل الأبياري، ثم عاد إلى بجاية، فأقرأ و أسمع، قال ابن الأبار عنه: كان من أهل الإتيقان و العدالة و الضبط و الأمانة، متقدما في الثقة و العدالة صدرا في الزهد و الورع و الإنقباض، توفي ببجاية سنة 652هـ/ 1254م⁽²⁾.

عبد الله بن محمد بن عبد الله فخر الدين أبو محمد المراكشي، كان فقيها مباركا مشهورا، اشتغل كثيرا بالعلم، و أقرأ بالروايات على الزواوي، و روى الحديث عن الرشيد بن مسلمة، و سمع من

(1) ابن الأبار: التكملة، ج4، ص 269.

(2) ابن الأبار: الصلة، ج5، ص 128. 129.

جماعة منهم شمس الدين محمد بن سعد المقدسي⁽¹⁾، و عبد الله بن الخشوعي، و ابن طلحة، و إسماعيل العراقي، و العماد بن عبد الهادي، و البلداني، و النجم بن النور البلخي، و ابن عبد الدايم⁽²⁾.

و يبدو أن الفقيه المراكشي قد تمكن من فرض نفسه علمياً، في دمشق، حيث تمكن من تدريس الفقه بالمدرسة الرواحية⁽³⁾ و هي من أعرق و أهم المدارس بدمشق، و لا يضطلع بمهمة التدريس بها إلاّ العلماء من ذوي المؤهلات و الكفاءات العالية.

محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد، الشيخ الإمام تاج الدين المراكشي، ولد بعد السبعمائة، و تفقه على علاء الدين القونوي، و تمهّر بالشيخ ركن الدين بن القوبع⁽⁴⁾، و أخذ عنه. قال عنه الصفدي: "كان فقيها نبيلاً نحويًا فاضلاً أصولياً مناظراً جيد الذهن و الفهم سريعاً إلى إدراك المعاني"⁽⁵⁾. هذه المؤهلات العلمية أهلته لتبوء التدريس بالمدرسة المسرورية⁽⁶⁾ بدمشق، ثم سكنها و انقطع بالمدرسة

(1) هو محمد بن سعد بن عبد الله بن سعد، المعروف بشمس الدين المقدسي، المتوفى سنة 650هـ/1252م، أورد عنه الصفدي أنه نشأ بقاسيون على الخير و الصلاح، و قرأ القرآن و العربية و سمع الكثير، و كان ديناً، و برع في الأدب و حسن الخط، و كتب للصالح إسماعيل و للناصر داود و طال عمره و روى عنه القدماء، و روى عنه الديمياطي و غيره، و روى الكثير. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2، ص 186. 187.

(2) الصفدي: أعيان العصر مج2، ص 492.

(3) المدرسة الرواحية، تنسب إلى بانيها التاجر زكي الدين أبو القاسم، المعروف بابن رواحة، المتوفى سنة 622هـ/1225م، شرقي مسجد ابن عروة، لصيق الجامع الأموي بدمشق، و أول من درّس بها القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن عبد الرحمن الدمشقي، ينظر النعمي: الدارس ج1، ص 201. 202.

(4) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن المالكي التونسي، اشتهر بابن القوبع، شيخ المالكية بالديار المصرية و الشامية، المتوفى سنة 738هـ/1337م، ينظر ابن فرحون: الديباج، ص 414.

(5) الصفدي: أعيان العصر، مج 4، ص 150. 151.

(6) المدرسة المسرورية بدمشق، أنشأها الطواشي شمس الدين الخواصي مسرور، و كان من خدام الخلفاء المصريين، و هو صاحب خان مسرور بالقاهرة، و هناك من نسبها إلى الأمير فخر الدين مسرور المالكي الناصري العادلي، و أول من درّس بهذه المدرسة، شرط الواقف، الفقيه العالم ناصر الدين الحسن علي بن مرتفع بن أفتكني الجميزي المصري الدمشقي العدلي، النعمي: الدارس، ج1، ص 347. 348.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

الأشرفية ملازما للقراءة و الإشتغال، و ذكر أن سبب تركه للمسروية أنه رأى في شرط واقفها أن شرط مدرستها أن يكون عارفا بالخلاف، قال: و أنا لا أعرفه⁽¹⁾.

و كان الفقيه تاج الدين المراكشي قوي النفس، لا يخضع لأحد، فاستطال على القاضي جلال الدين القزويني، فشكاه إلى الناصر، فأمر بإخراجه إلى الشام، توفي سنة 752هـ / 1351م⁽²⁾.

أحمد بن محمد بن عبد الله المغراوي، المتوفى سنة 820هـ / 1417م، عالم من أكابر علماء الفقه المالكي، في وقته، أصله من قبيلة مغراوة، من أحواز تلمسان، حيث ولد و تعلم و نشأ بتلمسان، دخل تونس، و منها رحل إلى بلاد المشرق، و سكن القاهرة مدة، حيث أخذ عنه كثير من علمائها، ومنها انتقل إلى دمشق و جلس للتدريس بالمدرسة الزنجلية⁽³⁾، فانتفع بعلمه خلق كثير، قال عنه أحدهم: " لم يترك بمصر و الشام في المالكية مثله"، و يقول عنه آخر: "كان عالما بالفقه و أصوله، و النحو، و كان يعارض ابن خلدون في أحكامه و يفتي عليه و يناظره، و كان العز بن جماعة يعظمه كثيرا⁽⁴⁾".

(1) ابن حجر: الدرر، ج3، ص 300.

(2) الصفدي: المصدر المذكور سابقا، ص 151.

(3) المدرسة الزنجلية و يقال لها الزنجارية، خارج باب توما بدمشق، تنسب إلى واقفها نائب عدن، فخر الدين عثمان بن الزنجيلي، التي أنشئت في سنة 626هـ / 1129م، و هي من أحسن المدارس، أول من درّس بها حميد الدين السمرقندي إلى أن توفي. ينظر النعيمي: الدارس ج1، ص 404. 405.

(4) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج3، المصدر السابق، ص 148. 149 و السخاوي شمس الدين محمد ابن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج2، دار الجيل، بيروت، [ب.ت.]، ص 208، و عمار هلال: المرجع السابق، ص 280.

يعتبر التفسير من علوم القرآن، و التفسير تفعيل من الفسر و البيان و الكشف، و يقال: هو مقلوب من السفر، نقول:أسفر الصبح إذا أضاء، و قيل مأخوذ من التفسر، و هي اسم لما يعرف به الطبيب المرضى⁽¹⁾.

و يورد ابن خلدون، أن القرآن نزل بلغة العرب و على أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته و تراكيبه، و كان ينزل جملا جملا و آيات آيات، لبيان التوحيد و الفروض الدينية بحسب الوقائع، و منها ما هو في العقائد الإيمانية، و منها ما هو في أحكام الجوارح، و منها ما يتقدم و منها ما يتأخر و يكون ناسخا له، و كان النبي (ص) يبين الجمل و يميز الناسخ من المنسوخ لأصحابه، فعرفوه و عرفوا سبب نزول الآيات و مقتضى الحال منها منقولا عنه كما علم.⁽²⁾

و كان عبد الله بن العباس رضي الله عنه أجراً الناس في التفسير، فقد رويت عنه تفسيرات كثيرة لآيات كثيرة، حتى روي عنه تفسير كامل، صحيح إن بعضها موضوع، و لكن ما صح بعد ذلك كثير، وقد اعتمد في التفسير على مصادر ثلاثة: أحاديث النبي (ص) في التفسير، و الشعر الجاهلي و الإسلام، و ما كان يروييه اليهود الذين أسلموا و خصوصا كعب الأحبار و عبد الله بن سلام، و يكثر منه ذلك في قصص الأنبياء و ما يتصل بالتوراة⁽³⁾.

(1) أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة، ص 666.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 438. 439.

(3) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص 35.

و كان له تلاميذ كثيرون يأخذون عنه، من أشهرهم مولاه عكرمة و الناس من طبعهم حب السؤال عما يجهلون، يقول القرآن: ﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾⁽¹⁾. فيسألون ما هو البعض الذي ضرب به، و يقول الله تعالى: ﴿ و اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾⁽²⁾، فيسألون: أي قرية، و من أصحابها، و هكذا.⁽³⁾

فكان ابن عباس يجيب عن هذه الأسئلة، حتى تبلور علم تفسير القرآن مع نهاية القرن الثالث الهجري مع ابن جرير الطبري، المتوفى سنة 310هـ/922م، صاحب التفسير المشهور، و كان منهجه في التفسير أن يجمع في كل آية التفسير بالمأثور، و في الغالب يفضل أحد الأقوال، و لا يروي من الإسرائيليات و النصرانيات إلا بقدر. و ينص في كثير من الأحيان على أن هذه أشياء لا قيمة لها، والجهل بها ليس ضاراً، كالسؤال عن المائدة التي نزلت من السماء على النبي عيسى عليه السلام، هل كان عليها طعام أم لا، و إذا كان عليها طعام فما هو، و هكذا، فيقول العلم بذلك غير نافع⁽⁴⁾.

و في بلاد المغرب، كانت إفريقية سبّاقة إلى إنجاب أحد المفسرين الأوائل، و هو عكرمة بن عبد الله المنعوت بالبربري، المتوفى سنة 105هـ/723م، على أن التفسير المنسوب إليه يرويه عن عبد الله ابن عباس، كما كان يحصل في مؤلفات كثيرة يرون فيها طلبه سابقون محاضرات أساتذتهم⁽⁵⁾.

(1) سورة البقرة : الآية 73.

(2) سورة يس: الآية 13.

(3) أحمد أمين: المرجع السابق، ص 36.

(4) أحمد أمين: المرجع نفسه، ص 36.

(5) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج2، ص 19.

و قد ساهم المغاربة بدورهم في حقل التفسير ، بل إن بعض العلماء قد أبدعوا فيه و لم يكونوا مقلدين، و افتكوا شهادة جدارتهم من كبار علماء المشرق عامة و بلاد الشام بشكل خاص، و من هؤلاء:

أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرّالي:

وصفه الغبريني بالعالم المطلق الزاهد الورع، بقية السلف و قدوة الخلف، نسيح وحده⁽¹⁾، أصله من حرّالة إحدى قرى إقليم مرسية، و مولده و نشأته بمراكش، و من شيوخه بالمغرب ، أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن نموي الفاسي، و كان هذا الحاكم ضليعا في أصول الفقه و الأصول. و بالمغرب أيضا درس الحرّالي النحو على ابن خروف الإشبيلي. و قام الحرّالي بعد ذلك برحلة علمية إلى المشرق، و كان من شيوخه بالحجاز الفقيه المتمرس بعلوم القرآن و العربية أبو عبد الله محمد القرطبي ، و قد أثر كل من هؤلاء الشيوخ و غيرهم في توجيهه الثقافي .و كذلك جمع بين مزيج من العلوم و أنماط الفكر، فكان عالم كلام و منطق، و كان نموذجا نادرا في أصالة تفسيره للقرآن بإجماع الذين ترجموا له، و كان واسع العلم بالفقه و العربية و الأدب و الفلسفة⁽²⁾ و مع هذا فقد نحا منحى الصوفية منذ رحيله عن المغرب منطلقا من حالة الزهد و التقشف لينتهي بالمكاشفة و اجتذاب المريدين بالمشرق. و أصالته الفكرية أدت إلى انتقادات بعض معاصريه كعز الدين بن عبد السلام، و بعض اللاحقين، كابن تيمية، مما يؤكد بدون

⁽¹⁾ الغبريني: المصدر السابق، ص 145.

⁽²⁾ التبكي: نيل الإبتهاج، ص 318 و إبراهيم حركات: ج2، ص 47.

حاجة إلى حجة، أنه لم يكن مقلداً، و أن توظيفه للعلوم العقلية لخدمة المعارف الإسلامية لاسيما التفسير، مع عمق روحه الصوفية، لم يكن ليوفر له التبريك المطلق من خصومه⁽¹⁾.

و قد أنجز الحرالي الكثير من التصانيف التي أبان فيها عن أصالة فكرية و ابداع حقيقي منها: شرح الأسماء الحسنى، الوافي في علم الفرائض، تفسير القرآن الكريم سّماه " مفتاح الباب المقفل على فهم الكتاب المنزل"، سلك فيه - حسب الغبريني- سبيل التحرير و تكلم عليه لفظة لفظة و حرفا حرفا، أما علم الأصول فأصول الدين، و أصول الفقه، فهو أعلم الناس بها و قد صنف فيها، و أما معقولات الحكماء، فهو أعلم الناس بالمنطق. و له فيه تصنيف سّماه " المعقولات الأول". و أما علم الطبيعيات و الإلهيات فكان أعلم الناس بها⁽²⁾.

و بالنسبة لتفسير الحرالي، فقد ذكر الداودي أنه تابع فيه آيات القرآن لفظة لفظة، جعله قوانين كقوانين أصول الفقه، و أنه لم يرجع فيه إلى تفاسير القدماء، مثل ابن عباس و قتادة، و قد أنكر ذلك عز الدين بن عبد السلام، و انتقد عليه الذهبي كونه تكلم في علم الحروف و الأعداد، مما يجعل تفسيره موضع طعن في منظور خصومه⁽³⁾.

و يبدو أن الذين اطلعوا على تفسير الحرالي كانوا كثيرين، بينهم المعجب المحبذ كالغبريني و إبراهيم البقاعي (ت. 885هـ / 1480م)، و الذي نسج على منواله في تفسيره " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، بالرغم أن تفسير الحرالي أصبح مفقودا حينذاك، و لم يبق إلا قطعة منه تبدأ بالفاتحة، و تنتهي

⁽¹⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، نفس الصفحة.

⁽²⁾ الغبريني: المصدر السابق، ص 146. 147، و إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 47.

⁽³⁾ الداودي: طبقات المفسرين، المصدر السابق، ص 228. 229؟

بآية ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾⁽¹⁾ ، و بينهم الناقد كعز الدين بن عبد السلام. أما ابن تيمية ، فقد انتقد على الخصوص تصوّف الحراي و لاحظ امتزاجه بالفلسفة على غرار محي الدين بن عربي، وقد يعطي تفسير البقاعي فكرة تقريبية عن منهج الحراي، و لو أن اتجاههما الثقافي ، ليس واحدا⁽²⁾ ، أما "مفتاح الباب المقفل" ، فقد شبّه بأنه بالنسبة للتفسير كأصول الفقه بالنسبة للفقه، أي أنه عبارة عن قواعد و قوانين لفهم القرآن.⁽³⁾

و قد أثبت الحراي تبخّر معارفه في محاضراته أيضا، من خلال تدريسه لكتاب النجاة لابن سينا و تهذيب البرادعي و غيرهما من مصادر المعرفة الإسلامية، توفي الحراي بمدينة حماة سنة 637هـ/ 1239م⁽⁴⁾.

محمد بن محمد بن ظفر الصقلي:

المدعو حجّة الدين، ولد بصقيلية ، و نشأ بمكة ، و استوطن بحماة و توفي بها سنة 565هـ/ 1169م، اجتمع بالحافظ أبي طاهر السلفي و روى عنه، و عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي⁽⁵⁾.

(1) سورة آل عمران : الآية 37.

(2) رأينا في الفصل الثاني من الباب الثاني، أن البقاعي تهجم على مدرسة التصوف الفلسفي، من خلال انتقاده لتصوف ابن عربي

(3) الغبريني: المصدر السابق 148 ، و إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 48.

(4) القراني بدر الدين محمد بن يحيى: توشيح الديباج و حلية الابتهاج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، الطبعة الأولى 1425هـ/ 2004م، ص 146، و إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 48.

(5) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص 115، و الداودي: المصدر السابق، ص 465.

ألف مصنّفات عدة في شتى أصناف الفنون و العلوم، منها كتاب " ينبوع الحياة "، في تفسير القرآن الكريم، و كتاب " فوائد الوحي الموجز إلى فرائد الوحي المعجز"، و كتاب " المنشي في الفقه " على مذهب مالك بن أنس، و كتاب " أساليب الغاية في أحكام آية"، و كتاب " التشجين في أصول الدين"، و كتاب " أنباء نجباء الأبناء"، و كتاب " خير البشر بخير البشر" و " الحاشية على درّة الغوّاص" و " شرح المقامات الحريية"، شرحين: كبيرا و صغيرا، و كتاب " الإشتراك اللغوي و الإستنباط المعنوي"، و " الجنّة من فوق أهل السنة" في الإعتقاد، كتاب " المعادات" في الإعتقاد أيضا، كتاب "مُلح اللغة" فيما اتفق لفظه و اختلف معناه على حروف المعجم، كتاب " كشف الكسف في نقض الكتاب المسمّى بالكسف"، و كتاب " الأنباء عن الكتاب المسمّى بالإحياء"⁽¹⁾، و غيرها من المصنّفات ، التي أكسبت ابن ظفر احترام أهل العلم و المعرفة في بلاد الشام، خاصة بحماه التي استوطنها حتى وفاته.

علي بن عبد الله بن المبارك أبو بكر الوهراني⁽²⁾ ، المفسّر خطيب داريا، وصفه الداودي بأنه

إمام فاضل، صنّف تفسيراً في القرآن، و شرح أبيات الجمل في النحو، و له شعر جيد، توفي سنة 615هـ/ 1218م⁽³⁾.

المقرؤون:

تميز المغاربة عن غيرهم من المشاركة في مجال القراءات ، و هو علم من علوم القرآن الكريم، لما أظهره من تفوق كبير في هذا الفن، إذ يذكر أن ازدهار هذا العلم ببلاد المشرق يعود الفضل الكبير فيه

⁽¹⁾ (الصفدي: المصدر السابق، ص 115.

⁽²⁾ (هو غير أبي عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني، صاحب المنامات، المتوفى سنة 575هـ/ 1179م.

⁽³⁾ (الداودي: المصدر السابق، ص 283.

إلى جهود العلماء المغاربة، الذين صنفوا كتباً كانت الأساس لهذا العلم⁽¹⁾، ككتاب "الروضة" لأبي عمر الطلمنكي (ت 429هـ / 1030م)، و "التبصرة" لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت 437هـ / 1036م). و هكذا فقد تتالى ظهور المعنيين بالقراءات، و انكبوا على دراستها و اتقانها بشكل ظاهر و مميز، إلى حد القول أن المغاربة بشكل عام، و الأندلسيين بشكل خاص، كانوا أصحاب مدارس يعوّل عليها في هذا الميدان، و برهنوا على مقدرتهم الفائقة كمعلمين متفوقين على غيرهم⁽²⁾ و قد عرفت بلاد الشام عددا لا بأس به من المقرئين المغاربة منهم:

عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي، المالكي، المتوفى سنة 681هـ / 1282م، ولد بضواحي بجاية، التي تعلم و نشأ بها، ثم رحل إلى المشرق، و درس على أيدي أبي القاسم بن عيسى بالإسكندرية، و أبي الحسن السخاوي بدمشق. وقد برع في علوم القرآن و الفقه، و تصدر التدريس بتربة أم صالح⁽³⁾. ولما ترسخت مكانته العلمية بدمشق، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالشام⁽⁴⁾، مع وجود أعلام هذا الحقل من الدراسات الدينية مثل أبي شامة الدمشقي (ت 665هـ / 1264م). و بقي مدة اثنين و عشرون سنة

⁽¹⁾ وضع أبو عمران موسى العباس الزواوي: المتوفى سنة 749هـ / 1348م رسالة في القراءات، وضع فيها أربعة شروط كأساس صحيح لعلم القراءات و هي: أن تكون بنية عادلة، و بنقل متواتر، و أن يكون موافقة للمصحف تحقيقاً أو تقديراً، و أن يكون لها وجود في العربية. ينظر، أبو العباس الزواوي، رسالة في القراءات، مخطوط، خزانة المخطوطات، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، رقم 1132.

⁽²⁾ علي أحمد: المرجع السابق، ص 120. 121، و مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 491.

⁽³⁾ تربة أم صالح: بناها الصالح أبو الجيش إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر سنة 648هـ / 1250م، و هو واقف تربة أم صالح، درّس بها القاضي نجم الدين أبو العباس راجع بن بلال المقدسي الحنبلي ثم الشافعي، ينظر النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص 239.

⁽⁴⁾ شمس الدين الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات و الأعصار، مج3، تحقيق طيار آلي قولاج، استانبول 1416هـ / 1995م، ص 1350.

يتزدد ما بين المسجد الأموي و المدرسة الصالحية يقرئ الناس شتى فنون المعرفة العلمية⁽¹⁾، له مصنف في الوقف و الإبتداد، و آخر في عدد الآي.⁽²⁾ تخرج على يديه لفييف من طلبة العلم من مختلف الحواضر المشرقية، الذين وفدوا على بلاد الشام و جلسوا للأخذ عنه أمثال: برهان الدين الإسكندراني، شهاب الدين الكفري، تقي الدين أبو بكر الموصلبي، محمد المصري، و الشيخ زين الدين المنزلي، و الشيخ أحمد الحراني، و شهاب الدين أحمد بن النحاس الحنفي و خلق كثر سواهم⁽³⁾.

و لعل ما يستدعي الإنتباه في هذا الباب، أن جهود و إسهامات عبد السلام الزواوي لم تتوقف عند دوره التعليمي فحسب، و إنما شمل هذا النشاط بما صنّفه من كتب، برهن فيها عن مقدرته العلمية الفائقة في هذا المجال، منها كتابيه المذكورين سابقا" عدد الآي و التنييهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات"، الذي وضعه استجابة لرغبة بعض تلامذته⁽⁴⁾.

إبراهيم بن يوسف بن محمد، أبو الفرج المغربي، المعروف بابن البوني، الذي اشتهر أمره بالمسجد الأموي كمقرئ من المقرئين المعترين، بخاصة و أن الجامع الأموي الكبير بدمشق، كان أحد المراكز الهامة التي استقطبت مقرئين مغاربة و أندلسيين. و هذا الأمر لا يبدو غريبا إذا ما أخذت بعين الإعتبار مكانة هذا الجامع في تلك الفترة من الزمن، كأحد الجوامع المشهورة في بلاد الشام بعد المسجد الأقصى، و كان

(1) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 492.

(2) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص 1350.

(3) الذهبي: المصدر السابق، ص 1351.

(4) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 493.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

البوني يعقد به حلقة إقراء ضمن حلة ابن طاوس، شرقي البرادة و قبالة حلقة جمال الإسلام بن السهر زوزي، المتوفى سنة 533هـ / 1138م⁽¹⁾.

وصف أبو شامة الدمشقي، أستاذه البوني، بالخير الفاضل المتواضع الساعي في حوائج الناس، قرأ عليه الجزء الأول من القرآن الكريم، توفي البوني بدمشق سنة 612هـ / 1215م، و دفن بجبل قاسيون، وكان يوماً مشهوداً⁽²⁾.

محمد بن عتيق التميمي القيرواني، المولود سنة 420هـ / 1029م، كان متكلماً عالم قراءات، درس بالقيروان على أبي عبد الله بن الحسين، من طلبة أبي بكر الباقلاني، و سمع من ابن عبد البر، ثم رحل إلى مصر و قرأ بها على أبي العباس بن نفيس القراءات، سنة 442هـ / 1050م، و سمع من أبي عبد الله القضاعي، و قدم دمشق و اشتغل بالتدريس، و من تلامذته بها الشيخ نصر المصيبي، ثم دخل بغداد، حيث قرأ علم الكلام و القراءات بالمدرسة النظامية مدة، و من أبرز الذين درسوا عليه، أبي الكرم الشهرزوري، توفي القيرواني ببغداد، سنة 512هـ / 1118م⁽³⁾.

أبو بكر بن محمد بن قاسم، مجد الدين المرسي، ثم التونسي الشافعي، المولود بتونس في حدود سنة 656هـ / 1258م، وصفه الصفدي بشيخ الإقراء و العربية بالشام⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ علي أحمد: المرجع السابق، ص 124.

⁽²⁾ أبو شامة شهاب الدين الدمشقي: المذيل على الروضتين، ج1، ص 260. 261. و عادل نھويص، المرجع السابق، ص 122

⁽³⁾ ابن الجزري: المصدر السابق، ج2، ص 195. 196.

⁽⁴⁾ الصفدي: أعيان العصر، مج 2، ص 23.

قدم القاهرة مع أبيه، و أخذ النحو و القراءات عن الشيخ حسن الراشدي المتوفى سنة 685هـ/1286م، و حضر حلقة الشيخ بهاء الدين بن النحاس، و سمع من الفخر علي بن أحمد المعروف بابن البخاري المتوفى سنة 690هـ/1291م، و الشهاب بن مزهر الأنصاري المتوفى سنة 690هـ/1291م⁽¹⁾.

كان الشيخ مجد الدين التونسي آية في ذكائه، غاية في انكبابه على العلوم و الإعتناء بها، تفرد في وقته بمعرفة العربية غوامضها الأدبية، تخرج على يديه أئمة كبار، منهم: الشيخ العلامة الإمام الذهبي المحدث، تلا عنه بالقراءات السبع، أقام بالقاهرة مدة و دخل دمشق، و رتب صوفيا بالخانقاه الشهابية⁽²⁾، و جلس للإقراء، ثم سكن العقبيية، و ناب في الإمامة بجامعها، ثم اشتهر أمره، و شاعت فضائله، و حضر الدروس، و ولي مشيخة الإقراء بالترتبة الصالحة و التربة الأشرفية⁽³⁾، و ولي تدريس النحو بالناصرية، و درّس بالأصبهانية، و صار شيخ البلد في الإقراء و العربية، مع المشاركة في الفقه و الأصول⁽⁴⁾.

ابن الحطيئة اللخمي، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام الفاسي، المولود سنة 478هـ/1085م، بمدينة فاس. قال عنه ابن خلكان، كان رأسا في القراءات السبع، و نسخ بخطه كثيرا

(1) المصدر نفسه: نفس الصفحة.

(2) الخانقاه الشهابية بدمشق، نسبة لواقفها الأمير علاء الدين الشهابي سنة 677هـ/1278م، و ممن ولي مشيختها الشيخ شمس الدين السلسبيلي المصري. ينظر النعيمي: الدارس، ج2، ص 26. 27

(3) دار الحديث الأشرفية، تقع في سوق العسروتية، جوار باب القلعة الشرقي بدمشق، بدئ بنائها سنة 628هـ/1230م، و تم افتتاحها سنة 630هـ/1232م، كانت هذه المدرسة لصارم الدين قايماز بن عبد الله النجيمي، و له بها حمام فاشترى ذلك الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل، و بناها دار حديث و خرب الحمام و بناه سكنا للشيخ المدرس، و أتم بناءها في سنتين، و جعل شيخها الشيخ تقي الدين بن الصلاح، و وقف عليها الأوقاف، و كان بها نعل النبي (ص)، و اشترط في الشيخ أن تجتمع فيه الرواية و الدراية. ينظر النعيمي: الدارس، ج1، ص 36. 37، و محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص 259، 260.

(4) الصفدي: المصدر السابق، مج2، ص 24، ابن عماد: الشذرات، ج6، ص 47. 48. و ابن الجزري: ج1، ص 184

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

من كتب الأدب و غيرها، و كان جيّد الخط، حسن الضبط⁽¹⁾، و صفه ابن الجزري، بالإمام الصالح العارف الضابط⁽²⁾. لاقى استحساناً في مصر و بلاد الشام، قرأ على أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي بكر بن الفحام و أبي علي بن بليمة، قرأ عليه شجاع بن محمد بن سيدهم المرجلي و موسى بن عبد الباقي ابن الحسن و علي بن موسى بن النفرات⁽³⁾.

و يبدو أن ابن الحطيئة كان زاهداً في المناصب التي تجلب له رغد العيش، فقد حدث أن عرض عليه منصب القضاء في مصر على عهد العبيديين، اعتذر بطريقة ديبلوماسية، بحيث اشترط ألا يقضي بمذهب الشيعة فلم يمكّنه من المنصب. و كان لا يقبل لأحد شيئاً و لا يرتزق على الإقراء، و كان خطّاطاً يرتزق من حرفته، توفي سنة 560هـ / 1165م، و دفن في القرافة الصغرى و قبره يزار للتبرك، حسب رواية ابن خلكان⁽⁴⁾.

و من أهل القرن الثامن، الذين تصدوا للإقراء، في دمشق، العالم الملياني سعيد بن محمد من المغرب الأوسط، المتوفى سنة 771هـ / 1369م، نحوي لغوي، من أعلام المذهب المالكي، في وقته، من مليانة، حيث ولد و نشأ و تعلم، رحل إلى المشرق، و استقر بالقاهرة، سنة 720هـ / 1320م، و تتلمذ على أكابر علمائها، و ما لبث أن نبغ، حتى صار من شيوخها تفقها و علماً، و من القاهرة رحل إلى دمشق، حيث سبقته شهرته، و قد تصدر بها الإقراء إلى أن مات بها⁽⁵⁾.

(1) ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 170.

(2) ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 71.

(3) المصدر نفسه: ص 72.

(4) ابن خلكان: المصدر السابق، ص 170. 171.

(5) عمار هلال: المرجع السابق، ص 258. 259.

إن المعطيات السابقة تسمح لنا باستخلاص الرأي الذي مفاده، أن إسهامات علماء المغرب الإسلامي في القراءات كانت تتميز بالإيجابية، ظهر ذلك من خلال نشاطهم التعليمي و تصدرهم لحلقات الدرس بالمدارس و المساجد و الإمامة في الصلاة الذي كشفته المصادر التاريخية.

رجال الزهد و التصوف

احتضنت بلاد الشام عدداً لا بأس به، خلال فترة هذا البحث، من الزهاد و المتصوفة المغاربة، و قد انقسم هؤلاء إلى قسمين متباينين، إنطلاقاً من فهمهم و تطبيقهم لأساليب الزهد و التصوف، فتمثل رجال القسم الأول بأولئك الذين عرفوا بزهدهم و مرابطتهم في أمكنة متعددة، كالزوايا و الخانقاهات، وأحياناً بالمجاورة في المسجد الأقصى بالقدس الشريف، و انحصر نشاطهم في العبادة و الورع و الدعوة إلى تمثل السلف الصالح في الحياة، كالبساطة في العيش و قهر النفس، و إن كان بعض هؤلاء قد انفرد بميزة إضافية، تجلت بالدفاع عن ثغورهم التي رابطوا بها، ضد الأخطار التي أهدقت بها من جراء الزحف الصليبي باتجاهها، أما القسم الثاني، فإن التصوف عندهم، كان غير ذلك، بحيث يمكن تسميته تصوفاً فلسفياً خرج عن الحدود المعروفة لدى الفريق الأول إلى درجة توصل بعضهم إلى حد القول، بأن التصوف و الزهد ضرب من الذوق يستطيع صاحبه من خلاله، أن يتعرف على كنهه و حقيقة وجود الله عز و جل، و هذا الفريق من المتصوفة، لم يلق أفراده القبول الشامل في بلاد الشام، بالرغم من العبقرية التي اتصف بها بعض أفرادهم⁽¹⁾، و كانت علامة فارقة بالنسبة لهم، و ذلك بعكس الفريق الذي لاقى أفرادهم قبولا شعبياً و رسمياً⁽¹⁾.

(1) يمثل محي الدين بن عربي نموذجاً لهذا النوع من التصوف، و هو الذي وضحناه في الفصل الثاني من الباب الثاني

و في كل حال، فالتصوف بالمشرق كان في جزء كبير منه، رد فعل ضد عقلنة الثقافة الإسلامية على يد الفلاسفة الذين خاضوا في الدين أكثر مما اهتموا بالإنسان نفسه، لكن في الجزء الأكبر، كان التصوف في سعة إمتداده و تشكيلاته رفضا لواقع سيء: الترف و الفساد الإجتماعي و السياسي، و دخول العلاقات العامة في عالم الماديات بشكل سلبي. و لم يكن التصوف بطبيعة الحال هو البديل الأفضل، ولكنه اختيار اجتذب ملايين المسلمين عبر القرون، بكل ما صحبه من تحولات طيبة و أخرى ضارة⁽²⁾.

و من الزهاد المغاربة الذين كان لهم تأثيرهم، سواء من حيث المهتمين بحلقات الدرس التي كانوا يعقدونها، أو من حيث عدد الأتباع و المريدين في الربط و الخانقاهات:

عبد الوارث بن عبد الغني التونسي، المتوفى سنة 550هـ / 1155م، الأصولي الزاهد، كان عالما بالكلام بصيرا به حسن الإعتقاد فيه، له قدم في العبادة، له أصحاب و مريدون، و كان يتردد بين دمشق و حمص و حلب⁽³⁾.

و من المغاربة الذين كانت لهم ربط ببيت المقدس، **أبو الحسن علي بن أبي نصر** فتح بن عبد الله البجائي، الذي ولد ببجاية سنة 506هـ / 1112-1113م و نشأ بها، فلما أصبح على درجة كبيرة من الإدراك، إلتزم جانب الحياة الروحية الخالصة، فعاش زاهدا منقطعا عن مشاكل المادة، منصرفا إلى العبادة و التدريس. و ميزته الكبرى أنه يعتبر ثمرة طيبة امتزجت فيها الإتجاهات الفكرية في المغرب والأندلس بتلك التيارات التي كانت سائدة في بعض حواضر المشرق العربي، فكان لأبي الحسن البجائي في

⁽¹⁾ علي أحمد: المرجع السابق، ص 125. 126.

⁽²⁾ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج3، ص 56.

⁽³⁾ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 62.

مصر وحدها شيخان روى عنهما و استفاد من خبرتهما هما: أبو محمد عبد الواحد إسماعيل بن طاهر الدمياطي، ثم أبو القاسم الحسين بن عبد السلام، الذي اجتمع به ، و أخذ عنه في ثغر الأسكندرية . وفي بيت المقدس، اجتمع بابن جبير البلنسي و روى عنه، و مع هؤلاء و غيرهم من العلماء و النبهاء كانت لأبي الحسن البجائي مجالس علمية ارتبطت بذكرات حسنة حفظها و رواها عنه طلاب العلم و المعرفة في حاضرة بجاية⁽¹⁾ .

و في بيت المقدس، لعب الزاهد المشهور عمر بن عبد الله المغربي المصمودي، المعروف بالجردي، دورا كبيرا سنة 703هـ / 1303م، في بناء زاوية المغاربة في جزء من أرض الحرم المقدس، المجاور للمسجد الأقصى في حارة المغاربة المتصلة بحائط البراق، و هو الجدار الذي يحوط الحرم المقدسي من الناحية الغربية، التي أنشأها من ماله الخاص و أوقفها على الفقراء و المساكين.⁽²⁾

و في حلب، عرفت المدينة صوفيا معروفا، هو محمد بن حسان المغربي، الذي عاش أواخر القرن السادس الهجري، اشتهر أيضا بمعرفة القراءات و الحديث، إضافة إلى أنه كان من الموسرين الذين امتلكوا ثروة كبيرة بالمغرب، لكنه تركها و سلك طريق التصوف، و بعد أن أدى فريضة الحج، قدم إلى حلب و نزل بدار الضيافة بالقرب من قلعتها، حيث بقي فترة من الزمن ليغادرها متوجها إلى جبل لبنان، حيث توفي، و من المآثر التي نسبت إليه في أثناء إقامته بحلب، و التي تتعلق بموقفه الراض من استمرار وجود الجرس المعلق في الكنيسة العظمى بحلب، فكانت هذه الحادثة سبب إزالة الجرس، و هذا يدل على

(¹) موسى لقبال: ميزات بجاية و أهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى، مجلة الأصاله، المرجع السابق، ص9.

(²) عبد الرحمن الجليلي: تلمسان و القدس الشريف، مجلة الأصاله، مذكورة سابقا، ص 105.

أن المالكية، كانوا من التشدد و التمسك بمذهبهم بشكل لا يقبل التطور أو التسامح في أدنى القضايا. و لعل الذي زادهم في ذلك ، أنهم أبناء بيئة لم يعرف سوى عدو واحدٍ، هو الإفرنج، الذين حاربوه على كل المستويات و في شتى المجالات (1) .

يس بن عبد الله المغربي الحجام، المتوفى سنة 687هـ / 1288م، عاش في دمشق، و ذكر ابن الملقن، أنه من شيوخ الإمام النووي يحيى بن شرف في الطريق. كان زاهدا ورعاً، تردد على البقاع المقدسة حاجا عشرين مرة (2) .

و اشتهر أمر زاهد آخر في بلدة ديرسمعان، هو أبو زكريا المغربي، الذي زاره صلاح الدين الأيوبي سنة 584هـ / 1188م، عندما كان بطريقه من حلب إلى دمشق، حينما عرج على دير سمعان لزيارة قبر عمر بن عبد العزيز الأموي، و لا يعرف إذا كان السبب الذي جعل صلاح الدين الأيوبي يزور هذا الصوفي بعد أن سمع بوجوده هناك، يعود إلى مكانته الدينية و علو مرتبته على صعيد التصوف، أو إلى ناحية أخرى، تتجلى بالاحترام الذي أبداه تجاه المغاربة ككل، عربون وفاء منه لما قدموه من خدمات جليلة أثناء حروبه مع الإفرنج (3) .

يستفاد من المعطيات التاريخية التي أوردناها حول المتصوفة المغاربة في بلاد الشام، أن هؤلاء انسجموا ضمن السياق العام للتصوف الإسلامي في بلاد المشرق عامة و الشام خاصة، مفضلين حياة

(1) ابن شحنة، أبو الفضل محمد: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، سورية، دمشق 1404هـ / 1984م، ص 78، و علي أحمد: المرجع السابق، ص 131.

(2) ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص: طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريباه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1415هـ / 1994م، ص 478، و إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 59. 60.

(3) علي أحمد: المرجع السابق، ص 132.

الخلوة و الانقطاع و التعبد و مجاورة الحرم القدسي الشريف باعتباره مكانا مقدسا منصرفين على الانغماس في مفاتن و ملذات الحياة.

ثانيا :القضاة المغاربة في بلاد الشام :

لفظ القضاء يأتي في اللغة على أنحاء مرجعها إلى انقطاع الشيء و تمامه، يقال: " قضى الحاكم"، إذا فصل في الحكم، و " قضى دينه"، أي قطع ما لغريمه قبله بالأداء " و قضيت الشيء"، أحكمت عمله، و منه قوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾⁽¹⁾ ، أي أحكمه و أنفذه.⁽²⁾

و عدت خطة القضاء من الرتب الحساسة في الدولة الإسلامية ،لأنها عماد الحكم. لذلك كان الخلفاء و الحكام يتولون بأنفسهم انتقاء الأشخاص المؤهلين لهذا المنصب، و قد أورد الخشني في ذلك أن: " القاضي أعظم الولاة خطراً ، بعد الإمام الذي جعله الله زمانا للدين و قواما للدنيا، لما يتقلده القاضي من تنفيذ القضايا و تخليد الأحكام في الدماء و الفروج و الأموال و الأعراض، و ما يتصل بذلك من ضروب المنافع و وجود المضار".⁽³⁾

أما ابن خلدون، فيقدم تعريفا للقضاء يدعم المفهوم السابق، معتبرا إياه " من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي، و قطعاً للتنازع، إلا أنه

(1) سورة آل عمران: الآية 47.

(2) النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس، المصدر السابق، ص 15.

(3) الخشني أبو عبد الله محمد بن الحارث: قضاة قرطبة و علماء إفريقية، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي ، القاهرة، الطبعة الثانية، 1415هـ/ 1994، ص 11. 12

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب و السنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة و مندرجا في عمومها⁽¹⁾

و قد وضعت المدونة الإسلامية الإطار حول الأسس التي يرتكز عليها القضاء في الإسلام، فقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أما بعد فإن رأس القضاء اتباع ما في كتاب الله، ثم القضاء بسنة رسول الله، ثم حكم الأئمة الهداة، ثم استشارة ذوي الرأي و العلم، و ألا تؤثر أحدا، و أن تحكم بين الناس و أنت تعلم ما تحكم به، و لا تقس، فإن القياس في الحكم بغير العلم كالأعمى الذي يعيش في الطريق و لا يبصر.⁽²⁾

إن الأعمال الموكلة للقاضي في المجتمع الإسلامي، كانت تتركز على قاعدة جوهرية هي المحافظة على حقوق الرعية و إقامة العدل، و قد أشارت كتب الفقه و الأحكام إلى أن سلطة نظر القاضي تشمل عشرة أحكام:

- الفصل في المنازعات و قطع التشاجر و الخصومات.
- إستيفاء الحقوق ممن مطل بها، و إيصالها إلى مستحقيها.
- إلزام الولاية للسفهاء و المجانين و التحجر على المفلس.
- النظر في الأوقاف بحفظ أصولها و تنمية فروعها.
- تنفيذ الوصايا على شروط الموصي فيما أباحه الشرع و لم يخظره.
- تزويج الأيامي بالأكفاء إذا عدت الأولياء و دوعين إلى النكاح.

⁽¹⁾ ابن خلدون: المقدمة، ص 220

⁽²⁾ وكيع، محمد بن خلف بن حيان: أخبار القضاة، ج1، عالم الكتب، بيروت [ب. ت]، ص 77

- إقامة الحدود على مستحقيها.

- النظر في مصالح عمله من الكف عن التعدي في الطرقات و الأفنية.

- تصفح الشهود و الأمناء.

- التسوية في الحكم بين القوي و الضعيف⁽¹⁾.

أما عن شؤون القضاء في بلاد الشام، فقد كان تعيين قاضي القضاة مقتصرًا على المذهب الشافعي زمن الدولة الأيوبية في مصر و الشام، و استمر الوضع كذلك في السنوات الأولى من حكم المماليك (648-923هـ / 1250-1517م)، ثم حدث تطور مهم في النظام القضائي عندما أقدم السلطان الظاهر بيبرس (658-678هـ / 1260-1279م)⁽²⁾، عام 660هـ/1262م، فقد كان القاضي الشافعي أبا محمد عبد الوهاب بن بنت الأعز متشددًا في أحكامه، و يتوقف في القضايا التي لا تتفق مع أحكام مذهبه، فشق ذلك على السلطان و الأمراء، فاتفق رأيهم على تعيين قاض لكل مذهب من المذاهب الأربعة، ليقضي كل منهم بمذهبه، و مازال هذا السلطان يطوّر النظام القضائي، حتى ثبته وجعله مبدأ رسميًا في سنة 663هـ/1265م، فعين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة و سمح لهم أن يعيّنوا نوابا عنهم في الديار المصرية، فكان القاضي ابن بنت الأعز يمثل المذهب الشافعي، و القاضي صدر الدين

(¹) الماوردي علي بن محمد: الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، تحقيق مصطفى رباب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1431هـ/2010، ص 87. 88

(²) محمد بن معمر: المغاربة و منصب قاضي القضاة المالكية في دمشق المملوكية، مجلة التراث، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 147.

سليمان يمثل المذهب الحنفي، و القاضي شرف الدين عمر السبكي يمثل المذهب المالكي، و القاضي

شمس الدين القدسي يمثل قضاء الحنابلة، و فعل مثل ذلك في دمشق و المدن الشامية⁽¹⁾

و بعد استحداث منصب قاضي المالكية بدمشق سنة 664هـ / 1266م، فإن هذه العادة بدأت

تشيع في المدن الشامية الأخرى، و كانت مدينة حلب هي أول المدن الشامية بعد دمشق، التي استحدثت

فيها هذا المنصب، و كان ذلك سنة 747هـ / 1347م، فكان أول قاضي مالكي في مدينة حلب من

الذين امتثلوا الإستقامة و العفة، و تحلّوا بحسن الخلق و لين العريكة و نشدان الحق في جميع أحكامه، هو

أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدميري المالكي الملقّب بصدر الدين، ولي القضاء بحلب بعد عزل شهاب

الدين الرياضي فترة من الزمن، و قبل وصوله إلى حلب كان يعمل نائبا للقاضي المالكي بمصر، و ظل في

قضاء المالكية بحلب سبع سنوات متتالية من سنة 763هـ / 1362م حتى نهاية 769هـ / 1368.⁽²⁾

و جدير بالتذكير أن قضاة المالكية في بلاد الشام تميزوا عن غيرهم من القضاة في المذاهب

الأخرى، بالصلابة و الشدّة في الأحكام التي ورثوها عن الإمام مالك بن أنس و غيره من كبار علماء

المالكية، خاصة و أنهم وجدوا أنفسهم في بيئة ذات تنوع إثني (ملل و نحل) مختلف فيما بينها على صعيد

تطبيق السنة و الشرع، الأمر الذي لم يألفه أهل الشام من قضاة الشافعية الذين تميزوا بتسامحهم و تساهلهم

في الفتيا و إصدار الأحكام، و ربما لأجل ذلك يضطر بعضهم إلى تحويل قضايا الخروج عن الدين للقضاة

المالكية ليصدروا بحقهم الأحكام المناسبة و تطبيقها دون خوف أو خجل، مما يعطي الدليل على احترام

⁽¹⁾ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 152. 153.

⁽²⁾ علي أحمد: المرجع السابق، ص 196.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

هؤلاء لمنصب القضاء و استقلاليتته عن السلطة الحاكمة، يحدوهم في ذلك رصيدهم المعرفي بأصول المذهب.⁽¹⁾

و شاءت الظروف أن يكون أول قاضي مالكي تمثل بشخص زين الدين الزواوي، المتوفى سنة (681هـ / 1282م)، و ظل يمارس هذه الوظيفة على كره منه فترة تسع سنوات متتالية، ثم عزل نفسه بعد وفاة رفيقه القاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي⁽²⁾، عاد بعدها إلى مهنة التدريس حتى وافته المنية سنة (681هـ / 1282م)، و دفن في مقابر الباب الصغير ، و كانت جنازته حافلة، شارك في تشييعه نائب الشام بنفسه⁽³⁾. و يعتبر القاضي زين الدين نموذجاً للقاضي المؤهل علمياً و خلقياً، و نموذجاً صالحاً للقضاة الذين جعلوا المنصب مستقلاً عن إرادة الحاكم و مشيئته، و لقد رفض أخذ أي راتب لقاء عمله كقاضي القضاة المالكية بدمشق⁽⁴⁾.

و إذا كان زين الدين الزواوي قد رفض ولاية القضاء و زهد فيها، فإن ابن عمه جمال الدين يوسف ابن عبد الله أبي يعقوب، المتوفى سنة 684هـ / 1285م) على العكس تماماً ، فقد بذل جهداً كبيراً كي يحل محله لما كان يعمل نائباً له، و توجت جهوده بالظفر بمنصب قاضي القضاة⁽⁵⁾، و كان له نشاط حافل في هذا الميدان، إذ خصص كل يوم جمعة للنظر فيما يعرض عليه من قضايا في المسجد الأموي،

⁽¹⁾ المرجع نفسه : ص 194، مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 500.

⁽²⁾ الذهبي : معرفة القراء الكبار، مج3، ص 1350.

⁽³⁾ علي أحمد: المرجع السابق، ص 195

⁽⁴⁾ اليونيني البعلبكي الحنبلي: ذيل مرآة الجنان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، طبعة 1375هـ / 1955م، ص

⁽⁵⁾ المصدر نفسه: ص 175

متحريراً فيها العدل و الإنصاف حتى مع غير المسلمين⁽¹⁾، لما عرف عنه من ورع و تدين و التضلع في الدراسات الفقهية و بخاصة الفقه المالكي⁽²⁾.

و تتالت الشخصيات القضائية من آل الزواوي بمدينة دمشق، حيث خلف القاضي المذكور، قاضي آخر هو محمد بن سليمان الملقب بجمال الدين أيضاً، المولود سنة 629هـ / 1231م ببلاد المغرب، قدم مصر فاشتغل بها و أخذ عن مشايخها، و منهم الشيخ العز بن عبد السلام، ثم انتقل بعدها إلى دمشق، فأصبح قاضي قضاة المالكية بها سنة 687هـ / 1288م، و أقام شعار مذهب الإمام مالك هناك، و حدّث بصحيح الإمام مسلم و الموطأ للإمام مالك عن يحيى عن مالك، و كتاب "الشفاء" للقاضي عياض، و من أبرز أحكامه قيامه بإصدار أحكام القتل للكثيرين ممن تعرضوا للنبي (ص) و صحابته بالشتيم و التهكم⁽³⁾، استمر في منصب القضاء طيلة ثلاثين سنة كاملة، و كان - حسب الصفدي - حاكماً ذا صرامة، قاضياً يبلغ بها الضعيف مرامه، باتاً في الأحكام، عارفاً بمذهبه، عالماً بمقدمه و منقلبه، لو رآه مالك رضي الله عنه لسره، و أشهب لما ركب في إثره إلا الجرة⁽⁴⁾

(1) و من الشواهد الدالة على ذلك، أنه في سنة 680هـ / 1281م، استفتى أهل الكتاب الذين أسلموا مكرهين، فعقد لهم مجلساً و رسم القاضي جمال الدين أن يسمع كلامهم قبل أن يصدر حكمه، و بعد أن أنهى استجوابهم، كتب محضراً شهد عليه جماعة من المسلمين بأن المتهمين كانوا قد أسلموا على كره منهم، و اعتبر حكمه هذا نهائياً و عاد أكثرهم إلى دينه السابق، و فرض على من عاد إلى دينه الجزية. ينظر: البيهقي، المصدر السابق، ص 239

(2) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 502

(3) عمار مرضي علاوي: أثر المغاربة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي - القضاء نموذجاً - مجلة ديالي، العراق، العدد 56، 2012م، ص 11

(4) الصفدي: أعيان العصر، المصدر السابق، مج 4، ص 295، و أشهب بن عبد العزيز العامري، كان تلميذاً للإمام مالك، توفي سنة 204هـ / 819م. ينظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 238. 239

كذلك قام بعمارة المدرسة الصمصامية و جدّد عمارة النورية، و عرف القاضي جمال الدين بصرامة أحكامه، ففي سنة 704هـ / 1304م أصدر حكماً بقتل شمس الدين عبد الرحيم الباجريقي⁽¹⁾، و إن ثبت عليه تماونه في الصلوات، فذكر النبي (ص) باسمه دون تعظيم و لا صلاة عليه، على الرغم من أنّ القاضي الحنبلي قد حقن دمه بحجة أن اليهود كانوا من اعدائه، و مع ذلك لم تشفع له هذه، الشهادة فقبض عليه و قتل، و هو نفس الحكم الذي أصدره ضد أحمد الزويني، الذي شهد عليه بارتكاب العظام و استحلال المحرمات و تنقصه و استهانتته بالكتاب و السنّة⁽²⁾.

و استمر جمال الدين في القضاء فترة زمنية طويلة و صلت حوالي ثلاثين سنة، قضاه دون كلل و لا ملل، و في أواخر أيامه إعتراه مرض أقعده الفراش، و منعه من الكلام، فقام بعزل نفسه قبل وفاته بأيام قليلة من سنة (717هـ / 1317م) بدمشق، و دفن بمقابر الباب الصغير، و كانت جنازته حافلة شارك فيها العامة و الخاصة⁽³⁾، بعد حياة حافلة بالنشاط، تردد فيها بين مجالس القضاء و التدريس، تخرج على يديه جماعة من طلبة العلم أمثال الحافظ ابن كثير (ت 774هـ / 1372م) و المقرئ تقي الدين الشافعي، و الفقيه أبو بكر بن محمد بن أبي بكر الموصلبي⁽⁴⁾.

(1) هو محمد بن عبد الرحيم بن عمر تقي الدين، المعروف بالباجريقي، كان رأس فرقة ضالة تدعى الباجرية نسبةً إليه، أصله من باجريق إحدى قرى العراق بين نهر دجلة و الفرات، سكن والده الموصل، و انتقل إلى دمشق، و كان من علماء الشافعية، نشأ محمد في بيت علم و درس في بعض المدارس، ثم تصوف و أنشأ فرقة التي قيل أنها كانت تنكر الصانع جل جلاله. و صنف كتاباً سماه "اللمحة" أو "الملحمة" الباجر بقية، و نقلت على لسانه أقوال في انتقاص الأنبياء، و ترك الشرائع، فحكم عليه القاضي جمال الدين الزواوي بضرب عنقه سنة 704هـ / 1304م، ففر إلى مصر و أقام بالجامع الأزهر، و عاد من بغداد إلى دمشق متخفياً، فأقام في القابون من قرى دمشق، إلى أن مات و دفن في مغارة الدم في سفح قاسيون. ينظر: الزركلي: الأعلام، مج6، ص200

(2) مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص505.

(3) علي أحمد: المرجع السابق، ص196، و عادل نويهض، المعجم، ص164.

(4) الذهبي: معجمه، ص500، و مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص506.

و أما النموذج الآخر للقضاة المغاربة النزهاء، فتمثل بشخص إبراهيم بن عبد الله بن عمر الصنهاجي المالكي، المولود بمدينة دمشق سنة 717هـ / 1317م، و فيها نشأ و تلقى علومه على علماء معظمهم من الأندلسيين، كالحافظ الوادي آشي و بدر الدين الغماري المالكي، و كان من الحفاظ لموطأ مالك، و نال شهرة واسعة كفقيه مالكي بدمشق أولاً، و بإستقامته الخلقية ثانياً، مما دفع بالسلطات الحاكمة إلى تكليفه بمنصب قاضي قضاة دمشق رغم تمنعه عن قبول المنصب في مرات عديدة، و اضطلع بمهام المنصب مدة 3 سنوات، حتى وفاته بدمشق فجأة سنة 796هـ / 1393م بعد أن خرج من الحمام، و تذكر بعض المصادر أنه كان يخالط الشافعية أكثر من المالكية و يعاشر الأكابر بحسن محاضرتهم و حلوه عبارته⁽¹⁾ و جدير بالتذكير، أن العديد من هؤلاء القضاة من تنقل في أكثر من مدينة شامية، كقاضي للقضاة المالكية، و كقاضي له، كان منهم القاضي إبراهيم بن محمد بن علي التادلي المدعو أبو سالم، الذي تنقل بين دمشق و حلب، و يختلف عن القضاة السابقين الذكر، أنه تكرر عزله و إعادته بشكل ملفت للنظر، فقد وليّ قضاء حلب أول مرة سنة 771هـ / 1369م، كقاضي قضاة، علماً بأنه كان ينوب عن القاضي فيها قبل هذه السنة⁽²⁾ و ظل منذ هذا التاريخ ينتقل بينهما و بين قضاء قضاة دمشق أكثر من ثلاثة عشر عاماً متولياً للمنصب تارة و معزولاً عنه أخرى، و كان في أثناء ذلك نموذجاً للقاضي الذي تحلى بقوة النفس و التصميم في الأمور و الهيبة و الجرأة في العمل.⁽³⁾ و يظهر ذلك بشكل مؤكد من خلال قصيدة

(1) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، المصدر السابق، ج3، ص 218. 219، و ابن عماد: الشذرات، ج6، ص 344. 345.

و علي أحمد: المرجع السابق، ص 196. 197.

(2) علي أحمد: المرجع السابق، ص 197.

(3) محمد بن معمر: المرجع السابق، ص 152.

أرسلها إليه أحد أعيان حلب، المعروف بالبدر أبي محمد بن حبيب، عندما كان يستعد لمغادرة حلب إلى دمشق، قال مخاطبا القاضي المذكور: -من الخفيف-

سِرْ إِلَى جَنَّةِ الشَّامِ دَمَشْقَ حَاكَمَا عَادِلًا رَفِيعَ الْمَقَامِ

رَامَتْ الْقُرْبَ مِنْكَ فَادْخُلْ إِلَيْهَا يَا أَبَا سَالِمٍ بِأَذْكَى سَلَامٍ (1)

كما تنبغي الإشارة ، أن رغم أهمية بيت المقدس، فإن منصب قاضي المالكية، ظل دون استحداث إلى فترة متأخرة إلى حد ما، و من المحتمل أنه استحدث في السنين الأخيرة من القرن الثامن الهجري، وذلك بالاعتماد على بعض القضاة الذين شغلوا هذا المنصب فيها في الفترة الأولى، و من الذين برهنوا على أهليتهم و صلاحيتهم للقضاء ببيت المقدس، فإنهم كانوا قلائل جدا، إذا ما قيسوا بالذين لم يراعوا للقضاء حرمة، فقد قيض الله لمدينة بيت المقدس قاضيا مالكيا، لم تعرف مثيلا له، منذ أن استحدث فيها هذا المنصب، هو عيسى بن محمد المغربي الملقب بشرف الدين أبي الروح، الذي بقي على رأس منصبه بصورة مستمرة، حتى سنة 854هـ / 1450م، و مارس الحكم خلال هذه الفترة، بكل إخلاص وعفة و استقامة، لا يحايي أحدا، و لا يخاف في الله لومة لائم، يدعمه في ذلك قوة شخصيته و صلابته مواقف، و عدم التراجع عنها، إضافة إلى علمه و معرفته بشؤون المذهب المالكي و الشريعة الإسلامية، و من مواقفه الرائعة ما حدث له مع نائب القدس مبارك شاه، كان هذا الأخير قد قرر قتل أربعة من الفلاحين، و كلّفه بشنقهم بتهمة السرقة و اللصوصية، فسأله القاضي المذكور ، عما إذا كانت السرقة قد

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 198.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

ثبتت عليهم بطريقة شرعية؟ فأجابه النائب نحن لا نحتاج إلى إثبات شرعي، فأجابه لا يمكن تنفيذ ما أمرت، إلا بعد أن ثبتت الإدانة، لكن النائب شدّد من تصلبه و ألح على قتلهم، فأجابه القاضي بقوله: "و الله لو قتلتم بحضوري، لكنت أقتلك بيدي، و أعلقك إلى جانبهم، كما أنت بخلعة السلطان، فتراجع النائب عن إصراره"⁽¹⁾

و من نافل القول الإشارة، إلى أن هناك نوع ثانٍ من القضاة، كان على النقيض تماما من النوع الأول، فقد إفتقر أفراده في كثير من الأحيان إلى الأهلية الشرعية و السلوكية و الأخلاقية على حد سواء، فعمل بعضهم، أو بالأحرى معظمهم بتأثير مصالحهم الشخصية البحتة، فأساءوا لهذا المنصب الجليل، بالتهافت على الرشاوي و التلاعب في الأحكام، دون وازع من ضمير و لا رادع من شرع أو دين، والشيء الذي يظهر بوضوح، أن هذا الفريق من القضاة، كان أكثر من حيث العدد، من الفريق الأول، و هذا أمر طبيعي جدا، يتجلى أثره من خلال سيرة القضاة المذكورين آنفا، حيث أن الأقطاب منهم، لم يتسلموا القضاء إلا بالقسر و الإكراه، لأنهم يعرفون أكثر من غيرهم حساسية هذا المنصب و خطورته، وهو الذي ينبغي على صاحبه أن يكون من المتحرين للعدالة و الإنصاف في كل أحكامه و تصرفاته القضائية، و بالتالي يوجب الإبتعاد عن كل ما يسيء لهذا المنصب من تقبل الإغراءات و الرشاوي و غير ذلك من أوجه استغلاله للمصالح الشخصي المحض، خاصة في فترة نهايات دولة المماليك البحرية (648-784هـ / 1250-1382م) و دولة المماليك البرجية بأكملها (784-923هـ / 1382-1517م)، ألا و هو التدخل المباشر من قبل بعض السلاطين و الأمراء في القضاء، و إطلاق يد الأمراء

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 199.

و كبار رجال الدولة في أخذ الرشاوي لتعيين القضاة و غيرهم ، مما أثر سلبا على الوظيفة ، فحلت الرشوة مكان الأمانة و الكفاءة من أجل الحصول على منصب القضاء، و عرفت الرشوة بصورة ملحوظة زمن السلطان الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد قلاوون (743-746هـ / 1342-1345م) إذ عرف في عهده أول ديوان للبراطيل (= البذل)، و شاع في كل دولة المماليك، و صار من له حاجة يأتي صاحب الديوان المذكور و يبذل فيما يرومه من وظائف⁽¹⁾

من هؤلاء القضاة المغاربة المنحرفين الجهلاء محمد بن محمد الدمشقي المالكي، الملقب بعلم الدين القفصي. و هكذا فإنه يعتبر من النماذج غير الصالحة لمنصب القضاء، و يختلف عن رفاقه السابقين الذين هم من فئته، بأنه من مواليد مدينة دمشق، كان جده والد أبيه، يسكن بدمشق منذ سنة 719هـ / 1319م، و خلال فترة وجوده فيها عمل نائبا في القضاء ، أما والد قاضينا علم الدين القفصي، فقد كان جنديا في الجيش المماليكي، و كذلك الأمر بالنسبة له، فحذا حذو أبيه، فانخرط في صفوف الجيش لفترة طويلة نسبيا، انطلاقا من كونه، لم يركز على الدراسة و التحصيل إلا بعد أن أصبح في سن عالية، هذا ما نفهمه من إشارة ابن حجر في الدرر⁽²⁾. و بالرغم مما عرف عنه من الجهل و عدم الإلتزان العقلي، الذي عبّر عنه صاحب الشذرات بشكل واضح، حينما ترجم له بقوله " مع قصور فهم و قلة عقل و عناية بالعلم"⁽³⁾ ، فقد استطاع أن يتوصل إلى منصب قاضي القضاة في ثلاث مدن شامية ، و هي حلب و حماة و دمشق و أمضى فترة خمس و عشرين سنة من عمره ، يعمل في القضاء بالمدن المذكورة، بين معزول عن

⁽¹⁾ عمار مرضي علاوي: المرجع السابق، ص 15، و علي أحمد : المرجع السابق، ص 201. 202.

⁽²⁾ ابن حجر: الدرر، ج5، ص 122.

⁽³⁾ ابن عماد: الشذرات، ج7، ص 52.

الفصل الثاني

علماء المغرب في العلوم الدينية والقضاء

القضاء و شاغل له ، مثال ذلك أنه ولي القضاء إحدى عشرة مرة، و كذلك في حماه و حلب عدة مرات⁽¹⁾ . توفي و هو قاضٍ بدمشق سنة 805هـ/1402م⁽²⁾ .

و في حلب، تقلّد منصب القضاء. عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن السجلماسي، المعروف بابن الحفيد، ولد سنة 712هـ/1312م، قدم من بلاده فأدى فريضة الحج ، و تابع إلى مصر، فحل بالقاهرة مدة، تابع بعدها إلى بلاد الشام، فدخل مدينة حلب، حيث اشتغل بالتجارة، التي أجبرته على التنقل بين بغداد و القاهرة، و مكث فترة من الزمن ليعود مرة أخرى إلى حلب، حيث استطاع أن يصل إلى منصب قاضي القضاة المالكية لفترة لا بأس بها، كان آخرها سنة 787هـ/1385م⁽³⁾ ، حيث عزل وحلّ محلّه القاضي جمال الدين النحريري ، و هو نموذج للقاضي الجاهل غير العارف، حيث وصفه ابن حجر بأن " كلامه أكثر من علمه " و " كانت عنده حدّة خلق في البحث و صياح "⁽⁴⁾ و بعد عزله عن قضاء المالكية بحلب سنة 787هـ/1385م توجه إلى دمشق، و منها إلى غزة، ثم بيت المقدس، حيث توفي سنة 789هـ/1387م⁽⁵⁾ .

الأطباء

لقد توافد عدد معتبر من الأطباء المغاربة و الأندلسيين على بلاد الشام، مظهرين تفوقا لافتا، تجلّى ذلك بشكل واضح من خلال الخدمات الجليلة التي قدموها للمجتمع الشامي في أصعب الظروف

(1) علي أحمد: المرجع السابق، ص 204.

(2) ابن عماد: المصدر السابق، ص 53.

(3) علي أحمد: المرجع السابق، ص 202.

(4) ابن حجر: الدرر، ج2، ص 343.

(5) المصدر نفسه: نفس الصفحة، و علي أحمد: المرجع السابق، ص 203.

وأحوجها إلى الخدمة و الرعاية في زمن صلاح الدين الأيوبي، عندما كان يخوض المعركة من أجل تحرير بيت المقدس و غيرها من مناطق الساحل الشامي من الإحتلال الصليبي، بحيث قدر لبلاد الشام في الفترة من القرن الخامس حتى الثامن الهجري أن تستقطب نماذج رفيعة من بعض الأطباء المغاربة أبرزهم:

ابن محمد أبو عبد الله المعروف بابن القويح التونسي المالكي، فإنه إضافة إلى معرفته الأكيدة بعلوم اللغة العربية و علوم الدين، فقد عكف على دراسة الطب ، حيث هاجر إلى دمشق سنة 690هـ/ 1291م، فجعلها مقره الأخير، و كان أول عمل قام به فيها، أنه درس و سمع عن بعض علمائها في تلك الفترة من الزمن، حتى صقل معلوماته، لينتقل إلى التدريس،الذي مارسه في عدة مدارس كالمندكوتمية، و الناصرية، و البيمارستان بدمشق⁽¹⁾.

- يوسف بن يحيى بن إسحاق الإسرائيلي السبتي ، نزيل حلب، قرأ يوسف الطب ببلاد المغرب، ثم رحل إلى مصر، و إجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود، و قرأ عليه، و اشتهر بهذا المجال - الطب- الأمر الذي جعل الملك الغازي الأيوبي يعتمد عليه و يجعله من أطبائه المقربين، إضافة إلى إشتغاله في تدريس هذا العلم في مدينة حلب، و قد ألف كتابا سّماه " ترتيب الأغذية اللطيفة و الكثيفة" ، و ضمنه بعض شروح الحكم اليوناني أبقراط، و كان ملما ببعض العلوم الأخرى كالهندسة و علم الفلك، توفي بحلب سنة 623هـ/ 1226م⁽²⁾.

(¹) ابن فرحون: الديباج، ص 414، و أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص 299، و علي أحمد: المرجع السابق، ص 183.

(²) القفطي: أخبار العلماء، المصدر السابق، ص 256. 258، علي أحمد: المرجع السابق، ص 92.

و خلاصة القول ،أن علم الطب لم يلق الإهتمام الكافي من لدن العلماء المغاربة، الذين تركز نشاطهم أكثر في حقل الدراسات الدينية، فكان الطب أشد الصناعات ضياعا في بلاد المغرب كما أورد ذلك الغبريني⁽¹⁾.

نستنتج من خلال المعطيات التاريخية الواردة في هذا الفصل ،أن العلماء المغاربة برزوا في حقل الدراسات الدينية في مختلف حواضر بلاد الشام ،خاصة دمشق ،حلب ،بيت المقدس .و كان تأثيرهم واضحا ،خاصة في علمي الفقه و الحديث ،حيث تصدّروا للتدريس في أعرق المدارس بتلك الديار ،وكوّنوا طلبة كثر، بل إنهم كانوا أساتذة لكبار أعلام العلم ،كالإمام الذهبي الذي تلقى تكويننا في مساره العلمي على يد علماء مغاربة .أما العلوم العقلية ،فلم يكن للمغاربة أثر ذا بال .أما المناصب الإدارية ، فقد تركوا بصمتهم واضحة في حقل القضاء المالكي ،خاصة في مدينة دمشق .

(¹) الغبريني: المصدر السابق، ص 120.

خاتمة

على ضوء ما تقدم، يتضح أن الصلات الثقافية و العلمية بين المشرق و المغرب ،صلات قديمة وعريقة، يرجع تاريخها إلى دخول الإسلام إلى المغرب.

على أن انتشار الثقافة في كافة أنحاء بلاد المغرب قد استغرق زمنا طويلا نسييا، بالرغم من الجهود الكبرى التي بذلها الفاتحون الأوائل في سبيل تعلم المغاربة أمور دينهم، و مع استقرار المسلمين، اختلطت المغاربة مع الفاتحين، و اندمجوا بصورة حيوية في الحياة الثقافية الإسلامية الجديدة ، و استطاعوا بعد ذلك أن يكتفوا واقعهم الحياتي، بما يتماشى و تعاليم الدين الإسلامي.

كان لنشأة الحواضر العلمية في بلاد المغرب دورا هاما في ترسيخ الثقافة العربية الإسلامية في تلك الربوع، فمدن بجاية و تلمسان و تاهرت و تونس و فاس و مكناس، استقبلت الكثير من حملة العلم القادمين من بلاد المشرق، كونوا حلقات علم في المساجد و المدارس، و في تلك الحلقات، تلقى الطلبة المغاربة الأصول و الفروع و السير و التوحيد و الشريعة و آراء الفرق، إلى جانب علوم اللغة و الفلك والرياضيات، و أصبحت الحواضر بما تبثه من إشعاع علمي و فكري، بمثابة مراكز لتعريب البربر و نشر الحضارة العربية الإسلامية كذلك.

لكن الملفت، أن انتشار الأفكار المذهبية في المشرق- التي كانت غايتها الوصول إلى السلطة - أثر كثيرا على المغاربة، الذين استقبلت بلادهم الكثير من أولئك الدعاة، متحابين مع تلك الأفكار، و دليل

خاتمة

ذلك تأسيس الكثير من الإمارات التي تتبنى تلك العقائد و الإيديولوجيات كالإباضية و الصفرية، ثم الشيعية.

كما أنّ المغاربة، لم يكتفوا بتلقي ما يرد من المشرق، بل قام طلاب العلم بالرحلة إلى بلاد المشرق، فوصلوا إلى أهم الحواضر كمكة و المدينة و بغداد و دمشق و بيت المقدس، و اتصلوا بالعلماء، و قابلوا أهل الفكر و المعرفة، و ناظروهم و أخذوا عنهم.

و نتيجة لتلك الرحلات التي قام بها طلاب العلم المغاربة إلى المشرق، ظهر تأثير كبير لعلوم المشرق في بلاد المغرب، و ذلك بما دونه المغاربة أثناء الرحلة، و بما أحضروه معهم من نفائس الكتب العلمية من المشرق في شتى فنون المعرفة، حيث شملت الأدب و الشعر و العلوم الدينية، كعلوم القرآن و الحديث والفقه و غيرها.

لقد أثمرت تلك الرحلات في ظهور جيل من العلماء المغاربة في كافة العلوم و المعارف فاق بعضهم علماء المشرق بمؤلفاتهم و نبوغهم العلمي، و أعطوا دفعا لحركة العلم و الثقافة في بلادهم.

و على الرغم من الإيجابيات الكبيرة التي نتجت عن الرحلة في طلب العلم، فإنها لم تخل من جوانب سلبية، تمثلت في روح التعصب للأفكار و الاتجاهات المذهبية، التي أدت في بعض مراحل التاريخ الإسلامي إلى اقتتال المغاربة فيما بينهم.

و من ناحية أخرى، فإن المغرب لم يبق بمثابة التلميذ للأستاذ، بل أصبح للمغاربة دور في صنع ثقافتهم، بل تجاوز الأمر، أن المغرب أثر ثقافيا في المشرق في حركة علمية و حضارية، تكشف عن تكامل

خاتمة

طرفي العالم الإسلامي في تأدية رسالة الحضارة العربية الإسلامية، التي كان أساسها الإبداع العلمي والحضاري و التسامح الديني.

و هكذا، فقد بدت المؤثرات العلمية و الفكرية المغربية واضحة التأثير في بلاد المشرق، من خلال الإبداعات الفكرية للكثير من الأعلام المغاربة أبرزهم محمد بن آجروم الصنهاجي، الذي كان تأثيره في ميدان اللغة بارزا من خلال إبداعه في كتاب " الآجرومية"، أما في ميدان التصوف فقد كان للمغرب التأثير البارز من خلال شخصيات فذة أنجبتها تلك البلاد و تركت طابعها الخاص ضمن المشهد الصوفي الإسلامي، من خلال شخصيتين بارزتين، هما الصوفي محي الدين بن عربي صاحب نظرية وحدة الوجود، وأبي الحسن الشاذلي.

لقد اجتمعت أسباب عدّة، جعلت بلاد الشام تستقطب الأطر العلمية المغربية، يأتي في مقدمتها تشجيع رجال السلطة الأيوبيّة للمذهب السني، الذي تراجع طيلة مرحلة الحكم الفاطمي في مصر، و كان هذا الرجوع يقتضي فتح المجال أمام الأطر العلمية و الإدارية السنية سواء في القضاء، أو في الميدان العلمي الذي تجسد في بناء المدارس المختلفة خاصة في بلاد الشام، و تشجيع العلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي على التدريس بها، و قد كانت الكفاءات المغربية في واجهة المشهد العلمي في حواضر الشام الرئيسية، خاصة دمشق، التي اتخذها الأيوبيون و بعدهم المماليك كرسيا لملكهم.

كما كان للعوامل الدينية الدور الأبرز في رحلة المغاربة إلى بلاد الشام، خاصة المحاورة و الإقامة بيت المقدس، و الإنطلاق منها إلى الحج إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، كما أن نجاح صلاح الدين

خاتمة

الأيوبي في تحرير بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة 583هـ/ 1187م، شجع الكثير من المغاربة على زيارتها.

يضاف إلى ذلك أن الزنكيين و الأيوبيين، و من بعدهم المماليك، حرصوا على الوحدة المذهبية، في سبيل تحقيق غاية نبيلة و هي الوقوف في وجه الصليبيين الغزاة، و بالتالي الحفاظ على عناصر الوحدة السياسية. و قد وجد هؤلاء الحكام في العلماء و الطلبة المغاربة ما يحقق غايتهم، فهم - المغاربة- مالكيون عاشوا في جو تسوده الوحدة المذهبية.

تجسد ذلك الإهتمام بما قام به نور الدين زنكي من حرص دؤوب على فك أسرى المغاربة، وتقريبهم من المدارس و المرافق العلمية، لتسهيل عملية دمجهم ضمن النسيج الاجتماعي و الثقافي لبلاد الشام.

لقد تجسّد الإبداع العلمي و الفكري للمغاربة في بلاد الشام في حقول عديدة، أبرزها الدراسات اللغوية و النحوية، حيث يقدم النحوي ابن معطي الزواوي نموذج العالم العبقري الفذ، الذي استقطبت حلقات دروسه الطلبة و العلماء في البلاد الشامية و أجاز الكثير منهم، إذ يكفيه فخرا أنه أول عالم قدم نمودجا متكاملًا في علم النحو، في إطار منظوم، عرف بالألفية، شكلت أصولًا أساسية في الدرس النحوي، كما برز في هذا المضمار مغاربة آخرون كمحمد بن عبد الرحمن الجعفري التونسي، المعروف بابن القوبع، و مجد الدين التونسي، و أحمد بن محمد شهاب الدين أبي محمد العنابي، الملقب بشيخ النحاة.

خاتمة

و في ميدان الشعر، فرض عفيف الدين التلمساني نفسه على الساحة الشعرية في مدينة دمشق، وأهله مقدرته الشعرية على نيل شهرة واسعة و كبيرة، جعل رجال السلطة السياسية في تلك البلاد يعملون على تقريبه منهم.

كما برز النبوغ المغربي بشكل كبير في ميدان العلوم الدينية، فمن علوم الحديث برز محدثون مغاربة تركوا آثاراً علمية واضحة في بلاد الشام، كمحمد بن جابر الوادي آشي التونسي، الذي أجاز عالم الحديث الكبير، الإمام الذهبي، و استفاد منه آخرون، كعالم دمشق، الإمام المزني. كما برز عالم مغربي آخر، هو ابن رشيد السبتي، الذي دوّن رحلته إلى المشرق. و مع الأسف فإن القسم المتعلق منها بتواجده في بلاد الشام ضاع، و تستقي أخبار رحلته في المنطقة من خلال مصادر أخرى، قدمت أخباره على شكل نتف متناثرة، كما برز أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري إمام أهل الحديث بحلب، كما وصفته بعض المصادر.

أما في ميدان الفقه، فقد كانت بصمة المغاربة واضحة و تأثيرهم لافت، فقد دونت لنا المصادر إشعاع ابني الإمام، اللذان فرضا نفسيهما في حلقات المناظرة، حيث تفوقا على فقيه كبير في العالم الإسلامي على عهدهما، هو تقي الدين بن تيمية. كما سطع نجم فقهاء مغاربة آخرون، كأحمد ابن يوسف القفصي التيفاشي، كما برز فقهاء مغاربة آخرون، كأبي الحجاج بن دوناس الفندلاوي وغيره كثير. كما كانت إسهامات المغاربة في ميدان التفسير بارزة كالمفسر أبي الحسن التجيبي الحراي الذي ولد و نشأ بمراكش، صنف تفسيراً أصيلاً للقرآن الكريم بإجماع الذين ترجموا له.

خاتمة

كما احتضنت بلاد الشام عدداً لا بأس به من رجال الزهد و التصوف المغاربة، و عُرف عن الكثير منهم مرابطتهم في أمكنة متعددة كالزوايا و الخانقاهات، و أحيانا بالمجاورة في المسجد الأقصى. غير أن أهم ما نسجله على العلماء المغاربة في بلاد الشام، هو عدم اهتمامهم بالعلوم العقلية كالرياضيات والمنطق و الطب و غيرها، ربما لأن هذه العلوم لم تكن تلقى اهتمام الجمهور، و لم تكن توفر في الغالب لقمة العيش.

و لعله من المفيد الإشارة في حصاد هذا البحث، أن انتشار و تجذّر المذهب المالكي بالديار الشامية، يعود الفضل فيه للدور الدؤوب و الفعال الذي لعبه العلماء المغاربة، كما نسجل أن هؤلاء شاركوا بنشاطاتهم العلمية و الفكرية في إثراء الساحة الثقافية بالمنطقة، من خلال انتصاهم للتدريس بأرقى و أعرق المدارس العلمية، و إشرافهم على التأطير العلمي لنخبة من أعلام العلم في بلاد الشام كالإمام الذهبي و غيره.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر المخطوطة

ب- المصادر المطبوعة

ت- المراجع العربية والمعربة

ث- الرسائل الجامعية

ج- المجلات والدوريات

ح- المراجع الأجنبية

الملاحق

ملحق رقم 02 : صورة مخطوطة من رسالة في القراءات لأبي العباس الزواوي

١٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم
صواله على سبعه ناس

الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه كل تسليما كثيرا وجد ما منه قال الشيخ ابو
عمران سيدنا موسى الزواوي والعباس المعرفه بعد بيته باس رضيت عنه ونفع به آت القراءات ما يفيد بها الا
باربعة شوكه ان تكون رتبة عادلة: ونبط فتواتر وان تكون مع اربعة للمصنف تحفظا او تعدد بها وان يكون
لها وجه في العربية وان تضعف وقد نظر رضي الله عنه عن الشيخ ابي داود رحمه الله الخدو في
التنزيل في قوله تعالى فتوعد في ربي في سورة كيونف والابن خلدنا وبارون واي من قبله عده والارباب
لأن من قرا عدهما الشيخ ابي داود ان اذ في العرف الاو بالخدو ثم لا يتبع به عن غيره ولا يدار في غيره
ولا يتبع في غيره الا ان كانا به منسوبا للتكميل الاعلى الاختصاص وكذلك قوله تعالى في سورة الانعام وانشر
له صحنه نجد في الاية بخلافه في العرف والمعارض وعيسى جاز الله فيه ثابته والشيخ ابي عبد الله الخزاز: الملق الخدو
ولا يتبع له ذلك ان كان صفة لاعداد ما يتبع ابي داود بالخدي وامامه حاشا ونضاختا بل في الخدو
في الاية فيهما والحالات ثبات ظلم العرف والسلم علم من ينف عليه ان يقرأ وصلواته على سيدنا محمد وعلى

الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ويسلم تسليما كثيرا
قال الفقيه رضي الله عنه

قال القيسي رحمه الله رضي عنه ونفعنا به وبما مثاله

أندرت مع فيها فحده كثيرة: لنا في معر متفقون رتبته في الضووت

ثلاثة: الأولى: كذا في معر: وثالثها: كذا في معر: فلنا تسليما إذا فتعقرو

فيل وهذا كريمة التقرب والاجتهاد الرشد ثابته: الآي وجه والخطبة
بذلك سهل **ويقال** في ذلك ما يشاء من خطبة النبي صلى الله عليه وآله من ثمانية الاو بعقود
والوجه في ذلك في المعر والجامع صرحه في ذلك الملك ثمانية اوجه بلا ضربها في اثنين تكررت سنة
تكررت في ثلثين والنور مع انما على كل حال في الاوجه: والاول: ما كتبه في
ضك المعر في ثلثة اوجه فتصريفها في الاثني عشر والثلاثين في اية ومثلي في الثاني بعد نظام
تعد في المعر والاول في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه
الضخمة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه
الخمسة في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه
وهي الاوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه
مسائل في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه
عند البغها: ويروي في الاوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه في ثلثة اوجه
واكثرهما ما اذنت اهل الدراية في الحساب: انهم من اقدم من ابي العباس على الفيل

رسالة في القراءات

اخيرا واذا وقفت **قوله** ليس اشارة تميم لجهة الاستغناء عنه **وقوله**
 نعمت في كل من حقه ان ينسب على الخلاء الذي ذكره ابو داود اذ لا يصح من كلامه
 قول الاستاذ في شرحه لقوله وفي الاطراف فتجرت اختر من شجرة قمر في كمينه والصا
 جات ليس ينسب: وقول التارخ في قوله وامر ان يستغنى عنها ليس ينسب، وليس ينسب
 ههنا الترجمة محزنة لذلك فاله الاستاذ وكان الرصيف يرتقي كلام المشايخ
 وليس ينسب **وقوله** ثم يفعل العنت فيل الصواب ان يفرض بالتموير
 ان لا ينادى ليدخلها الزحام كما تقدم في لوائح ومعايش **وقال** اخرون
 كلامه الفراء لا يتغير ويحوله لا يبر العيراء، في قول الجوهري وما جاء في الدوا
 حيث قال لا يجوز تجميعها لاربع الفراء لا يغير اوجه، به مقادير طان
 تشديدهما يورد الى اجتماع صورتين الساكنين وحشوا الرخوة كما يجوز
 في العرو من الاء المتعارف على راي خلافا لزم من حقه المتعارف، وهو هو
 العرو من ههنا الخليل انتهى **وقوله** ومعصيتا معا بسكون القاء
 اجراء للومل مجر والوقف للضرورة ولو قال معصيتا معا بتنوينها مع
 اسفالك واوال الغم والكار احسن ويكفر معكروا باسفاك العالمين
وقوله للنشأه يجتم ان يريد الفاشعير في العلم العبتة يري
 فيه صفارا كذا نوال او طبارا كقول الجوهري يكون للمبتدئين صورة
 بانه يقع المغار والكبار **وقوله** يرتد مع متعلق بار ارتشدا
 عند و دل عليه الذكور ولا يتعلو بل المنذو وانه حلة الموصو و هو
 ان يتفقد ينسب من الملة على الموصو ان يتنوعا حينه على الخراز

١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤

- على يد التتاج للزخار في اعتبار امانة والرتاب
- السجدة في طلب الرخار في العرو الذي لا يشاء
- تشا كلنا في رقة الاجتانب ان يشعل الى العتمة المبراة
- وان يقول ان عليم المنه او حجب يكاتب الخطا لجهة
- ثم في اشبع الشايف في عانة شفعو في الضمارة
- في عانة المبراة انما على التبا التتمه في حنذا

الملاحق

ملحق رقم 03 : صورة من مخطوط "مقتبسات من شرح ألفاظ الصوفية" لابن عربي الحاتمي

الوجه كل علم على سبيل وسرانا بعد وعمل الله ومحبته

- باير ويا اير حيب انتهى • بغلاب عن العبر منح يسره •
- وحتر وان كنت ذابلمتة • مرارسة الجرارو تحسره •
- وسائر حوا خا بظاء تحمها • واسوا جها حمرها تصمعه •
- التران ترنم عاذ صم • بينير فالعمراتر سيقه •
- مترا لبع بل العكن حتر عكس • بلنلا استغل به لم يبعس •
- راجنة طننها مر جسة • بلنلا توكم بها غيرة •
- محظوا حبال سرا صيصم • بغلا صوا ونكصم وانكس •

انتهى

الحجراته حركه وشرح الالفاظ الصوفية لابر العرب الخاتم رحمه الله
 مسانقه العدا حصر يعبر عنه الصوفية المحققون بل الخاطر النور وصور
 الخاطر الزبانية وهو لا يخفى ابرار ويزيبيه سهل السب الاول ونظر الخاطر
 بلذا الخائف النعمر صموا ارادنا ما ذ اتر د دان ثلاثة صموا هذا ويا الاربعة
 صموا عن سوا عن التوجه التبر اليعمل ان كان خاخر بعلم صموا فصلا وبع
 التبروم بع العمل صموا نية والترين صموا التجر د عر ارادته قال ابو حيان
 صموا ان صحت به الامعاء ودخل في جملة التفتك صموا التبر الاله بله صموا التبر اراد
 صموا كثر الخبزوب عر ارادته مع تعيب التبر اراد له مجاوز الارسوخ تالها
 والاعلمت مع غير ملكاين الوقت عبارة عن عدا الشك في زس الخمان لا تعلق
 له بالمال ولا بالاستفيل الادب تارة يبرون به ادب النسيبعة وتارة ادب
 الحق بادب النسيبعة الترفون عن رسو صموا ادب الحق ان تعرفه مالذ ومالذ

والتمتع

و المفاع عبارة عن استعمال حرفون الزم اسم على التثنية و الحال ما يرد على الغلب
 من غير تعارض ولا احتجاب و من ثم خصه ابن زول و غيره في الحال تغير الأرواح على العبد
 و التثنية كما ورد في الآية فيكون على الغلب و الغيب كل ما ليس في العلم عند
 من لا منه و الحرمة إقامة حرفون العبودية لله تعالى و هو من محاسن العلم
 تعالى و العشق و التفرغ انحصار في الكلام و تنوع الملاواة بالهوى و متنوع
 المشاهدة و الوصول إدراك الغاية و التواضع ما يرد على الغلب من ذلك
 انعال يلقى من بين كان من خضاب او مثال و التفرغ اللغنة و هو ما يناط به العلم
 من العبادات و السكينة ما يتفرغ من الطمأنينة عن تنزل الغيب و التفرغ
 التفرغ في الأحوال و اللغات و المعارف و التلذذ اخذ في ما يرد من الحفا على
 و التفرغ رجوعه إلى الله و التفرغ هو ان يشاهد جلال الله في الغلب
 و قد يكون من الجمال و التفرغ استبعاد و جرد من غير و التفرغ ما يصادف
 الغلب من الاموال الغنية لعدم كسبه و التفرغ و جرد من الحفا و التفرغ
 و التفرغ نعوت انفس من التفرغ الا ان هيبة و الجمال نعوت الرجمة و اللطاف
 من التفرغ الا لا هيبة و التفرغ اشارة الى صفة يكون و جمع الجمع الاستعداد
 بالقلية في الله و التفرغ رتبة العبد في العلم على كل شيء و التفرغ و بناء رتبة
 العبد ليعلمه بغير الله على ذلك و الغيبة غيبة الغلب عن علم ما يحرم
 احوال الخلق لتعلم الحسب ما يورد عليه و التفرغ حضور الغلب بالحق
 عن غيبته و التفرغ من الحفا الى الاحساس بغير الغيبة بوارد من و التفرغ
 غيبة بوارد من و التفرغ اول مبدئ التجلية الا لا هيبة و التفرغ ارضى
 التجلية و التفرغ غائبته كل مفاع و التفرغ التفرغ بالطاعة و التفرغ
 سلب الاعمال او طابعه عند با و طابعه بل انه العا على ذلك و التفرغ لا انت ما من

الملاحق

ملحق رقم 04 : جدول يبين أعلام العلماء المغاربة في الحواضر الشامية

أسماء الأعلام	التخصص	مكان النشاط	المصدر / المرجع
ابن المعطي الزواوي (ت 628هـ / 1230م)	النحو	دمشق	- السيوطي: البغية، ج2، ص 34 - ابن خلكان: الوفايات، ج6، ص 197
محمد التونسي، المعروف بابن القويح (ت. 738هـ / 1337م)	النحو	دمشق	- الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص 192
مجد الدين التونسي (ت 718هـ / 1318م)	النحو + القراءات	دمشق	- الصفدي، المصدر السابق، ص 195
أحمد بن محمد العنابي (ت776هـ / 1374م)	النحو	دمشق	- النعمي، الدارس، ج1، ص 350
عفيف الدين التلمساني (ت 690هـ / 1291م)	الشعر	دمشق	- ابن شاکر الكتبي، ج2، ص 72
الشاب الظريف (ت 688هـ / 1289م)	الشعر	دمشق + حلب	- الصفدي، ج2، ص 218
يوسف بن محمد بن الملم (ت 626هـ / 1229م)	الشعر	دمشق + البيرة	- ابن الشعار: فلائد الجمان، مج 8، ص 289
عمر بن يوسف القفصي (ت بعد 620هـ / 1223م)	الشعر + الهندسة	حلب	- ابن الشعار، مج4، ص 246
ابن دحية الكلبي البلنسي الأصل المراكشي المولد (ت 633هـ / 1235م)	الشعر + الفقه	حلب	- ابن الشعار مج3، ص 499
عثمان بن أبي النوق (كان حيا سنة 723هـ / 1323م	الشعر	حلب	- الصفدي: أعوان العصر ج3، ص 154
علي بن عتيق القاسبي (كان حيا سنة 726هـ / 1326م)	الشعر + الأدب	صفد	- الصفدي: المصدر نفسه، ص 293
التيفاشي أحمد بن يوسف (ت 651هـ / 1253م)	الشعر	دمشق + حلب	- الصفدي: الوافي بالوفيات، ج6، ص 14
يحيى بن محمد التلمساني (كان حيا سنة 659هـ / 1261م)	الشعر	حلب	- محمد بن شريفة: تراجم مغربية، ص 156. 157
محمد بن جابر الوادي آشي، التونسي (ت 749هـ / 1348م)	علوم الحديث	دمشق	- ابن فرحون: الديباج، ص 401 ، الوادي آشي: برناجه ص 47

الملاحق

ابن رشيد السبتي (ت 721هـ / 1321م)	علوم الحديث	دمشق	- الصفدي: الوافي بالوفيات، ج3، - ص 142، ابن حجر، الدرر، ج4، ص111
عبد الله بن محمد الأشيري (ت 561هـ / 1166م)	الحديث + الفقه	حلب	- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 203
محمد بن مرزوق التغمري (كان حيا سنة 596هـ / 1199م)	الحديث	دمشق	- ابن الآبار: التكملة ج4، ص 139
عيسى بن هارون الأغاقي (ت 533هـ / 1138م)	الحديث + الفقه	دمشق	- محمد بن عزوز: المحدثون المغاربة، ص 309
ابن الإمام (توفي في حدود سنة 749هـ / 1348م)	الفقه	دمشق + القدس	- يحيى بن خالدون: البغية، ص 130، التنسي: القلائد، ص 139
أبو الروح عيسى المنجلاقي (ت 743هـ / 1342م)	الفقه	دمشق	- ابن حجر: المصدر السابق، ج3، ص 210. 211
عيسى بن أبي عيسى القابسي (ت 447هـ / 1055م)	الحديث	دمشق	- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 290
أبو الحجاج يوسف الفندلاوي (ت 543هـ / 1148م)	الفقه	دمشق	- ياقوت الحموي، ج4، ص 277. 278
عبد الله بن محمد المراكشي	الفقه	دمشق	- النعمي، الدارس، ج1، ص 201
محمد بن إبراهيم المراكشي (ت 752هـ / 1351م)	الفقه	دمشق	- الصفدي: أعيان العصر، مج4، ص 150. 151، و النعمي، الدارس، ج1، ص 347. 348
أحمد بن محمد المغراوي (ت 820هـ / 1417م)	الفقه	دمشق	- ابن حجر: أنباء الغمر، ج3، ص 148. 149
أبو الحسن التيجيبي الحرالي (ت 637هـ / 1239م)	التفسير	حماة + دمشق	- الداودي: طبقات المفسرين، ص 228. 229
محمد بن ظفر الصقلي (ت 565هـ / 1169م)	التفسير	حماة	- الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص 115
علي بن عبد الله الوهراني (ت 615هـ / 1228م)	التفسير	دريا (ريف دمشق)	- الداودي: المصدر السابق، ص 283

الملاحق

علي بن عبد السلام الزواوي (681هـ / 1282م)	القراءات	دمشق	- الذهبي: معرفة القراء، ص 1350
ابراهيم بن يوسف البوني (ت 533هـ / 1138م)	القراءات	دمشق	- أبو شامة: المذيل، ج1، ص 260. 261
محمد بن عتيق القيرواني (ت 512هـ / 1118م)	القراءات	دمشق	- ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص 195. 196
عبد الوارث بن عبد الغني التونسي (ت 550هـ / 1155م)	التصوف	دمشق، حمص، حلب	- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 62
محمد بن حسان المغربي (كان حيا سنة 703هـ / 1303م)	التصوف	بيت المقدس	- ابن شحنة: الدر المنتجب، ص 131
زين الدين الزواوي (ت 681هـ / 1282م)	القضاء	دمشق	- اليونيني: ذيل مرآة الجنان، ص 175
محمد بن سليمان الزواوي (ت 717هـ / 1318م)	القضاء	دمشق	- الصفدي: أعيان العصر، ج1، ص 238. 239
ابراهيم بن عبد الله الصنهاجي (796هـ / 1394م)	القضاء	دمشق	- ابن حجر: إنباء الغمر، ج3، ص 218. 219
محمد بن محمد المالكي	القضاء	حلب، حماه، دمشق	- ابن عماد: الشذرات، ج7، ص 52
عبد الرحمن بن محمد السجلاسي	القضاء	حلب	- علي أحمد: المرجع السابق، ص 202
يوسف بن يحيى الإسرائيلي السبتي (ت 623هـ / 1226م)	الطب	حلب	- القفطي: أخبار العلماء، ص 256. 258

الفهارس العامة

1. فهرس الأعلام .
2. فهرس الأماكن والجهات .
3. فهرس الدول والشعوب .

فهرس الأعلام

-أ-

- إبراهيم السبائي: 86.
- إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد: 133.
- إبراهيم بن السلار: 201.
- إبراهيم بن خلف بن منصور: 181.
- إبراهيم بن خليل: 96.
- إبراهيم بن سعيد الجوهري: 94.
- إبراهيم بن عبد الله بن عمر الصنهاجي: 431.
- إبراهيم بن محمد بن علي التادلي: 432.
- إبراهيم بن موسى بن بلال: 315.
- الآبلي: 392.
- ابن أبي الدنيا الصديقي: 200.
- ابن أبي زرع: 53.
- ابن آجروم النحوي: 242-243-442.
- ابن الأبار: 83-266-300-406.
- ابن الأثير الحلبي: 336.
- ابن البراء التنوفي: 253.
- ابن البناء المراكشي: 70.
- ابن الجزري: 98-367-419.
- ابن الحاجب المالكي: 79-109-259-297-316-394.

- ابن الحرستاني: 106.
- ابن الحسابي: 96.
- ابن الحكيم اللخمي الرندي: 380.
- ابن الخباز الأريلي: 296.
- ابن الرفاعي الصوفي: 128.
- ابن الرماح النحوي: 296.
- ابن السراج النحوي: 313.
- ابن الشعار الموصلبي: 348.
- ابن الغمار البلنسي: 366.
- ابن القلانسي: 287.
- ابن القويح التونسي: 319-407-437-443.
- ابن المديني: 94.
- ابن أندراس: 25.
- ابن بطوطة: 241-367.
- ابن بقي أحمد بن يزيد: 66.
- ابن تغري بردي: 337.
- ابن جبير: 92-93-126-230-232-233-234-235-237-238-240-
- 285-226-422.
- ابن جزى الكلبي: 367.
- ابن حزم الظاهري: 26.
- ابن حصينة الشاعر: 130.
- ابن حطبة اللخمي: 419.
- ابن حوقل: 43-74-134-195-196.

- ابن حيان الأندلسي: 366.
- ابن خروف النحوي: 411.
- ابن حجر العسقلاني: 112-133-381-394-436.
- ابن خلدون عبد الرحمن: 14-31-36-39-120-125-132-180-184-
- 274-294-363-364-392-409-425.
- ابن خلكان: 110-135-167-220-308-321-347-420.
- ابن دحية الكلبي: 219-302-351-352.
- ابن دريد النحوي: 314.
- ابن دقيق العيد: 80-109-376-380.
- ابن راهوية: 94.
- ابن رزيق البغدادي: 200.
- ابن رشيد السبتي: 58-378-379-380-381-382-385-386-444.
- ابن سعيد المغربي: 14-28-74-80-123-134-223-224-225-227-
- 228-233-281-306.
- ابن سينا: 180.
- ابن شاذان الجلاب: 212.
- ابن شدّاد: 293.
- ابن عبد ربه الأندلسي: 197.
- ابن عبيد الله الحجري: 299.
- ابن عساكر القاسم بن المظفر الحافظ: 265-369-371-377-388-403.
- ابن عساكر قاسم بن علي: 299-301.
- ابن عصفور النحوي: 304-305.
- ابن عطاء الله السكندري: 260-262-263.

- ابن علي الكوهن: 262.
- ابن عماد الحنبلي: 243-299.
- ابن عوف الزهري: 316.
- ابن فاطمة الرحالة: 227.
- ابن فائد الزواوي: 310.
- ابن فرحون: 65-85-126-139-223-339-366-367-391-394-405.
- ابن فضل الله العمري: 80-337.
- ابن قدامة المقدسي الحافظ: 372-374.
- ابن كثير, الحافظ: 431.
- ابن ماجة: 94.
- ابن مالك الطائي النحوي: 219-243-316-317-322.
- ابن مرزوق الحفيد: 38.
- ابن مرزوق الكفيف: 38.
- ابن معطي الزواوي: 221-294-295-296-298-299-300-301-302-
- 303-308-309-313-314-315-317-318-361-443.
- ابن منظور: 405.
- ابن نديم: 121.
- ابنا الإمام: 33-391-392-402-444.
- أبو إبراهيم المزني: 299.
- أبو أحمد بن أبي بكر المالكي: 222.
- أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف: 35.
- أبو إسحاق التلمساني: 379.
- أبو إسحاق الشاطبي: 39.

- أبو إسحاق العطار: 301-316.
- أبو البركات أحمد بن محمد: 375.
- أبو الثناء بن فهد الحلبي: 385.
- أبو الجيش إسماعيل: 321-416.
- أبو الجيوش بن عساكر بن علي: 306.
- أبو الحاج يوسف السيريلي: 266.
- أبو الحجاج يوسف البيالي: 80.
- أبو الحجاج يوسف بن دوناس: 403-444.
- أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد: 411.
- أبو الحسان بن الموازيني: 108.
- أبو الحسن الأبداني: 161.
- أبو الحسن الأشعري: 87.
- أبو الحسن الخزاعي: 213.
- أبو الحسن الدبّاح: 304.
- أبو الحسن الشاذلي: 251 - 252 - 253 - 254 - 255 - 256 - 258 - 259 - 264 - 442.
- أبو الحسن الطوسي: 213.
- أبو الحسن القابسي: 86-213-403.
- أبو الحسن المريني: 31-33-391.
- أبو الحسن بن أبي ربيع: 379.
- أبو الحسن بن البخاري: 373.
- أبو الحسن بن الخضار الكتامي: 378.
- أبو الحسن بن السمसार: 103-403.

- أبو الحسن بن محمد الأنطاكي: 178-179.
- أبو الحسن بن موهب: 406.
- أبو الحسن روح الحرّة: 403.
- أبو الحسن شريح بن محمد: 303-406.
- أبو الحسن علي الحرالي: 411-412-413.
- أبو الحسن علي بن أبي الرجال: 48.
- أبو الحسن علي بن أبي نصر: 266-422.
- أبو الحسن علي بن أحمد: 371.
- أبو الحسن علي بن حمزة: 132.
- أبو الحسن علي بن سردال: 290.
- أبو الحسن علي بن عتيق: 217.
- أبو الحسن علي بن لب: 71.
- أبو الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني: 402.
- أبو الخطاب السبتي: 389.
- أبو الطيب المهدي المسيلي: 60.
- أبو العباس أحمد بن الحسين: 201-369.
- أبو العباس أحمد بن سلامة: 374.
- أبو العباس أحمد بن طرفان: 376.
- أبو العباس أحمد بن عبد الله: 372.
- أبو العباس الترغارشي: 226.
- أبو العباس الجدلي: 182.
- أبو العباس الرازي: 213.
- أبو العباس السبتي: 68-69.

- أبو العباس العطار: 204.
- أبو العباس القيسي المالكي: 221.
- أبو العباس المرسي: 260-261-262-263.
- أبو العباس بن زرقون: 217.
- أبو الفتح الملك الأشرف: 99.
- أبو الفتح بن المنى: 106
- أبو الفتوح نصر بن محمد: 371.
- أبو الفدا: 14
- أبو الفرج بن الجوزي: 108-118-119-265.
- أبو الفرج بن كليب: 108.
- أبو الفضائل بن عساكر: 136-319.
- أبو الفضل مبارك بن علي الهراس: 388.
- أبو القاسم الحبشي السيميساطي: 373.
- أبو القاسم الحسيني: 107.
- أبو القاسم الشراط القرطي: 265.
- أبو القاسم القيتوري: 137-138.
- أبو القاسم النفطي: 402.
- أبو القاسم بن الرّمّك: 303.
- أبو القاسم بن الفرس: 217.
- أبو القاسم بن بقي: 217.
- أبو القاسم بن بن رضي: 303.
- أبو القاسم بن شلبون: 200.
- أبو القاسم بن عبد الله أبي القاسم

- أبو القاسم بن عساكر المؤرخ: 95-108-374-388
- أبو القاسم خلف بن فرنون: 111.
- أبو القاسم عبد الرحمان بن أبي بكر: 419.
- أبو القاسم عبد الرحمان بن حمد الليدي: 86-199.
- أبو القاسم عمر بن أبي جرادة: 350.
- أبو المعالي الجويني: 112-135.
- أبو الوليد بن الدباغ: 406.
- أبو الوليد بن رشد: 216.
- أبو اليمن الكندي: 296-301.
- أبو بكر الأجري: 213.
- أبو بكر الشبلي: 120.
- أبو بكر الصديق الخليفة: 138-396-397.
- أبو بكر الطرطوشي: 67-110.
- أبو بكر بن الخطاب: 36.
- أبو بكر بن العربي المعافري: 61-214-217-303-406-414.
- أبو بكر بن اللباد: 200.
- أبو بكر بن المحب: 201.
- أبو بكر بن الوليد الفهري: 215.
- أبو بكر بن سمجون: 303.
- أبو بكر بن عبد الباقي: 301.
- أبو بكر بن عمر اللمتوني: 62-63.
- أبو بكر عاصم: 132.
- أبو بكر محمد الشاشي: 110.

- أبو بكر محمد الشنتريني: 307.
- أبو بكر محمد بن إبراهيم: 375.
- أبو بكر محمد بن إسماعيل: 375.
- أبو بكر محمد بن القاسم: 387.
- أبو بكر محمد بن جرار: 178.
- أبو بكر محمد بن طرفان: 402.
- أبو بكر محمد بن محمد: 208.
- أبو تاشفين الأول: 33-36-391.
- أبو تمام الشاعر: 356.
- أبو جعفر المنصور: 77-113-114-115-122-399.
- أبو جعفر النصري: 209.
- أبو جعفر بن الزيات: 365.
- أبو جعفر بن سعيد: 224.
- أبو جعفر بن عبد العزيز: 303.
- أبو حامد الأنطاكي: 99.
- أبو حامد الغزالي: 23-25-103-112-260-403.
- أبو حامد محمد بن الصابوني: 374-376.
- أبو حفص عمر بن أبي زكريا: 75.
- أبو حمو الثاني: 31-34.
- أبو حمو موسى الأول: 33-38-392.
- أبو حنيفة النعمان: 173-174-175-301.
- أبو حيان التوحيدي: 393.
- أبو داوود القبلي النفزاوي: 160.

- أبو درار إسماعيل بن درار: 160.
- أبو زكريا الثاني: 81.
- أبو زكريا الزواوي: 19-21.
- أبو زكريا المرجاني الموصلي: 19.
- أبو زكريا المغربي: 424.
- أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد: 182.
- أبو زكريا يحيى الزواوي: 21.
- أبو زكريا يحيى: 75-80.
- أبو زيد البسطامي: 256.
- أبو زيد البسطامي: 272.
- أبو زيد المروزي: 103.
- أبو زيد بن مخلد: 42.
- أبو سالم العياشي: 385.
- أبو سعيد الباجي: 253.
- أبو سعيد خليفة الباجي: 24.
- أبو سفيان بن حرب: 153.
- أبو شامة الدمشقي: 105-289-299-416-417.
- أبو شجاع زاهد بن رستم: 272.
- أبو طالب عبد الجبار القرطبي: 307.
- أبو طاهر السلفي: 37-132-204-217-265-266-305-306-414.
- أبو عبد الله أحمد المقرئ: 36-38-392-393.
- أبو عبد الله التجيبي: 37.
- أبو عبد الله الحسين الطبري: 138.

- أبو عبد الله الحمري: 212.
- أبو عبد الله السراج: 213.
- أبو عبد الله الشرفي: 268.
- أبو عبد الله الشريف التلمساني: 39.
- أبو عبد الله الشيعي: 167-170.
- أبو عبد الله الصنعاني: 167.
- أبو عبد الله القرشي: 222.
- أبو عبد الله القضاعي: 417.
- أبو عبد الله المازري: 67.
- أبو عبد الله المستنصر: 75.
- أبو عبد الله بن أصبع: 303-406.
- أبو عبد الله بن الفرات: 406.
- أبو عبد الله بن المجاهد: 267.
- أبو عبد الله بن شرين: 402.
- أبو عبد الله بن عبد الرحمان التوزري: 393.
- أبو عبد الله بن عبد الكريم الكتامي: 59.
- أبو عبد الله بن قيسوم: 267.
- أبو عبد الله بن محمد المجاصي: 39.
- أبو عبد الله بن محمد المعافري: 21.
- أبو عبد الله بن محمد بن الناضور: 199.
- أبو عبد الله محمد إبراهيم الحضرمي: 250.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد: 202.
- أبو عبد الله محمد بن الناس: 309.

- أبو عبيد الله الحجري: 220.
- أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن: 231.
- أبو علي الحسين بن محمد الصدفي: 402.
- أبو علي الفارسي: 185.
- أبو علي النفطي: 24.
- أبو علي بن عبد الرحمن بن إبراهيم العطار: 349.
- أبو عمارة حمزة: 132.
- أبو عمر الزاهد: 212.
- أبو عمر الظلمنكي: 415.
- أبو عمر بن العلاء: 132.
- أبو عمر بن بشير: 194.
- أبو عمر بن عبد البر: 138-394.
- أبو عمران الفاسي: 86-402.
- أبو عمران بن يوسف بن تاشفين: 30.
- أبو عمرو الداني: 138.
- أبو عنان المريني: 34-38-61.
- أبو قراط, الحكيم: 437.
- أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم: 371.
- أبو محمد الحسن بن علي بن الصيرفي: 373.
- أبو محمد العنابي: 321-443.
- أبو محمد بن الخشاب: 308.
- أبو محمد بن الورد: 213.
- أبو محمد بن رشيد: 212.

- أبو محمد بن يزيد المقرئ: 212.
- أبو محمد عبد الرحيم بن الزجاج: 380.
- أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر: 24.
- أبو محمد عبد العزيز: 271.
- أبو محمد عبد الله الأشيري: 387.
- أبو محمد عبد الله المدعو عبيد: 250.
- أبو محمد عبد الله بن محمد النحوي: 175-250.
- أبو محمد عبد الواحد إسماعيل: 406-422.
- أبو محمد عبد الوهاب بن بنت الأثر: 427.
- أبو محمد يونس بن يحيى: 406.
- أبو مدين شعيب: 23-24-270-271.
- أبو مسعود بن أشرس: 173.
- أبو مسلم الخولاني: 266.
- أبو مسهر عبد الأعلى: 94.
- أبو معبد عبد الله بن كثير: 132.
- أبو موسى عمران المشدالي: 39-392.
- أبو ميمون بن راشد
- أبو ميمونة دراس: 214.
- أبو نصر الإسماعيلي: 112.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ: 388.
- أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر: 138-161.
- أبو يحيى الصنهاجي: 267.
- أبو يعقوب النهر جوزي

- أبو يعقوب يوسف بن خلف: 267.
- أبو يوسف الدهماني: 24.
- أبو يوسف يعقوب الزواوي: 393.
- أبو يوضا بن ماسوية: 87.
- أبو إسحاق الأدمي الدمشقي
- أبو القاسم العلاف: 204.
- أبو عبد الله بن الدجاجية: 374.
- أبو فارس الحفصي: 75-76-78.
- أبو ميمون القاضي: 213.
- أبي بن كعب : 138.
- أنير الدين بن حيان الغرناطي: 321.
- أحمد بابا التمبكتي: 36-39.
- أحمد بن إبراهيم المزوزي : 200.
- أحمد بن أبي بكر الزناتي : 55.
- أحمد بن حنبل : 94-117-363.
- أحمد بن شعيب الجزائني : 59.
- أحمد بن عبد الدايم المقدسي: 107-109-372.
- أحمد بن عبد الرحمان الأنصاري: 65.
- أحمد بن عبد الرحمن الحريري: 109.
- أحمد بن عبد الصمد: 58.
- أحمد بن عبد الظاهر: 427.
- أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري: 372.
- أحمد بن فراس العبقيسي: 199.

- أحمد بن محمد الخلوف:80.
- أحمد بن محمد القراني:111.
- أحمد بن محمد بن عبد الله المغراوي:408.
- أحمد بن مضاء:303.
- أحمد بن يوسف التيفاشي:357-361-444.
- أحمد بن يوسف بن أحمد:404.
- إدريس الأكبر:28.
- إدريسالثاني:51-52-54.
- أردشير,الوزير:115.
- إسحاق بن إبراهيم بن حبيب :94.
- إسحاق بن موسى الأنصاري:94.
- أسد بن الفرات:175-208.
- الأسعد بن السديد:325.
- إسماعيل الجنزوري:108.
- الاشعث بن قيس الكندي:157.
- الأشيري عبد الله بن محمد:290.
- الإصطخري:83.
- الأغلب بن سالم:77.
- أفلح بن عبد الوهاب:45.
- أم الخير فاطمة البطائحي:380.
- الإمام الأوزاعي:94-190-193-398.
- الإمام البخاري:204-263-377.
- الإمام مسلم:263-264.

- أمان بن الصمصامة:183.

-ب-

- البلداني الحافظ:96-372-407.

- البيدق:22.

- الباروني النفوسي:187.

- الباقلاني أبوبكر:87-417.

- البحيري الصنهاجي:264.

- البدر أبو محمد بن حبيب:432.

- بدر الدين أبو عبد الله:322.

- بدر الدين الغماري المالكي:431.

- بدر الدين بن جماعة المصري:368.

- بدر بن حماد:183.

- برهان الدين الأسكندراني:416.

- برهان الدين بن إبراهيم العسقلاني:373.

- بشر بن عبد الرحمان العتيبي:395.

- البقاعي إبراهيم بن عمر:276-413.

- بقي بن مخلد:192-203.

- البكري:15-163-228-239.

- بلج بن بشر:202-231.

- البلقين سراج الدين:111.

- البلوي: 75-79-80-126-204-241-292.
- البهلول بن راشد: 173-175-177.

- ت -

- تاج الدين الصرخدي: 316.
- تاج الدين المراكشي: 407-408.
- التاج الكندي: 106-218-299-374-404.
- التاج محمد الوزان: 386.
- التادلي: 69.
- تاشفين بن علي: 30.
- التحيي, صاحب الرحلة: 223.
- تقي الدين الأصنائي: 394.
- تقي الدين الشافعي: 431.
- تقي الدين القاسي: 201.
- تقي الدين الموصللي: 182-416.
- تقي الدين بن الصلاح: 419.
- تقي الدين بن تيمية: 109-275-276-392-394-444.
- النقي بن حاتم: 111.
- التنسي: 35.
- التنسي البرشكي: 391.
- توران شاه: 226.

- ث -

- ثابت بن محمد الجرجاني: 194.
- الثعالبي: 99.

- ج -

- جابر بن زيد: 161.
- الجابري محمد عابد: 272.
- الجزولي عيسى بن عبد العزيز: 220-221-294-299-314.
- الجزنائي: 52.
- جعفر الصادق: 116.
- جعفر بن محمد: 400.
- الجلال القزويني: 392-408.
- الجمال الأميوطي: 111.
- جمال الدين الحسين بن إياز: 315.
- جمال الدين النحريري: 436.
- جمال الدين بن السهر زوزي: 417.
- جمال الدين بن مالك: 385.
- جمال الدين يوسف بن عبد الله: 429.
- الجنيد أبو القاسم: 119-120-256-331.
- جوهر الصقلي: 123-124.

- ح -

- الحارث المحاسبي: 73-256.

- الحارث بن أنيسة:42.
- الحجاج بن يوسف:146.
- الحنجاري ، كاتب عبد الملك سعيد:224.
- الحربي إبراهيم بن إسحاق:117
- حسام الدين الرازي:340.
- حسان بن النعمان الغساني:76-146-147.
- الحسن البصري :47.
- الحسن بن أبي بكر القسطلاني:222.
- حسن بن حسين الطولوني:250.
- الحسن بن عبد الله الأجدابي:214.
- الحسن بن عبد الله الراشدي:133.
- حسن بن عبد الله الراشدي:387-418.
- حسن بن فتحون :200.
- حسن بن هبة الله الواسطي:376.
- الحسين بن زبلة:181.
- الحسين بن محمد بن خيرة :137.
- حفص بن عبد السلام:173.
- الحكم الأول الأسوي:52.
- الحكم المستنصر:212.
- حكم بن محمد بن هشام:212.
- الحلاج الصوفي:121.
- الحلاوي المقدسي
- الحلوي الشوذدي:34.

- حمزة بن محمد الكناني: 213.
- حميد الدين السمرقندي: 408.
- حنش الصنغاني: 154.
- حيان بن أبي طلحة: 155.
- حيدر بن علي العلوي: 276.

-خ-

- خالد بن سعيد القرطبي: 209.
- خضر بن طبرزد: 106.
- الخطيب البغدادي: 118-120.
- الخلدي: 120.
- خلف بن قاسم بن سهل: 138.
- خلف بن قاسم بن محمد: 213-214.
- خليل بن إسحاق الجندي: 127.
- الخوارزمي: 180.
- خيرونة: 59.

-د-

- الداعي إدريس: 171.
- الداودي: 98-218-412-415.
- الدباغ: 154-162.
- الدرجمي: 47.

-ذ-

- الذهبي الحافظ: 107-220-264-306-365-367-371-377-380-386-
387-413-438-444-445.

- ذو النون المصري : 128

-ر-

- الرسول صلى الله عليه وسلم: 132-134-135-138-153-154-165-169-
190-236-272-277-283-327-342-363-396-397-399-400-
410-419-430.

- رابعة العدوية: 331.

- ربيع القطان : 200-211-212.

- ربيعة بن عقبة: 398.

- رزيق بن معاوية بن عمار: 137.

- الرشيد بن مسلمة : 386-407.

- الرضا الرومي: 97.

- الرضى بن البرهان: 385.

- رضي الدين القسنطيني: 316.

- رقية: 344.

- ركن الدين الأسترابادي: 276.

- الرملي أحمد بن حسين: 109.

- الزهري: 26-77.
- الزجاجي النحوي: 185-195-220-221-300-314-318.
- زرياب أبو الحسن: 179-180-196.
- زفر بن الهذيل: 174.
- الزكي البرزالي: 109.
- زكي الدين أبو القاسم: 407.
- الزمخشري المفسر: 136.
- الزنكي المنذري: 306.
- زواو بن سمعان: 294.
- زياد بن عبد الرحمان ، بشطون : 193.
- زياد بن عبد الرحمان بن محمد: 173.
- زيادة الله بن الأغلب: 76.
- زيد بن ثابت : 135.
- زيد بن حصين: 157.
- زيري بن مناد الصنهاجي: 387.
- زين الدين أبوالنقى: 309.
- زين الدين الزواوي : 387-428-429.
- زين الدين المنزلي : 416.
- زين الدين بن مخلوف المالكي : 394.
- زين الدين بن مظهر بن الوردي: 309.
- الزين خالد النابلسي: 96.
- زينب بنت كامل: 374.

- زينب بنت مكّي الحراني
- زينب بنت يحيى: 96.

-س-

- سبط أبي منصور الخياط: 301.
- السبكي علي بن كافي: 130.
- ست العرب بنت يحيى بن قايماز: 374.
- سحنون التنوخي: 139-162-174-175-176-209-287-395-402.
- السخاوي أبو الحسن: 296.
- السري السقطي: 119-256.
- سعاد: 344.
- سعد المكناسي: 158.
- سعد بن أبي هند: 173.
- سعد بن مسعود التجيبي: 155.
- سعدون بن رضوان: 72.
- سعيد بن الدهان: 307.
- سعيد بن عباد: 400.
- سعيد بن عبدوس: 173.

- سعيد بن عثمان الأعناقى: 209.
- سعيد بن محمد بن بشير: 194.
- سعيد بن يخلف المزائى: 211.
- سفيان الثوري: 173-174.
- سفيان بن عيينة: 397-398.
- سقر الحلبي: 378.
- السهروردي, الصوفي: 121.
- سيويه النحوي: 184-303-314-318.
- سيف الدين كراي: 321.
- السيوطي الحافظ: 68-78-94-175-306-314-316-381-385-405-.

-ش-

- الشاب الظريف: 324_335-336-337-338-339-345-
- الشافعي أبو عبد الله: 127-128-192-203-299-397-398.
- شامية بنت الحسن: 374.
- شرف الدين أبو طالب عبد الله: 407.
- شرف الدين أبو العباس المقدسي: 98.
- شرف الدين الأصبهاني: 393.
- شرف الدين بن الفارض: 129.
- شرف الدين عمر السبكي: 427.
- الشريف أبي الفوارس: 215.
- الششتري: 24.

- الشلوبين أبو علي النحوي: 221-300-304-305.
- الشماخي: 45-161.
- شمس الدين أبو بكر بن إبراهيم: 376.
- شمس الدين الآبلي: 324.
- شمس الدين الأصفهاني: 97.
- شمس الدين الأيكي: 320.
- شمس الدين السلسبيلي: 418.
- شمس الدين القدسي: 427.
- شمس الدين بن أبي عمر: 109.
- شمس الدين بن الحجاز الأربلي: 308.
- شمس الدين بن القيم الجوزية: 393.
- شمس الدين بن سالم: 393.
- شمس الدين بن عطاء: 428.
- شمس الدين عبد الرحمان بن أبي عمرو: 378.
- شمس الدين عبد الرحمان بن محمد: 376.
- شمس الدين عبد الرحيم الباجريقي: 430.
- شمس الدين محمد بن إبراهيم: 218.
- شمس الدين محمد بن سعد: 407.
- شهاب الدين أحمد بن النحاس: 416.
- شهاب الدين الحصكفي: 276.
- شهاب الدين الرياضي: 428.
- شهاب الدين الكفري: 416.
- شهاب الدين المقدسي الحنبلي: 309-386.

- الشهاب القوصي: 386.
- الشهاب بن مزهر الأنصاري: 418.

-ص-

- صادق المريبي: 307.
- صارخ الدين قايماز: 419.
- صالح البربري: 268..
- صالح بن طريف: 159.
- صالح بن منصور الحميدي: 155.
- الصالح عماد الدين إسماعيل: 434.
- صدر الدين القونوي: 129-323-324.
- صدر الدين بن الوكيل: 320.
- صدر الدين سليمان: 427.
- صعصعة بن سلام: 191.
- الصفدي: 96-129-319-320-337-353-354-356-379-407-408-430.
- صفى الدين خليل بن أبي بكر: 376.
- صلاح الدين الأيوبي: 92-102-125-226-239-292-296-302-307-369-424-434.
- الصيرفي أبو الحسين المبارك: 215.

- ط -

- طارق بن زياد: 147-149.
- الطاهر المزوغي: 24.
- طاهر بن عبد الله العزيز: 209.
- طاووس بن كيسان: 135-154.
- الطبراني, الحافظ: 96.
- طريف بن مالك المعارفي: 149.
- طلق بن جابان: 155.
- الطواشي شمس الدين الخواصي: 408.

- ظ -

- الظاهر بيبرس: 102-427.

- ع -

- العادل نور الدين: 247.
- عاصم السدراتي: 160.
- عائشة أم المؤمنين: 138-161.
- عباس بن فرناس: 192.
- عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي: 60.
- عبد الحافظ بن بدران: 378.
- عبد الحق الإشبيلي: 24-265.
- عبد الرحمان الداخل: 188-189-192-197.
- عبد الرحمان السهيلي: 66.

- عبد الرحمان الناصر: 29-55-319.
- عبد الرحمان الهزميري: 60.
- عبد الرحمان بن دينار: 199.
- عبد الرحمان بن رستم: 42-44-160-164.
- عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان: 194-196-203-436.
- عبد الرحمان بن مهدي: 398.
- عبد الرحمن الأنصاري الدكالي: 133.
- عبد الرحمن بن الحكم: 203.
- عبد الرحمن بن الطبير: 103.
- عبد السلام بن علي الزواوي: 416.
- عبد السلام بن مشيش: 252.
- عبد العزيز الغافقي: 379.
- عبد العزيز المهداوي: 24.
- عبد العزيز بن جمعة الموصللي: 318.
- عبد العزيز بن جمعة بن زيد: 309.
- عبد العزيز بن مروان: 147.
- عبد العزيز بن موسى بن نصير: 150.
- عبد القادر الجيلاني: 23.
- عبد الكريم بن عبد النور الحلبي: 107-376.
- عبد الله الخشوعي: 407.
- عبد الله بن إياض: 42.
- عبد الله بن أبي القاسم: 209.
- عبد الله بن أبي الوليد: 209.

- عبد الله بن أبي حَيَّان اليحصبي: 173.
- عبد الله بن أبي عمر: 105.
- عبد الله بن العباس: 135-153-154-158-161-409-411.
- عبد الله بن اللمطي: 164.
- عبد الله بن بري: 220-296-300-307-308.
- عبد الله بن خروج: 173.
- عبد الله بن سحنون بن يحيى: 388.
- عبد الله بن سرور المقدسي: 369.
- عبد الله بن سعد بن أبي السرح: 153.
- عبد الله بن سلام: 410.
- عبد الله بن عمر بن غانم: 173-174.
- عبد الله بن عمر: 132.
- عبد الله بن محمد اليعمري: 139.
- عبد الله بن محمد بن عبد الله: 386-406-407.
- عبد الله بن مسعود: 153.
- عبد الله بن هارون القرطبي: 79.
- عبد الله بن ياسين: 66.
- عبد الله بن يوسف الجي: 200.
- عبد الملك بن حبيب: 139-175-395.
- عبد الملك بن محمد الظبي: 172.
- عبد الملك بن مروان: 93-146.
- عبد المنعم الفراوي: 108.
- عبد المنعم بن غلبون الحلبي: 199.

- عبد المهيمن الحضرمي:392.
- عبد المؤمن بن علي:30-63-64-65-69-75.
- عبد النبي بن مهدي:226.
- عبد الوارث بن عبد الغني التونسي:422.
- عبد الوهاب البغدادي:127.
- عبد الوهاب بن سكينه:108.
- عبد الوهاب بن عبد الرحمان الرستمي:46-156-161-163-186-187.
- العبدري,الرحالة:19-241.
- عبيد الله بن الحبحاب :76.
- عتيق بن عبد الرحمان العمري:375.
- عتيق بن علي الصنهاجي:216.
- عثمان البلطي:306.
- عثمان بن أبي النوق:353.
- عثمان بن أبي بكر الصدي:388.
- عثمان بن سعيد:172.
- عثمان بن عبد الله السلاجي:59.
- عثمان بن عفان:151-397.
- عثمان بن محمد التوزري:133.
- عروة بن الزبير:135.
- العز التوزري:137.
- العز بن جماعة:136-409.
- العز بن عبد السلام:222-259-406-412-413-429.
- العزيز بالله الفاطمي:125.

- العزيز بن العادل الملك :105.
- عطاء بن أبي رباح:135.
- عطف أم المنتصر الحفصي:80.
- عطية بن سعيد:201.
- عفيف الدين التلمساني:323-324-325-326-327-332-335-444.
- عقبة بن نافع:82-84-85-145-146-155.
- عكرمة بن عبد الله البربري:411.
- عكرمة مولى عبد الله بن العباس:410.
- علم الدين أبو محمد المرسي:218.
- علم الدين القفصي ، القاضي :435.
- علوة:344.
- علي بن إبراهيم بن داود:371.
- علي بن أبي طالب:125-135-157-165-169.
- علي بن أبي نصر فتح:21-406.
- علي بن أحمد الكناني:111.
- علي بن أحمد اللخمي :59.
- علي بن حرزهم:73-252.
- علي بن زياد:173-174.
- علي بن سعيد بن حمامة :346-347.
- علي بن عبد الصمد الرماح:306.
- علي بن عبد الله المبارك بن المبارك:415.
- علي بن عتيق بن عبد الرحمان :356.
- علي بن محمد الحميري :72.

- علي بن منصور الصفار:172.
- علي بن موسى بن النفرات:419.
- علي بن يوسف بن تاشفين:55.
- العماد النوريط:348.
- العماد بن عبد الهادي:407.
- عمر بن أبي زكريا :81.
- عمر بن الخطاب:81-101-135-138-161-396-397.
- عمر بن عبد العزيز:155-373-398-424-425.
- عمر بن عبد الله المغربي :422.
- عمر بن عوة:96.
- عمر بن كرم الحمادي:106.
- عمر بن يوسف بن أبي بكر:350.
- عمر فروخ:325.
- عمران الأندلسي:187.
- عمران المشدالي:36.
- عمرو بن العاص:81-83-145-202-315.
- عمرو بن فتح:47-48.
- عياض بن عوانة:183.
- عيس بن مسعود الزواوي:393-394-395-397-400-402.
- عيسى بن أبي عيسى نزار:403.
- عيسى بن سعادة:213.
- عيسى بن محمد الأيوبي:298.
- عيسى بن محمد المغربي:433.

- عيسى بن هارون بن يوسف: 389.
- عيسى بن يزيد: 158.
- عيسى عليه السلام: 401.

- غ -

- الغازي بن قيس: 193.
- الغبريني: 19-182-265-270-300-411-412-437.
- الغزي الأيوبي، الملك: 437.
- غياث بن فارس اللخمي: 306.

- ف -

- الفارابي أبو نصر محمد: 122-180.
- فاطمة الفهرية: 54.
- فاطمة القرطبية: 269.
- فاطمة بنت الحافظ القاسم: 374.
- فاطمة رضي الله عنها: 169.
- الفتح بن عبد السلام: 106.
- فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل: 376.
- فخر الدين الرازي: 97-228.
- فخر الدين أبو الحسن البخاري: 374-387.
- فخر الدين بن نظام الملك: 113.
- فخر الدين عثمان بن الزنجيلي: 408.
- فخر الدين مسرور المالكي: 408.

- الفخر علي بن محمد:418.

- فرج بن كنانة الشذوني:194.

- فرغوس بن العباس:195.

- فؤاد سزكين:272.

- ق -

- القاسم بن أبي بكر بن القاسم:374-376.

- قاسم بن فيرة:132.

- القاسم بن محمد البرزالي:377.

- القاضي النعمان:166-170-171.

- القاضي عياض السبتي:67-78-85-173-176-204-209-394-402-

.430

- القاضي أبو علي إسماعيل:319:

- قتيبة بن سعيد:94.

- القرافي أحمد بن محمد:126-406.

- قطب الدين أبو الذكاء:386.

- قطب الدين عبد الكريم الحلبي:366.

- القطب القسطلاني:59.

- القفال الشاشي:284.

- القلصادي:32.

- ك -

- كافور الإخشيدي:123.

- الكامل الملك الأيوبي:298-299-318-351-357.

- الكركي إبراهيم بن موسى:110.

- كريمة المروزية:135.
- كريمة بنت أحمد السرخسية:388.
- كسيلة:146.
- كعب الأحبار:410.
- كلثوم بن عياض القشيري:202.
- كمال الدين بن الزملاكاني:320.
- كمال الدين بن عمر بن أبي جرادة:225.
- الكمال الضرير:376.
- الكمال عبد الله بن محمد:137.
- الكمال محمد بن محمد:386.
- الكندي:180.

- ل -

- لبنى:344.
- لذريق:148-149.
- لسان الدين بن الخطيب:39-40-68-381.
- الليث بن سعد:203-398.
- ليلى العامرية:344.

- م -

- الماجشون أبو مروان:139.
- مارسيل مورسي:188.
- مالك بن المرحل:379.

- مالك بن أنس: 80-85-126-135-139-162-168-172-173-174-
- 175-176-193-195-203-214-237-289-351-356-394-395-
- 396-397-398-399-400-401-403-428-430-431.
- المأمون الخليفة العباسي: 115-177.
- المبرد النحوي: 119.
- المتنبي: 302-348.
- المتوكل الخليفة العباسي: 94.
- المثنى بن حارثة الشيباني: 114.
- المجاري النحوي: 301.
- مجاهد بن حبير: 135.
- مجد الدين التونسي: 320-443.
- محب الدين الطبري: 137.
- محرز بن خلف: 182.
- محمد الخير: 80.
- محمد الطمار: 84.
- محمد العجيفي: 199.
- محمد بن إبراهيم المهري: 216.
- محمد بن إبراهيم بن حيون: 209.
- محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد: 407.
- محمد بن أبي القاسم التونسي: 218.
- محمد بن أبي زيد القيرواني: 85-86-87-260-395-402.
- محمد بن أبي منظور: 209.
- محمد بن أحمد بن الجليل: 315.

- محمد بن أحمد بن محمد: 73-386.
- محمد بن أحمد بن مزروق التغمري: 388.
- محمد بن أحمد بن مفرح: 204-205.
- محمد بن إسحاق بن السليم: 198.
- محمد بن إسماعيل بن الحجاز: 109.
- محمد بن الأشعث: 77.
- محمد بن البعبع: 16.
- محمد بن القاسم الكتامي: 203.
- محمد بن النضر: 98.
- محمد بن تينعمر: 29.
- محمد بن جابر الأعمى: 309.
- محمد بن حسان المغربي: 423.
- محمد بن خزر: 28.
- محمد بن خميس التلمساني: 40.
- محمد بن سليمان الزواوي: 429.
- محمد بن شهاب الزهري: 398.
- محمد بن عبد الباقي بن يوسف: 195.
- محمد بن عبد الرحمان من أبي ذئب: 398.
- محمد بن عبد الرحمان: 191-319.
- محمد بن عتيق التميمي: 417.
- محمد بن عرفة الورغمي: 78.
- محمد بن علي بن حرزهم: 252.
- محمد بن علي بن عمر: 250.

- مسيرة المطغري:158.
- مصعب بن عمران:400.
- المظفر بهاء الدين غازي:275-352.
- معاذ بن جبل:135.
- معاوية بن أبي سفيان :90-145-147-157.
- معاوية بن خديج:81-82-145.
- معاوية بن طليح:109.
- المعتصم الخليفة العباسي :94.
- المعز بن باديس:16-83-172.
- المعز لدين الله الفاطمي:123-124-178.
- المقري التلمساي:178-182-385.
- المقرئ المؤرخ:129-170-265.
- مكى بن أبى طالب :199-260-415.
- الملياني سعيد بن محمد:420.
- المنصور بن الناصر الحمادي:29.
- المنصور محمد بن عمر بن شهنشاه:92.
- مهدي النفوسي:47-161.
- المهدي بن تومرت :23-65.
- موسى بن أبى العافية :29.
- موسى بن معاوية الصمادحي:208.
- موسى بن ميمون القرطبي:437.
- موسى بن نصير :147-155.
- مؤنس بن يحيى الرياحي :83.

- موهوب الجواليقي: 301.
- موهوب بن حبيّ المعافري: 155.
- المؤيد الطوسي: 376.

- ن -

- الناصح الحبشي: 386.
- ناصر الدين الحسن علي بن مرتفع: 408.
- ناصر الدين المنير: 373.
- ناصر الدين بن طغرل الصيرفي: 369.
- الناصر بن علناس: 18-17-16.
- الناصر يوسف بن أيوب: 320-229-255.
- الناظم بنالبانياسي: 386.
- نافع بن نعيم: 132.
- نجم الدين أبو العباس راجع: 416.
- نجم الدين أيوب: 225.
- النجم بن النور البلخي: 407-386.
- النجيب عبد اللطيف الحرّاني: 373.
- النسائي الحافظ: 94.
- نصر الدين بن محمد: 389.
- نصر المصيبي: 417.
- نصر بن إبراهيم المقدسي: 403-103.

- نظام الملك ،الوزير :113-117.
- نور الدين زنكي:238-286-288-289-290-291-292-369-387-443.
- نورالدين أبو الحسن البديع:386.
- النووي الحافظ :109-363-371-394.
- النوبختي الحسن بن موسى:122.
- النويري :16.

- ه -

- هارون الرشيد:116-398-399.
- هبة الله بن سليمان:103.
- هبة الله بن علي البوصيري:388.
- هشام بن عبد الملك :76-189-202.
- هند :344.
- هولاءكو :115.

- و -

- الوادي آشي الحافظ:283-300-365-366-371-372-374-375-378-444-431.
- واصل بن عطاء:47-163.
- الوزير السراج:78.
- الوليد بن مسلم الدمشقي:94.

- اليافعي:106.
- ياقوت الحموي: 49-81-114-123-348-387.
- يحيى الثقفي:108.
- يحيى بن خلدون:39.
- يحيى بن راجل: 301.
- يحيى بن غانية: 30.
- يحيى بن محمد بن إدريس:54.
- يحيى بن محمد بن علي:359.
- يحيى بن معمر اللاهمني:194.
- يحيى بن يحيى الليثي: 52-193-195.
- يحيى بن يعان:266.
- يزيد بن أنيسة: 42.
- يزيد بن حاتم: 87.
- يزيد عبد الرحمن المكودي:250.
- يس بن عبد الله المغربي:423.
- يعقوب المنصور: 23-56-64-69.
- يعلى اليفرني:29.
- يغمراسن بن زيان: 31-35-36.
- يهودا بن موسى:48.
- يوسف الأستحي:268.
- يوسف الكومي: 267.
- يوسف بن تاشفين:29-63-65.

- يوسف بن محمد بن المثلثم: 348.
- يوسف بن يحيى بن إسحاق الإسرائيلي: 437.
- يوسف بن يعقوب: 391.
- يوليان: 148.
- يونس بن عبد الأعلى: 397.
- اليونيني البعلبكي: 323-107.

فهرس الاماكن والجهات

-أ-

- أورشليم: 100.
- أرمينية: 214-226.
- أوشليم: 110.
- الأوراس: 166.
- الأندلس: 15-19-24-32-33-48-49-52-56-57-58-65-66-67-
- 80-137-138-144-148-149-151-154-178-179-180-181-
- 182-188-190-191-192-193-194-195-196-200-202-203-
- 204-209-212-213-215-219-224-226-227-228-229-231-
- 243-266-287-289-304-305-366-388-390-398-406-422.
- الأسكندرية: 52-113-132-204-214-215-216-217-218-232-
- 253-254-260-261-262-263-271-366-393-406-416-422.
- الأريس: 166.
- الأردن: 110.
- أغمات: 62-351.
- أغادير: 26-29-145.
- أصبهان: 118-139-181-388.
- أشير: 387.
- ألمرية: 221-300-388.
- إسبانيا: 150-189-192.
- أربل: 229.

- إفريقية: 16-35-53-75-81-88-84-87-145-146-147-151-165-
-171-174-180-182-183-200-201-202-203-208-210-211-
214-221-227-252-255-270-257-391-392-398-411.
- إشبيلية: 37-61-71-181-265-266-267-268-270-271-303-
304-305-306-388-406.

-ب-

- باب القصر: 127.
- باب القلعة: 419.
- باب توما: 408.
- بانياس: 403.
- بجاية: 14-15-16-17-18-21-22-23-24-25-66-182-201-216-
217-265-270-271-294-393-406-407-416-422-440.
- برقة: 76-81-145-147-151-202.
- بستان ابن حيون: 271.
- بسكرة: 146.
- البصرة: 47-110-118-119-159-160-208-210.
- بصرة المغرب: 214.
- باب البريد: 389.
- بدر: 238.
- بطن مر: 238.
- بعلبك: 288-378-385-387-406.

- بغداد: 22-56-65-94-95-99-104-105-106-108-110-113-
- 114-115-116-117-118-119-120-121-122-123-138-155-
- 179-195-196-210-216-218-225-226-229-233-265-272-
- .301-351-388-403-414-418-430-436.
- بلاد التكرور: 386.
- بلاد الروم: 221-236-265-302-323-324-350,
- بلاد السودان: 27-28-51-164-211.
- بلنسية: 71-231-391.
- بيت المقدس: 101-104-109-110-112-113-213-240-273-393-
- .406-422-433-436-438-443.
- البيرة: 348-349.
- بيروت: 190.
- بيمارستان دمشق: 288-437.

-ت-

- تادملت: 211.
- تافيلالت: 147.
- تالة: 166.
- تامسنا: 159.
- تاهرت: 29-41-42-43-44-45-46-47-48-145-161-162-163-
- .164-165-168-178-186-187-210-440.
- تبسة: 356.

- تدمر: 189.
- - تربة الإمام الشافعي: 299.
- التربة الصالحية: 419.
- تربة أمّ صالح: 416-321.
- التربية الاشرافية: 419-321.
- تركيا: 316-98.
- تلمسان: 23-26-27-28-29-30-31-32-33-34-35-36-37-38-
- 39-40-60-147-156-159-266-319-323-389-391-408-
- 440.
- تونس: 54-74-75-76-78-79-80-174-176-181-222-223-
- 226-252-253-270-271-319-365-379-387-391-408-418-
- 440.
- تيفاش: 357.

-ج-

- الجامع الأعظم بتونس: 80.
- الجامع المعمور: 287.
- الجامع الأزهر: 124-125-263-264-271-394-403.
- جامع دمشق: 96.
- الجامع المظفري: 105-106.
- الجامع الأموي: 93-97-299-302-354-389-394-395-416-417-
- 429.

- جامع الرها: 288.
- جامع الزيتونة: 76-77-78.
- الجامع العتيق: 125-298.
- جامع القرويين: 54-55-65.
- جامع القيروان: 77.
- جامع المنصور: 118.
- الجامع النوري: 288.
- جامع عمرو بن العاص: 298.
- جامع مصر: 307.
- جبال الأوراس: 145.
- جبال السوس: 23.
- جبل أمسيون: 17.
- جبل ايكجان: 166.
- جبل بني بهلول: 50.
- جبل تاورناية: 27.
- جبل عجيسة: 17.
- جبل قاسيون: 106-265-324-336-407-417-430.
- جبل لبنان: 423.
- جبل نفوسة: 47-159-161-163.
- جامع منبج: 288.
- جرجان: 122.
- الجريد: 166.

- الجزائر: 391.
- الجزيرة الخضراء: 149-388.
- جزيرة طريف: 209-391.
- الجرجانية: 136.

-ح-

- الحجاز: 19-90-98-134-136-140-167-197-214-226-233-
- 240-252-290-376-392-398-411-442.
- الحرم النبوي: 139-140.
- حارة المغاربة: 423.
- حائط البراق: 423.
- حرّالة: 411.
- حرّان: 289.
- حلب: 219-225-226-233-286-288-290-291-302-341-350-
- 351-353-354-357-359-376-378-387-406-422-423-424-
- 427-428-432-435-436-437-438-444.
- حلّة ابن طاوس: 417.
- حماه: 234-288-346-92-413-414-435.
- حمص: 235-288-336-406-422.

-خ-

- خوارزم: 136.
- الخانقاه الشهائية: 418.
- خليص: 238.
- الخانقاه الأندلسية: 322.
- خانقاه سعيد السعداء: 106-107-324-335.
- خرسان: 94-95-112-117-177-208-219-284-398.
- الخليل: 110-366-385-386.
- خيبر: 138.
- الخانقاه الكبير: 373.

-د-

- الدار البيضاء: 159.
- درعة: 147.
- دار الحديث الأشرفية: 283-284.
- دار الحديث النورية: 371.
- داريا: 415.
- دلس: 14.
- دمشق: 22-56-90-91-93-94-95-96-97-98-99-102-103-
- 106-107-110-113-118-122-130-138-148-155-188-189-

-234-233-230-229-228-227-226-220-219-218-213-190
-292-291-290-289-288-287-286-248-283-282-265-238
-332-325-324-321-320-318-315-306-302-301-297-296
-378-377-376-367-366-357-354-348-338-337-336-335
-408-407-406-404-403-394-392-389-388-387-386-385
-435-431-430-429-427-424-422-420-419-418-417-416
.444-442-438-437

- دويرة أحمد: 389.

-ر-

- الرباط: 159.

- الرقة: 114.

- الروحاء: 238.

- رياض الصالحية: 324.

- رستن: 235.

- رقادة: 178-177-170-168.

- الرملة: 213-138-110-109.

- الري: 284-118.

- الريف: 155.

-ز-

- زاوية المالكية: 394.

- زاوية المغارية: 422.

- الزاوية الغزالية: 403.

-س-

- سامراء: 187.

- سبتة: 37-58-67-68-148-182-351-378-379-388.

- سببية: 16.

- سجلماسة: 72-147-156-159-164-165-167-168.

- سميصاد: 348.

- سيدران: 16.

- سدراتة: 187.

- سردانية: 194.

- سرقسط: 60-110.

- سطيف: 166.

- سفاقس: 173.

- سبك: 130.

- السوس: 147-220-299.

- الساحل الإفريقي: 238.

- سوريا: 167.

-ش-

- شاذلة : 253-252.
- شاطبة:132.
- الشام:19-58-61-81-90-94-97-98-99-101-102-114-
- 115-121-151-188-190-192-193-204-215-218-
- 219-229-230-231-233-234-237-240-275-281-
- 287-288-290-291-293-308-323-332-347-348-
- 351-356-357-361-364-368-376-385-387-388-
- 392-394-398-403-404-409-414-415-418-419-
- 420-424-426-428-436-438-442-443-445.
- شبربل:266.
- الشرقية:130.
- الشلف:147.

-ص-

- صفد:356.
- صقلية :182.
- الصين:90-114-182.
- صلداي:14-15.

-ط-

- الطائف: 272.
- طرابلس: -147-202-23-43-378-76.
- وطس: 113.
- طليطلة: 148-192-58.
- طنجة: 158-148-147-146-145.
- طيبة (المدينة): 396.

-ع-

- العالم الاسلامي: 86-84-67.
- العباد: 323-33.
- العراق: 19-44-53-94-113-118-146-151-173-174-
- 175-187-195-196-203-208-210-212-215-219-
- 240-252-398-402-430.
- عسفان: 238.
- عسقلان: 213.
- عكا: 235-233.
- عنابة: 321.
- عيذاب: 259.

-غ-

- غانة: 165.

- الغرب الاسلامي: 26-32-41-54-240-281-289-402.
- غرناطة: 231-232-380-382.
- غزة: 127-436.

-ف-

- فارس: 44-187.
- فاس: 39-49-50-51-52-53-54-55-56-58-59-60-61-67-
- 72-73-111-156-215-216-217-243-250-271-257-
- 357-378-379-403-405-419-440.
- الفرات: 144.
- الفيوم: 125.
- الفسطاط: 81-83-123-124-281.
- فلسطين: 109.
- فلورنسا: 22.
- فندلاوة: 403.

-ق-

- قابس: 393.
- القابون: 430.
- القاهرة: 22-56-110-123-124-126-127-129-130-
- 132-133-138-204-215-216-218-222-225-226-

-315-306-299-298-282-281-271-263-260-254
-418-408-405-394-366-357-335-324-320-318
.436

- قبرفيق: 270.

- القدس: 100-101-102-109-110-190-282-283-292-
.420-386-385-366-316

- القرافة: 299.

- القرافة الصغرى: 111.

- قرطبة: 22-54-66-72-179-188-190-195-196-198-
.304-303-216-215-213-209

- قسطيلة: 221.

- قشتالة: 150.

- قلعة أبي طويل: 18.

- قلعة بني حماد: 15-16-17-18-29-42.

- قلقشيدة: 203.

- قونيا: 98.

- القيروان: 16-43-53-54-55-81-83-84-85-86-87-

-189-188-174-172-166-171-158-156-146-145
.214-213-212-209-208-200-199

- قصر الرصافة: 189.

- قفصة: 357.

-ل-

- لندن : 22.

- ليون:150.

-م-

- المدرسة الرواحية:407.

- المدرسة الزنجيلية:408.

- مدرسة الصفارين:56.

- المدرسة الصمصامية:373-430.

- المدرسة الطبرسية:405.

- مدرسة سبتة:295.

- مدرسة طنجة:295.

- مدرسة فاس:295.

- مسجد الزبيدي:267.

- مسجد غرناطة الأعظم:98.

- مكة:134-135-136-137-138-139-140-141-198-

199-201-202-204-211-213-216-232-238-271-

272-366-380-385-388-403-406-414.

- المنارة الشرقية:389.

- المهديّة:16.

- مكناس:440.
- مدرسة مرسية:138.
- مصر:19-44-58-83-86-96-97-101-106-107-110-
- 113-122-124-125-127-128-130-132-145-151-
- 154-168-172-175-178-181-187-191-195-199-
- 203-204-208-210-211-212-213-214-215-218-
- 219-220-222-225-229-240-253-255-259-260-
- 264-265-281-285-288-298-299-300-301-306-
- 307-308-318-335-357-386-387-392-398-404-
- 409-417-419-422-426-429-430-436-437-442.

- ه -

- همدان:118.

- الهند:182.

- و -

- وادي العقيق:238.

- وليلي:51.

- وهران: 29-30.

-ي-

- اليمن: 135-138-386-398.

فهرس الشعوب والدول

-أ-

- الأدارسة: 29.
- الأغالبة: 77-167-168-177-178.
- الأمويون: 82-91-92-102-281-285-287-288-291-292-397-426-442-443.
- الأندلسيون: 36-41-53-54-64-79-80-86-81-90-92-193-196-225-230-233-289-415-517-436.
- الأيوبيون: 91-92-102-281-285-287-288-291-292-397-426-442-443.

-ب-

- البربر: 42-49-51-62-82-145-146-147-148-156-159-160-162-167-193.
- بنو الأحمر: 150.
- البوريون: 286.
- البيزنطيون: 15-91-145-146-151-190-202-284.

-ح-

- الحفصيون: 30-31-75-76-80.

- الحماديون: 16-17-18-211.

-ر-

- الروم: 82-91-93-121-145-146-202-284-285-302-323-324.

-ز-

- الزنكيون: 286-287-443.

- الزبانيون: 31-32-33-40.

- الزيريون: 84-172-211.

-ص-

- الصليبيون: 102-232-233-234-237-239-240-284-285-286-296-288.

-ع-

- العبيديون: 165-169-170-171-172-178-209-212-289-419.

-ف-

- الفاطميون: 162-165-171-172-286-288-291-442.

- الفرنج: 284-423-424-

- الفرنسيون: 239.

- الفينيقيون: 14.

-ق-

- القوط: 148-149.

-م-

- المالك: 102-281-287-291-292-324-343-426-434-435-442-443.

- المرابطون: 23-24-30-37-53-55-64-66-68-150-190-211-224.
- المرينيون: 30-31-33-56-57-241.

- المشاركة: 160-161-176-181-183-185-186-220-221-242-250-277-296-361-390.

- المغاربة: 137-151-155-157-161-173-176-177-184-185-281-282-283-284-285-286-287-288-289-290-291-293-296-361-363-364-390-411-415-417-420-421-422-424-431-435-436-437-438-440-441-442-443-444-445.

- المثلثون: 348.

- ملوك الطوائف: 56-150.

- المهالبة: 155-183.

- الموحدون: 23-30-31-32-34-37-53-56-63-68-150-181-240-295.

-ن-

- النورماد:239.

-و-

- الوندال:15.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر المخطوطة

ب- المصادر المطبوعة

ت- المراجع العربية والمعربة

ث- الرسائل الجامعية

ج- المجلات والدوريات

ح- المراجع الأجنبية

القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم)

أ-المصادر المخطوطة:

- ابن عربي الحاتمي الطائي: (ت 638هـ / 1240م)
-مقتبسات من شرح ألفاظ الصوفية، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم : 14124، الرباط، المملكة المغربية.
- أبو العباس الزواوي : (ت 749هـ / 1350م)
-رسالة في القراءات، مخطوط خزانة المخطوطات، مكتبة الأسد، دمشق، سورية.
- بدر الدين بن عبد الله بن مالك : (ت 686هـ / 1287م)
-شرح على ألفية محمد بن عبد الله الشهير بابن مالك، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم " 1950 د " ، الرقم الترتيبي 3723، الرباط، المملكة المغربية.
- شرف الدين البوصري الصنهاجي: (ت 696هـ / 1296م)
-القصيدة الدالية في مدح أبي الحسن الشاذلي و أبي العباس المرسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم " $\frac{1722}{10}$ د"، الرقم الترتيبي 3869، الرباط، المملكة المغربية.
- عفيف الدين التلمساني: (ت 690هـ / 1291م)
-الكشف و البيان في علم معرفة الإنسان، مخطوط، مكتبة المصطفى الإلكترونية.

www.مكتبة المصطفى.Com

ب- المصادر المطبوعة:

- الأبيشي النابلسي، شهاب الدين : (ت 850 هـ / 1446م)
-المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد السعيد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى
1421 هـ / 2001م.
- ابن أبي زرع الفاسي : (ت 726 هـ / 1325م)
-الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، دار
المنصور، الرباط، المملكة المغربية، 1972.
- ابن آجروم الصنهاجي:
-متن الآجرومية تحقيق حاي ف النبهان، دار الظاهرية للنشر و التوزيع، الكويت، الطبعة
الثانية، 1432 هـ / 2011م.
- ابن الأبار القضاعي، أبو عبد الله محمد : (ت 658 هـ / 1260م)
-التكملة لكتاب الصلة، تحقيق جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة
الأولى 1429 هـ / 2008م.
- تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1406 هـ/
1986م، إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،
1380 هـ / 1961م.
- الحلّة السيرة في أخبار الأمراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة
الثانية، 1985م.
- ابن الأثير، عز الدين بن عبد الواحد الشيباني : (ت 630 هـ / 1232م)
-الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة، بيروت، 1402 هـ / 1982م.

- ابن الأحمر الأمير إسماعيل بن يوسف:
-نشير فوائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق، محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967.
- روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثالثة، 1423هـ / 2003م.
- ابن الجزري، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم : (ت 739هـ / 1337م)
-تاريخ حوادث الزمان و أنبائه و وفيات الأكابر و الأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ 2006م.
- غاية النهاية في طبقات القراء، نشره، ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، الثالثة، 1402هـ / 1982م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن : (ت 597هـ / 1200 - 1201م)
-صفة الصفوة، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 1430هـ / 2009م.
- ابن الحاج النميري : (ت 774هـ / 1332م)
-فيض العباب و إفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله السلماني : (ت 766هـ / 1374هـ)
-الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1394هـ / 1974م.
- أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق، أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1964م.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر و التوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1425هـ / 2004م.

-نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، بدون تاريخ.

● ابن الشعار الموصلي، كمال الدين أبو البركان : (ت 654هـ / 1256م)

-قلائد الجمان في فرائد هذا الزمان، تحقيق كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2005م.

● ابن الصباغ الحميري:

-درة الأسرار و تحفة الأبرار في أقوال و أفعال و مقامات و نسب و كرامات و أذكار و دعوات سيدي أبي الحسن الشاذلي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

● ابن العبري، غريغوريوس الملطي:

-تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1421هـ / 2001م.

● ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد : (ت 403هـ / 1012م)

-تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ / 2006م.

● ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أحمد : (ت 1025هـ / 1615م)

-جدوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1973.

-درّة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى 1390هـ / 1970م.

● ابن القطان المراكشي : (ت 669هـ / 1269م)

-نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1990.

- ابن القوطية : (ت 367هـ/977م)
- تاريخ إفتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1410هـ/1989م.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص:
- طبقات الأولياء ، تحقيق نور الدين شريباه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1415هـ/1994م.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق : (ت 438هـ/1096م)
- الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد : (ت 614هـ/1217م)
- الرحلة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن حجر العسقلاني : (ت 852هـ/1448م)
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجبل، بيروت، 1414هـ/1993م.
- إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، 1392هـ/1972م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد : (ت 416هـ/1063م)
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق، عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 1428هـ/2007م.
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي : (ت 367هـ / 1348م)
- صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن خلكان شمس الدين أبو العباس : (ت 681هـ/1282م)
- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب عمر : (ت 633هـ/1235م)
-المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م.
- ابن رافع، تقي الدين السلامي:
-الوفيات، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م.
- ابن رشيد السبتي، محمد بن عمر : (ت 731هـ / 1321م)
-ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م.
- ابن سعيد المغربي : (ت 640هـ/ 1243م)
- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، الطبعة الثانية، 1982.
- ابن شاكر الكتبي :
-فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي: (ت 684هـ/ 1285م)
-الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تحقيق دومينيك سورويل، نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1953.
- ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله: (ت 267هـ/781م)
- فتوح إفريقيا و الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964.
- ابن عبد ربه الأندلسي : (ت 327هـ/939م)
-العقد الفريد، تحقيق إبراهيم محمد صقر، مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م.

- ابن عذارى المراكشي : (ت بعد 712هـ / 1309م)
-البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب - قسم الموحدين - تحقيق، محمد ابراهيم
الكتاني و آخرون، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، المملكة
المغربية، الطبعة الأولى 1406هـ / 1985م.
- — القسم الأول، تحقيق ج س كونان، و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة
الثانية، 1400هـ / 1980م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن : (ت 572هـ / 1176م)
-تهذيب تاريخ دمشق الكبير، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ /
1979م.
- ابن علي الكوهن:
-طبقات الشاذلية الكبرى، تحقيق مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة
الثانية، 1426هـ / 2005م.
- ابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي : (ت 1089هـ / 1978م)
-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ /
1979م.
- ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين : (ت 799هـ / 1396م)
-الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن يحيى الجنان، دار
الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1996م.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن حسين : (ت 810هـ / 1407م)
-الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، دار
التونسية للنشر، تونس، 1968.
- -أنس الفقير و عز الحقير، تحقيق محمد الفاسي و أدولف فور، منشورات المركز الجامعي
للبحث العلمي، الرباط، 1965م.

- ابن مرزوق، أبو الله محمد : (ت 781هـ / 1379م)

- المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزهراوي، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1429هـ / 2008م.

- المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس سيفرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1981.

- أبو الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل :

- مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الحدائث، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ / 1985م.

- أبو الحسن بن أبي سرور الروحي:

- بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء، تحقيق، محمد زينهم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.

- أبو الربيع الوسياني:

- سير مشايخ المغرب، تحقيق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.

- أبو العرب محمد بن أحمد التميمي:

- طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006م.

- أبو الوليد بن عبد الله الأزرق:

- أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح حسن، مطابع بنتو، مدريد، إسبانيا، بدون تاريخ.

- أبو حيان التوحيدي : (كان حيًا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)
-الإمتاع و المؤانسة، تحقيق، أحمد أمينو أحمد الزين، منشورات دار المكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
- أبو شامة الدمشقي، عبد الرحمن إسماعيل : (ت 790هـ / 1388م)
-كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
-المذيل على الروضتين، تحقيق إبراهيم الزبيق، دار الرسالة، دمشق، دار البشائر، بيروت، 1431هـ / 2010م.
- أبو عبد الله محمد الصنهاجي:
-أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تحقيق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد الشريف : (ت 548هـ / 1154م)
-نزهة المشتاق في إحتراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.
- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم:
-مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927.
- الباروني النفوسي:
-كتاب الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، القسم الثاني، مطبعة الأزهار البارونية، الجزائر، بدون تاريخ.
- البخاري محمد بن إسماعيل : (ت 256هـ/870م)
-صحيحه، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الإعتصام، القاهرة، دار الرشيد، الجزائر، بدون تاريخ.

- البستي أبو حاتم محمد:
-روضة العقلاء و نزهة الفضلاء، تحقيق، خليل مأمون شيخا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ / 2004م.
- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز: (ت 487هـ / 1094م)
-المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مقتطف من كتاب المسالك و الممالك، مكتبة المثني، بغداد ، بدون تاريخ.
- -معجم ما أستعجم من أسماء البلاد و المواضع ، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ / 1998م.
- البلاذري، أبو الحسن: (ت 279هـ / 892م)
-فتوح البلدان، مكتبة الهلال، بيروت، 1421هـ / 2000م.
- البلوي خالد بن عيسى : (ت 680هـ / 1280م)
-تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السايح، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية، الإمارات العربية المتحدة، بدون تاريخ نشر.
- التادلي، أبو يعقوب يوسف : (ت 617هـ / 1220م)
-التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية، 1404هـ / 1984م
- التنسي محمد بن عبد الله:
-تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر و العقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق، محمود بوعياض، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1405هـ / 1985م.
- التنبكتي أحمد بابا : (ت 1036هـ / 1626م)
-نيل الإبتهاج بتطريز الدّيباج، إشراف عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989.

- **الشعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد:**
- يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر، تحقيق، إبراهيم صقر، مكتبة مصر، بدون تاريخ.
- **الجزناني علي:**
- جنى زهرة الآس في بنياء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1387هـ / 1967م.
- **حاجي خليفة عبد الله :** (1068هـ / 1657م)
- كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، دار الفكر، بيروت، 1419هـ / 1999م.
- **الحرفيش، شعيب بن سعد :** (ت 810هـ / 1407م)
- الروض الفائق في المواعظ و الرقائق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1425هـ / 2005م.
- **الحميدي أبو محمد بن أبي نصر:** (ت488هـ/1095م)
- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1997م.
- **الحميري، محمد بن عبد المنعم الحميري:** (ت 726هـ/1326م)
- الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.
- **الخشني أبو عبد الله محمد بن الحارث :** (ت 361هـ/972م)
- قضاة قرطبة و علماء إفريقية، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1415هـ / 1994م.
- **الداعي إدريس:**
- عيون الأخبار و فنون الآثار في فضلاء الأئمة الأطهار، حققه مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، بدون تاريخ.

- الداودي، شمس الدين محمد بن علي : (ت 945هـ/1538م)
-طبقات المفسترين، تحقيق عبد السلام عبد المعين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ/ 2002م.
- الذهبي، أبو عبيد الله شمس الدين محمد بن أحمد : (ت 748هـ/ 1347م)
-أهل المائة، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكندري، أبو عبد الله حسام أبو قريظ، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1997م.
- معجمه ، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/ 1990م.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات و الأعصار، تحقيق طيار آلي قولاج، إستنبول، 1416هـ/ 1995م.
- الرقيق القيرواني، أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم : (ت بعد 423هـ/ 1032م)
-تاريخ إفريقية و المغرب، تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، 1967.
- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن : (ت 379هـ/989م)
-طبقات النحويين و اللغويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1973م.
- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم : (كان حيا سنة 894هـ/ 1488م)
-تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، تحقيق، محمد ماضور، المكتبة العتيقة ، تونس، 1966.
- الزهري، أبو عبد الله محمد : (ت 556هـ/1161م)
-كتاب الجغرافية، تحقيق، محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، بدون تاريخ.

- السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : (ت 902هـ / 1497م)
-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- السلمي، أبو عبد الرحمن بن الحسين :
-طبقات الصوفية، و يليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، تحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 2010م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن : (ت 911هـ / 1505م)
-طبقات الحفاظ، تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ،
1403هـ / 1983م.
- طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ.
- الشرازي، أبو إسحاق :
-طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970م.
- الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد : (ت 928هـ / 1521م)
-كتاب السير، تحقيق محمد حسن، منشورات كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، تونس
1955.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم: (ت 548هـ / 1153م)
-الملل و النحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- صاعد الأندلسي: (ت 462هـ / 1070م)
-طبقات الأمم، تحقيق حياة علوان، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل : (ت 764هـ / 1364م)
-أعيان العصر و أعوان النصر، تحقيق، عمر محمد عبد الحميد، دار الكتب العلمية،
بيروت، الطبعة الأولى 1430هـ / 2009م.
-الوافي بالوفيات، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1425-1426هـ / 2005م.

- الصولي أبو بكر محمد بن علي:
-الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: (ت 310هـ/922)
-تاريخ الأمم و الملوك، تحقيق، نواف الجراح، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1426هـ/2005م.
- عبد الرحمن بن خلدون : (ت 808هـ/1405م)
-العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978.
-المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة السابعة، 1409هـ/1989م
- عبد الرحمن بن عبد الكبير الكتاني:
-فهرس الفهارس و الإثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1402هـ/1982م.
- عبد الواحد المراكشي : (ت 647هـ/1249م)
-المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد العربي العلمي و محمد سعيد العريان، الدار البيضاء، المغرب، 1978.
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد : (ت أواخر ق 7هـ/13م)
-الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، بدون تاريخ.
- عفيف الدين التلمساني شمس الدين : (ت 690هـ/1291م)
-ديوان شعره، تحقيق صلاح الدين الهواري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1424هـ/2004م.
- عيسى بن مسعود الزواوي: (ت 743هـ/1342م)
-مناقب الإمام مالك ، مطبعة بولاق، القاهرة، بدون تاريخ.

- الغبريني أبو العباس أحمد : (ت 704هـ / 1304م)
-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد : (ت 832هـ / 1428م)
-العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد بن عبد القادر، أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ / 1998م.
- القاضي النعمان:
-إفتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية، 1986.
- القاضي عبد الجبار، أبو القاسم البلخي:
-فضل الإعتزال و المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1986م.
- القرافي، بدر الدين بن يحيى : (ت 946هـ / 1533م)
-توشيح الديباج و حلية الإبتهاج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1425هـ / 2004م.
- القشيري، أبو القاسم بن هوزان : (ت 465هـ / 1072م)
-الرسالة ، تحقيق معروف مصطفى رزّيق، المكتبة العصرية، صيدا، 1432هـ / 2011م.
- القلصادي أبو الحسن علي : (ت 891هـ / 1486م)
-رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأصفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، بدون تاريخ.
- كاتب مجهول : (عاش في القرن 7 هـ / 13م)

-الإستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية،
الدار البيضاء، المغرب، 1985

● **كاتب مجهول** : (كان حيا سنة 712 هـ / 1312م)

-مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي الرقراق، الرباط، الطبعة الأولى،
2005م.

● **الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري** : (ت 450 هـ / 1058م)

-الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، تحقيق مصطفى رباب، المكتبة العصرية، صيدا،
بيروت، 1431 هـ / 2010م.

● **محي الدين بن عربي الحاتمي** : (ت 638 هـ / 1240م)

-مواقع النجوم و مطالع الأسرار و العلوم، المكتبة العصرية، بيروت، 1429 هـ /
2008م.

● **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين** : (ت 346 هـ / 957م)

-مروج الذهب و معادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين، المكتبة الإسلامية، بيروت،
بدون تاريخ.

● **ياقوت الحموي الرومي** : (ت 626 هـ / 1229م)

-معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1995م
-معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، حققه، عمر فاروق الطباع، مؤسسة
المعارف، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ / 1999م.

● **المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد** : (ت 378 هـ / 997م)

-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية،
بيروت، الطبعة الأولى، 1424 هـ / 2003م.

● **المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني** : (ت 1041 هـ / 1631م)

-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها الخطيب، تحقيق إحسان عباس،
دار صادر، بيروت، 1388هـ / 1968م، دار صادر، الطبعة السادسة، 1433هـ/
2012م.

-أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق، إبراهيم الأبياري و آخرون، نشر صندوق إحياء
التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية و الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة،
المحمدية، المغرب، بدون تاريخ.

● **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي :** (ت 845هـ / 1441م)

-الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء من الملوك، تحقيق، جمال الدين الشيال،
مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955م.

-إعطاء الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق، جمال الدين الشيال، دار الفكر
العربي، القاهرة، 1367هـ / 1948م.

-كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتاب،
1970م

● **مؤلف مجهول:**

-أخبار مجموعة في فتح الأندلس و ذكر أمرائها رحمهم الله و الحروب الواقعة بينهم، تحقيق
إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة
الثانية، 1410هـ / 1989م.

● **النبهاني، أبو الحسن علي بن عبد الله :** (ت بعد 793هـ / 1393م)

-تاريخ قضاة الأندلس، أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا ، صلاح
الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ / 2006م.

● **النعمي عبد القادر بن محمد :** (ت 927هـ / 1564م)

-الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،
الطبعة الأولى، 1410هـ / 1990م.

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب: (ت 732هـ / 1332م)
-تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، مقتطف من كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب"، تحقيق، مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، المغرب، بدون تاريخ.
- الوادي آشي، محمد بن جابر : (ت 749هـ / 1338م)
-برنامج، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، منشورات كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، 1401هـ / 1981م.
- الوزير السراج الأندلسي : (ت 1149هـ / 1737م)
-الجلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.
- وكيع، محمد بن خلف بن حيان:
-أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
- اليافعي، أبو محمد عبد الله : (ت 768هـ / 1367م)
-مرآة الجنان و عبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1997م.
- يحيى بن خلدون : (ت 780هـ / 1378م)
-بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ / 1980م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب : (ت 284هـ / 897م):
-كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ / 1988م.

ث - المراجع العربية و المعربة

- إبراهيم بكيرحاز:
-الدولة الرستمية (160- 296هـ / 777- 909م), دراسة في الأوضاع الإقتصادية و الحياة الفكرية، منشورات ألفا، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1431هـ / 2010م.
- إبراهيم حركات:
-مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ / 15م، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 1421هـ / 2000م.
- أبو القاسم سعد الله:
-حيرة مؤرخ، في خارج السرب، مقالات و تأملات، دار البصائر، الطبعة الثانية، 2009م.
- أبو بكر جابر الجزائري:
-العلم و العلماء، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون تاريخ.
- إحسان عباس:
-تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف و المرابطين - ، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السادسة، 1981م.
- أحمد الأوتاني:
-دمشق في العصر الأيوبي، تقديم سهيل زكار، دار التلوين للتأليف و النشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2007م.

- أحمد أمين:
-ظهر الإسلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.
- أحمد سليمان:
-تاريخ المدن الجزائرية، دار القصة، الجزائر، 2007م.
- أحمد عيسى:
-معجم الأطباء (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة)، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1402هـ / 1982م.
- أحمد مختار العبادي:
-في تاريخ المغرب و الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.
- أحمد مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة:
-مفتاح السعادة و مصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1431هـ / 2010م.
- ابن مخلوف محمد بن محمد : (ت 1360هـ/1940م)
-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ / 2008م.
- إسماعيل العربي:
-دولة الأدارسة، ملوك تلمسان و فاس و قرطبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
- آسين بلاتيس:
-ابن عربي، حياته و مذهبه، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، 1979م.
- أغناطيوس كراتشكوفسكي:

-تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات
جامعة الدول العربية، بدون تاريخ.

● بشير رمضان التليسي:

-الإتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن 4هـ / 10م، دار المدار
الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م.

● بوزياني دراجي:

-نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.
-القبائل الأمازيغية، أدوارها، مواطنها، أعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.

● جورجى زيدان:

-تاريخ آداب اللغة العربية، دار الفكر، بيروت، 1433-1432هـ / 2011م.

● حسان حلاق:

-دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية،
1419هـ / 1909م.

● حسن إبراهيم حسن:

-تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الإجتماعي، دار الجبل، بيروت، الطبعة
14، 1416هـ / 1996م.

● حسن الحاج حسن:

-حضارة العرب في العصر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،
بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ / 1994م.

● حسن الشاهدي:

-أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، مطبعة عكاظ، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية،
يناير، 2002م.

● حسن الوزان، محمد الفاسي : (ت 957 هـ / 1552م)

وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجّي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

1983م

● **حسن جلاب:**

-صفحات من التواصل الثقافي بين المشرق و المغرب، وقائع تكريم منتدى الإثنينية بجدة،
الطبعة الأولى، 1424هـ / 2003م، مراكش، المملكة المغربية.

● **حسن حافظي علوي:**

-الصراع المذهبي ببلاد المغرب، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة
النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1429هـ / 2008م.

● **حسين محمد فهم:**

-أدب الرحلات، إصدارات المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت،
1989م.

● **الحسين مرداس السباعي:**

-القبس النحوي في شرح نظم الزواوي، دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، 1425هـ/
2004م.

● **حسين مؤنس:**

-تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، مدريد، الطبعة الثانية، 1986م.

● **الحفناوي أبو القاسم محمد:**

-تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر، الجزائر، 1991م.

● **رشيد بورويبة و آخرون:**

-الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي، ج3، منشورات وزارة الثقافة و السياحة، المؤسسة
الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

● **روجي لوتورنو:**

-فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين، بيروت، 1967م.

- رينهت روزي:
-تاريخ الإسلام و المسلمين في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، مطابع الهيئة العامة للكتاب، بدون تاريخ.
- زكي محمد حسن:
-الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، كلمات للترجمة و النشر، القاهرة، 2013م.
- سعدي أبو حبيب:
-سحنون، مشكاة نور و علم و حق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1401هـ/1981م.
- سلامة صالح النعيمات و آخرون:
-الحضارة العربية الإسلامية، الشركة العربية المتحدة للتسويق، القاهرة، 2008م.
- شارل أندري جوليان:
-تاريخ إفريقية الشمالية، تعريب، محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1969م.
- طاهر توات:
-ابن خميس التلمساني، حياته و آثاره، الملكية للنشر، الحراش، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007م.
- عادل نويهض:
-معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض، الطبعة الثالثة، 1403هـ / 1983م.
- عباس محمود العقاد:
-نوابغ الفكر العربي - ابن رشد- ، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
- عبد الجليل قربان:

-التعليم بتلمسان في العهد الزياني، صور للنشر و التوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى،
1432هـ / 2011م.

● **عبد الرحمن حميدة:**

-أعلام الجغرافيين العرب و مقتطفات من آثارهم، دمشق، 1416هـ / 1995م.

● **عبد العزيز الشعالبي:**

-تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق، أحمد بن ميلاد،
محمد إدريس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1410هـ / 1990م.

● **عبد العزيز بن جمعة الموصلي:**

-شرح ألفية ابن معطي، تحقيق و دراسة علي موسى الشوملي، دار البصائر، الجزائر،
الطبعة الأولى، 2007م.

● **عبد القادر العافية:**

-رحلة الحجّ و لقاء الشيوخ -التيجيبي نموذجاً- نشر مشترك بين مركز التراث الثقافي
المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ / 2006م.

● **عبد المالك مرتاض:**

-الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة، 2009م.

● **عبد المجيد الشرنوبلي :**

-شرح الحكم العطائية، ضبطه عبد الفتاح اليزم، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة العاشرة،
1427هـ / 2006م.

● **عبد المنعم الحفني :**

-معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الأولى، 1400هـ / 1980م.

● **عبد الراجحي:**

-فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.

● **العربي اكينح:**

-تأسيس أول دولة عربية إسلامية في المغرب الأقصى، قيام الدولة الإدريسية، نشأة مدينة فاس، مطبعة أميمة، فاس، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2008م.

● **عز الدين أحمد موسى:**

-دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م.

● **عزيز سوريال عطية:**

-العلاقات بين الشرق و الغرب، تجارية، ثقافية، صليبية، ترجمة فليب صابر سيف، دار الثقافة ، القاهرة، الطبعة الأولى، 1972م.

● **علي عبد الله علام:**

-الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

● **عمّار طالبي:**

-آراء الخوارج الكلامية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م.

● **عمّار هلال:**

-الطرق الصوفية و نشر الإسلام و الثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.

-العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين

الميلاديين ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

● **عمر الجيدي:**

-محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، بدون تاريخ.

● **السّلاوي الناصري : (ت 1315هـ / 1897م)**

-الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.

● **فؤاد سيزكين :**

-تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الرابع، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1403هـ / 1983م.

● **كمال بوشامة :**

-الجزائر أرض عقيدة و ثقافة، ترجمة محمد المعراجي، دار هومة، الجزائر، 2007م.

● **لؤي البواعنة :**

-دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي (490 - 648هـ / 1097 - 1250م)، دار اليازوري للنشر، عمان، الأردن، بدون تاريخ.

● **محجوب بن ميلاد :**

-ابن رشد و مكانته في تاريخ الفكر الإسلامي، ضمن أعمال مؤتمر ابن رشد في ذكره المئوية لوفاته، من 03 إلى 08 ذو الحجة 1393هـ - 4. 9 نوفمبر 1978، الجزء الثاني، نشر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، و المنظمة العربية للثقافة و العلوم، 1983م.

● **محسن بربر :**

-الإباضية، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى، 2004م.

● **محمد إبراهيم الحفناوي :**

-مصطلحات الفقهاء و الأصوليين، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة،
الطبعة الثالثة، 1430هـ / 2009م.

● محمد الطّمّار:

- الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،
1983م.

● محمد الفاضل بن عاشور:

-المحاضرات المغربية، جمع و إعداد عبد الكريم محمد، الدار التونسية للنشر، 1974م.

● محمد الكحلّاوي:

-الفكر الصوفي في إفريقية و الغرب الإسلامي (ق 9هـ / 15م)، دار الطليعة، بيروت،
الطبعة الأولى، 2009م.

● محمد بن آب القلاوي الشنقيطي:

-فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية، شرح أحمد بن عمر الحازمي، مكتبة الآسدي،
مكة المكرمة، بدون تاريخ.

● محمد بن حسن:

-القبائل و الأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، بدون
تاريخ.

● محمد بن شريفة:

-تراجم مغربية من مصادر مشرقية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة
الأولى، 1417هـ / 1996م.

● محمد بن عزوز:

-المحدثون المغاربة في دمشق، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، دار ابن
حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1431هـ / 2010م.

● محمد بن عميرة:

-دورة زناة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،
1984م.

● محمد جلال شرف:

-دراسات في التصوف الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ / 1984م.

● محمد حسن عبد العزيز:

-مصادر البحث اللغوي في الأصوات و الصرف و النحو و المعجم و فقه اللغة، مكتبة
الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ / 2009م.

● محمد زنيير:

-المغرب في العصر الوسيط، الدولة المرينية، الإقتصاد، تنسيق محمد المغراوي، منشورات
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1420هـ / 1999م.

● محمد سهيل طقوش:

-تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، 1429هـ /
2008م.

-تاريخ الماليك في مصر و بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1431هـ/
2010م.

● محمد عابد الجابري:

-المدرسة الفلسفية في المغرب و الأندلس.. مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد، ضمن
أعمال ندوة ابن رشد و مدرسته في الغرب الإسلامي، المنظم من قبل كلية الآداب و
العلوم الإنسانية، الرباط، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت،
الطبعة الأولى، 1401هـ / 1981م.

-العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، فبراير 2006م.

-بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1987م،

● **محمد عبد الحي محمد شعبان:**

-الدولة العباسية: الفاطميون، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، 1981م.

● **محمد عبد الرحمن مرحبا:**

-الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثالثة، 1988. 1989.

● **محمد عبد الله عنان:**

-تراجم إسلامية، شرقية و أندلسية، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1390هـ/ 1970م.

● **محمد عيسى الحريري:**

-تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، 1987م.

● **محمد مؤنس عوض:**

-الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995م.

● **محمد الخضر حسين:**

-تونس و جامع الزيتونة، تحقيق علي رضا التونسي، تونس، 1391هـ/ 1971م.

● **محمود إسماعيل:**

- الخواص في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رؤيا للنشر و التوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م.

● محمود السيّد:

-تاريخ العرب في بلاد الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011.

● مفتاح خلفات:

- قبيلة زوارة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6- 9 هـ / 12 - 15م)، دراسة في دورها السياسي و الحضاري، دار الأمل، تيزيوزو، الجزائر، بدون تاريخ.

● مفيد الزبيدي:

-تاريخ الحروب الصليبية، دار أسامة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2011.

● موسى الموسوي:

-من الكندي إلى ابن رشد، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثالثة، 1982م.

● موسى لقبال:

-المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى إنتهاء ثورات الخوارج - سياسة و نظم- ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981م.

● نصر حامد أبو زيد:

-فلسفة التأويل...دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الخامسة، 2003م.

● نقولا زيادة:

-الجغرافية و الرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962م.

● نهلة شهاب أحمد:

-تاريخ المغرب العربي، دار الفكر، عمّان، الأردن، بدون تاريخ.

● الهادي روجي إدريس:

-الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.

● **يحياوي حفيظة:**

-إسهامات نحاة المغرب و الأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين السادس و السابع الهجريين، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر.

● **يوسف الكتاني:**

-مدرسة الإمام البخاري في المغرب، دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ.

د -الرسائل الجامعية:

● **إسكان الحسين:**

- جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط من القرن 7هـ / 13م إلى القرن 9هـ - 15م، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرقونة، إشراف محمد زبير، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف د. محمد زبير، السنة الجامعية 1987-1988م.

● **سليمان ولد خسال:**

- جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنة (633هـ - 922هـ)، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، مرقونة، تخصص أصول الفقه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، إشراف د. **علي عزوز**.

● **صالح معيوف مفتاح:**

-جبل نفوسة و علاقته بالدولة الرستمية من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أواخر القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه، مرقونة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف د. محمد حمام، السنة الجامعية، 2000، 2001م

● **عبد الحميد جريوري:**

- تحليلات التّناس في شعر عفيف الدين التلمساني، مذكرة ماجستير، مرقونة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، إشراف د. عبد القادر داخي، 2003 / 2004م.

● **عبد الرحمن عبان:**

- الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، دراسة في موضوعاته و بنيته - ابن معطي نموذجاً- مذكرة شهادة الماجستير، في الأدب العربي، مرقونة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، قسم اللغة العربية و آدابها، إشراف د. العيد جلولي، 1427-1428هـ / 2007-2008م.

● **عبد العزيز بن هنية:**

- المدرسة المغربية في النحو العربي - متن الآجرومية نموذجاً- مذكرة ماجستير، في الأدب العربي، مرقونة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، إشراف د. عيساني عبد المجيد، 2008-2009م

● **عبد القادر بوباية:**

- البربر في الأندلس و موقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (300-422هـ / 912-1031م)، رسالة دكتوراه دولة، مرقونة، إشراف، د. غازي مهدي جاسم الشمري، جامعة وهران، 1422-1423هـ / 2001-2002م.

● **عبد القادر عثمان محمد جاد العرب:**

- الموحدون بإفريقية إلى سنة 627هـ، بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الوسيط، مرقونة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف د. إبراهيم حركات: السنة الجامعية 1421-1431هـ / 1991-1992م.

● **عمر سي عبد القادر:**

- الروابط الثقافية بين الأندلس و مصر المملوكية من القرن 07 إلى 09هـ / 13 - 15م،
مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، مرقونة، إشراف د.مبخوت بوداوية، قسم
التاريخ و علم الآثار، جامعة تلمسان، 1430هـ / 2009م.

● **فائزة البوكيلي:**

-الحياة العلمية في الأندلس في العصر المرابطي، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، مرقونة
, كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف د. محمد
المغراوي، السنة الجامعية 2004، 2005م.

● **محمد رابطة الدين:**

-مراكش على عهد الموحدين - جوانب من تاريخ المجال و الإنسان - أطروحة دكتوراه
الدولة في التاريخ، مرقونة , كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط،
إشراف د. حليلة فرحات، 2002م.

● **مريم هاشمي:**

-العلاقة الثقافية بين مدينتي تلمسان و بجاية خلال القرن 7 - 9هـ / 13 - 15م، مذكرة
ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، مرقونة , إشراف: د. لخضر عبدلي، جامعة تلمسان،
السنة الجامعية 2010 - 2011م.

● **مغراوي محمد:**

-مساهمة في دراسة النظم بالغرب الإسلامي، خطة القضاء بالمغرب في الدولة الموحدية ()
515. 668هـ / 1121 - 1269م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في
التاريخ، مرقونة , كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف
محمد زنير، السنة الجامعية، 1986 - 1987م.

-العلماء و الصلحاء و السلطنة بالمغرب و الأندلس في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف أ. د. عز الدين عمر موسى، أ. د. أحمد التوفيق، السنة الجامعية 1422-1423هـ / 2001-2002م.

● نور الهدى الشريف الكتاني:

- الأدب الصوفي في المغرب و الأندلس في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه دولة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف أ. ذ محمد بن شريفة، السنة الجامعية 2000-2001 م

ج - المجالات و الدوريات:

● أحمد بدر:

- هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن الثاني للهجرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد الثامن، رجب 1402هـ / أبريل 1982م.

● المهدي البوعبدلي:

- أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، مجلة الأصالة، العدد 26، 1395هـ / 1975م، مطبعة البعث، قسنطينة.

● سبع قادة:

- هجرة قبيلة أوربة البربرية من المغرب الأوسط: المواطن، الملابس و النتائج، مجلة عصور، العدد 16، جوان، ديسمبر 2010، مخبر البحث التاريخي، مصادر و تراجم، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

● عبد الجليل سليم:

-الدلالة المنهجية لنقد ابن تيمية لإبنعربي,مقال منشور ضمن أعمال ابن عربي في أفق ما بعد الحداثة، تنسيق محمد المصباحي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2003.

● **عبد الحميد العابد:**

- وضعية الفلسفة كمحدد للنظام الثقافي في المغرب الأوسط و مساهمة علمائه، مجلة عصور العدد 12- 13 / 14- 15، مخبر البحث التاريخي -مصادر و تراجم- كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

● **عبد الحميد حاجيات:**

-الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، العدد 26، 1395هـ / 1975م، مطبعة البعث، قسنطينة.

● **عبد الرحمن الجيلالي:**

-تلمسان و القدس الشريف، مجلة الأصالة، العدد 26، 1395هـ / 1975م، مطبعة البعث، قسنطينة.

● **عمار مرضي علاوي:**

-أثر المغاربة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي - القضاء نموذجاً- مجلة ديبالي ، العراق، العدد 56. 2012.

● **محمد بلقراد:**

-تلمسان، مجلة الأصالة، العدد 26، 1935هـ / 1975م، مطبعة البعث، قسنطينة.

● **محمد بن معمر:**

- المغاربة و منصب قاضي القضاة المالكي في دمشق المملوكية، مجلة، التراث، إتحاد الكتاب العرب، دمشق.

● **موسى لقبال:**

- ميزات بجاية و أهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى، مجلة
الأصالة، العدد 19، السنة الرابعة، مطبعة البعث قسنطينة، صفر، ربيع الأول، مارس -
أبريل 1974

● **إسماعيل العربي:**

- بجاية من خلال النصوص الغربية، مجلة الأصالة (عدد خاص ببجاية)، العدد 19،
السنة الرابعة، مطبعة البعث، قسنطينة، صفر، ربيع الأول، مارس، أبريل 1974

● **رابح بونار:**

- بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين، مجلة الأصالة، العدد 19، السنة الرابعة،
مطبعة البعث، قسنطينة، صفر، ربيع الأول، مارس، أبريل 1974

● **عبد المجيد مزيان:**

- الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الإستعمار، مجلة الثقافة، العدد: 90، السنة الخامسة
عشر، 1406هـ / 1985م، الجزائر.

● **عمار طالبي:**

- الحياة العقلية في بجاية، مجلة الأصالة، العدد 19، السنة الرابعة، مطبعة البعث، قسنطينة،
صفر، ربيع الأول، مارس، أبريل 1974

● **موسى لقبال:**

- ميزات بجاية و أهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى، مجلة
الأصالة، العدد 19، السنة الرابعة، مطبعة البعث، قسنطينة، صفر، ربيع الأول، مارس،
أبريل، 1974.

● **يحي بوعزيز: المراحل و الأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (1236-**

1554) مجلة الأصالة، العدد 26، 1395هـ / 1975م، مطبعة البعث، قسنطينة.

ح - المراجع الأجنبية:

***ABDALLAH LAROU:**

-Histoire du meghreb, un essai de synthèse, centre culturelarabe .Casablanca , 1995

***AHMED BEKIR:**

-Histoire de l'école malikite en Orient jusqu'à la fin du moyenâge ,imprimerie de l u.g.t. Tunis,1962

***EMILEDERMENGHEM:**

-vies des saints musulmans .Sind Bad .paris

***GAUTIER .E.F:**

-Le passé de l'Afrique du nord .les siècles obscursPayot,paris,1952 .

***GOLDZHER :**

-L'œuvre de Mohammed ibn Tumert, Mahdi des almohades. Alger, 1903

***LEVE PROVENCAL:**

-L'histoire de l'Espagne musulmane – tome 1. la conquête et l'émirat hispano –
umayyade, Maisonneuve, Larose, Paris, 1999

***MERCIER MARCEL:**

-la civilisation urbaine au Maghreb, Alger, 1922 .

***MARCAIS GEORGES:**

-L'architecture Musulmane d'Occident Paris .1955.

-La barbarie Musulmane et l'Orient au Moyen Âge
Paris, 1946.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة أ.ك

الباب الأول

الحواضر العلمية في المغرب و المشرق

الفصل الأول : الحواضر العلمية في المغرب

14.....*بجاية

18.....-أهمية بجاية الثقافية و العلمية

22-استقطاب بجاية للعلماء

26.....*تلمسان

32.....-الدور الحضاري لمدينة تلمسان

35.....-استقطاب تلمسان للعلماء

41.....*تاهرت

49.....*فاس

54.....-الدور الحضاري لمدينة فاس

62.....*مراكش

74.....*تونس

75.....-الدور الحضاري للمدينة

76.....-جامع الزيتونة منارة للعلم

81.....*القيروان

85.....-مساهمة العلماء في الإشعاع العلمي للمدينة

الفصل الثاني : الحواضر العلمية في المشرق

90.....*دمشق

93.....-الحياة العلمية في دمشق الإسلامية

100.....*القدس

113.....*بغداد

123.....*القاهرة

124.....-جامع الأزهر

134.....*الحجاز(=مكة و المدينة)

الباب الثاني

التواصل العلمي بين المشرق و المغرب

الفصل الأول : المؤثرات العلمية المشرقية في بلاد المغرب

144.....*دور المشرق في تحديد الإتجاهات الثقافية في بلاد المغرب

145.....-الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و أثره

156...-انتقال الثقافة عن طريق دعاة الأحزاب السياسية-المذهبية

- 173.....-الفقه و الحديث
- 185.....-الرحلة بين المشرق و المغرب و أثرها الثقافي
- 202.....-المؤثرات العربية المصرية في بلاد المغرب

الفصل الثاني : المؤثرات العلمية المغربية في بلاد المشرق

- 207.....*رحلة المغاربة و تأثيراتهم في بلاد المشرق
- 241.....-مؤثرون آخرون
- 250.....-الأفكار الصوفية عند أبي الحسن الشاذلي و أثرها في مصر
- 264.....-محي الدين بن عربي

الباب الثالث

علماء المغرب الإسلامي في بلاد الشام

الفصل الأول : علماء المغرب في بلاد الشام-علوم اللغة و الشعر-

- 280.....-أسباب استقطاب بلاد الشام للأطر العلمية المغربية
- 292.....أولا :العلماء المغاربة في بلاد الشام-الدراسات اللغوية و النحوية-
- 293.....-ابن عبد المعطي الزواوي
- 318.....-نحاة آخرون
- 321.....ثانيا : في مجال الشعر
- 322.....-عفيف الدين التلمساني

334.....-الشّاب الطّريف

345.....-شعراء آخرون

الفصل الثاني : علماء المغرب في بلاد الشام -العلوم الدينية و القضاء -

362.....أولا : العلوم الدينية

362.....*المحدثون المغاربة

364.....-محمد بن جابر الوادي آشي

376.....-ابن رشيد السبتي

384.....-محدثون آخرون

388.....*الفقهاء

389-ابنا الإمام

391.....-عيسى بن مسعود الزواوي

393.....-قراءة في إنتاجه الفقهي

400.....-فقهاء آخرون

407.....*المفسرون

412.....*المقرئون

418.....*رجال الزهد و التصوّف

422.....ثانيا : القضاة المغاربة في بلاد الشام

- 433.....الأطباء-
442-337.....خاتمة*
451-444.....الملاحق*

الفهارس العامة

- 495-453.....فهرس الأعلام-
511-496.....فهرس الأماكن و الجهات-
515-512.....فهرس الدول و الشعوب-
553-517.....قائمة المصادر و المراجع-
559-555.....فهرس الموضوعات-